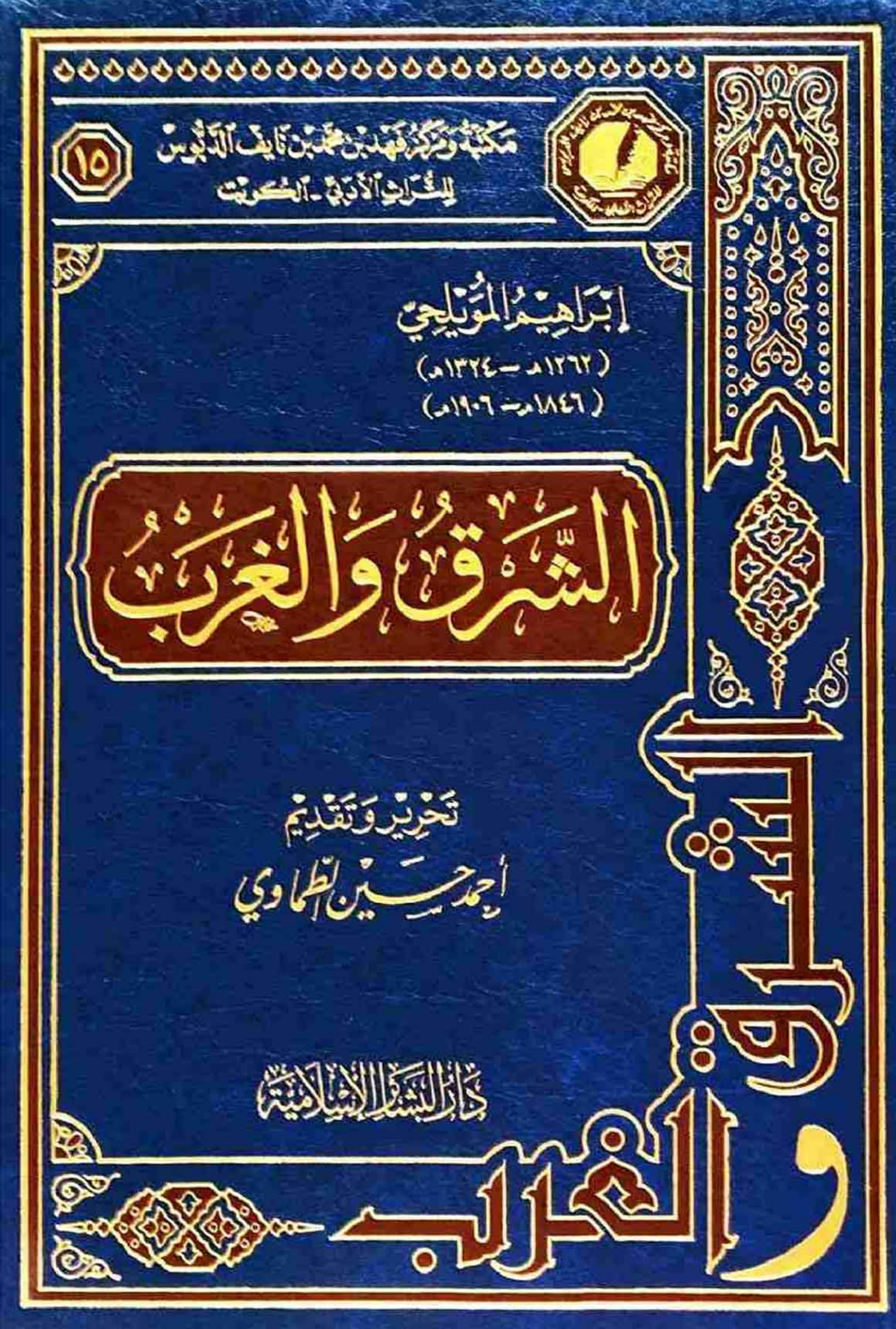


مكتبة ومركز فهد بن محمد بن نايف الدبوس
للتراث الأدبي - الكويت
١٥
إبراهيم المويلحي
(١٢٦٢هـ - ١٣٢٤هـ)
(١٨٤٦م - ١٩٠٦م)
الشرق والغرب
تحرير وتقديم
أحمد حسين الطماوي
دار البشائر الإسلامية
الشرق والغرب

الشرق والغرب



الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



مكتبة ومركز فهد بن محمد بن نايف الدبوس
للتراث الأدبي

للمراسلة: الكويت - حولي - ص.ب: ٦٠٠٥ حولي
Email: fahad_aldabbos@hotmail.com

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
email: info@dar-albashaer.com
website: www. dar-albashaer.com





إبراهيم المويلحي

(١٢٦٢هـ - ١٣٢٤هـ)

(١٨٤٦م - ١٩٠٦م)

الشرق والغرب

تحرير وتقديم

أحمد حسين الطماوي

دار البشائر الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه مقالات نشرها إبراهيم المويلحي عن «الشرق والغرب» في جريدته «مصباح الشرق» في الفترة من عام (١٨٩٨) إلى (١٩٠٣م) وهي مدة إصدار الجريدة.

وإذا كان كثير من الكُتَّاب أطنبوا في ذكر فضائل الغرب، فإن المويلحي يحدّثنا في مقالاته عن رذائله، أو الجانب الآخر الخافي، ولا تكتمل صورة الغربيين إلا بذكر المحاسن والمساوىء، وهي درس في الأخلاق العملية للأمم الأوروبية المتقدمة المتمدنة.

وقد قال الشاعر الإنجليزي «رديارد كبلنج»: إن الشرق شرق، والغرب غرب، وهيهات أن يلتقيا، وهي مقولة صحيحة، وحاول البعض التقريب بين الشرق والغرب، ورفعوا شعار «حوار الحضارات» ولا أدري أي حوار هذا بين طرفين: أحدهما يعترف بالآخر، بينما الآخر لا يبادله الاعتراف، وهذا الحوار الذي يزعمه الأوروبيون غير صادقين فيه، فإذا خاطبناهم نظروا إلينا شذراً، وأداروا ظهورهم، وإذا حاوروا، فإنما يكون في شيء يعود عليهم بالنفع، وأي حوار هذا وسيف الغرب مسلط على رقابنا، وقادرون على الوثب علينا في كل مكان، إننا نخدع أنفسنا لو صدقناهم، والواجب علينا أن ننهض من الرقاد والركود.

ومقالات المويلحي تسير في اتجاه مقولة كبلنج، فإذا قال كبلنج: أنا غربي، قال له المويلحي: وأنا شرقي لا يجمعنا فكر واحد، ولا أخلاقنا تتماشى مع أخلاقكم.

وقد تناول المويلحي السلوك الخُلقي للأوروبيين، وضرب لنا أمثلة وافرة صادقة بالمشاهدة والمطالعة، فقد جاب كثيراً من المدن الأوروبية، وطوى مسافات من حاراتها وشوارعها، وهو يتأذى من بعض مناظرها، وأوبأ أماكنها. ألم يحدّثنا في مقاله الأول عن «ما تنقبض له النفس استقذاراً» وعن الروائح التي يسد المرء منها «أنفه اشمئزازاً واستكراهاً» ومختلف الأمثلة التي ضربها بأخلاق الأوروبيين، وسلوكهم في مجتمعاتهم تفيد أننا شيء وهم شيء آخر، أو الشرق شرق والغرب غرب.

وهذا القدر من مقالات المويلحي عن «الشرق والغرب» ليس كل ما كتبه في موضوعه، فهناك مقالات لم يتيسر لي جمعها بسبب نقص أعداد من الجريدة داخل المجلدات التي اعتمدت عليها، وبسبب تمزق صفحات غير قليلة من الصحيفة التي مضى على صدورها مئة وخمسة عشر عاماً، وحسبي ما أوردته منها، وهو يعطي صورة واضحة عن الموضوع، وعما يريد أن يقوله كاتبها، وتبين طريقته في التناول والاستدلال.

ولعلي وفقت

والله ولي التوفيق

أحمد حسين الطماوي

القاهرة في غرة صفر ١٤٣٤هـ

الموافق ١٤ من ديسمبر ٢٠١٢م

قالوا عن إبراهيم المويلحي

«لا أكون مبالغاً إن قلت: إن إبراهيم المويلحي هو شيخ الكتابة العربية في هذا العصر، وإنه هو الذي علّم الكتّاب كيف يرقون بلغتهم إلى المنزلة التي وصلت إليها اليوم، وكيف يُودعون في كتاباتهم النكات البديعة، والمعاني المستطرفة، ويخرجون بها من ذلك الجمود القديم».

✍ مصطفى لطفي المنفلوطي
(مختارات المنفلوطي)

«لا يختلف اثنان في أن إبراهيم المويلحي هو مؤسس دولة الكتابة في مصر، وحسبه أنه أعاد إلى الأسلوب العربي طلاوته الأولى».

✍ د. محمد صبري السربوني
«خليل مطران ـ أروع ما كتب»

«للأديب الكبير إبراهيم المويلحي صفحات خالدة في تاريخ الأدب الحديث؛ إذ كان له القدر المعلى في فجر النهضة الأدبية المصرية بما أوتيه من حلاوة أسلوب، وبيان ساحر، وبما وهبه الله من قلم قادر على صياغة درر المعاني في أجزل الألفاظ وأروعها».

✍ أحمد حافظ عوض
«صحيفة كوكب الشرق ـ ٣٠ مارس ١٩٣٠م»

«كان إبراهيم المويلحي رجلاً موهوباً في الأدب، وكان لا يصدر إلا عن هذه الموهبة في كل ما كان يكتبه في مصباح الشرق، ومن ثم جاء أسلوبه رخيماً يُرضي أذواق الخاصة من الأدباء، وعشاق الترسل، ويروعهم بما فيه من فن وزخرف، ويعيد إلى أذهانهم ذكرى النثر العربي في أزهى عصوره».

✍ د. عبد اللطيف حمزة

«أدب المقالة الصحفية في مصر ـ الجزء الخامس»

مقالات الشرق والغرب

مقالات المويلحي عن الشرق والغرب تتناول مثالب الناس فيهما، وقد أسهب في تناول معايب الغرب، وهو إسهاب في موضعه؛ لأن عيوبنا معروفة لنا، أما نقائص الغربيين فمعظمنا يجهلها، ونحن لا نعرف عنهم سوى التقدم والتمدن والرقي، والقدرة على الاختراع، والثقافة الجزيلة وما إلى ذلك، وهي معرفة صحيحة، ولكن غابت عنا حيوات الغربيين في مجتمعاتهم، ومزالقهم، وعثراتهم.

وهذا عمل المويلحي في مقالاته التي جعلها ركناً من أركان جريدته، وقد كشف كثيراً منها، وقد كان لنشر هذه المقالات ردود فعل عند القراء وفي الصحافة.

أثر مقالات المويلحي:

فما أن أخذ المويلحي في نشر عورات الغرب حتى سارت الجرائد والمجلات في ركابه، واستهدفت الغربيين، وأخذت تحذرنا من خطورة مجاراتهم، ومن هذا مقال نشرته جريدة المؤيد تحت عنوان «الشرق والغرب» تقول فيه عن الأوروبيين: «نعم، نحن على ما بيننا وبين القوم من قديم صحبة وجوار، ومعاملة طويلة الأعمار، لم نتناول من فلاح التشبه بهم ما يزحزحنا فِتْراً عن موقفنا الأرذل بين الرغبة السخيفة فيهم، والرهبة العمياء منهم، ولم نأت من صالح التقليد ما يرفعنا بعض الشيء في أعينهم، أو يدفع عنا سوء اعتقادهم فينا، هذا إن لم نقف لهم في

طريق مطامعهم[1]. ولم تكتف المؤيد بهذه العبارات البسيطة، وإنما دافعت عن الشرق بكشف معايب الغرب على طريقة المويلحي، في مقال قاسٍ نشرته تحت عنوان «توحش المتمدنين»[2].

وتتابعت المقالات في الدوريات لتزيح الغطاء المموه الزائف الذي تسربلت به المدنية الغربية، فنشرت مجلة «أنيس الجليس» مقالاً تحت عنوان «المدنية الحقيقية» قالت فيه عن الأوروبيين: «إن أولئك القوم إن كانوا قد بلغوا من المدنية الظاهرة أبعد شأواً وأعلى مرتقى، فإنهم لا يزالون مقصرين كثيراً دون المدنية الحقيقية، التي يمكن بها الرضى والمسرة، بل إن شدة قربهم من زخارف المدنية وتمويلاتها، هي السبب الذي أبعدهم عن حقيقتها وسرور النفس بها، ونحن إذا كان لا يزال عندنا طرف من سرور وقناعة ورضى بما يتيسر من كفاف، فإنما كان ذلك لأننا لم نعلق بعد بأطراف المدنية الواسعة، ولا أهلتنا أعراضها الكثيرة المتقلبة عن جوهرها الفرد القائم»[3].

بل إن مجلة «أنيس الجليس» تردد نفس كلمات «مصباح الشرق» في هذا الموضوع إذ تقول: «ولقد يذكر الكثيرون منا مدنية الغرب ويتمنونها، ويعيبون نفوسهم بالقياس إليها، ولكنهم إنما يذكرون محاسن تلك المدنية فقط»[4].

وواصلت «أنيس الجليس» حملتها على الغرب، وأظهرت شيئاً من غرائبه وعجائبه، متأثرة بمصباح الشرق التي جعلت الصحفيين والكتّاب يلتفتون أثناء مطالعتهم للدوريات الأجنبية إلى سلوك الأوروبيين وغرائبهم

---

(١) المؤيد في ٧/٧/١٨٩٨م.

(٢) المؤيد ١٠/١٠/١٩٠١م.

(٣) (٤) أنيس الجليس، السنة الثالثة ص٣٦٣.

فكتبت تقول: «من غرائب ما ننقله لقراء الأنيس، وقد حدث في أثناء هذا الشهر، أنه وجد في مقبرة بإحدى مدن هنغاريا رخامة على ضريح مكتوب عليها ما يأتي:

«هنا دفن يرحمه الله يوسف موريتز في الثانية والستين من عمره، وقد مات قتيلاً بالرصاص من يد ابنه».

«وهنا دفنت برحمة الله فرو يوسف موريتز في السابعة والأربعين من عمرها، وقد ماتت قتلاً بالرصاص من يد ابنتها الياصابات موريس، التي قتلت نفسها بالرصاص بعد أن قتلت أمها المذكورة، وهي في السابعة عشرة من عمرها».

«وهنا يدفن برحمته أيضاً يوسف موريتز الابن الذي مات بالسجن وعمره سبعة وعشرون عاماً، وقد سجن لأنه قتل أباه (المذكور آنفاً)».

«وقد كتب تحت تلك الرخامة هذه العبارة: ليتغمد الله برحمته ورضوانه هذه الأنفس الخاطئة» وقد وضعت هذه الرخامة بوصية من آخر ميت من هذه العائلة «الكريمة»، وقد أوصى بها قبل موته وخصص لها ألفاً وخمسمائة جنيه»[١].

عائلة من المجرمين العتاة، توارثوا الإجرام، ويحتاجون إلى عالم نفس كبير يحلل نفوسهم المريضة التي لا يطربها إلا القتل وسيل الدماء، أو إلى روائي كبير أو روائية مثل أجاثا كريستي لتبحث في حيواتهم عن أسرارهم الدفينة.

على أن شرور أهل الغرب ألوان، وإنه من جملة ما يعرف عنهم التساهل في الحب، وكثرة المخالطة، وارتكاب الفاحشة، وانتقالها معهم

---

(١) أنيس الجليس: ٣١/٣/١٨٩٩م.

في أي مكان يحطون فيه، ومن هذا ما نشرته جريدة «اللواء» عن سلوك ناظرة ومفتش يعملان في وزارة المعارف المصرية، بمدرسة بنات، تقول «اللواء»:

«رفتت نظارة المعارف المس فوريس ناظرة المدرسة السنية، ورفتت المستر هوتن المفتش بنظارة المعارف وطردته من مصر بعد أن أعطته مهلة ١٢ ساعة، وتبين أن لرفته علاقة بالمسز فوريس، ولرفتها علاقة بجنابه، وأن تلك العلاقة مما يزري بشرف المعلمين والمعلمات، ويهزي بأخلاق المتعلمين والمتعلمات، ويهوي بالبنات على الخصوص في مهاوي الفساد».

«وقد أثبت شهود الحال أن مدارسهن (أي: مدارس البنات) الآن في أشد الحاجة إلى التطهير، فعلى الأمة أن تطالب به بكل لسان أو تعقل عقائل شرفها في البيوت، وترضى لهن ما تيسر من العلم مع العفاف والصون بديلاً عن العلم المدرسي، والابتذال المشين فإن ذلك خير وأبقى»[١].

ومن غرائب ما قرأت في الدوريات القديمة، وجود مدارس في ألمانيا تعلم فتياتها لعب القمار، واعتبار هذا ضمن مناهج التدريس، التي ينبغي على الفتاة تحصيلها، والتمهر فيها، ومما جاء في مجلة سركيس:

«في الجرائد الأخيرة أن المدنية في ألمانيا وصلت بالشعب إلى درجة يخشى أن تكون الدور الثاني بعد نهايتها؛ أي: دور التقهقر، ذلك أن المقامرة بلعب الورق صارت عمومية بين نساء ألمانيا حتى أنهم أنشأوا في مدارس البنات العليا دروساً مخصوصة لتدريس لعب الورق،

---

(١) جريدة اللواء ٢/ ٤/ ١٩٠٢م.

ولا يعتبرون الفتاة الألمانية كاملة في تحصيلها علومها إلا إذا صارت خبيرة بألعاب البريدج والإيكارتيه والبوكر، وهكذا تعاظمت سيئات المقامرة إلى حد مخيف يخشى منه على سلامة الأمة، وحتى أن بعض العائلات لم يكفها لعب الورق بل أدخلت الروليت في حجم صغير، وغيرها من ألعاب مونت كارلو إلى حفلات الاستقبال العائلية»[1].

وتفشي لعب الورق على هذه الصورة يفسد النفوس ويذهب بالوقار والجلال، ويدفع إلى الطمع والحرص والاحتيال على الكسب الرخيص، والاعتماد على الحظ والمصادفة، كما أن شيوع هذه الألعاب، في تلك الفترة، تظهر أن لدى الألمان فراغاً يمارسون فيه القمار، بعكس ما كنا نتصور من أنهم جادون صارمون.

والمقامرة منتشرة في أقطار كثيرة بين الأفراد والجماعات، ولكن اعتراف الهيئات العلمية والتعليمية بها، وتقريرها في المعاهد العليا هو الشيء المدهش والمعيب في الوقت نفسه؛ لأن الأساس في التعليم هو التربية والتهذيب، والارتفاع بالنفوس إلى مراتب العزة والعفة، والدارس للفلسفة الألمانية الممثلة في روادها الكبار مثل: «كانت» و«هيجل» و«شوبنهور» و«نيتشه» تعتريه هزة مما صار إليه الألمان قبيل الحرب العالمية الأولى، فقد أنعم كثير من فلاسفتهم النظر في التاريخ، واستخلصوا العبر من حركته، وفلسفوا دوراته، وبحثوا عن دلالات الأشياء، ومعاني الأفعال، وجاءوا بأفكار مثالية كثيرة منها يسمو بالروح، ويهذب السلوك، ويدعو إلى القوة، ويعمل على إنماء المدارك، وارتقاء المواهب، وزيادة الوعي، وتحدثوا عن الإرادة الحرة التي هي غير الفوضى والانحلال.

---

(١) مجلة سركيس ١٥/١١/١٩٠٦م.

ولم تكن ألمانيا بمفردها في أوروبا راعية للقمار، وإنما كانت حكومة فرنسا في القرن التاسع عشر «تمنح بعض الشركات امتيازات لفتح أماكن عمومية للقمار. . . وقد باعت تلك الرخصة مرة لشركة على أن تدفع لها ستة ملايين من الفرنكات كل سنة. .» وفي مونت كارلو يدفع أرباب الصالات المخصصة للقمار مالاً سنوياً لأمير موناكو.

وبينما يحرم الإسلام كافة أشكال الميسر، فإن أوروبا زينته في عيون الناس، وقننته، وتفننت في أنواعه، وخلعت عليه الأسماء ووضعت له المصطلحات مثل «البكرة. . اللانكينه. . فل. . كنت. . فلاش. . جوكر. . بوكر» واخترعت طرقاً للكسب مثل «المارتنغال. . المدوفيه. . البارولي» وغيرها من ألوان المراهنات والمضاربات، وصدّرت كل هذا للشعوب.

وقد تأخذنا الدهشة لتعليم القمار في المدارس، ولكن من يبحث في تاريخ الغرب القديم يجد ما هو أبشع وأفظع، فقد حث حاكم اسبرطه ليكورغورس الشبان على السرقة، ومما أورده د. علي عبد الواحد وافي في كتابه «غرائب النظم والتقاليد والعادات» عن السرقة في عهد ليكورغورس أن الشاب السارق «لا يعاقب في الحقيقة على السرقة نفسها، وإنما كان يعاقب لعدم مهارته في اقترافها وإحكام وسائلها» وزعم هذا الحاكم الإسبرطي أن ممارسة السرقة تأتي بمنزلة تدريب الشبان على الحرب، وهي مقولة خاسئة خاطئة؛ لأنه ليست هناك صلة بين الحرب والسرقة، إلا إذا كانت الحرب من أجل سرقة وطن، وإلا إذا كان الجنود يقومون بالسلب والنهب، أثناء الحرب والضرب، وإن كانت الحرب تعتمد على شجاعة المحارب، فإن السرقة تورث الإنسان الخوف والخور، وتعلمه الهرب والاختفاء عند ظهور أدنى درجات الخطر.

وبعيداً عن أقوال الصحف، فإن الغربيين هم الذين اخترعوا قصص اللصوصية والجرائم على أنواعها، وجعلوها كتباً بوليسية حدّثونا فيها عن أرسين لوبين، وكارتر، وشارلوك هلمز، وجونسون، وأضف إليهم آل كابوني وعصابات المافيا، وأظهروا لنا في كتاباتهم قوة البدائة، وصفاء القرائح عندهم، ومدى انغراس الشر في نفوسهم، وانعدام الرحمة، وإتيانهم خوارق الأعمال الإجرامية، وحيلهم ودرايتهم بالغدر والقتل، والعجيب أن كُتَّاب هذا اللون يفاخرون برواج كتبهم، ولا يعنيهم أن الناس يفزعون ويرتعدون مما اشتملت عليه قصصهم، ولا يهمهم أن اللصوص الصغار البسطاء يمكن أن يتعلموا منها كيف يخططون للجريمة، وكيف يرتكبونها دون أن يتركوا أثراً يدل عليهم، فهي ليست قصصاً وإنما دروس في تعليم الجريمة، فيا سوء حظ القاصّ إذا نسبت قصص السراق والقتلة إليه.

ولا يكتفون بما ذكرنا، وإنما يضيفون شخصيات متخصصات في الانحراف الجنسي من أنماط رجال ونساء لا يعرفون إلا الدنس والنجاسة مثل «ايڤا» و«كازنوڤا» إلى جانب «ده ساد» الذي استمد علماء النفس من اسمه مصطلحاً هو «السادية» وهو رجل حقيقي يعذب النساء، وتسترحمه الفتاة، فلا يجيبها قلبه القاسي، والأدهى من كل ذلك ما أطلعونا عليه من حياة «دراكيولا» مصاص الدماء المخيف، ولا يخشون على القراء من الرهبة، وليس في كل ما ذكرنا شيء من الهداية الروحية التي تقوي الشخصية الإنسانية، وتلبي مطالب العقل.

والجريمة والمجون موجودان في كل الأمم والحقب، ولكن لا توجد شخصيات شهيرة بشعة مثل هذه في الشرق الإسلامي أو المسيحي، فقد استقل كل واحد من هؤلاء بشهرة تاريخية، وذيوع عالمي، ويجب

وضع من ذكرناهم ومن لم نذكرهم في أنساق ليكونوا موضع دراسة اجتماعية ونفسية سواء المبتدع منهم أو الحقيقي، إلى جانب مؤلفي القصص عن هؤلاء، لمعرفة بواعث الأعمال، ودوافع الكتابة عنهم وردود الأفعال، ولكن كل هذا لا ينسينا كتّابهم وفلاسفتهم وعلماءهم الكبار.

وقد كان لمقالات المويلحي عن مثالب الغربيين أثرها البالغ في الصحف، وما ذكرنا إلا أقل القليل مما أوردته الدوريات عن معايب الغرب، تلك العيوب التي صارت في الصحف شيئاً عادياً ومألوفاً بعد ذكر الكثير منها.

كذلك أثارت مقالات «الشرق والغرب» إعجاب القراء في مصر وخارجها، فقد نشرت مصباح الشرق أن أحد الأدباء التونسيين أرسل كتاباً على لسان جماعة من الشبان المستنيرين إلى صاحب «مصباح الشرق» يفصح فيه عن استحسانه، ورضائه، بما تنشره الصحيفة حيناً بعد حين من وجوه الأضرار، وفنون الرزايا التي ولدتها المدنية الغربية[1].

ومن المباحث المهمة التي خاض فيها المويلحي بقدر محدود مبحث: أثر الشرق في الغرب.

وما اقتبسه الأوروبيون من المسلمين، ولعله أول من أثار هذه القضية عام (١٨٩٨م)، أو على الأقل من الأوائل المبكرين، وفيما بعد نشط العرب في هذا المبحث في الصحف مثل «العالمين» و«المقتطف»، ثم وضعوا كتباً كاملة في هذا الشأن، مثل كتاب الأستاذ العقاد «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» الصادر عام (١٩٤٦م)، وكتاب «العرب

---

(١) مصباح الشرق ١٨/٤/١٩٠٣م.

في أوروبا» للدكتور علي حسني الخربوطلي. والكتاب الأخير، وإن كان في التاريخ، فإنه ينطوي على ما تركه العرب في البلدان التي فتحوها.

ولم يقتصر الأمر على العرب فيما اقتبسته أوروبا من الشرق، وإنما تحدث بعض الأوروبيين في هذا المجال في ثنايا كتبهم، مثل ما سطَّره إيرنست باركر، أستاذ علم السياسة بجامعة كمبردج، عن «الحروب الصليبية» وما كتبه ألفرد جيوم، رئيس كلية كلهام، عن الفلسفة والإلٰهيات[1]، وغيرهما. ومنهم من خصص كتباً كاملة في هذا المجال مثل الألمانية الدكتورة «سيجريد هونكه» التي وضعت كتاباً ضخماً جعلت اسمه «شمس الله تشرق على الغرب، فضل العرب على أوروبا» وقد ترجمه وقدم له الدكتور فؤاد حسنين علي، وهو كتاب جدير بالمطالعة.

والمويلحي لا يستند إلى الماضي، ويفاخر به في وجه أوروبا المتقدمة فحسب، وإنما يحث الشرقيين على التقدم، والإقبال على العلم.

كذلك عرض صاحبنا في ذلك الزمن المتقدم إلى ما كان يسمى بـ «الامتيازات الأجنبية» وندد بها واستنكرها، وكان الأجانب في الأقطار العثمانية يتمتعون بمزايا كثيرة، ربما لم يكن يتمتع بها الوطني صاحب البلد، وقد كانت هذه الامتيازات معمولاً بها في مصر. وقد تخلصت الدولة المصرية منها في مؤتمر مونترو عام (١٩٣٧م) بعد جهاد طويل.

رؤية المويلحي:

وإبراهيم المويلحي لا يتغيا من مقالاته معايرة الغرب بنقائصه، كما يعيرنا بمعايبنا فحسب، ولا يريد إحصاء سقطات الأوروبين وتحذيرنا من

---

(١) كتاب «تراث الإسلام» ج١ صادر عن لجنة الجامعيين لنشر العلم ١٩٨٣م.

الجري ورائهم فحسب، وإنما كما يبدو لي أنه يرى إلى جانب ذلك، أن الغرب فقد مبادىء الحضارة الروحية، وأن تمسكه بالمدنية المادية الآلية لن يعصمه من السقوط في النهاية، فكل ما بسطه من أوراقه يبين أنهم يسيرون ضد الإنسانية، ونواميس الحياة؛ لأن الحياة الراقية لا تدوم بالاستحواز على الأشياء المؤقتة، مثل المال والقوة.

إن الرذيلة والوصول إلى المال من مختلف الطرق، والظلم والإلحاد والانحلال الخلقي تعرقل مسيرة الغرب، بل إن كل ذلك يعمل على اضمحلاله وتدهوره، والأخلاق البائرة لا تنتج مجتمعاً صحيحاً، وما ذكره المويلحي هو من بوادر الضعف.

وإن وجهة نظر المويلحي التي ذكرناها تتوافق إلى حد ما مع أفكار شبنجلر، الذي رأى أن الحضارة المستندة إلى الروح مضت عن الغرب، وأنه في طريقه إلى الانحدار، والهبوط يستغرق زمناً طويلاً وليس سنوات قلائل.

ومن أكثر الناس انتقاداً للمدنية الحديثة: الفيلسوف الألماني «نيتشه» الذي يرى أن الشك ساد في معطيات الماضي وقيمه، وهو ما عبَّر عنه «بالروح الإنكارية» الانحلالية، ووصف الحضارة الجديدة بأن الدين أخذ في الانحسار عنها، وأن العداء باعد بين الأمم والدول، وبرزت روح الأنانية عند أصحاب العز والسيادة، وعزا أسباب الانحلال إلى ظهور الآلة التي أبعدت الناس عن الإبداع والتفكير، وأعجزتهم عن السمو والعلاء.

ويعلق عبد الرحمٰن بدوي على أقوال نيتشه في كتابه عنه بقوله: «وهذه الحال من الإنكار المطلق هي الحال التي وصلت إليها أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، فلم يعد الناس يؤمنون بشيء، ولا يجدون

قيمة في أي شيء من شؤون الحياة والوجود، فتملكهم شك قاتل، واضطراب في النفس، وبلبلة في التفكير، وكان التشاؤم وإنكار الحياة هي الطابع الغالب على تفكيرهم، ونظرتهم في الوجود».

وكلمات عبد الرحمٰن بدوي مستوحاة من أفكار نيتشه عن المدنية الحديثة الأوروبية التي لم يعد الإنسان يؤمن فيها بشيء، فساءت أحواله، وبارت أخلاقه، وتوحش بعد تمدن، وهدم قواه النفسية، وهياكله الاجتماعية، وهذه هي الحالة التي أدركها إبراهيم المويلحي عن المواطن الأوروبي، ووقف عليها بالمعاينة والمطالعة، وخشي من تفشيها في الشرقيين، وتشرب نفوسهم منها.

ومن أجل أن يكون المويلحي مقنعاً للعقول، مؤثراً في النفوس، فإنه يُبلغ الشرقيين أن العقلاء في أوروبا، وأصحاب الرأي فيها ينبهون أهلهم إلى أن الفساد المتفشي سيجعلهم على شفا الهاوية. يقول في مقاله «المدنية في أعلى مراتبها»: «غفلنا عن استماع ما يقوله أصحاب العقول والبصائر، وأهل البحث والتوفيق من الغربيين أنفسهم في وصف الفساد والهلاك والخراب والدمار الذي تجرهم إليه مدنيتهم، وتنتهي به حضارتهم».

أخلاق الأمم:

ومقالات «الشرق والغرب» يغلب عليها البحث في الأخلاق العملية للأمم، وبخاصة الأمم الأوروبية، لذلك هو يتناول سلوك الأفراد والجماعات من واقع الحياة، ويهتم بتتبع الأفعال والممارسات الفعلية للأوروبيين، ومن يتشبه بهم من المشارقة، وهو في هذا الدرس النقدي للأخلاق، يبين الفعل الآثم في الشرق والغرب على السواء، حتى وإن سارت أقواله في اتجاهين: الأول التنديد بالسلوك الشائن

في الغرب، والثاني التحذير الدائم للشرقيين الذين يقلدون الأوروبيين.

والمويلحي لا يرى في إشباع الرغبات الشائهة خيراً، والخير عنده يتحقق عندما يتوجه السلوك إلى ما يحقق سعادة الفرد، وانعكاس هذا على الأمة التي ينتمي إليها، لذلك نراه يكثر من تنبيه العقول، ومخاطبة الأفهام التي تعمل على سمو الرغائب، والنأي عن الفعل الآثم الذي تنتج عنه الحسرة والخسران.

طرائق المويلحي في الإقناع:

وقد اتبع المويلحي عدة طرق ليصل بواسطتها إلى غايته، وهي الرد على أنصار المدنية في الشرق، وفضح السلوك الغربي، وإقناع الشرقيين المقلدين للأوروبيين بالعزوف عن ذلك، وهذه الطرق نلخصها فيما يلي:

أولاً: طريقة الموازنة بين الشرق والغرب في أنماط السلوك، والتراث الثقافي، والتقاليد الموروثة، وهي من طرق البحث العلمي، وفي مقالات المويلحي تظهر خصائص الشرق والغرب وعلى أساس هذه الخصائص، تتبدى للعيان حقائق أناس كل إقليم، وسلائق البشر هنا وهناك، وهذه الطريقة توضح الفوارق بين الأمم الشرقية، والشعوب الغربية.

ثانياً: الموضوعية في تناول القضايا، وقد يبدو لقارىء مقالات المويلحي حماسته الشديدة ضد الغرب، ولكن تمثيله وتدليله على ما يذهب إليه يبطلان اتهامه بالغلواء، فإننا نراه يأتي بأنواع من أفعال الأوروبيين، وألوان من سلوكهم، ويسمي الأفعال بأسمائها، وتتلاحق الأمثلة في مقالاته وتتابع في إيقاع سريع متواصل، فما أن تقرأ له مقالاً حتى يردفه بمقال ثانٍ وثالث ورابع... وكأن جعبته لا يُعد ما فيها ولا يحصى، وهو يريد أن يوقع في نفسك أنه لا يتحدث عن فرد واحد، أو

حادثة مفردة، وإنما يتناول ظواهر اجتماعية، فالبغاء، وقتل النساء المرض، والرقيق الأبيض، والموت جوعاً من شدة الفقر، والرشوة. . . كلها ظاهرات واضحة في المجتمع، ثم إنه لا يركز على عيب واحد، وإنما على عيوب كثيرة، ويوضحها بأمثلة كثيرة، لتدرك أنها ليست حالات فردية، وهي طريقة مهمة في الإقناع، والتأثير.

ثالثاً: إنه يأتيك بمقولات الغربيين أنفهسم، وما يكتبونه في صحفهم، مع ذكر أسماء هذه الصحف؛ أي: أنه يوثق معلوماته، ولا تستطيع أن تكذّبه إلا إذا رجعت إلى الدورية التي يسميها لك، ولم تجد فيها ما يقوله؛ أي: أنه يدين الغربيين من أفواههم، والمويلحي لا يكذب، فإن ما يقوله موجود في قصصهم وأفلامهم، بل إن ما قاله المويلحي عن الأوروبيين، ما زال قائماً، فالمرأة الأوروبية التي كانت تقتل المرضى تماثلها الآن النسوة البلغاريات اللائي كن السبب في إصابة كثير من الأطفال الليبيين بمرض الإيدز، وتجارة الرقيق، والبغاء، ونقل المرأة من مكانها الأصلي إلى مكان في أوروبا لتعمل في مجال الفسق والفجور، كل هذا موجود، وقد نقلت إذاعة B.B.C في «٣٠/ ٧/ ٢٠٠٣م» الساعة العاشرة صباحاً بتوقيت جرينتش عن اليونسيف قولها: إن آلاف الأطفال يجلبون من أفريقيا إلى بريطانيا لاستخدامهم في الدعارة، والأعمال المهينة، وفي البيوت كخدم، ويكفي أن تجلس إلى صديق أو قريب لك جاء تواً من أوروبا لتسمع منه العجب، والصَّلاة السوداء أو الشذوذ ما زال موجوداً، فبين حين وآخر نقرأ عن المخنثين والمثليين.

وإذا كان هذا قد شاع فيهم، فإننا لا ننكر أن المدنية الجديدة قد أفادت الإنسانية في مختلف ميادين الحياة العملية، مثل الوقاية من

الأمراض، وطي المسافات الطويلة باختراع وسائل المواصلات المختلفة، وسرعة الاتصال، وتحول الإنتاج من المرحلة العضلية إلى المرحلة الآلية، إلى جانب إقامة جمعيات الرفق بالحيوان، والاعتراف بحقوق الإنسان الاجتماعية والسياسية إلى آخر ذلك.

ومن أهم خصائص هذه المدنية اشتمالها على المتناقضات، ففي الوقت الذي ارتكبت فيه ما أشرنا إليه، ومارست التفرقة العنصرية، وأباحت الاستعمار بمختلف مسمياته البراقة؛ كالانتداب والوصاية والحماية، ومحاربة الإرهاب، وابتزت تحت هذه الشعارات ثروات الشعوب، وقاومت الحركات الاستقلالية، وعملت على طرد السكان الأصليين من وطنهم في فلسطين، وإحلال غيرهم محلهم بدعوى الحقوق التاريخية الباطلة، بل ساعدت هذه المدنية القاتل ضد القتيل، والظالم ضد المظلوم، وبإيجاز شديد: إنها مدنية المتناقضات.

إن المويلحي في هذه المقالات التي يندد فيها بالانهيار الأخلاقي الأوروبي، يسعى في الوقت نفسه إلى تحقيق الشخصية العربية النزاعة إلى الحرية والقيم والاستقلال، وكل هذا يستدعي التحرر من التبعية والجمود والتقليد.

التعريف بإبراهيم المويلحي

إبراهيم بن عبد الخالق المويلحي.

ولد في أغلب الأقوال عام (١٢٦٢هـ) (١٨٤٦م) بالقاهرة.

والمويلحي نسبة إلى ثغر المويلح بشمال الحجاز، وينتمي إلى الأشراف.

وقد هاجر نفر من أسرته إلى القاهرة زمن حكم محمد علي باشا،

ولم يتلق العلم في أية مدرسة، ولا ذهب في طفولته إلى الكتّاب الذي كان يتعلم فيه الأطفال المصريون مبادىء الحساب، ويحفظون القرآن الكريم أو أجزاء منه.

كان أبوه تاجراً كبيراً للأقمشة في ناحية الأزهر الشريف، وكان يُعد ابنه إبراهيم للتجارة، لذلك استبقاه في دكانه، وكان بجوار الدكان دكان عطارة تخرَّج صاحبه من الأزهر، ويعرف علوم اللغة والدين، ولما كان إبراهيم محباً للعلم، فقد كان يجلس إلى هذا العطار ويتلقى عليه العلم، فهو خريج العصامية، ومضى في سبل العلم حتى رسخ فيه، وكانت أسرته على علاقة طيبة مع محمد علي وأبنائه وأحفاده، وكان الخديو إسماعيل يعرفه ويعرف أخاه عبد السلام، فساعدهما في الملمات، وبخاصة عندما خسرا أموالاً في مضاربات البورصة.

وقد تولى إبراهيم مناصب مهمة، فكان عضواً في مجلس التجار، وعضواً في مجلس مصر الابتدائي، وأسس مع عارف باشا جمعية المعارف، وأصدر مع الشيخ محمد عثمان جلال صحيفة «نزهة الأفكار» التي احتجبت بعد ظهور عددين منها؛ لأنها لا تجاري سياسة الحكومة، وأشار الخديو إسماعيل بتعيين إبراهيم في «مجلس الاستئناف».

وكان واحداً من اثنين وضعا «اللائحة الوطنية لتأسيس مبادىء الحكومة الدستورية»، وهذا يفيد بعلو كعبه في النواحي الإدارية والسياسية، وعُين في وزارة شريف باشا «ناظراً للقلم العربي في وزارة المالية» على حد قول حفيده إبراهيم المويلحي في مجلة الرسالة عام (١٩٣٨م).

وعندما أزيح الخديو إسماعيل عن الأريكة الخديوية عام (١٨٧٩م)، وحط في نابلي، أرسل إلى إبراهيم ليلحق به، فسافر إليه

وجعله سكرتيره، ومعلماً لأولاده، وبدافع من الخديو أنشأ صحفاً في أوروبا يهاجم فيها السلطان عبد الحميد، وكان السلطان بواسطة نفوذه وسفاراته يغلقها له.

وذهب إلى باريس وشارك جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في تحرير «العروة الوثقى» وذهب إلى لندن ومدن أوروبية أخرى.

وفي نهاية المطاف كتب عريضة استرحام للسلطان، فعفا عنه، واستدعاه ووظفه في وزارة المعارف، وبقي في هذا العمل نحو عقد من الزمان، ثم جاء إلى مصر وحرر مقالات بجريدة المقطم ضد السلطان، ونسبتها الجريدة «لفاضل من المصريين»، وفي عام (١٨٩٦م) جمع هذه المقالات، وصدرت في كتاب دعاه «ما هنالك» ولم يذكر اسمه عليه، ولكن السلطان عرف عن طريق العسس أن المويلحي مؤلفه، فأمره بجمعه وإرساله إلى الآستانة، فامتثل[١].

وأنشأ المويلحي صحفاً كثيرة أهمها «مصباح الشرق» وأظهر فيها ولاءه للسلطان، ونشر فيها مقاماته تحت اسم «حديث موسى بن عصام»، ومقامات ابنه محمد المويلحي بعنوان «حديث عيسى بن هشام».

وكتابات إبراهيم المويلحي، ومنها «الشرق والغرب» تكشف عن محصوله اللغوي والتاريخي والأدبي.

ومحصوله اللغوي يتبدى في كمية الألفاظ التي استخدمها، وانتخب أسهلها، والألفاظ ليست قيمتها في كميتها، وإنما في كيفية توظيفها لتؤدي المعاني وتوضحها.

---

(١) أعدنا طبع الكتاب في دار المركز العربي بالقاهرة، سنة ١٩٨٥م، ثم أعدنا طبعه للمرة الثالثة في مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة سنة ٢٠١٢.

أما المحصول الأدبي، فإنه يتجلى في أسلوبه المشرق الجزل الذي تنعكس فيه قراءاته المتعددة والمتنوعة حتى وإن لم يشر إليها، كذلك يظهر محصوله الأدبي في الاستخدام الصحيح للفظ حتى وإن كساه بالمجاز، وخروجه عن الكلمات المتكررة المحفوظة، والمترددة بكثرة على الألسن، ويبدو أيضاً في قدرته على تنغيم العبارات وتهذيبها، وهو يعبر بحرية عن موضوعه، هذا إلى جانب إشاراته الكثيرة اللائحة إلى شعراء قدامى من عصور مختلفة، فكل هذا يكسو أسلوبه وموضوعه ويزينهما، واللافت أن عباراته المبتدعة لا تختلف عن عبارته في الترجمة، فالعبارتان العربية والمعربة متجانستان لا تستطيع أن تفرق بين ديباجتيهما؛ لأنه أجاد سبك عباراته وكأنها جميعاً من مستلهماته.

أما محصوله التاريخي فلا يظهر في سرد الأحداث الماضية أو الحاضرة فحسب، وإنما في قدرته على استخلاص العبر والحِكَم بما يكشف عن رؤية للتاريخ، ونتبين أيضاً فيما كتبه العناصر الفعّالة تقدم المجتمع وتخلفه.

وقد عاش المويلحي عصراً حافلاً بالتقلبات، وشهد الوطن العربي وهو يتحول عن المعطيات القديمة إلى معطيات جديدة، وكانت حياته غنية بالأحداث والأسفار والمشاهدات في مصر وأوروبا وممتلكات الدولة العلية، وقد نيّف على الستين، وكان يوم (٢٩) من يناير سنة (١٩٠٦م) آخر أيامه رحمه الله.

✍ أحمد حسين الطماوي

﴿ العدد ١٢ ﴾   ﴿ السنة الاولى ﴾

مصباح الشرق

جريدة سياسية اخبارية علمية أدبية

(تصدر يوم الخميس من كل أسبوع مواقتا)

(أنشئت سنة ١٣١٥ هجرية)

(صاحب الجريدة ومحررها)

ابراهيم المويلحي

قيمة الاشتراك عن سنة كاملة

١٠٠ مائة قرش صاغ في مصر وسائر المالك السامانية

ثلاثون فرنك في جميع الممالك الاجنبية

أجرة الاعلان عن كل سطر في الصفحة الاولى

اثنا عشر قرشاً . وفي الثانية ثمانية قروش

وفي الثالثة ستة . وفي الرابعة أربعة

واذا تكرر نشره تخابر الادارة في شأن ذلك

(ادارة الجريدة بالمطبعة العمومية بشارع عبد العزيز مواقتا)

مكاتبات الجريدة

جميع المكاتبات والرسائل المتعلقة بالجريدة ينبغي أن تكون خالصة الاجرة باسم صاحبها (ابراهيم المويلحي)

والرسائل لاترد لاربابها نشرت أولم تنشر

العنوان التلغرافي (مصباح الشرق بمصر)

وكيل ادارة الجريدة (أمين امام)

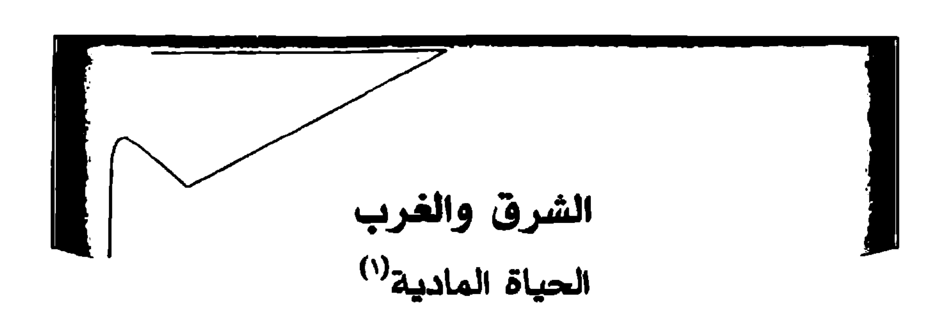


ابراهيم بك المويلحي الكاتب السياسي والمنشئ الصحافي

إبراهيم المويلحي
(١٢٦٢هـ - ١٣٢٤هـ)
(١٨٤٦م - ١٩٠٦م)

الشرق والغرب

تحرير وتقديم
أحمد حسين الطماوي



الشرق والغرب

الحياة المادية[1]

يظن الشرقيون أن الغرب فردوس من الفراديس أو جنة من الجنان وارفة الظلال دانية القطوف، وأن كل مدينة من مدائنها هي تلك المدينة الفاضلة التي تخيلها أفلاطون في كتابه، وأن أهلها كلها في الحكمة أرسطو وابن رشد، وفي الخطابة ديموستين وقس بن ساعدة، وفي الطب بقراط وأبو علي الرئيس[2]، وفي الشعر هوميروس وامرؤ القيس، وفي السياسة بركليس وأبو مسلم[3]، وفي العدل اريستيد وابن عبد العزيز، وفي الدعابة والمجون اريستوفان ودعبل[4]، وأن العيشة كلها هناء وصفاء ونعيم ورخاء، ولم يكتف الشرقي بما نقل إليه من زخارف تلك المدنية وزينتها في بلاده حتى جعل زيارة الغرب من أركان النعيم؛ كالحج من أركان الدين، فتراه يكد ويكدح ويقتر ويجمع ويحرم نفسه وبنيه وأهله وذويه، ويحمل تعب الحياة تسعة أشهر حتى إذا حان الوقت وجاء فصل الصيف، وضع ما جمعه من التقدير والتقتير والحرمان والتوفير في أحد البنوكة ليسبقه إلى أوروبا في بنك آخر، فإذا ذهب لتأدية تلك الفريضة رحل وهو ينظر لمن بقي من أهل بلاده بالتحقير والازدراء، نظر الغزاة

---

(١) ٢٣ يونيه (حزيران) ١٨٩٨م.

(٢) ابن سينا.

(٣) أبو مسلم الخرساني.

(٤) دعبل الخزاعي.

إلى القاعدين، والمجاهدين إلى المخلفين، لا بل نظر الشنفرى إلى العرج، وزرقاء اليمامة إلى العمي، فإذا ألقاه اليم بالساحل رأى هناك ما كان يرى هنا من المناظر والزخارف بعينها، ولم يجد إلا فرقاً في الكمية لا فرقاً في الكيفية، ورأى أقواماً إن كان يعرف لسانهم فليس بقادر أن يعرف أخلاقهم وأفكارهم وما خفي من فضائلهم ورذائلهم، لقصر المدة ولتعذر الاختلاط بهم في جوف بيوتهم وبين عائلاتهم، وإن لم يعرف لسانهم فأعمى بين مبصرين، وأخرس بين ناطقين، ومسجون وإن كان في الفضاء، وأسير وإن كان مع الطلقاء، فيسخرون منه رائحاً وغادياً وحاله تترجم لهم:

وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ... لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ الْبَوَاكِيَا

فيؤوب فارغ الكيس مديوناً محزوناً؛ كالخارج في أخريات الليل من بيت القمار مقموراً، أو من حانة الخمار مخموراً، أو كالمحتفل بعرس ابنه عند إصباحه، لا في كيسه شيء ولا في راحه، فيجد غلة ضياعه ضائعة إن كان ذا ضياع، وأمواله متوزعة بين وكلائه وأمنائه إن كان ذا مال، ووجه أهله من طول الغيبة والظنة في عبوس وتقطيب فيلهيهن بذكر ما رآه من البدائع والغرائب ووصف ما شاهده من التحف والطرائف، فيعلق أهله به فيزداد الوجه تقطيباً فلا تحل عقدته إلا بوعدهن بالسفر معه في قابل، ولا يمنعه عن استئناف السفر ما لحق به من الخسارة، كما لا يمنع مدمن القمار خسارته ولا مدمن الخمر خماره من عودته.

هذا وإن كان مرافقة الأهل له مما تضاعف خسارته إلا أن في تحويل التقطيب إلى الابتسام من أهله، وفي ترقيه إلى الدرجة الأخيرة من سلم التمدن الغربي بكشف الحجاب، نعمَ العوض له من تلك الخسارة

وإن تضاعفت، وهذا سر ما نراه اليوم من تهافت السيدات المسلمات لمرافقة أزواجهن في سياحتهم بأوروبا، حتى فشا هذا الداء وصار عادة تزداد ركوزاً على طول الأيام، وأصبح من يعود من شبابنا من أوروبا يحكي للناس فيما يحكيه من المناظر أنه رأى امرأة فلان وشاهد امرأة فلان وقدّم لامرأة فلان، ممن كن يحرم عليه رؤيتهن للحجاب في بلده.

وكل ما حصل عليه هؤلاء الذاهبون الآيبون أنهم ما رأوا في الغرب إلا ظاهراً من الحياة، وخفيت عليهم بواطن الفضائل والرذائل حتى الذين زاروا بلاده ثلاثين مرة هم في حكم الذين زاروها مرة واحدة.

وبينا نرى الغربيين يزدادون في المعارف كل يوم شيئاً جديداً، نرى التاجر منا والطبيب والمهندس والسياسي لا يعود إلينا بشيء ينفع به نفسه وبلاده من تلك المدنية، سوى ما يحمله معه من صندوق الألعاب والتحف للإهداء والإتحاف، وما يحمله في رأسه من الاعتقاد بأن الغرب هو مهد الكمالات ومعدن الفضائل التي تركها هناك ولم يصحب معه شيئاً منها.

فيذكر عن الغرب ما يذكره جميل عن بثينة وكثير عن عزة حسناً وبهاء وجمالاً وسناء، حتى أنه ليود أن الله يأتيه بالشمس من المغرب، ثم يذكر عن الشرق ما يكتمه العدو عن عدوه من القبائح والنقائص ويصوره لك أنه قمامة من الخرافات والأضاليل وواد من الجهالات والأباطيل.

والحقيقة إن لكل بلد محاسن ومعائب وفضائل ورذائل وكمالاً ونقصاً، وإنما تخفى معائب الغربيين علينا؛ لعدم البحث والتنقيب والإمعان والتدقيق، ولتلقي ما يعيب المحبوب بحسن القبول «وملء عين

حبيبها» كما أنه يخفى على سياح الغربيين كثير من محاسن العوائد الشرقية لعدم البحث والتنقيب والإمعان والتدقيق.

فإذا ذكرنا الخرافات مثلاً وسمعت في مصر عجوزاً، رأت العفريت وصبياً فزع من المارد ومشعوذاً يستحضر الجن، سمعت بلوندره[1] وباريس وهما أرقى البلاد تمدناً من هذا القبيل أحاديث عجيبة، ففي لوندره بيت مشيد من أجمل البيوت وأكبرها في أحسن المواقع قرب هولدبوند ستريت، لا يزال مهجوراً لا يسكنه أحد لإشاعة سبقت باحتلال العفاريت له، وإن كل من أقدم على سكناه سمع بالليل عزيف الجن ودوياً مزعجاً وأصواتاً منكرة وقائلاً يقول له: إن أقمت أهلكناك. وهذا الحديث منتشر مستفيض بين الناس، ولما كان المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني في لوندره معنا، وسمع بهذه الخرافة طلب من صاحب النزل الذي كان نازلاً فيه أن يأتي له بمفتاح البيت ليسكنه ويبطل لهم هذه الخرافة.

وفي إيتاليا مقامرة بين الحكومة ورعاياها أقامت لها الحكومة مكاتب رسمية في كل جادة من قراها وبلدانها، تسمى «بنك لوتو» وللأهالي ولع عظيم من كبيرهم وصغيرهم باللعب فيها، ولهم خرافات منتشرة في ما يدلهم على اختيار الأرقام الرابحة في تلك المقامرة كل أسبوع. فمنها أنك ترى كتباً في حجم التوراة تباع في كل مكان وضعت قدمك فيه، وهذه الكتب تكاد تحصي ما يمر على خيال النائم من أضغاث الأحلام وتفسر كل شكل من أشكالها، برقم أعدته لاختياره للربح في تلك المقامرة، فيصبح أهل كل بيت وأيديهم على تلك الكتب لتفسير ما رأوه في نومهم من الأحلام واختيار الأرقام المطابقة، معتقدين

---

(١) لندره هي لندن.

اعتقاداً لا ريب فيه أنها لا بد أن تكون الرابحة، فيسرعوا إلى بذل دراهمهم في تلك المقامرة فلا تصدق معهم الخرافة وتسلب الحكومة من رعيتها بهذه الكيفية أربعين مليوناً من الفرنكات في كل سنة.

وهلم جرّاً من هذه الخرافات التي يضيق بنا المقام عن شرحها.

وإذا ذكرنا النظافة والقذارة، فإن كان في هذه المدن العظيمة ما يروق الناظر نظافة ففيها ما تنقبض له النفس استقذاراً، ولا تفرق في ذلك عن مدن المشرق فإن الواقف في الأزبكية والإسماعيلية[١] يرى ما تنشرح له النفس من مناظرها فإذا وقف في بعض أطراف البلد ستر عينه وسد أنفه؛ اشمئزازاً واستكراهاً.

فباعة المكرونة في نابولي يسألون المشتري إذا اشترى منهم صحفة منها بقولهم: «أبخُّ لَكَ» فإذا رضي أخذ البائع فصاً من الثوم ومضغه في فمه، ثم رده على الصحفة فينتشر عليها كالملاءة.

وحالة الفقراء في لوندره تفتت الأكباد، فإنهم يموتون جوعاً، وليس في لغات الدنيا لغة يعبر فيها عن الموت من الجوع بكلمة واحدة إلا في اللغة الإنجليزية، فإن لفظة «ستارفيشن STARVATION» معناها: الموت من الجوع، وهذا دليل على استفاضة وقوعه بين الإنجليز.

وفي بعض بلاد إيتاليا يتعجب بعض النساء إذا رأين إنساناً يغسل رأسه بالصابون، وكثير منهن لا يغسلن أجسادهن طول حياتهن.

ولا يظن الرحالة منا إلى أوروبا أن في استنشاق هوائها شفاء من كل داء، فإن هواء لوندره، وباريس قد شحن بكل أنواع الأبخرة والأدخنة، وأكثر أجزاء الهواء هناك كمية دخان الفحم الحجري، حتى إن

---

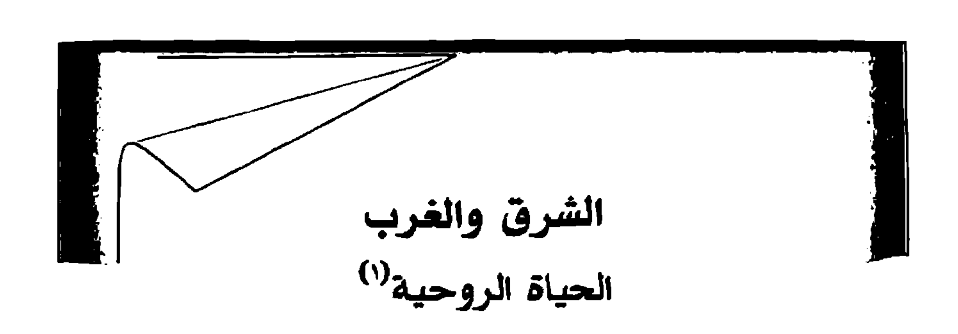
(١) الإسماعيلية هي ميدان التحرير الآن.

الإنسان لو تفل لرأى سواد الفحم في تفلته وأهل الثروة والرفاهة يبدلون لذلك ثيابهم البيضاء مرات في النهار.

ولا يظن الرحالة أيضاً أن الماء هناك هو العذب الفرات، ولكنه الملح الأجاج لا يكاد يسيغه الإنسان إلا ممزوجاً بالخمر، فإن لم يشرب الخمر فالماء المعدني، وهو ينتهي بالإنسان إلى هزال الجسم وضعفه إن داوم عليه.

وللمرحوم السيد جمال الدين كلمة قالها في صباح يوم عند شروق الشمس على ضفاف البوسفور في فصل الربيع، والأطيار تغرد على الأشجار والنسيم العليل يرنح الأغضان، فلما أثر عليه جمال الطبيعة في تلك البقاع وتذكر ما وصفنا من جو أوروبا حلف أنه لو كان في الإمكان أن نضع إنساناً من هذا المكان في صندوق وفتحنا عنه الصندوق في لوندره وباريس، لشم نتانة وأرواحاً خبيثة لا يقدر أن يتحملها دفعة واحدة، وإنما يتحملها الإنسان بالتدريج.

هذا من جهة المعيشة المادية، فأما المعيشة الأدبية فسنكتب عنها في العدد الآتي.



الشرق والغرب

الحياة الروحية[1]

الشرق مصدر التعاليم الإلٰهية، ومطلع نور النبوة ومجمع الأماكن المقدسة، ومعرض الحوادث العظيمة، ومنبع العلوم العقلية والنقلية، ومظهر مكارم الأخلاق ومعدن الكمالات والفضائل.

أما مصدر التعاليم الإلٰهية فلأن الله اختار الشرق مهبطاً لوحيه وفضله بتنزيل كتبه، فصحف إبراهيم وتوارة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى والقرآن نزلت كلها في الشرق، ثم فاض نورها بعد ذلك على الغرب ورسخت قواعدها فيه، فالكتاب الذي يلثمه اليوم قياصرة الغرب وملوكه في كل شروق هو من فيوضات الله على الشرق.

وأما مطلع نور النبوة فآدم أبو البشر شرقي وطينته شرقية، والمرسلون من أولاده شموس الهدى ونجوم الرشد يتبلجون في أفق الشرق وحده ثلاثمائة أو يزيدون، فهم سعادة نوع الإنسان في الدنيا والآخرة وهديهم كالشمس أشرقت من المشرق فعم ضياؤها أرجاء المغرب.

وأما الأماكن المقدسة فهي زينة الشرق ومفتخره الذي لا يشارك فيه، فإنك ترى الملوك والكبراء يَحبُون على الركب في تلك المواضع احتراماً أن تنالها الأقدام ويقبلون ترابها، وربما جاء إليها القاصد ماشياً

(١) ٧ يوليه (تموز) ١٨٩٨م.

إجلالاً وتعظيماً وإكراماً وتبجيلاً، وهذا جلالة إمبراطور ألمانيا أجلّ الملوك اليوم قدراً وأعظمهم قدرة وأبعدهم صيتاً وأرهبهم اسماً، يسعى إلى أرض السلطنة والخلافة لزيارة القدس الشريف والتبرك بأبنيته وأحجاره، وقد تفاخر رؤساء الكنيسة المسيحية في بناء كنيسة القديس بطرس في رومية، فأمضوا مئين من السنين في تشييدها وبذلوا عليها الملايين واختاروا لها أمهر الصناع حتى أدهشت النظار بزخرفتها وبنائها ومع هذا، فإنهم يرون أن حجراً بسيطاً في بيت المقدس أفضل منها وأوقع إجلالاً في نفوسهم من هذه البنية الوحيدة في بابها، وفي رومية أيضاً كنيسة نقلوا إليها درج سلم من فلسطين كان في محكمة بيلاطس، فلا يصعد الزوار عليها إلا على الأيدي والركب، وهذا بيت الله في مكة الذي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده وأسسا بأيديهما بنيانه وتشرف الخلفاء والسلاطين والملوك بخدمته، وهذه الشام عش الأنبياء وروضة المرسلين.

وأما الحوادث العظيمة؛ ففتوحات الإسكندر ووقائع العرب من وقعة بدر التي كانت سبباً في تغيير وجه البسيطة وتلك الحروب الصليبية التي أنشأت الغربيين في المدنية خلقاً جديداً، ثم انتصارات الترك التي تزعزعت لها أركان أوروبا.

وأما منبع العلوم العقلية فبنور النبوة تأصلت تلك العلوم وبها عرفت صفات الله، ونبتت الفلسفة والحكمة يونانية شرقية، ورحل إليها علماء الدولة الرومانية من الغرب فتعلموا منها وأخذوا عنها ثم اندثرت بعد الدولة الرومانية حتى وقف عليها العرب فانتقلت إلى الغرب مرة ثانية، وهو اليوم لا يزال في نعمة تلك العلوم التي لم يفطن إليها أهله وهي بينهم طول دهرهم حتى القرون الوسطى، ومع تعدد العلماء والحكماء

الغربيين بعد ذلك ودوام بحثهم وإدمان تنقيبهم، فإنهم لا يزالون كلهم في مقام التلميذ والطالب أمام الفلسفة اليونانية، لم يزيدوا عليها شيئاً ولم يحدثوا فيها جديداً، وأشهرهم اسماً وأبعدهم صيتاً لا يتعدى أمره في الفلسفة الحذو على طريقة الحكماء اليونانيين؛ فالفيلسوف ديكارت ومونتاني وكانتي وداروِن وبخنر وشوبنهاور عيال كلهم على سقراط وأفلاطون وأرسطو وديموقراط وأبيقور ومتربدور، وأعظمهم قدراً وأعلاهم كعباً في الأدب والشعر مبلغ علمه وغاية جهده فيه أن ينسج نسج اليونانيين والفرس، لا بل ينسخ آدابهم وأشعارهم نسخاً وينتحلها لنفسه انتحالاً وليس له فيها إلا فضل المترجم، ولو اطلعت على مبكيات الروايات لكورنبل وراسين والمضحكات لموليير وسكارون لوجدتها نفس ما كتبه فيها صوفوكل وأوريپيد وأرستوفان اليونانيون.

وأدبيات فولتير التي رفعوه بها فوق الطباق خفتهم وخفته كلها سرقات من أدبيات لوسيان الأنطاكي اليوناني، ووحيد الدهر وفريد العصر والسعيد بين الغربيين من عثر على معنى من معاني الفردوسي أو السعدي أو عمر الخيام فترجمها ونظمها فينال الفخار بالمعنى الواحد من ألوف معانيهم وتخيلاتهم، حتى أن شوبنهاور الفيلسوف الألماني يزين ما يكتبه في فلسفته العالية باستشهاد بشعر السعدي، واعلم أن شعر الغربيين في القافية هو أحط في الصناعة من شعر الشرقيين فإنه في منزلة الرجز المزدوج والزجل عندنا.

والبيان في لغاتهم أدون قدراً من البيان في لغة الشرقيين، واللغة الفرنساوية على ما هي مشهورة به من الاتساع تحتاج في وضع أسماء الآلات والفنون الحديثة إلى الرجوع للغة اليونانية وتركيب أسمائها منها، وربما رأيت أكبر العلماء وأعظم المتضلعين في علوم تلك اللغة يقف في

كثير من الكتب التي يترجمها عن اللغة اليونانية، وقفة العاجز المتحير ولكنه لا يأنف أن ينبه القارىء أن هناك عبارة لم يتسع للغته التعبير عنها، فما بالك باللغة الإنكليزية التي يصفونها بأنها لغة تجارية. والإيجاز كما تعلم أحد أركان البلاغة، والصحيفة الواحدة في اللغة العربية تكون ترجمتها إلى اللغات الغربية في صحيفتين أو ثلاث.

أما العلوم التي أخذها الغربيون عن الشرقيين وزادوا عليها وتقدموهم فيها؛ كالطب والهندسة والهيئة وما شاكلها، فإن تقدمهم فيها هو بواسطة الصناعة، فإذا رأيت الطبيب اليوم يبصر الداء الدفين بعينه من خلال اللحم والعظم ويكشف بسلاحه من الأحشاء ويشق ويقطع ويخيط ويوصل، فالفضل في هذا كله لآلات الصانع وللتنويم بالكلوروفورم والمورفين، على أن هذا التنويم الذي يريح المريض ويسهل العمل للطبيب كان معلوماً قديماً عند العرب في عصر الدولة الأموية، ويُحكى أن عروة بن الزبير أشاروا عليه لما أرادوا بتر قدمه باستعمال المرقد، فأبى ذلك تجلداً منه، وإذا نظرت ما يعظم في عينك ويكبر في نفسك من معالجة الأدواء المعضلات وشفائها بعد أن استعصت على أطباء الدهر كله في الأزمان الغابرة، فإن ذلك راجع إلى أصلٍ جامع هو اكتشاف المكروب الذي تبين أنه جرثومة الأمراض كلها، والفضل في هذا الاكتشاف العظيم عائد إلى الصانع صانع المكرسكوب.

وإذا رأيت المهندس يقطع لك البرزخ بين البحرين، ويخرق لك طريقاً مسلوكاً بين الجبلين ويرفع لك البناء من الحديد ارتفاع الأهرام، فالفضل في ذلك للصانع أيضاً.

وإذا رأيت الفلكي يقرب لك القمر حتى ترى فيه الوديان والجبال، ويكشف لك عن قرص الشمس حتى ترى فيه تلك النكت السوداء،

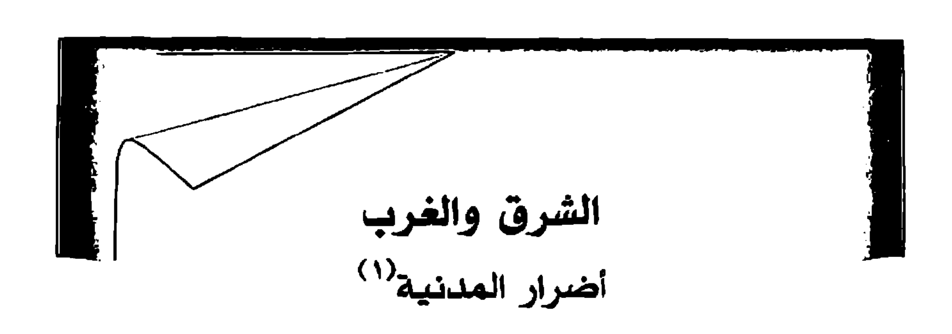
ويدني لك الثوابت حتى ترى أشكالها وألوانها وأدوارها وبينك وبينها ترليونات من الفراسخ، فالفضل في ذلك للصانع؛ صانع التلسكوب، فإن فخروا يوماً بالتوسع في علمهم وقالوا بسكنى الكواكب فكلام قديم عند اليونانيين، ومما يحكى في أطماع الإنسان وأن ليس لها من حد، أن هذا الكلام قيل في مجلس الإسكندر منذ ثلاثة وعشرين قرناً فبكى فسأله أحد جلسائه عما يبكيه فقال: أبكي لأنني لم أصل بعد إلى امتلاك سكان كرة واحدة من تلك الكرات.

خرجنا من هذا كله إلى أن الغربيين لم يمتازوا عن أهل المشرق اليوم إلا بالصناعة وآلاتها الميكانيكية، وهم فيما عدا ذلك أضعف من الشرقيين في العلوم العقلية والنظرية، وما يدريك أن آلات الصانع المصري، الذي صنع بصورة شيخ البلد من خشب الجميز، والآلات التي صنع بها صورة العجل أبيس من الجر الأصم بما يدهش أنظار كل من رآها في الأنتيكخانة، والآلات التي حفر بها على فص من العقيق صورة فرس تبصر مسامير حذائه مع الآلات التي رفعت بها الصخور إلى قمة الأهرام ـ كانت أدق صنعاً وأعظم اتقاناً من آلات الغربيين.

ولا تظنن أن آلات اليوم واختراعاته في البخار والكهرباء وغيرهما برزت في الوجود دفعة واحدة من رأس الغربيين، كما خرجت مينيرفا ملكة الحكمة من رأس جوبيتير، وإنما هي نتيجة الصدفة والاتفاق والتدرج والامتحان والاستقراء والمتابعة والترقي والمواظبة، فترى المخترع الأول يهتدي إلى أمر صغير فلا يزال من بعدهُ يتبعه ويقفوه ويجرب وينقب حتى يتحسن الاختراع، ولا يقال: تم؛ لاحتمال من يجيء فيزيد في ذلك التحسين، ولو جئت بأول من افتكر في قوة البخار وأريته هذا القطار الذي يقطع في إنكلترا مئة كيلو في الساعة، ويطوي

بك المسافة بين مصر والإسكندرية في ساعتين، وجئت بأول من افتكر في الكهرباء وأريته التلغراف يأتيك بكلام الصين وأنت في أقصى أوروبا في خمس دقائق، وأسمعته صوت المتخاطبين في التلفون وهما على بعد أسفار لذهلا وبهتا واستكبرا ذلك واستعظماه، ولأنكر أنه من عملهما كما يعظم ذلك في أعيننا وكما نعتقده عند المشاهدة أن كل غربي هو الذي أنشأ كل اختراع إنشاء كاملاً كما هو عليه الآن فاستعظمناهم، واستصغرنا أنفسنا.

بقي علينا أن نبحث في فوائد هذه الاختراعات والفنون الحديثة، هل هي من موجبات الهناء في معيشة الإنسان، أم هي من موجبات العناء وتزاحم الهموم عليه؟ وسنأتي على بيان ذلك فيما بعد.



الشرق والغرب

أضرار المدنية[1]

تنقسم الأشياء من حيث الحياة البشرية إلى ثلاثة أقسام: قسم طبيعي ضروري، وقسم طبيعي غير ضروري، وقسم لا طبيعي ولا ضروري.

فالطبيعي الضروري مثل: الأكل عند الجوع والشرب عند الظمأ وما شابه ذلك مما يهلك له الإنسان إذا فقده، والطبيعي غير الضروري مثل: ما استغنى عنه الرهبان من أمر الزواج، واللاطبيعي واللاضروري مثل: طلب الجاه وابتناء المجد، واقتناء القنيات، ويعبر بعضهم عنه بالكماليات ونعبر عنه نحن بالفضول.

أما القسمان الأولان فلهما حد ينتهيان إليه، ونهاية يقفان عندها، وأما القسم الثالث فلا حد له، فإنه إذا انتهت منه دائرة أعقبتها دائرة إلى ما لا نهاية، ولذلك قيل بموت الإنسان ومعه أهله، وينتهي ولا يكاد ينتهي طمعه.

وقد قدر الله للإنسان معيشة طبيعية خفيفة المحمل، سهلة التناول، قريبة المأخذ، ووضع فيه ميلاً غريزيًا لاجتلاب ما ينفعه، واجتناب ما يضره، وأودع ذلك من الحكمة ما شاء، ولكن من نكد الحياة، ونحس طالع الإنسان أن الإنسان بذل كل قواه، ووجه كل سعيه، وحصر كل

---

(١) ١٤ يوليه (تموز) سنة ١٨٩٨م.

همه في مخالفة تلك الطبيعة، وعقوق تلك الأم البارة بالخروج عن أحكامها، والبعد عن نظامها، فاختار لنفسه الانهماك في ذلك القسم؛ قسم الفضول، وقصر اهتمامه عليه وجعله أهم ما يشتغل به، وغايته القصوى في الحياة الدنيا، فكانت معيشته معيشة التصنع والتكلف، وكلما ارتقى الإنسان في المدنية ارتقى في ذلك القسم، فالفضول مصاحب للمدنية بالتنعم والترفه، والترفه يزيد الحاجة، وإذا زادت الحاجة زادت الهموم، واشتدت الأزمات، وفسدت الأخلاق، وكان سعي الإنسان وراء قضائها صعباً يملكه، ويغشى بصره فلا يميز معه بين النافع والضار، فهو العبد المملوك في أسر القسم الثالث، ولم يعبأ بأنه مالك للقسمين الضروريين، ومن هنا تولدت الجناية والجريمة والكبائر من الذنوب، ومن هنا ساءت المعيشة، واختل النظام، ووقعت الأمم بممالكها في الانحلال والدمار.

وهؤلاء الغربيون قد فاقوا اليوم من سواهم من الأمم الغابرة والحاضرة في التمسك بتلك الفضول، وكل الذي اخترعوه، وإن هَالَك أمره وعظم في نفسك وقعه، واعتقدت ضرورته ولزومه للمعيشة هو فضول من فضول، صورته العادة لك صورة الطبيعي الضروري.

وَالْفَتَى ظَاعِنٌ وَيَكْفِيهِ ظِلُّ السِّـ ـدْرِ ضَرْبَ الْأَطْنَابِ والْأَوْتَادِ

ولقد عاش الإنسان أروح منا اليوم بالاً وأنعم عيشاً، منذ نشأته إلى القرن الماضي غنياً عن هذا الوابور البخاري والسلك الكهربائي، وتلك الناسفات وهذه المهلكات، وما احتاج أن يضع الآلاف من النفوس تحت طبقات الأرض في عمق ستمائة متر أو أكثر، فإن لم يموتوا من حرمانهم من الغذاء الكافي أو من النصب أو استنشاق السموم، ماتوا مما يعتور معادن الفحم الحجري من الانفجار والخسف.

وعاش الإنسان أيضاً تلك الدهور الطوال، ويعيش ولا حاجة له ألبتَّة بهذا النور الكهربائي، والنور الغازي الذي صار عند الغربيين من ضروريات الحياة، بحيث أنك لو أطفأت ذات ليلة أنوار الشوارع في إحدى المدن الغربية التي أقامت آلافاً من السنين لا تعرفه، لأمست تلك المدينة من اضطراب سفينة أدركها الغرق، ولصارت ضوضاء أهلها، ضوضاء من فاجأهم الفاتح بخيله ورجله، وما سمعنا بأحد في المشرق اشتكى يوماً من فقدان تلك الأنوار، ولكنه هكذا شقي الغربي بتقدمه، فإن كان يظن أنه خلص من استعباد الملوك والجبابرة، فقد وقع في استعباد المخترعات من فضول الحياة.

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

وضرر هذه الفضول يتناول الكل، ويصيب الجميع في أدنى المراتب وأعلاها، فأغنى الأغنياء يبيت مغموم النفس، مهموم الفؤاد، جم بلابل الصدر، يتقلب على فراشه أرقاً ويتململ سهداً خوفاً أن لا يخرج فرسه من حلبة الرهان سابقاً، والغربيون لا يزالون يتحدثون بأمنيات اللورد روزبري[1]، وكيف أن السعد بلغه إياها، فإنه تمنى على الدهر في أول أمره ثلاث أمنيات: أن يصبح من أغنى الأغنياء، وأن يتولى رئاسة الوزارة، وأن يسبق فرسه في الرهان، وما كانت الثالثة بأقل قدراً عنده من الاثنتين، وبعضهم يعد نفسه من المحرومين من متاع الحياة، وعنده ما يغني أهل مدينة إذا نقص من قصره رسم من الرسوم، أو تمثال من التماثيل، انفرد به غيره، والفقير يعرض حياته اضطراراً للأمراض المعضلة التي تصيبه من مباشرة التراكيب الكيماوية بسمها الناقع، ومن تلك المضار انهماك الناس في الملاذ التي تفنن فيها

---

(١) من كبار السياسين الإنجليز.

الغربيون باختراعاتهم حتى حلت النفوس، وكلت الأجسام، وضعفت البنى فقلت الذرية، ووهنت الأعصاب فصارت في تهييج لا تحتمل معه تأثيرات الطبيعة، وكما أحدثوا من الملاذ الجديدة ألواناً وأنواعاً أحدثت لهم الطبيعة من الأمراض أصنافاً وأشكالاً.

ومن أعظم مضار المدينة أن آلات الصناعة عطلت أيدي الناس عن العمل، فإن العمل الذي كان يشتغل فيه ألف صانع في مدة طويلة يرتزقون منه، ويتعيشون، أصبح يعمل في أقصر مدة بيد صبي واحد يدير بها آلة البخار، كأنما هذا الفحم الحجري نازلة من نوازل الجدب في السنين الشهباء، فيموت الناس من الغربيين جوعاً وبجانبهم أولئك الذين يتمتعون بتلك الفضول، حتى تولد من هذا وأمثاله ذلك الداء الدفين، داء الفوضوية والاشتراكية في جسم الجمعية الغربية، وسيأتي على تلك المدنية يوم عصيب، وهو يوم تغلب الاشتراكيين والفوضويين الذين جمعتهم جامعة الحاجة، فاستهانوا بالحياة ولذّ لهم العدم، فهم يقدمون على كل عظيم بلا مبالاة، وناهيك بما حصل هذه الأيام من قيام أهل إيطاليا وثورتهم لالتماس الخبز، وتعرضهم للقتل والتعذيب والنفي والطرد، فقد بلغ ما نتج من الخسارة بما شغبوا ودمروا أربعة ملايين من الجنيهات، ولو كانت الحكومة الطليانية اشترت بجزء منها خبزاً لاستراح بالها وبالهم، ولكن المدنية الغربية قضت بجوعهم أولاً وقهرهم حفظاً للنظام آخراً.

ومن أضرارها أن ضيق المعايش على ما ترى أوجب شح النفوس، وحب الذات، فوهت عرى الوداد، ووهنت رابطة القرابة، فصار الابن غريباً عن أبيه، والأخ بعيداً عن أخيه والصهر لا يعرف صهره، وأضحت الرابطة كلها رابطة منافع ظاهرة، وفوائد حاضرة، ومآرب منتظرة.

وكأنما الطبيعة أرادت أن تنتقم لنفسها جزاء خروجهم عنها، فأوقعتهم في هذا البلاء العظيم، وجعلتهم يشعرون وهم سابحون في تيار مدينتهم بأن لا هناء في المعيشة إلا بالرجوع إليها، فهم يحتالون لذلك بآلاتهم، فبعد أن أسأمهم طول الجلوس في المركبات والقطارات اخترعوا هذه الدراجة (بسيكليت) ليجهدوا أنفسهم جهد الماشي، واخترعوا جهد الحامل، وهلم جرّاً من مثل هذه الآلات التي يحاولون الرجوع بها إلى الطبيعة.

وترى الكبراء والأمراء وذوي الثروة من الغربيين يغادرون بلادهم ومدينتهم فصلاً في السنة فراراً من تلك المعيشة الصناعية، فيجولون في الشرق للتمتع بالقرب من المعيشة الطبيعية، وأدركوا نفعها وقدروها قدرها، فمنها حديثهم، وفيها مديحهم، وبها يتغزلون في أشعارهم، وهم تحت سقف الفضة، وفوق معارج البلور.

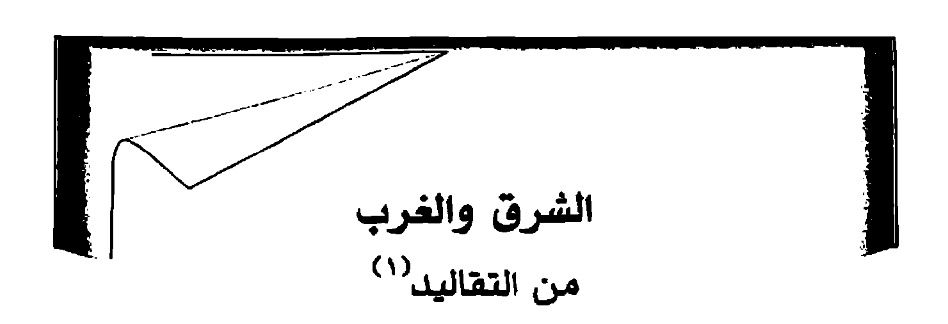
وبالجملة فكل من كان أقرب للطبيعة كان أهنأ عيشاً، وأمم الشرق التي سلمت من فضول المدنية فيها أحسن حالاً، فإذا رأيت الغربي فهو بذلك أقوى أعضاء وأخف حركة، وأكمل صحة، وأشرح صدراً، وأطول عمراً من الجالس على وسائد الحرير في رابيد سكّة الحديد بين مرسيليا وباريس.

وصاحب البيت الشرقي الذي يستضيء بزيت السراج يرى بعينه، ويبصر بها أكثر مما يرى الباريسي في ضوء الأوبرا لقوة الأولى، وضعف الثانية، وإذا رأيت الشرقي يلبس الخشن من صنع بلاده فهو عليه أنعم من مس الحرير، وأنفع وأجمل زينة له من الملابس الغربية.

رُوي أن المرحوم باي تونس الصادق باشا: أهدى إلى ملك السويد شارل الخامس عشر هدايا من جملتها مصنوعات من الحرير وملبوسات

على الزي التونسي، وأرسلها مع المرحوم خير الدين باشا، فلما لبسها الملك إكراماً لمرسلها ونظر صورته بها في المرآة، أعجبه حسنها، وشكلها، فالتفت إلى خير الدين باشا وهو بالملابس الغربية أمامه فقال له: إني لأعجب منكم كيف تكون عندكم هذه الملابس فتتركونها وتلبسون ملابسنا؟!.

وإذا رأيت ما الغربي فيه من ترتيب المعيشة ونظامها الظاهر، فهو ناشىء من كثرة التدبير والتقدير والتقتير والبخل والشح، الذي أوقعته فيه فضول المدنية. ولم يسلك الشرقي سبيله لاتساع الحال عنده باطناً، فالغربي في هم وعناء وإن تخيلته في سعادة وهناء، والشرقي في راحة وصفاء وإن حسبته في شقاء وبلاء.



الشرق والغرب

من التقاليد[1]

لا يذهب الوهم ببعض القراء أننا نقصد فيما نكتبه عن الشرق والغرب إلى إظهار الغربيين في مظهر النقيصة الفاضحة، والشرقيين في مظهر الفضيلة الواضحة، وأن نخفض من المدنية الغربية، وننقص قدرها وننكر نفعها، ونغري الشرقيين بالسكون على حالهم الحاضرة والرضا بنصيبهم من التأخر، ونميت نشاطهم ونثبط هممهم في مجاراة الغربيين ومباراتهم في ميدان تمدنهم وتقدمهم، فإن غرضنا فيما فصلناه وأجملناه أن نقنع الشرقيين بأن لكل قوم معائب ونقائص، وأن الغربيين لا يعرون من نقيصه، كما أن الشرقيين لا يخلون من فضيلة، وأن نحذرهم قبول المدنية الغربية على علاتها، وما اندمج فيها من النقائص والرذائل.

وكان جل اهتمامنا فيما قدمناه أن لا يتوهم الشرقيون أن القوم من الكمال بحيث يجب اتباعهم وتقليدهم في كل خلق من الأخلاق وعادة من العادات، وسيرة من السير، وأن لا يتصوروا أن النقص فينا بقدر توهم الكمال فيهم، فإن رسوخ الاعتقاد فينا بأن كل ما يصدر عن الغربي من الأفعال والأقوال هو نتيجة الفضيلة والحكمة موجب للتسليم له ولليأس والقنوط من النجاح في أمرنا وداع إلى استعظام شأنه، وتمكين هيبته في نفوسنا إلى درجة يستخلص بها كل حوائجه منا بسلاح هذا

(١) ٢١ يوليه (تموز) ١٨٩٨م.

الوهم فينا، وقد قيل لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: بم غلبت الأقران؟ قال: بتمكين هيبتي من قلوبهم فما لقيت أحداً إلا أعانني على نفسه.

والوهم إذا تسلط على الإنسان، والعياذ بالله، خبل النفس، وعطل الإرادة، وجعل الصحيح فاسداً، والقويم معوجاً والمريض إذا تقرر في وهمه أن مرضه قاتل له ربما أفضى به الوهم إلى الهلاك، وكذلك من تلسعه العقرب ويقع في خياله أنها قاتلته، فإنه لا يكاد يسلم منها.

ومن تأثيرات الوهم ما جربه العلماء في رجل كان محكوماً عليه بالشنق، استأذنوا الحكومة فيه للتجربة وأفهموه أنهم استبدلوا موته شنقاً بالموت بالفصد واستنزاف الدم فستروا عينيه، وأوقفوه بجانب مزراب ثم شكوه بالمبضع شكاً خفيفاً في ذراعه وأطلقوا الماء من المزراب، فاعتقد أن ما يسيل منه من دمه، وما زال على هذا التوهم حتى أُغمى عليه ومات، وما سال منه قطرتان من الدم.

ونحن نرجو بما نكتبه عن فضائل الشرق أن يتمسك بها أهله، ولا يأخذوا عن الغربي إلا ما كان نافعاً وأن لا تلعب بهم فضول المدنية وزخارفها فتوقعهم في الحاجة بعد الحاجة حتى ينتهي أمرهم إلى الخراب على ما قرره المحققون، فإنه يجب على الإنسان أن يقصد من المعلومات على الأهم، ومن المقتنيات إلى ضروريات المعيشة ومقيماتها، ويعدل عن الاستكثار منها فإن حصولها كلها مع أنها لا نهاية لها غير ممكن وكل ما فضل عن الحاجة، وقدر الكفاية، فهو مادة الأحزان والهموم، وضروب المكاره والغلط في هذا الباب كثير، وسبب ذلك طمع الإنسان من الغنى من أبواب الافتقار، ولا يكون الغنى مع الافتقار الدائم أبداً؛ لأن الفقر هو الحاجة، والغنى هو الاستقلال، والاستقلال هو أن لا

يحتاج؛ ولذلك قيل: إن الله غني مطلق، لأنه غير محتاج ألبتَّة، وقال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]. فأما من كثرت قنياته فإنه يستكثر حاجاته حسب كثرة قنياته، وعلى قدر منازعته إلى الاستكثار تكثر وجوه فقره، ونختم كلامنا هذا بالكلام عن ما للغربيين من الأخلاق والعادات التي يجب أن تجتنب، ومن الأخلاق الشرقية ما يجب المحافظة عليها، والجري على أثر أسلافنا وأجدادنا، وتجديد ما اندثر من تلك المعالم فنقول:

تنقسم الأخلاق النفسانية إلى ثلاثة أقسام: قسم غريزي، وقسم موروث، وقسم مستفاد بالعادة.

فالقسم الغريزي؛ كانفعالات النفس عند الغضب وعند الخوف، وما يماثل ذلك من الأفعال التي تصدر عن الإنسان لا عن رؤية وتدبير، بل عن اندفاع مقهور عليه، ويكون في هذا القسم الإفراط والتفريط، فالإفراط من الغضب يسمى تهوراً، والتفريط فيه يسمى بلادة وضعفاً في النفس، والوسط بينهما يسمى شجاعة وهو الحد المطلوب، وهو الفضيلة في الخلق، ولطلب هذا الوسط كتب الحكماء ما كتبوه في علم الأخلاق.

والقسم الموروث، هو ما يرثه الإنسان عن الآباء والأجداد، فقد تقرر عند علماء الأخلاق أن الخلق يورث في النفس، كما يورث الخلق في الجسم، ولهم براهين ومشاهدات لا تقبل النقض في هذا الباب ولا يسع المقام سردها.

والقسم المستفاد بالعادة، وما تتمرن عليه النفس بالتربية حتى يصير فيها ملكة.

ولما انتشر العمران والمدنية في البلاد الغربية، وكثرت

الاحتياجات، وكانت الأرض هناك غير جيدة، والتربة غير خصبة، حتى احتالوا عليها بالآلة والصناعة ليجهدوا الطبيعة، ويقسروها على سد حاجاتهم، ضاقت بهم المعايش، فكان الغالب على أخلاقهم حب الأثرة والاختصاص لحفظ الأرماق.

وهذه الأثرة هي ما يعبِّرون عنه بحب الذات، والله يعلم أنها لسنخ البلاء، وجذم الشرور، وأم المهالك، فكم فرقت الأحباب، وقطعت الأسباب، وظلمت العباد وخربت البلاد؟!، ولقد تمكنت بينهم هذه الأثرة شيئاً فشيئاً حتى تأصلت فيهم وصارت عندهم خلقاً يتوارثونه.

أما القسم الثالث المستفاد بالعادة، فإنهم مهما عالجوا أنفسهم فيه بالعلوم لاكتساب الفضائل والتحريض والتمرن عليها، فإنها لا تمكث إلا ريثما تزاحمها تلك الأثرة الموروثة، فتغلب عليها في كل حادث فلا يبقى لها أثر، وتبقى الأثرة وحدها تقود النفس كيفما شاءت، وهذا والله أعلم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٣٥] فتلد لهم فيما تلد من النقائص أنواع: البخل والشح والحرص والطمع والشره.

والشرقيون بما وهبتهم الطبيعة من جودة الأرض وخصب التربة كانوا أهل سعة في عمرانهم وأهل اكتفاء في بداوتهم، فلم يضطرهم ضيق المعايش إلى استحكام تلك الأثرة في نفوسهم استحكامها في نفوس الغربيين، وكيف وهم أبناء أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]؟.

وهم وإن كانوا اليوم أقل نصيباً من الغربيين في تمرين النفوس على الأخلاق الفاضلة المستفادة بالعلوم والرياضة، إلا أن موروثهم من تلك الفضائل يغطي على هذا النقص فيهم، كما غطت الأثرة على فضائل

الغربيين، ولذلك ترى الكلام والسماحة والمروءة والفتوة في الشرقيين أخلاقاً موروثة تقارب الأخلاق الغريزية.

وكل هذا تراه في تاريخ الفريقين وتشاهده اليوم بعينك في المعاملات بين الغربيين والشرقيين في بلادنا، من طبقة الفلاحين إلى طبقة الأمراء فالغربي يعاملهم، والأثرة في صدره تأمر فيهم، وتنهى، وهم يعاملونه وملء صدورهم الكرم، ورحب الجناب فيستفيد ويخسرون، وحق لمن كانت هذه حاله أن يكون مغبوناً في كل صفقة، واسترسالنا في هذه الأخلاق، واسترسالهم في تلك الأثرة انتهى بنا ونحن في أموالنا وبلادنا إلى أن صرنا الفقراء وهم الأغنياء، ونحن في انحطاط وهم في اعتلاء، ولو كان عند الشرقيين قليل من تلك الأثرة يقاومون به أثرة الغربيين، ويصادمونها به، لتمَّ التوازن، ولم يغلب الغربيون على أمرنا، وإليك أمثلة تدلك على الطرفين على ما ذكرنا.

يقدُمُ الابن على أبيه من سفر غاب فيه شهوراً، فإذا وجد أباه على المائدة ولا محل له فيها ذهب إلى الخارج فأكل؛ لأن الغربي لا يعرف أن طعام الاثنين يكفي ثلاثة.

وإذا كان للابن بيت وحضر وقت الطعام عند أبويه فلا حق له في تناول الطعام معهما؛ بل ينصرف إلى بيته، ومما يروى أن الدوق كنوت ابن جلالة ملكة الإنكليز كان في موسكو في احتفال تتويج القيصر، يذهب إلى بيت أخيه الدوق سكس كبورج قبل ميعاد الطعام بقليل فيقبله أخوه على المائدة، فاشتهر ذلك وعد من النوادر، وتناقلته ألسنة الرواة إعجاباً بهذا الكرم الغربي.

والإنكليزي لا يقابل أحداً في بيته، فإذا أراد مقابلة صاحب له بعث له ببطاقة الزيارة مكتوباً عليها: «إن المقابلة تكون في الكلوب» وقد

تمكنت منهم هذه العادة حتى إذا أراد أحدهم أن يدعو صاحباً للطعام عنده كانت عبارة الدعوة قاصرة على قوله: «فلان في منزله في الساعة الفلانية» فيفهم الصاحب من هذه الجملة أنها دعوة طعام، ومن عاداتهم أن المدعو إلى طعام يبادر عند الدعوة إلى إخبار الداعي بالحضور أو الاعتذار عنه، حتى لا يكون فيما يستحضره من الطعام المقدر على رؤوس المدعوين نصيب معطل. وقد حرصوا على هذه العادة حتى لم يغيرها إسراف دعت إليه المدنية، فترى أحد العظماء منهم يستأجر قطاراً مخصوصاً لمن دعاهم إلى قصره في ضواحي المدينة أو في أرضه البعيدة ولا ينسى حساب طاهيه في عدد البيض وقطع اللحم بقدر رؤوس المدعوين، وإذا لم يكف المدعو الذي جاء في القطار المخصوص نصيبه قام جائعاً، إذ لا يمكن أن يكون له فوق نصيبه المقدر شيء.

وهذه الأمثلة على حقارتها تكفيك أن تعرف بها أن الأخلاق الموروثة لهم مغروسة في أعماق النفس، لا يغيرها مغير من مدنية أو رياضة من علم كما قدمنا.

وبعض الكبراء والأمراء منهم لا مطبخ له، وإنما يستحضر طعامه وطعام ذويه من الكلوب ليتخلص من سرقة الخدم، ويروى أن أحد القناصل الفرنسويين في مصر سابقاً كان رابع أربعة في بيته، فكان يستحضر من الكلوب نصيب اثنين من الطعام فيكتفي به الأربعة، وهنا صح عند جناب القنصل أن طعام الواحد يكفي الاثنين، وشكا إليه ابنه يوماً من قلة الطعام، فقال: إني أرى الأمر بالعكس فالطعام كثير، وكتب من ساعته إلى صاحب الكلوب يطلب نصيباً ونصفاً بدل النصيبين، ولما لم تسبق العادة في الكلوب بإعطاء نصف نصيب اجتمعت لجنته وتداولت في طلب القنصل وقررت أنه لا يمكن أن تخرق عادة الكلوب بهذا

الطلب، ولكنها راعت القنصل فسلمت بإعطائه النصيبين بثمن نصيب ونصف.

ومما يسمر به من المخترع على البخلاء في كتبنا؛ أن أحدهم كان يضع الجبن في زجاجة ويأتدم به من وراء الزجاجة، ولكن الغربيين يفعلون قريباً من هذا، فإن من تبلغ ثروته فوق الثلاثمائة ألف فرنك يفتتح طعامه مع عائلته بالسردينة الواحدة أو السردينتين، والعائلة الفقيرة منهم تفتتح طعامها وتختمه بالسردينة الواحدة، فتضعها على الخبز بدل الصحفة ثم يأتدمون بهذا الخبز بعد أكل السردينة لما عليه من أثرها.

وترى الغربيين يكثرون من أكل الأرانب لما في جلودها وعظامها من التعويض عليهم في أثمانها.

والعظام عند فقراء الغربيين لا ترمى عبثاً بل تحفظ في زنبيل بين أهل الحارة ثم تباع ويقتسمون ثمنها.

والخادم يخدم عندهم بالساعة لا باليوم ولا بالشهر، فتراه يخدم في جملة من البيوت في ساعات نهاره.

ومن الغالب أن لا يكون عند الغربي فرس لمركبته إلا إذا بلغت ثروته مليوناً من الفرنكات وإذا كان عنده فرسان فثروته مليونان.

وفي إيتاليا بلدة تعمل السباخ يشترط في أجرة البيوت على الساكن قضاء الحاجة فيها لا في غيرها.

هذا من جهة الشح والبخل، وإذا نظرت إلى المعاملات، ووقفت على نصوص التسجيلات والصكوك والشروط، وما فيها من التدقيق والإمعان واستشارة المحامين علمت ضرورة تلك القيود للوفاء، وإلا فلا معنى لهذه المتاعب.

وللغربيين في مجتمعاتهم ونوادي أسمارهم ومجامع رقصهم عوائد

لا توافق الشرقي، ولا يجدر به أن يعدها من أنواع المدنية، فيسعى في تقليدها كما شذ أحد البكوات من المصريين، فجعل الاحتفال بزواجه قاصراً على إقامة مرقص في بيته وهو المعروف بالباللو، ولكن ما ثناها أحد من الشرقيين بعده لخروجها عن آدابهم.

أما الضيافة والقِرى في الشرق فأمر مستفيض، ولا يبيت أحد في بلدة شرقية طاوياً، فأينما حل وجد طعاماً حاضراً، وصدراً رحيباً في كل طبقات الناس من الصغير إلى الكبير، ومن العادة في السراي السلطانية أن لا يدعو أحد أحداً على الطعام؛ لأن مجرد حضوره إيذان بالدعوة إليه، وكأن الناس هناك عائلة رجل واحد لا يحتاجون بينهم إلى دعوة، وقد زادوا في الكرم حتى قرروا للآكل مبلغاً يهدى إليه بعد الأكل في المواسم يسمونه أجرة الأسنان، والشرقيون لا يقتصر حنوهم على الأهل والأقارب بل الجار وجار الجار، وكم نفع الجوار قوماً، وقام لهم مقام أواصر النسب فاعتمدوا عليه وجعلوه مدخراً للملمات!!.

باع أبو الجهم العدوي داره، وكان في جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلما أحضرها المشتري قال له: هذا ثمن الدار فأعطني ثمن الجوار، قال: أي جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحد جواراً قط؟ فقال: رد عليّ داري وخذ مالك لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عني، وإن رآني رحب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قربني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتني نائبة فرج عني، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائة ألف درهم وقال: هذا ثمن دارك ودارك لك، ولم يكن حفظ الجوار قاصراً على المشاركة في النعماء إذا نابت الجار نائبة، بل كان يصل إلى مشاركته في

البأساء والضراء وهذا من عظم النفس، وعلو الجناب بمكان لا يصل إليه إلا حكيم من الحكماء الذين زينهم العلم بفضائل الأخلاق.

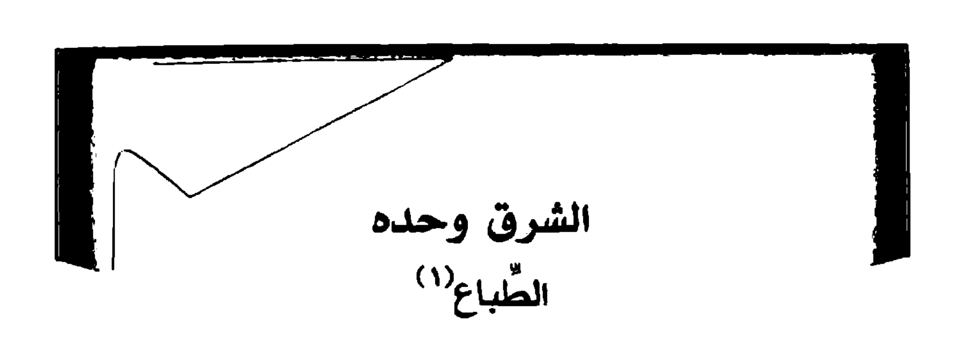
ويروي أن أبا البختري كان فيمن نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم، فلقيه المخدر بن زياد حليف الأنصار فقال له: إن رسول الله نهانا عن قتلك، ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة يقال له: جنادة بن مليحة، فقال أبو البختري: وزميلي؟ فقال المخدر: والله ما نحن بتاركي زميلك ما نهانا الرسول إلا عنك وحدك، فقال: إذاً والله لأموتن أنا وهو جميعاً لا تتحدث عني نساء أهل مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة، فنازله المخدر وارتجز أبو البختري:

لَنْ يُسْلِمَ ابْنُ حُرَّةٍ زَمِيلَهُ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرَ سَبِيلَهُ

ثم اقتتلا فقتله المخدر.

وأين هذه المكارم في الإنسانية وعلو النفس، مما نسمعه اليوم عما جرى لغرقى سفينة بورجون حيث علم من تفاصيل المشاهدة أن الرجال الذين نزلوا في القوارب للنجاة كانوا يدفعون الأطفال والنساء عن النزول معهم بالمدى والسكاكين، فقطعوا الأيدي التي كانوا يتضرعون لهم بها، ويقال: إن عدد الذين ماتوا من مثل هذه الوقائع أكثر من عدد الذين ماتوا غرقاً.

وقد طال بنا المقال في هذا الباب، مع أننا لم نذكر إلا قليلاً من كثير، ووقت القارىء عزيز عليه.



الشرق وحده

الطِّباع[1]

لما كان الشرقي واسع الخيال حديد الذهن مشتعل الذكاء لطبيعة الأقاليم الشرقية، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة، ويعجل بمصادر الأمر عند سماع بوادره كان أسرع من غيره في الحذر والتوقي، فهو ينحاز بطبعه إلى مصدر كل قوة يخشى ضررها ويرجو نفعها، ولما كان الأذكياء أطبع على التقليد والحكاية ـ وهذا ظاهر فيهم ظهوراً بيناً، فإنك تجد أحدهم إذا جلس معك برهة قصيرة قام وقد امتزج به وانطبع فيه من إشاراتك وحركاتك وشمائلك ما لم يقصده بإرادة ويتعمده بنية ـ وكان الإنسان يميل بالطبع إلى حكاية ما يعظم في نفسه وتقليد ما يكبر في عينه، كان أهل الشرق أشد الأمم تعلقاً بتقليد الحاكم الذي هو مجتمع القوى ومصدر الضرر والنفع بينهم.

وفي تقليد الناس للحاكم فوق ما ذكرنا محاولة بلوغ أمرين: أن يتقربوا إليه بتقليده في أخلاقه وعوائده لينالوا منه الزلفى؛ لأن الإنسان معجب بنفسه، فينظر إلى من يقلده بنظر الرضى ويرى في مشاركة من يحكيه في خلائقه وشمائله اعترافاً له منه بالصواب.

والأرواح جنود مجندة ما توافق منها ائتلف وما تنافر منها اختلف، وهذا سر التمازج بين الخلطاء. وليس هذا بقاصر على الخلق النفساني

---

(١) ٢٨ يوليه (تموز) ١٨٩٨م.

بل يتعداه إلى الخلق الجسداني، فصاحب العين السوداء أكثر ميلاً إلى صاحب العين السوداء.

والأمر الثاني: اعتقاد الحاكي والمقلد أنه إذا ظهر عليه أثر من أخلاق ذلك الحاكم وعوائده عظم في النفوس لاستمداده هذا الخلق من مصدر القوة، وانتسابه إلى الطبقة العالية به فيصير المقلد مقلداً إلى آخر الطبقات ولذلك قيل: «الناس على دين ملوكهم»؛ يعني: على طريقتهم وأخلاقهم، ولطالما رأيت الأمم تقيم أجيالاً على احتمال الظلم والضيم ولا تشعر به ولا تأنفه لسريان هذا الخلق فيها واعتيادها عليه وتقليدها فيه، واختصاص كل فرد منها بنصيب من الظلم ونصيب من تحمله فكلهم ظالم وكلهم مظلوم، وعلى هذا النمط إن كان الحاكم ظالماً ظلموا، وإن كان عادلاً عدلوا، وإن كان جاهلاً جهلوا، وإن كان عالماً راجت بينهم للعلم أسواق، ولما ذهب أفلاطون إلى دينيس الصغير ملك سيراقوز حوله عما كان فيه من الاسترسال في الظلم والانهماك في الشهوات إلى محبة الحكمة والعلوم الفلسفية، فأصبحت ساحة قصره خطوطاً هندسية وأشكالاً رياضية تخططها حاشيته لسرعة تقليدهم للملك في ما تولع به مدة إقامة الفيلسوف عنده، وكذلك المأمون العباسي انكب الناس في أيامه على العلوم لاشتغاله بها.

ولما كان الحاكم مصدر الرغبات ومحط الآمال تولد فيمن يحيط به من الحاشية والبطانة تلك الطباع الأربعة: الحسد والسعاية والتملق والغيبة، فقد زاد على تخلق الناس بأخلاق الحاكم تخلقهم بهذه الطباع أيضاً، فإذا كان خلق الحاكم فوق ذلك سيئاً، اشتد البلاء وعمت الشرور.

وما زال الحكام من الأجناس المختلفة والطوائف المتغلبة

يتعاورون الحكم على أمم المشرق، ولم يكونوا إلا في النادر من سلسلة دائمة الاتصال تتوارث فيها الأخلاق الفاضلة ويستمر فيها تهذيب الآداب وتربيتها لنزع الأخلاق السيئة، حتى تأصلت تلك الطباع بين أهل المشرق وربوا عليها ولم ترسخ فيهم الفضائل المهذبة لتلك الطباع رسوخ الملكات الثابتة لسرعة تقلب الحكام وسرعة تقليدهم، فإنه قبل أن ترسخ فيهم ملكة الحلم بأخلاق الحاكم الحليم مثلاً يعقبه حاكم آخر مخالف للأول وثالث مخالف للثاني وهلم جرّاً.

أما الحد فهو شر الرذائل وربما وجد المتصف بالرذيلة شيئاً يستريح له في ارتكاب الرذيلة كالانتقام عند الغضب، والحسد لا تستريح له النفس في شيء بل هو تعب في تعب.

وَأتْعبُ خَلْقِ اللهِ مَنْ باتَ حَاسداً　　　لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقلَّبُ

وقد قالوا: إياك والحسد، فإنه يبين فيك ولا يبين في المحسود، وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً قد بلغ مائة وعشرين سنة فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت، وقال عثمان ﷺ: يكفيك انتقاماً من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك، والكبر قبيح ولكن ترفعه عن الحسد يخفف من قبحه شيئاً قليلاً.

وأما السعاية فهي الفتنة والفتنة أشد من القتل وربما محت العشيرة والقبيلة والمدينة والمملكة، اختار محمد علي عيسى بك من خاصة مماليكه ليزوجه بإحدى قريباته، وكان قد بعثه إلى السودان لإدارة بعض شؤونه، فحضر من السودان أحد حاشية محمد علي، وكان بينه وبين عيسى بك بعض الحزازات، فسأله الأمير متى يحضر عيسى بك ـ وكان قد استدعاه لهذا الزواج ـ فقال: إنه يتأخر ريثما يأتي بأولاده (وما كان له أولاد في الحقيقة) فغضب محمد علي لزواجه، ثم خرج الرجل ووقف

بالباب بحيث يسمع الأمير كلامه، وقال لبعض الحاضرين: قد ارتكبت الآن إثماً عظيماً، فإن عيسى بك إذا سمع بغضب الأمير قتل أولاده، وأراد بهذا التلفيق عقد الفتنة بأطرافها، فأمر محمد علي في الحال بإبقاء عيسى بك في السودان، ولما بلغه الأمر مات من الحزن. هذا بعض ما يتفنن فيه حاشية الأمراء من السعاية ببعضهم.

وأما التملق فإنه الآفة الكبرى في تثبيط همم الحكام عن الأعمال، فإن الشعراء والمتملقين يصفون الأمراء والحكام بما لم يفعلوا، وينسبون لهم ما ليس فيهم فيستريح الحكام من الجد في كسب المحامد؛ لأنهم اعتقدوا كسبها بنشرها عنهم على لسان أولئك المتملقين، وقد كان أحد الأمراء يعتذر عن أخطائه بقوله: إننا معشر الأمراء لنعذر إذا أتبعنا الخطأ بالخطأ فإننا تعودنا من جلسائنا ومعاشرينا أن يستحسنوا كل ما صدر عنا ويستصوبوه، ثم لا يكتفون بذلك حتى يقلدونا فيه ليحكموا غشهم لنا.

وأما الغيبة، فهي سلاح العاجز يقاتل به القوي من ورائه، وقيل لرجل: ما السيد؟ قال: الذي إذا حضر هابوه وإذا غاب عابوه، ولا ترى الغيبة فاشية إلا بين الضعفاء وربما أودت كلمة بقائلها.

وتغير أخلاق الحكام وتقلبهم فيها، وسريان تلك الطباع بين أهل المشرق نشأ عنه الملل والكسل والانخذال؛ لعدم استقامة الأمور على حال واحد، ولتعذر السير على مبدإٍ وغاية، وهذا هو الداء الذي أزمنت فينا آثاره إلى اليوم، وضربت به الأمثال وكثرت فيه الأقوال حتى زادته لدينا رسوخاً وبه استئناساً، وحمل الغربيون حملتهم علينا فبالغوا فيه ونسبوا إلينا نوادر في فتور الهمم وخمود العزائم يبعد على العقل تصديقها.

ولكن أي عذر نعتذر به اليوم في البقاء على هذه الطباع، بعد أن

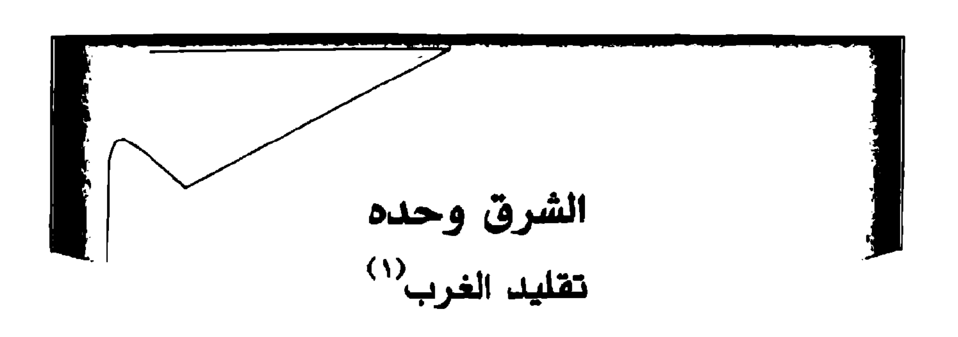
اندرجت القرون التي أورثتنا إياها في أكفان الدهر، وأصبحنا في عصر ليس لمثل تلك الطباع أساس فيه ولا أحكام، وأصبح للعلم أكبر سلطان، واجتهد الحكام والأمراء في إظهار الفضيلة وأخذوا يتسابقون إلى شهرة الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة عنهم، فلا خوف حينئذٍ من سلطتهم علينا بمثل تلك الأخلاق المتقلبة التي قدمنا بيانها، وقد تقرب الحاكم والمحكوم إلى درجة حطت من شأن طباع الحاشية التي ذكرناها لبلوغ التقرب والزلفى، فلم يبق من حاجة تكره النفوس على الأخذ بها والاستمرار على تقليدها.

نعم قد بقينا على هذه الطباع ونتائجها من الكسل والتقاعد أزماناً لم يكن أمام الشرق مزاحم له محدد الأنياب مصقول الأظافر متفق الرأي على افتراسه بسلاح النشاط والجد والسعي والكد، ولكن الغربي اليوم يدبر ويفتكر وينشىء ويبتكر ويبتدع ويخترع ويدأب ويجتهد ويتفق ويتحد لتمزيق أعضائنا وافتراس أشلائنا، ويحل في البلد الشرقي فيحل فيها ويعقد ويصوب ويصعد ثم يجلس فوق أطلالها فنسمع منه ونحن بين أنقاضها ـ عزلنا وأمرنا.

وقد أودعت الطبيعة في كل حي فطرة تقسره إلى دفع الخطر عنه، وتوجهه إلى حفظ الرمق فيه، وجعلت في بعض الحيوان قوة في الجسم يدفع بها وقت الخطر، وجعلت في بعضه قوة في الفكر يحتال بها للتفادي من المهلكات. فهل يجمل بالإنسان وهو أرقى الحيوان أن يغفل القولين ويهمل الطريقتين؟ وهل يرضى الشرقي لنفسه بمثل ذلك وقد وهبه الله مزايا على بني نوعه كثيرة؟ ونحن لعمر الله لا نكلفه المصارعة بالقوة ولا الاحتيال بالفكر وإنما ندعوه إلى إطراح الكسل ليهب إلى تقليد القوم في جدهم ونشاطهم وتيقظهم وانتباههم، ولا عذر له والمثال

موجود وعناء الاستنباط مفقود فيقلع كل الإقلاع عن تلك الطباع المزرية به والآفات المهلكة له، وما بقاء هذه الآفات بيننا ولم يصبح في أيدينا من النعم ما يقع عليه التحاسد، فما وجه الحسد؟ وللأحكام اليوم نظام وللمساواة بين الناس سبيل، وللعلوم قدر، وللفضائل شأن، فما وجه التملق؟، واشتد بنا البلاء وانخفض منا الشأن، وانحط القدر في جانب الأجنبي وهو في بلادنا.

فما الذي يحوجنا إلى التزاحم في أضرار أنفسنا بأنفسنا، وإيذاء بعضنا ببعضنا؟ وما وجه السعاية ولم يبق من أمورنا شيء مستور عن القريب والبعيد، ولا حجاب يحجب معائبنا؟ فما وجه الغيبة؟



الشرق وحده

تقليد الغرب[1]

بيّنّا أن الشرقي أسرع في التقليد وأطبع على الحكاية ممن سواه من بقية الأمم، وأن الشرقيين يقلدون الحاكم والأمير والحاشية لقوتهم ولمحبة التقرب منهم، ولما علا شأن الغربيين وقامت دولتهم وعظمت قوتهم كان نصيب أمراء الشرق من أهل الغرب نصيب الشرقي من أميره والمحكوم من حاكمه في مثل ذلك التقليد، ليظهروا أمام رعيتهم مظهر الغربي في قوته وبأسه وليستروا عن أعين رعيتهم ما تحس به الرعية من ضعف السلطة الشرقية أمام السطوة الغربية وليستعينوا بالغربي على حكم رعاياهم لظهورهم في مظاهره فيكفوا بأسه عنهم ويجمعوا بأسه مع بأسهم فيصبوهما على رؤوس الرعية بعلة تأخرهم في المدنية.

فكان أول ربح الغربيين من ذلك رواج بضائعهم وانتشار صنائعهم ودوام الحاجة إليهم واستحكام تداخلهم في جوف الشرق حتى نفذت كلمتهم وراجت سياستهم وعمت سطوتهم واتسعت أطماعهم ورسخت أقدامهم فتناول سوء العاقبة الحاكم ورعيته. أما الحاكم فإنهم زحزحوه عن حكمه وسلطته وتسلطوا عليه من الطريق الذي أراد أن يتسلط بها على رعيته وذاق الحكام مرارة الاستهانة بالشرق والاستعانة بالغرب.

وأصبح كثير منهم يلقون تبعة ما أصابهم على عواتق الشرقيين،

---

(١) ٤ أغسطس (آب) ١٨٩٨م.

ويرمونهم بالعقوق والخذلان ويلومونهم على استكانتهم وامتثالهم للغربي وتقديره بالقدر الذي غرسوه بأيديهم في صدور رعاياهم، وأما الرعية فمصابها أعظم، وبلاؤها أكبر لاستئصال الغربي أصول صنائعهم واستنزافه مادة ثروتهم بما يبيعه عليهم من بضائعه التي أصبحوا في ألزم حاجة وأشد ضرورة إليها.

فدعتهم الحال تدريجاً إلى إهمال صنائعهم حتى انمحى جملة منها بالكلية، وصار الشرقي من إمعانه في تقليد الغربي في معايشه ومرافقه لا يكاد يحس بنسبته إلى الشرق إلا بفرق الجو والفقر، وقد تأبى الشهامة للمرء أن يكون عيلة على أهله وذوي قرابته، ولكن قضي على الشرقي أن يكون عيلة على الأجنبي عنه الطامع فيه السالب له، فيأخذ منه محصولات بلاده بما يقدره من الثمن البخس، ثم يعيد إليه الرديء منها بعد أن ينتخب لبلاده أحاسنها وقد تغالى في أثمانها على هواه فيغدرهم في الصفقتين ويجعلهم في أسر الحاجتين حاجة البيع وحاجة الشراء.

وقد ظهر الاحتياج من الشرقي إلى الغربي في كل ما يقع عليه النظر ويجول فيه الفكر من حاجات المعيشة، بحيث لو أمسكت بأول من يلقاك في طريقك وامتحنت ما عليه من رأسه إلى قدمه لم تجد شيئاً مما عليه من عمل بلده، ولو فتشت أثاث بيت أي بيت من الباب إلى السطح لم تر فيه لغير الغربي من أثر.

ولو منع الغربيون بضائعهم عن الشرق أو لو منعت لحادث من الحوادث، كما وقع في الثورة العرابية لرجع الشرقيون إلى حالة مؤلمة، يظهر فيها افتقارهم لأحقر شيء يتهاونون به اليوم، وقد أحس المصريون بهذا الافتقار في تلك الثورة حين تعطلت التجارة مدة أشهر مع ما كان

لديهم من بقايا تلك الحاجات الغربية التي أوجب استعمالها والانكباب عليها محو صنائعهم وجعل فيها قوام معيشتهم.

والصنائع الشرقية نفيسة في ذاتها منطبقة على طبائع البلاد موافقة في الاستعمال لسكان الشرق؛ لأنها نتيجة لتجارب في القرون الطويلة، ويدلك على نفاستها إعجاب الغربيين بها واستحسانهم لها واستعمالهم إياها، ولو تكلفت عليهم أكثر من الصنائع الغربية، ومن عجيب ما ورد في التقليد الأعمى أننا لا ننتبه إلى محاسن صنائعنا وجميل استعمالها إلا بعد أن يأخذها الأجنبي عنا فيدعونا تقليدنا إياه إلى الرجوع إليها، فصرنا لا نهتدي إلى ما عندنا إلا بعد أن ينتقل إلى الغربي لنكون وراءه حتى فيما يعترف بتقدمنا عليه فيه، والغربي لا يقف عند حد في تجديد مستعملاته، فهو يخترع مرة ويرجع تارة إلى ما كان له من الأزياء والمستعملات في العصور القديمة، فيتصرف فيها بأنواع من التحسين ليكون دائماً في تجدد لاتساع نطاق التجارة والصناعة.

وأما الشرقيون فقد وقفوا وأيديهم فارغة مما كان عندهم من الصنائع، وجمعوا بين عجزين: عجزهم عن التجديد وعجزهم عن حفظ القديم، ولما التفت الغربيون في مصر إلى استعمال شغل الخرط الشرقي القديم الذي كان يأنف الشرقيون من رؤيته وأشرفت صناعته على التلاشي، رجع الشرقيون إلى تزيين بيوتهم به، وحسَّن التقليد منظره في أعينهم بعد استقباحه، وبهذا تجددت هذه الصناعة في القطر المصري واشتغل بها عدد كثير من الصناع حتى صارت مورداً من موارد الرزق لأهل البلاد في هذه الأيام.

ولو سمع قادم على قطر كالقطر المصري إن هذا القطر يجني أهله من أرضه في كل عام سبعة ملايين قنطاراً من القطن، ولا يعمل فيه خيط

يلفق به ثوب لظن أنهم محرمون، أو محرومون ولرجع عنهم أو طمع فيهم، ولو مثلنا لك على هذا بقوم يبيعون من زراعتهم كذا مليوناً أردباً من القمح، ثم ينتظرون خبزهم أن يأتيهم من الخارج لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً.

ولا يقال: إن الصنائع في الشرق متأخرة لا يرغب فيها، ولا أن أهل الصنائع فيه أقل استعداداً من غيرهم، ولا أن الغربي يفوق الشرقي في الإتقان وإحكام الصنعة ودقة الوضع، ولا أن كل المصنوعات الغربية تزري بكل المصنوعات الشرقية، وإنما الذي دعا إلى انحطاطها وتلاشيها هو انكباب الكبراء والأمراء على التقليد الغربي وازدراؤهم بمصنوعات بلادهم، حتى سرى هذا التقليد في كل طبقات الأمة، ولو أن الشرقيين التفتوا إلى هذه الصنائع وروجوها بينهم لاستغنوا بها عما لا يوافق بلادهم من الصنائع الغربية، ولتفادوا بها من ذل هذا الافتقار الدائم والاحتياج المستمر للأجنبي، ولتمتعوا بما هو أليق وأوفق لطبائعهم وطبائع أقاليمهم، ولاستفادوا من بقاء أموالهم في بلادهم، ولحفظوا ثروتهم من تبذيرها للأجنبي، ولدفعوا بها تداخل الأجنبي في بلاهم لقلة احتياجهم له، ولفتحوا موارد للرزق تشتغل فيها الأيدي التي باتت معطلة بينهم لتخلص الجمعية الشرقية من سوء عاقبة هذا التعطيل.

وقد كان محمد علي أراد أن يصنع مصانع كثيرة لتشغيل أنواع من البضائع اللازمة للمصريين، وكاد ينجح فيما أراد، ولكن الأجانب قاموا في وجهه ومنعوه بحجة أنه لا يجوز أن يكون حاكماً وتاجراً وكان لهم وجه؛ لأنه احتكر هذه الصنائع لنفسه ولم يقو لذلك على معارضتهم فأبطل جميع ما صنعه، ومع ما في الأمر من الاحتكار، فإنه كان خيراً للمصريين لوجود ما يشتغلون فيه، وكان المغفور له إسماعيل باشا

الخديوي الأسبق يذكر في سمره لزوم هذه الصنائع لمصر فيحث عليها، وذلك في الأوقات التي كان ينحرف فيها عن الأجانب لأغراضه السياسية والمالية، وفي هذه الأثناء كان أحد المنسوبين إليه يشتري الستارة الواحدة الغربية لنوافذ بيته الكثيرة بثلاثمائة وخمسين جنيهاً! فكيف يكون الحال في ستائر قصور الأمير التي كانت تعد بالألوف؟!.

نعم كان يلزم لنا ستائر من الجلد الكثيف نستر بها وجوهنا من فضائح هذا الإسراف وجهلنا بمضرات نتائجه القريبة، ولو كان العثمانيون بقوا على ملابسهم القديمة لكان أولى بأخلاقهم المشهورة من الشجاعة والشهامة وعلو النفس عن تقليد الغير، ولكن الدولة العثمانية أصيبت برشيد باشا فوق ما أصيب أحد بحادث من الحوادث، فهو الذي زحزحها عن عوائدها وملابسها وأخلاقها، وترك من يأتي بعده من أساة السياسة وأطبائها يعانون علاج هذا الداء مع ما أنتجته سياسته من المشاكل والمعضلات.

ولقد أحاط جلالة مولانا الخليفة الأعظم[1] بهذا وبما أغفله الأولون، فأمر بتجديد المصانع والمعامل لكثير من الصناعات، حتى أصبح ما تحتاجه العساكر الشاهانية يصنع في تلك المعامل، وقد أخذ الأهالي يستعملون تلك المصنوعات ويفضلونها على الصنائع الغربية، فمنها معامل للحرير والصوف والأقمشة والورق وغيرها.

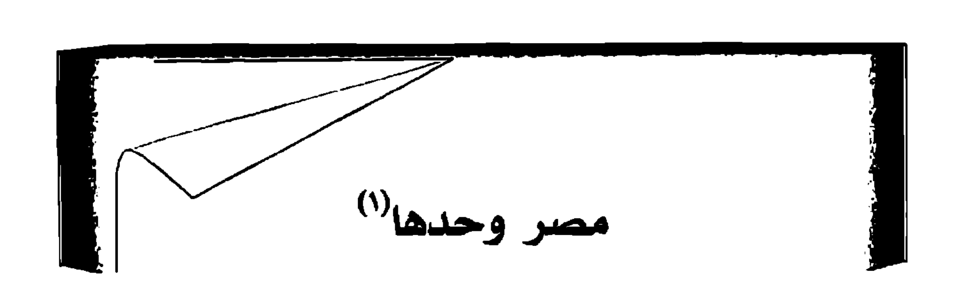
خصوصاً ما يصنع الآن في الطوبخانة العامرة من المدافع والأسلحة التي تستغني بها الدولة عن جلبها من مصانع الغرب، وبدوام هذا التجديد يزول الاحتياج إلى الأجنبي في ظل جلالته، فيجب على

---

(١) يقصد السلطان عبد الحميد (١٨٤٢ ـ ١٩١٨م).

أمراء الشرق أن يقلدوا السلطنة العثمانية، ونسأل الله أن يعين جلالة مولانا الخليفة أمير المؤمنين على إصلاح ما أفسده السابقون وتجديد ما أغفل الأولون.

هذا ولا ننسى ما ينشط به الجناب الخديوي أبناء بلاده من عنايته بأرباب التجارة الشرقية مما يوجب له الشكر وجميل الذكر.



ذكرنا الشرق والغرب ثم ذكرنا الشرق وحده، والآن نخص منه مصر على حدة؛ لأنها واسطة عقده وجوهرة تاجه، وهي أزهى البلاد سماء وأحلاها ماء وأثراها أرضاً وأوفاها نهراً وأنماها نسلاً وأصفاها ليلاً وأجلاها نهاراً وأوسطها إقليماً وأبسطها عيشاً، ولو واصلت رجلاً بالتلغراف في ساعة من النهار من لونده مدينة الدنيا وأم العواصم ومفتخر الإنكليز وسألته عن ظلمتها وضيق الأنفس والأنفاس فيها، ثم سألك هو وأنت في مصر عن تجلي الشمس ينبوع الحياة فوقها لوصف لك ظلمة القبور ولوصفت له نور القصور، وقد اعترض إنكليزي على مجوسي من الهند لعبادته الشمس فقال له المجوسي: لو كانت تشرق في بلادكم مثل إشراقها في بلادنا لعبدتموها معنا، وأرض مصر تنبت ما ينبته كل إقليم لاعتدالها وخصب ترابها، ولو حفظ الحكام ثروتها التي تذهب إلى الأجانب ذهاب نيلها في البحر لم يعادلها بلد في الغنى والثروة، ولبنى أهلها قصورهم من لبن الذهب والفضة ولأصبح فلاحها في غنى سوارسها اليوم ولكن.

كُتِبَ الْفَقْرُ وَالْخَسَارُ عَلَيْنا   وَعَلَى الظَّالِمِينَ سَلْبُ الْحُقُوقِ

---

(١) ١١ أغسطس (آب) ١٨٩٨م.

وقد صارت بهذا مطمحاً للطامع ومسبحاً للملتهم ومسرحاً للمفترس، فامتصوا ثروتها واقتصوا من أهلها ورصدوا كل زهرة ليقتطفوها ويختطفوها عند إبانها ونضجها، حتى أصبحت تلك المحاسن الطبيعية في عيون أهلها من المشوهات لجمالها.

والمصريون يغلب على أخلاقهم الدعة والدماثة ولين الجانب وحب الاكتفاء، حتى تكاد تنطبق حياتهم على قواعد الفلسفة لو كان ما غلب على أخلاقهم مما ذكرنا من تلك الصفات، لم يكن نتيجة عن الظلم وعما ولدته قسوة الحكام فيهم وغلظتهم عليهم فقد حمَّلوهم من ذلك ثقلة الأهرام على كواهلهم، وضربوا عليهم أن لا يئنوا لكيلا يكدر أنينهم صفاء الحكام، فلبثوا في هذا العذاب المهين قروناً لا يرجون نزول رحمة ولا رفع ظلامة ولا انفراج أزمة، ووضع الحكام أمام الرعية سدّاً فلا يرون ولا يسمعون عن غيرهم من الرعايا شيئاً، فظنوا أن حياة كل رعية تحت حكامها مثل حياتهم، يظلمونها وتحمد ويقهرونها وتخضع ويسومونها أنواع العذاب وتقبل، وما كان يستطيع أحد أن يسافر إلى البلاد الأجنبية، ولا إلى دار الخلافة إلا تاجر في الجواري أو تاجر في الجواهر أو مبعوث من جانب الأمير، فعطلوا من واجبات المسلمين معرفة الخليفة وهو ذلك الواجب الذي نص عليه الحديث الشريف بقوله عليه الصلاة والسلام: «**من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية**»[1].

وكان البديهي والمعقول في مثل هذه الحالة أن ينفر الرعايا من

---

(١) هذا من أثر دعايته للسلطان عبد الحميد بعد أن كان خصماً له وراجع كتابه «ما هنالك».

حكامهم، وهم على مثل ذلك من الظلم والعسف، وأن يشمئزوا منهم ويطلبوا الخلاص من ربقتهم وينظروهم نظر المبغض الكاره.

وَٱحْتِمَالُ ٱلْأَذَى وَرُؤْيَةُ جَانِيـ ـهِ غِـذَاءٌ تَـضْـوَى بِهِ ٱلْأَجْسَامُ

إلا أن استمرار الظلم عليهم ودوام العسف فيهم واعتيادهم عليه أوقعه في نفوسهم موقع الطبيعي اللازم فكانوا يجلون الحكام ويقدسونهم وينزهونهم عن الصفات البشرية، ويتقربون منهم ويفرحون بالنظر إليهم ويفتخرون بالحديث عنهم، ويجعلونه أهنأ غذاء لأرواحهم فسرى فيهم حب التفاخر بالحاكم واكتفوا من أسباب المجد والسعي وراء المحامد بما يحتالون له من الانتساب إلى ذلك الحاكم الذي يغني ويفقر بلحظة ويحيي ويميت بلفظة، فتولد فيهم الميل إلى الكسل وتغالوا في حب التفاخر غلواً كبيراً، فكنت ترى أهل بيت يتوارثون الفخار سلفاً عن خلف بمقابلة حاكم من الحكام لجدهم الأعلى، وأعرف رجلاً وجيهاً من أعيان مصر كان إذا أتته دعوة من أحد المقامات العالية أطلع عليها كل من يلاقيه، فإذا قاربت بطاقة الدعوة أن تبلى لكثرة النشر والطي وضعها في غلافٍ يحفظها، فلا ينفك يعرضها على الناس حتى يخلفها غيرها، وقد ذكر المغفور له إسماعيل باشا بمحضر من ذلك الوجيه في أثناء حكاية حكاها لفظة (الرسيف) بالسين وهي بالصاد في اللغة العربية والمصريون ينطقون بها على أصلها فكان ذلك الرجل الوجيه يتكلف أنواعاً من التكلف ليذكر هذه اللفظة في حديث يخترعه لها، فإذا وصل منها إلى حرف السين صفر تصفيراً يشق صماخ من يسمعه ليقلد الأمير في نطقه.

وكان أحد الحكام في طنطا كثير الاستهزاء بالناس، والاعتراض

على سعيد باشا وإسماعيل باشا لإعطائهما الرتب لعمد البلاد، فقال لعمدة كان حاضراً في طنطا: «كيف أنت يا حضرة البيك» استهزاء به؟! فركع العمدة وسجد ودعا بطول العمر للباشا وأنجاله، ولما أخذ طريقه لبيته أمسك بأذن خادمه وقال له: قد سمعت بأذنك هذه قول الباشا لي (يا حضرة البيك) فإذا وصلت إلى الدوار فلتحلف بالطلاق أنك سمعت الباشا يلقبني بهذا اللقب.

ومن هنا يظهر أن العمد كانوا يعتقدون أن الناس لا يصدقون برتبهم لانحطاط نفوسهم لديهم عن لقب ينسب للحاكم ويختص به، ولهذا تراهم بعد أن زال ما زال عنهم لا يرغبون من تعليم أولادهم في المدارس إلا أن يكونوا حكاماً لما نبت في قلوبهم ورسخ في أذهانهم من تصور الحاكم بصورة سماوية، وغفلوا عن تعليم أولادهم فن الزراعة التي هي ألزم الأشياء لبلادهم وبها قوامها.

وكما أنهم تغالوا في حب التفاخر إلى هذه الدرجة السخيفة قد نزلوا في الكسل إلى حضيضه الأدنى حتى كادت تتعطل إرادتهم؛ ومن ذلك أن رجلاً من الموجودين الآن بيننا كان له في المالية أيام كانت في القلعة سبعمائة كيس، فأقام مدة يقترض بالفائدة عليها من جيرانه ولا يذهب لأخذها.

وكانوا يعتقدون أن من يتاجر في السودان ينال الغنى والثروة الطائلة، وكان أمامهم المثال الناطق عن رجل منهم هو من أدنى طبقاتهم فذهب إلى السودان فعاد وهو أغناهم فلم يخطوا خطوة إلى تلك الكنوز، واكتفوا في تسلية نفوسهم بأن الناس يعلمون أن الرجل كان دونهم قدراً وأدناهم أصلاً.

ولما تقطعت ربق الاستعباد عنهم قليلاً لم ينشطوا إلا إلى تقليد الحكام

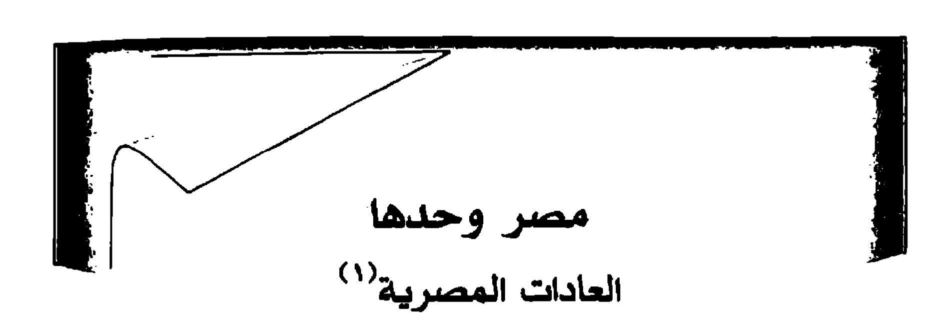
في إسرافهم وتبذيرهم فبنوا في القرى والكفور مثل قصور الملوك وبذلوا عليها أضعاف ما يبذل على أمثالها في المدن لبعد الشقة وكلفة المشقة ولو بيع قصر منها لم تبلغ قيمته قيمة بيت صغير في المدينة لقلة من يرغب فيها بعد أن زخرفوها زخرفة البيوت الغربية برهن أطيانهم وبيع أملاكهم.

وقد يخشى الآن صاحب النظر الثاقب في العواقب أن أطيان القطر ستخرج من أيديهم وهم بين حب التفاخر ونومة الكسل بالشركات الإنكليزية وبما يبتاعه منهم صيارفة اليونان واليهود فيعودون إلى الرق في طلب الرزق، ولا ينتفعون بالحرية بين الرقين وربما يكون استعبادهم الأول خيراً لهم من استعبادهم الثاني، ومن كان هذا همه من الدنيا سجل عليه المحتلون خلودهم في بلاده وامتلاكهم لها.

فيجب على المصريين أن ينفضوا غبار الكسل عنهم وأن يتركوا التفاخر بأفعال الآباء والأجداد، وأن ينظروا ما هم فيه فينشؤوا الشركات الوطنية، فإن الواحد قليل بنفسه كثير بإخوانه، وأن يقلدوا الغربيين فيما يكسبهم المجد ويضمن لهم حسن الأحدوثة في الحاضر والمستقبل، ولا ينسوا أن المستقبل لهم ولأولادهم وذرياتهم، فإن أغفلوه فقد أغفلوا خير أبنائهم وهذه بلاد السودان على الفتح، فإن فتحت فلا يليق بشأنهم وهممم أن يسبقهم إليها تجار اليونان فيقتطفوا زهرات أرباحها وهم متغاضون عن منافعهم مشتغلون فيما يجلون عنه قدراً ويترفعون عنه مقاماً من سفاسف الأمور، ولو جمع ما يبذر من أولاد أهل اليسار من الكبراء في الأزبكية في مدة أسبوع لكفى لإنشاء شركة تجارية، والقليل مع القليل يصير كثيراً.

وإن ممّا يذكر في جمع القليل للعمل العظيم؛ أن رجلاً في الأستانة

كان يمر على باعة الفواكه فيسأل عن ثمن ما يعجبه منها، ثم يخرج من كيسه ثمن المقدار الذي يكفيه ويحفظه جانباً ويقول: «سنكى يدم»؛ اي: كأني أكلت، وما زال هذا دأبه حتى جمع من المال مقداراً بنى به جامعاً وسمّاه «سنكى يدم».



مصر وحدها

العادات المصرية[1]

لم يكن شيء في الوجود إلا وضعه الباري ﷻ تحت حكم التغيير والانتقال، وهو الذي يغير من حال إلى حال وينقل من وضع إلى وضع، ولا يختص التغير والانتقال بالماديات بل يتناول المعنويات أيضاً، فمنها ما يتغير تغيراً يدركه الحس، ومنها ما يظهر تغيره على مرور الأزمان وكرور الأعصار.

وليس التغير في الشيء الواحد يكون على نمط واحد من السرعة والبطء، بل يكون التغيير تارة سريعاً ثم يتغير سيره فيصير بطيئاً، ومما يدخل تحت حكم التغيير عادات الأمم وأخلاقها، والرسوخ والثبوت في وصفها نسبي فهي في تغير وانتقال على الدوام، وربما تعودت الأمة عادة ودامت عليها أزماناً ثم تحولت عنها إلى أخرى، وبعد هذا التحول بزمن طويل أو قصير عادت إلى عادتها الأولى مرة ثانية.

* **فمن ذلك عادة المصافحة**، وهي من السُّنَّة الشريفة النبوية كانت شائعة بين المصريين ثم زالت أو كادت، وقد أدركنا الناس لا يصافح بعضهم بعضاً إلا أرباب الطرق من أهل التصوف، فإنهم بقوا على السُّنَّة.

وأما التحية بين طبقات الناس فإنها كانت باللسان وإشارات اليد أو بتقبيل اليد أو بغير ذلك من لثم الأذيال، وهو مما أوجبه على الناس

(١) ٨ أغسطس (آب) ١٨٩٨م.

كبرياء كبرائهم حتى بلغ ببعض آل البيت النبوي، الذين لا ينبغي إلا أن يكونوا قدوة للناس في تعليم مكارم الأخلاق؛ أنه كان إذا قبل يده أحد حضر الخادم في الحال بالماء فغسل ابن النبي يده أنفة واستقذاراً من لمس يد أخيه المسلم.

ولما اختلط المصريون بالغربيين عادوا إلى السُّنَّة النبوية والعادة المصطفوية، ولكن من طريق التقليد للأجنبي وصار العظيم يصافح من دونه، وأخذت التحية بالإشارات في التلاشي ولا شك أن هذا من محاسن الأخلاق التي تستوجب مدح صاحبها.

ولكن لو كان الرجوع إليها من باب الرجوع إلى الاقتداء بأخلاق النبي ﷺ لكان المدح أعظم والثناء أوفر.

ومن التناهي في تكلف التقليد أن بعض من تراهم من المتكلفين إذا صافحك رفع كوعه حتى يكاد يساوي به، وأمال جسمه وحتى ظهره وأخذ يدك ثم هزها هزاً متتابعاً وانتفض كما انتفض العصفور بلله القطر، وذلك لأنهم أخذوا على أنفسهم أن يرصدوا حركات الأجنبي وسكناته في كل ما يعمله فيأخذوا عنه ما قبح وما حسن بلا ترو ولا تبصر.

* **ومن ذلك عادة الاستئذان قبل الدخول**، وهي من آداب القرآن.

وقد نهى الله عن دخول البيوت بغير إذن من أهلها فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٧].

والزمخشري يقول بعد تفسيرها: «وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به، وباب الاستئذان من ذلك، بينا أنت في بيتك إذا رعف عليك الباب بواحد من غير

استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه، وما قال رسول الله ﷺ، ولكن أين الأذن الواعية؟!».

وقد جرى المسلمون على هذه العادة زمناً ثم زالت من بينهم وشاهدنا الناس يدخل بعضهم على بعض بلا استئذان، ثم جدد فيهم تلك السُّنَّة النبوية اختلاطهم بالأجانب فأخذوها عنهم وقلدوهم فيها، وبلغت بهم سماجة التقليد إلى طلب الإذن بالنقر على الباب وإجابته بأمر الدخول باللفظ الأجنبي، وربما نطق به من لا يعرف من اللغة الأجنبية غيره، ولو كان الرجوع إلى هذه العادة رجوعاً إلى آداب الدين لكان أولى بأمة أدَّبها الله في كتابه أحسن تأديب.

وقد كانت اللغة العربية انحطت في جميع طبقات الناس بعد ارتقائها انحطاطاً تستك منه المسامع وتنفر منه الطباع، وتبدلت أحرف منها بغيرها، فكنت ترى الشيخ الجليل والكهل النبيل قد تخنث في حديثه، فأبدل جميع ما في كلامه من حرف القاف بالهمزة وأبدل الجيم العربية بجيم لا تعرفها العرب، وأبدل الضاد بالدال والظاء بالضاد والثاء بالسين والذال بالزاي، ثم يساعد لسانه بيده من العي، فيكثر من الإشارات والحركات والالتفاتات أيضاً حتى يمله سامعه ويستثقله ناظره.

وهذا كان يتناول العلماء أيضاً؛ فإن العالم كان لا ينطق بالقاف إلا في نقل ما في الكتاب في درسه، فإذا خرج عن الدرس فكلامه لا يفرق عن كلام العامة في شيء، ولا يسلم من هذه الركاكة والرخاوة منهم إلا من كان من أهل الصعيد فإنه يبدل القاف جيماً مصرية فيخفف بها هذا الأذى بعض التخفيف، وربما أراد بعض المتعالين أن يهجر هذه الهمزة هجر ابن عطاء حرف الراء فيقلب من جهله كل همزة عثر بها لسانه في الكلام قافاً.

ولو سمعت الآن بعض من ذكرنا وهو يتكلم ذلك الكلام وينطق ذلك النطق ويشير تلك الإشارات ويطيل في حديثه ذلك التطويل لبكيت على اللغة العربية الشريفة، التي نزل بها القرآن ولرأيتهم قد أهانوها وانتقموا منها لصعوبة تعلمها الناشئة عن تقصيرهم في أساليب التعليم، فضربوها بسياط ألسنتهم حتى خلطوا بعضها في بعض، وصار الأجنبي إذا سمعها ينفر منها سمعه لرخاوتها كما وصفها الأجانب بهذا في كتبهم.

وسمع غربي مصرياً من شبان هذا الزمان يتكلم باللغة العربية على قواعدها فأصغى إليه طرباً وأنصت لحديثه معجباً من حسن اللغة وقال: إن الغربيين ظلموا هذه اللغة.

فقال له الشاب: إن المصريين هم الذين ظلموها بما فعلوا بها.

ومن العجب أن بعض الذين يعرفون هذه اللغة حق معرفتها لا يتكلمون إلا باللغة المستهجنة، ويتركون لغة تكسو مقاصد المتكلم حسن القبول في القلوب.

وكنت ترى الكاتب الشهير لا يعرف للحروف رسماً ولا تعرف لغلطه حداً وله أيضاً من عي القلم جمل يكررها بلا معنى ولا فائدة، واستعارات باردة تقشعر منها الأبدان وتستكرهها الأذواق؛ كقول بعضهم لأمير في الدعاء له: (والله يبقي الأمير وأنجاله مسلسلين بقيود النعمة في أوتاد الدوام)، وربما كانت هذه الجملة وأمثالها هي التي شهرته بالبلاغة بين أقرانه.

أما الآن فقد تغير الحال وأخذت اللغة العربية في الرجوع إلى جمال رونقها، والكتابة في العودة إلى بهاء بهجتها، فترى الغلام التلميذ يتكلم بالألفاظ الفصحى ويكتب الكتابة مزدانة بالمعاني الجزلة، منطبقة

على قواعد الرسم خالية من الحشو، وترى كثيراً من رجال النيابة والمحامين يقفون في موقف الخصام والدفاع فيمثلون لك ما كنت تسمعه عن سحبان وقس بن ساعدة وأمثالهما، من فصاحة الألفاظ وجزالة المعاني وحسن التشبيه ولطف الأسلوب وبراعة الإلقاء، مما يكون له وقع في النفوس ومنزلة في القلوب.

وقد أخذ هذا يمتد في جميع الطبقات وينتشر بينها على قدر مداركها واستعدادها، فتغير أسلوب الكلام في المجتمعات فأصبح أقرب إلى العربية الفصحى منه إلى العامية العجمى.

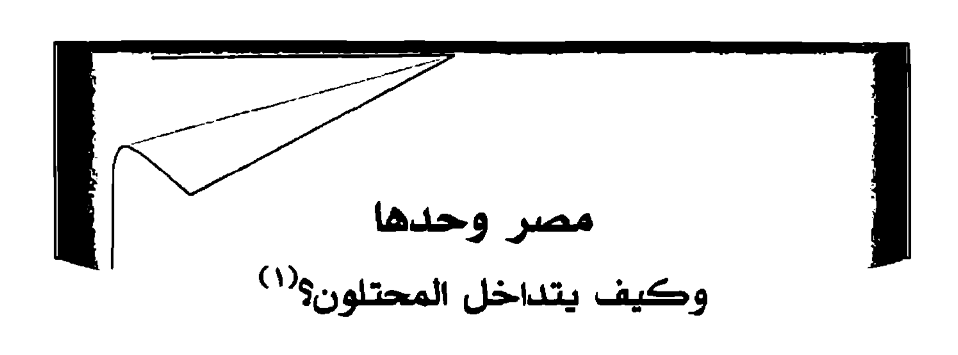
ولو دام هذا الترقي في اللغة لوضع هذا العصر فوق عصر الجاحظ وأبي تمام في النثر والنظم، والفضل في ذلك للمدارس والمطابع والجرائد، ولو خلت الجرائد من عبارات الشتم والسباب كما هو الواجب عليها لكان لها النصيب الأوفر من ذلك الفضل؛ لأنها دروس يومية في الإنشاء والسياسة تشترك جميع الأمة في تلقيها وتتربى في ملكاتها بالأخذ عنها.

ولكننا نرى بعضها قد خرجت عن حد ما وضعت له، وأصبح ما يكتب بها يخالف شرط الاشتراك فيها؛ لأن المشترك لم يعط ثمنها إلا لاستفادته من نقل الأخبار وإبداء الأفكار، فإذا خالفت هذا وجاءت إلى المشترك في حجرته بين أهله وأولاده حاملة من أنواع السباب والشتائم ما يكرم نفسه عن المرور بقائله والناطق به، فقد أضاعت وقته وسلبت ماله وأقرأته ما كان ينفر من سماعه وأدخلت في حجرته ما يستعيذ له بالله من هجر القول وفحشه.

فإن كانت الجرائد تفيد الناس من جهة، فإنها تضر بآدابهم من جهات فيجب على الحكومة التي بيدها الحل والعقد في شؤون الرعية أن

تبحث لإيجاد طريقة لحفظ الآداب بمنع الجرائد عن وقوفها موقف الساب والشاتم والقاذف، وأعراض الناس وديعة في يد الحكومة فينبغي أن تحافظ عليها، ومن الغريب أن أرباب الجرائد يجعلون أنفسهم في منزلة الرادع والوازع والواعظ والناصح ويشتمون لمنع الشتم ويسبون لمنع السب.

فإن لم تفعل الحكومة ما يجب عليها في هذا الباب لم يبق إلا أن يقوم فضلاء الأمة وأهل الشأن فيها لحفظ الآداب ودفع هذا الشر بتأليف جمعية تقف أمام الجرائد وقفة المراقب الوازع بسلطة معنوية.



مصر وحدها

وكيف يتداخل المحتلون؟[1]

ذكرنا فيما مضى للقراء الكرام في كلامنا عن الشرق وحده أن الشرقي واسع الخيال حديد الذهن مشتعل الذكاء، لطبيعة الأقاليم الشرقية يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة، ويعجل بمصادر الأمر قبل بوادره، والمصري من بين جمهور الشرقيين أوسعهم خيالاً وأحدهم ذهناً وأوقدهم ذكاء، فهو بهذا أكثرهم تشعباً في الفكر وأطوعهم انقياداً للوهم وأسهاهم عن المقدمات وأسبقهم إلى النتائج وأسرعهم في الحكم.

فلو تكلمت مع مصري مثلاً على عمل يعمله لربح يربحه لاخترق بفكره الثاقب جميع مقدمات العمل واحدة إثر أخرى ولنفذ فكره منها كما تنفذ الكهرباء إلى الأجسام، وظروفها في الظاهر سليمة لشغفه بالوصول إلى النتيجة، فيأخذ في تعداد وجوه الإنفاق من ذلك الربح الموهوم قبل الشروع في العمل، ويفوته حينئذٍ التأمل فيما عسى أن تحتوي عليه المقدمات من الأغراض التي تعكس عليه النتيجة بتمامها؛ كالناسك الذي كان يجري عليه من بيت رجل تاجر في كل يوم رزق من السمن والعسل، وكان يأخذ منه حاجته ويرفع الباقي في جرة فيعلقها في وتد في ناحية من البيت حتى امتلأت، فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره والعكاز في يده والجرة معلقة على رأسه، تفكر في غلاء السمن والعسل

(١) ٢٥ أغسطس (آب) ١٨٩٨م.

فقال: سأبيع ما في هذه الجرة بدينار وأشتري به عشرة أعنز فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطناً، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تصير غنماً كثيرة، ثم حرر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز فقال: أنا أشتري مائة من البقر بكل أربعة أعنز ثوراً أو بقرة واشتري أرضاً وبذراً، واستأجر أكرة وأزرع على الثيران وأنتفع بألبان الإناث ونتائجها، فلا يأتي علي خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالاً كثيراً، فأبني بيتاً فاخراً وأشتري إماء وعبيداً وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن، وأدخل بها فتحبل ثم تأتي بغلام سري نجيب أختار له أحسن الأسماء، فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه وأشدد عليه في ذلك، فإن يقبل مني وإلا ضربته بهذه العكازة، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها فسال ما كان فيها على وجهه.

فقد رأيت أن الناسك مر على ما ترى من المقدمات، فلم يقف عند واحدة منها بل جعل همه كله في الانصراف إلى النتائج، وهذا معنى قلة التبصر.

ثم إن المصري لتوزع فكره وتشعبه وتوجهه بكليته إلى النتيجة لا يتمكن من الوقوف هنيهة على علاقات الأعمال ببعضها، فتبقى أعماله منفصلة غير مرتبطة ويتعذر عليه ترتيبها على نسق مخصوص وتوجيهها إلى غرض مقصود، وهذا معنى قلة التروي.

والإنكليزي بما لم تهبه الطبيعة من قوة الذكاء واتساع الخيال تراه بطيء التصور بطيء القياس، قادراً بذلك على التأمل والتثبت والتروي والإمعان، فإن عمد إلى أمر انصرف بجميعه أولاً إلى النظر في المقدمات وأخذ يقلبها بطناً لظهر، فلا ينثني حتى يقتلها علماً، ثم ينبري للقياس فلا يخطىء إلا بمعاكسة الحدثان وصروف الزمان التي

لم تكن في قدرته أن يحيط بها، وله من تلك الأناة وذلك الإمعان ما يسهل عليه الوقوف على علاقات الأعمال بعضها ببعض على قدر الطاقة البشرية، ولما كان النجاح في الأعمال يتوقف على العلم بارتباطها ببعضها اجتهد الإنكليزي في ممارسة هذا الباب حتى صار عنده في منزلة الدرس يتلقاه ويحفظه.

ومن أمثلة ذلك تلك القاعدة التي تجري عليها وزارة الخارجية الإنكليزية، فإن كل سفير لها في الخارج يرسل إليها في ختام كل شهر تقريراً يحتوي على جميع ما يراه في الدولة المقيم بها، فتجمع الوزارة هذه التقارير وتبعث بنسخها إلى جميع سفرائها، فسفيرها في الصين يعلم ما يعلمه سفيرها في مراكش وسفيرها في العجم يعلم ما يعلمه سفيرها في أمريكا، والكل يعلمون ما عند الكل فلا ترد على سفير منهم حادثة إلا وهو مطلع على متعلقاتها من جميع الجوانب والأطراف، وهذا سر تغلب الإنكليز على الممالك الشرقية بالرأي لا بالقوة.

فإذا اجتمع مصري مع إنكليزي على عمل خاب المصري لاضطرابه وعجلته ونجح الإنكليزي لسكونه ولتؤدته، ولا يزال هذا نصيبهما إن لم يتعود المصري على التثبت والتأمل ليرى ما وضع له في طريقه من الحبائل والأشراك، ولا يكن المصري مع الإنكليزي كالمسافرين يؤمان منزلاً واحداً أحدهما راكب متعجل والآخر راجل متمهل، فإن وصلا فقد فات المتعجل ما اطلع عليه المتمهل من معالم السفر ومواقف النظر، وربما وصل الراجل وضل الراكب، فانقطع به طريقه وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إن المنبتَّ[1] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**».

---

(١) المنبتّ: الذي يجد في سيره حتى ينبت أخيراً؛ أي ينقطع.

وتاريخ الاحتلال يشهد لنا بكل ما تقدم، فإنك ترى المصري يتسرع عند كل حادثة إلى التمسك بكل سبب والتعلق بكل طرف، فيضطرب في الأمر ويختلط في الرأي وهو ذاهل عما يضعه له الإنكليزي في المقدمات من دقائق الأغراض التي تعكس عليه النتيجة.

وما زال المحتلون ينتفعون بصوابهم وخطائنا معاً، وينالون أغراضهم بإغفالنا الحزم في أمورنا وانتباههم وتبصرهم في أمورهم، حتى تمكنوا من التداخل في إدارات الحكومة المصرية، ولم يبق في أيدينا منها إدارة سالمة من تداخلهم إلا إدارة الأوقاف التي دبروا لها ما دبروا لوقوعها في أيديهم أيضاً. وقد رأينا أن نبسط تاريخ تداخلهم فيها شاهداً على ما قدمنا ونموذجاً لما بينا. فنقول:

كان ديوان الأوقاف نظارة معدودة من نظارات الحكومة إلى أواخر رئاسة نوبار باشا لمجلس النظار سنة (٨٤)، وفي ذلك الحين قرر مجلس النظار فصل تلك النظارة عن هيئة الحكومة ووضعها تحت نظر الحضرة الخديوية مباشرة، وكان ذلك على أثر التلغراف المشهور الذي أرسله اللورد جرانفيل ناظر خارجية انكلترا في وقتها، إلى المرحوم شريف باشا[1] رئيس مجلس النظار قبل استعفائه بأنه ما دامت الجيوش الإنكليزية مقيمة في القطر المصري، فعلى رجال الحكومة المصرية أن يأتمروا بما تشير به الدولة الإنكليزية عليهم من الآراء، فارتأى المغفور له توفيق باشا أن يفصل هذا الديوان عن هيئة الحكومة ليكون بمأمن من تداخل المحتلين، وليسلم من الدخول تحت نص هذا التلغراف، فأعانه

(١) شريف باشا: ولد بالقاهرة في نحو ١٨٢٣م (وقيل: ١٨٢٦م) ومات ١٨٨٧م، شركسي الأصل، وتولى رئاسة المجلس المخصوص ومجلس شورى النواب ورئاسة مجلس النظار ثلاث مرات، وترقى في الجيش حتى رتبة الفريق.

دولة نوبار باشا[١] على رأيه في فصله ليشغله به عن الحكومة ويستبد هو مع المحتلين بجميع أعمالها، وبقي الحال على ذلك إلى حين نظارة دولة رياض باشا[٢] فسعى في إرجاع ديوان الأوقاف إلى الحكومة كما كان عليه، لما اعتاده من حب التفرد بمباشرة أعمال الحكومة كلها، فلم يسع المرحوم توفيق باشا إلا التسليم له في أن يجعله تحت مراقبته الشخصية فقط، مع تعيين أحمد حمدي باشا مديراً له ليأتمر بما يأمره به رياض باشا، ويكون دولته واسطة بين الأوقاف والمعية، ورأى أن هذه المراقبة تقوم مقام إعادة الديوان إلى هيئة الحكومة ما دام هو رئيساً باقياً فيها، ثم استشعر الحاجة إلى سن لائحة يسير عليها الديوان في إدارته، فكلّف لجنة بإنشائها ولما انتهت اللجنة منها سقطت نظارة رياض باشا وخلفتها وزارة سعادة مصطفى باشا فهمي[٣]، فاسترجع المرحوم توفيق باشا وكالته التي أعطاها لدولة رياض باشا في مباشرة أعمال الأوقاف، فرجع الديوان كما كان مرتبطاً بالمعية رأساً وحفظت اللائحة المذكورة في محفوظات مجلس النظار لا يحركها إلا من ينفض الغبار عنها.

وفي عهد الجناب العالي عرضت مسألة من المسائل لها مساس بالأوقاف ودارت المذاكرة فيها بين الحكومة ومجلس شورى القوانين،

---

(١) نوبار باشا: ولد بأزمير في تركيا سنة ١٨٢٤م أو ١٨٢٥م وتوفى سنة ١٨٩٩م، وتولى الوزارة مرتين، وله يد في إنشاء المحاكم المختلطة، وإلغاء السخرة، وعمل مع الولاة إبراهيم باشا وسعيد باشا وإسماعيل باشا، وله مذكرات.

(٢) مصطفى رياض باشا: ولد بالقاهرة ١٨٣٤م ووصل في الجيش إلى رتبة أمير آلاي وتولى إدارة الجيزة وتولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات وتوفي سنة ١٩١١م.

(٣) مصطفى فهمي باشا: ولد في كريت ١٨٤٠م ومات سنة ١٩١٣م، وكان محافظاً للقاهرة ووزيراً للأشغال والحربية والداخلية، وهو والد صفية زغلول زوج سعد زغلول، وكان موالياً للإنجليز وتقلد رئاسة الوزارة مرتين.

فذكَّر المجلس الحكومة بتلك اللائحة التي وضعتها وما كادت تعرضها عليه حتى سقطت نظارة مصفى باشا فهمي، واشتد النفور بين الحكومة والمحتلين فكان المحتلون يعيرونها ويبكتونها في كل آن بفساد الأمور في المصالح التي لا دخل للمحتلين فيها، ويضربون المثل بديوان الأوقاف، واختلال أعماله ويقيمونه حجة على أن كل ما كان في أيدي المصريين خالياً عن مراقبتهم يكون على مثل ذلك الاختلال، وأكثروا من هذا التعيير والتنديد حتى اضطروا المعية أن تطلب بنفسها النظر في لائحة الأوقاف، ولما كانت تلك اللائحة موجودة في مجلس النظار ولا بد لتنفيذها من رأي مجلس شورى القوانين، ولا سبيل لعرضها عليه مباشرة من المعية بل لا بد من توسط مجلس النظار أمرت المعية رئاسة المجلس بإخراج تلك اللائحة والنظر في أمرها ورئيسه يومئذٍ نوبار باشا.

فانتهز هذه الفرصة ليأخذ من المعية ما كان أعطاها إياه لغرضه الذي أغنته الحوادث عنه ويرده إلى الحكومة فيدخل تحت مداخلة المحتلين، فلم تشعر المعية إلا وقد أضيف إلى تلك اللائحة فقرة تجعل لنظارة المالية واجب المراقبة على حسابات الأوقاف، ولما كان ديوان الأوقاف من المصالح ذوات الإيراد والنفقات وكله حساب في حساب، كانت المراقبة الحسابية عليه مراقبة على جميع أعماله، وتداخلاً في كافة شؤونه، وصار المحتلون بعد ذلك إذا ذكروا أمور الأوقاف ذكروها بغير اهتمام ولا عناية ليستروا ما وضعوه من الأغراض، وداموا على هذا الحال سنة كاملة اقتصروا فيها على إرسال موظف من المالية إلى الأوقاف في بعض الأحيان، حتى جعلوا رجال الأوقاف أنفسهم في مقدمة المستخفين بتلك المراقبة والزاعمين بعدم وجودها واعتقدوا أن المحتلين لا يتجاوزون في مراقبتهم إلى غير ذلك القدر، وأنهم لا يتعدون

حدود تلك المداخلة الخفيفة في المستقبل كما يعملون في بقية النظارات؛ لأن الأوقاف يحميها منهم اسمها.

وبعد أن مضت سنة أخرى على هذه المراقبة الخفيفة، حان لمندوبي المالية أن يصرحا بأنهما عاجزان عن مراقبة الحسابات وترتيبها إذا استمر الديوان على طريقته الأولى في الحساب ولم يوحده، فعضدت المالية رأي مندوبيها فشعرت المعية والأوقاف بما أخفي لهما وأحسا بثقل النتيجة التي كانا يستخفان بمقدماتها.

وهنا نقول: إن القارىء لهذه السطور كأنما يقرأ قصيدة من شعر شاعر بليغ بينما هو يلهو بنسيبها إذ انتقل به إلى مديحها لحسن التخلص وحسن التخلص هنا هو الاستيلاء على الأوقاف بعد ذلك الاستخفاف.

ولما انكشف السر للمعية والأوقاف هالهم الأمر وكثرت المداولات مع العلماء في مجالس متعددة لسد هذا الباب بعدم الإفتاء بتوحيد الحسابات، حتى قال سعادة إبراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية في بعض تلك المجالس كلمته المشهورة عنه: «إذا كانت الشريعة لا تبيح توحيد الحساب فالحكومة المصرية لا تقيد نفسها» وبعد جدال طويل تقررت الطريقة التي ترومها المالية بعد تخفيف في ظاهرها.

ومن ذلك الوقت اتخذ مندوبا المالية مركزاً مخصوصاً في ديوان الأوقاف وصارا يباشران أعماله ويصدران الأوامر إلى المستخدمين وتعالياً عليهم حتى تطاول أحدهما وأغلظ في القول لوكيل الديوان وهو يؤدي يومئذٍ وظيفة مديره في أثناء غيابه.

ولم تمض سنة أخرى حتى قدمت المالية تقريراً إلى الجناب العالي عن سيرة الديوان وإدارته قياماً بما فرضته عليها اللائحة التي جعلت حسابات الأوقاف تحت مراقبتها ونسبت لنفسها الفضل في تدارك ديوان

الأوقاف من الخلل والفساد، وأنه لولاها لصار الديوان أثراً بعد عين، ثم تطرقت المالية في تقريرها عن الحساب إلى الكلام عن إدارة الديوان العمومية، وعن التفاتيش الزراعية وقلم الهندسة وقلم القضايا، وأعطت رأيها في الإحكار واستبدالها وكيفية الإنفاق على المستحقين ودفع أموال البدل لأربابها بدون انتظار للاستبدال، وأن يؤخذ تعهد بسيط على المستبدل بأنه يشتري بالأموال التي يأخذها عقاراً في ظرف مدة معينة بدل الوقف المستبدل، وأنت ترى أن هذه الأمور هي كل عمل ديوان الأوقاف ومباشرتها من المندوبين على هذه الكيفية هو تداخل فعلي في نفس الأوقاف وشروطها والتصرف فيها، وأن لفظة المراقبة على الحسابات على بساطة ظاهرها صارت مفتاحاً في يد المحتلين يفتحون به كل باب في الأوقاف لدخولهم وتربعهم فيه تحت نص كلمة أو كلمتين.

وقد أدرك حينئذٍ الذين كانوا يتهاونون ويستخفون بمراقبة المالية على حساب الأوقاف أن الخطر كل الخطر في هذه المراقبة، مهما لان مسها وخف ظاهرها وأخذوا ينتبهون لأمور الأوقاف، فلما نظروا إعلاناً منشوراً في الجريدة الرسمية من نظارة المالية عن بيع تفتيش الوادي الموقوف على المكاتب الأهلية، حسبوا للمستقبل حساباً ورأوا أن هذا البيع لو تم يكون مثالاً في مآل الأوقاف شيئاً فشيئاً، فانتهزوا الفرصة لاسترجاع ذلك التفتيش من يد المالية، وكان قد سلم إليها بالوكالة من نظارة المعارف لتدير شؤونه واعترضوا على إشهار البيع، وقالوا بعدم جوازه فراجعت المعية نظارة المالية في ذلك فعدلت عنه لما لم تجد من يشتري منها هذا التفتيش، كما كانت تؤمله أو أن المشتري الذي كان لديها لم ير من مصلحته التورط في مثل هذه الأمور، بل رام أولاً أخذ التفتيش بالإيجار مدة من الزمن حتى يختبر حاله قبل الشراء، والناس

يهمسون بأن هذا المشتري هو سعادة خليل باشا الخياط، وكذلك عدلت شركة بسنديلة عن شرائه بعد عزمها عليه، ورأت من مصلحتها أن تنتظر حتى إذا استمر التفتيش على فساده الحالي نقصت قيمته عن المائتي ألف جنيه التي تطلبها المالية.

ثم رأى ديوان الأوقاف بعد هذا الفوز على المالية أنه لو ترك التفتيش في يدها فلا يؤمن أن تبيعه بالممارسة دون نشر ولا إعلان كما هو حق المالية في البيع بهذه الصفة بعد الإعلان الأول عند وجود المشتري، فخابرها بأن تسلمه التفتيش ليجعله تحت إدارته متكفلاً بإصلاحه على حسب القواعد العلمية الهندسية، والإنفاق عليه من عنده وإعطاء المكاتب الأهلية ثمانية آلاف جنيه سنوياً، بزيادة خمسمائة جنيه عما تستغله المالية منه وعند استرداد الديوان ما ينفقه على إصلاح التفتيش في ظرف سنوات معينة يكون ريع التفتيش كله للمكاتب الأهلية، ويقدرون ذلك الريع بعد إتمام الإصلاح بما يزيد عن العشرين ألف جنيه، ويبقى ديوان الأوقاف مباشراً له على الدوام. فحمدت المالية ديوان الأوقاف على هذه الأفكار الصائبة وتعضيده انتشار المعارف، كما شكرته على تخفيفه عنها هذا الحمل الثقيل بإدارة ذلك التفتيش واستصوبت كل ما اقترحه، ولم تشترط عليه إلا شرطاً واحداً ضعيفاً خفيفاً وهو معرفة الموظف الذي يوليه الديوان لمباشرة إصلاح التفتيش؛ لترى إن كان أهلاً للقيام بهذا العمل خشية أن يتولاه من يزيد في خلله، فينكل الديوان عن عهده وينتهي الأمر بإعادة التفتيش إلى المالية على اختلاله.

فبادر بقبول الشرط (ولم يدرك أن نزعه للتفتيش المذكور من المالية ورضاه بهذا الشرط سيكون سبباً في استيلاء المحتلين على ديوان الأوقاف) فعرض ديوان الأوقاف على نظارة المالية عدة أسماء المهندسين

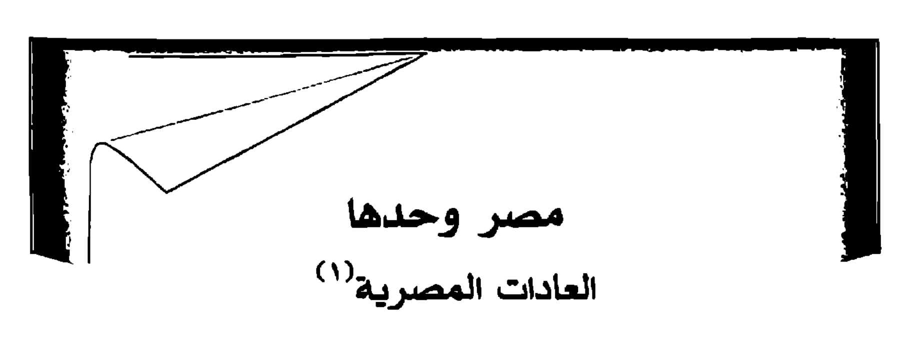
والإداريين والمصلحين، فلم تقبل واحداً منهم، وكانت رغبتهم في الحصول على هذا التفتيش وإلحاقه بديوان الأوقاف تجعلهم يشيرون بالتساهل على الديوان بعدم التمسك بأسماء الموظفين الذين تتوقف المالية في قبولهم، وما زال الحال على ذلك يعرض الديوان والمالية ترفض حتى قالت أخيراً: إنها لا تثق إلا برجل من كبار المهندسين الوطنيين التابعين لنظارة الأشغال، وهو إسماعيل بك سري مفتش ري القسم الثاني، ولما عرضوا هذه الوظيفة عليه أبى قبولها ورفضها رفضاً قطعياً، إذ رأى أن فيها حطاً من منزلته وتنزيلاً من قدره حتى فضل عليها الاستقالة من خدمة الحكومة إذا أجبرته عليها، ولما كان قد حصل الاتفاق على مبدأ انتخاب المفتش من التابعين لنظارة الأشغال ولما لم يكن فيهم من هو في مثل وظيفة إسماعيل بك سري إلا إنكليزي عرض المحتلون تعيين المستر لانجلي مفتش ري القسم الأول ليكون مفتشاً لتفتيش الوادي، وتوسعوا في جعل راتبه ألف جنيه سنوياً، وهو أعلى مرتب في ديوان الأوقاف بعد مرتب المدير، ويكون مركزه في ديوان الأوقاف لا في التفتيش.

وصار هذا التعيين في حكم المقرر حتى أنه لما حصل النقل والإبدال والترقي بين مفتشي الري بعد تعيين المستر ويلسون للخزان، لم يكن للمستر لانجلي من نصيب ولا ذكر في ذلك النقل والإبدال بناء على أن أمره قد تم في الأوقاف، وإن كانوا عارضوا أو توقفوا في قبول تعيينه فقد قيل لهم: إنكم قبلتم بمبدأ هذا التعيين من انتخاب رجل من كبار مفتشي الري، ولا وجه للتفريق بين مفتش وآخر، إلا إذا كان اعتراضكم مبنياً على عدم كفاءة هذا المفتش، وإن كانوا اعترضوا على هذا التعيين لوفور المرتب قيل لهم: إن الرجل المصلح ذا الكفاءة لا بد أن يكافأ

على أتعابه بمرتب يوازي قيمة علمه وأمانته، وقد قدمنا ضمن أخبارنا الداخلية فيما مضى أن المستر لانجلي سيكون المستشار الفعلي لديوان الأوقاف، وأنت تعلم أيها القارىء ما هو المستشار في دواوين الحكومة ونظاراتها.

والقلم واللسان عاجزان عن وصف التدرج الذي يتداخل به المحتلون وابتدائهم بالصغير لينتهوا منه إلى الكبير، وما يماثله إلا تلك النادرة من نوادر أبي دلامة الشاعر، فقد مدح الخليفة السفاح فقال له: سلني حاجتك. قال أبو دلامة: حاجتي كلب أتصيد به. قال: أعطوه إياه. قال: ودابة أتصيد عليها. قال: أعطوه. قال: وغلام يصيد بالكلب ويقوده. قال: أعطوه غلاماً. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية، قال: يا أمير المؤمنين هؤلاء عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها. قال: أعطوه داراً تجمعهم. قال: فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون. قال: قد أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة. قال: وما الغامرة. قال: ما لا نبات فيها، فقال: قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة، قال: فأذن لي أن أقبل يدك. قال: أما هذه فدعها. قال: والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها، فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها ابتدأ بكلب فسهل القصة به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل إليه.

ولو أن أبا دلامة ما زال مسترسلاً في هذا النحو لانتهى بالوزارة يطلبها والإمارة يخطبها.



مصر وحدها

العادات المصرية[1]

[١]

ثَـلَاثـةٌ تـشـقـى بـهـا الـدارُ　　　ٱلْـعُـرْسُ وٱلْـمـأْتَـمُ وَٱلـزَّارُ

اثنان من هذه الثلاثة يشارك المصريين فيها أهل الأرض جميعاً، وهما العرس والمأتم، ولكن على صورة يسلم بها العقل ولا يحرمها الشرع، ولا ينفد فيها المال الذي هو ملاك الحياة وقوام المعيشة، والثالث: الزار (ونعوذ بالله من قوم يفعلون فعل المجانين ويقربون في بيوتهم القرابين للشياطين) فهو مما اختص به المصريون ولا يكاد يشاركهم فيه أحد.

[العرس]

أما العرس؛ فهو من مقتضيات الهيئة الاجتماعية لما يترتب عليه من اشتهار الزواج بين الناس إثباتاً للنسب ونفياً للمظنة، ويكفي لهذا الغرض أن يجمع صاحب العرس خلصان أصدقائه وأحبائه لوليمة تنتهي في ليلتها كما نراه في البلاد الإسلامية، وغير الإسلامية وكما نشاهده في دار الخلافة مقر الدين ومركز التمدن الإسلامي، فإن أهلها لا يخرجون في أعراسهم عن حد السُّنَّة الشريفة النبوية من إيلام وليمة ليلة الفرح، ولا يشمخ بهم الغنى وعلو المناصب وسمو المراتب إلى الفخفخة الباطلة في

---

(١) ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٨٩٨م.

العرس والجهاز، وقد حضرنا أفراحاً لبعض الوزراء والعظماء لم تخرج عن دائرة البساطة، فكان الاجتماع فيها قاصراً على الأقارب والأصدقاء لوليمة واحدة في ليلة واحدة، وتلك عادة القوم من عهد الفاتح[1] إلى اليوم لا تمتاز طبقة عن طبقة في التمسك بها والعمل على موجبها.

وجميع البلاد الغربية والبلاد الشرقية على مثل ذلك في الاحتفال بالأفراح، فالمسلمون يقتفون السُّنَّة النبوية وغيرهم يكتفون بما يلزم للشهرة والإعلان، وكلهم متفقون على فعل الواجب في هذا، ولكن المصريين قد شذوا عنهم شذوذاً بعيداً، فخالفوا السُّنَّة وأفرطوا فوق ما يكفي للشهرة والإعلان وتغالوا في التبذير حتى أن قلم الكاتب ليعجز عن وصف الفرح من يوم الخطبة إلى ليلة الزفاف، وما يجري فيه من المنفرات منه لمن يتأمل وما يبدد فيه صاحبه من الأموال التي يشتري بها سهره ونصبه ومرضه وذمه ولومه وشتمه وندمه، وما يجمع بيت الفرح من أصناف الناس وغوغائهم، فقد يجتمع فيه ألف أو ألفان أحياناً فتختلط أنفاسهم بروائح الطعام والشراب والغاز والشموع والزيوت والدخان، وما يعقب الأنس والطرب في أخريات الليل فإذا تنفس المتنفس فيها، فكأنما يتنفس في معمل كيماوي يحتوي على ألف نوع من المكروب ولو وقف طبيب على باب البيت وكشف على صحة الداخلين لوجد اضطراباً في أمزجتهم ومباديء أمراض خالطتهم في خروجهم، فماذا يكون حال رب البيت إذا تنفس في هذا الجو، وقد صارت رأسه كخلية النحل تدوي فيه الحاجات والطلبات؟!.

وإن يد الحاسب لتكل من عد ما يلقى عليه من حساب النفقات، على أدوات الزخرف والفخفخة حتى إذا انطوت الليالي الصغرى وجاءت

---

(١) السلطان محمد الفاتح.

الليالي الكبرى فتح صاحب الفرح كيسه للتبديد وجفنه للتسهيد وفمه بالتأفف ويده للاقتراض، وتوزع فكره بين المشاغل الكثيرة والطلبات العديدة، فلا يستطيع حصر فكره في إحكام شيء من أعماله، فإنه إذا دعا من معارفه كثيراً نسي منهم كثيراً، فينتهي الفرح وقد عاداه من أغفل دعوته وحقد عليه من دعاه لعجزه عن القيام بما يوجبه عليه المدعوون في استقبالهم، من زيادة الاحترام والإكرام وفي إجلاسهم مجالسهم التي يرضونها مع من يشاكلهم ويناسبهم، وفي التأهيل بكل واحد منهم بما يليق به من عبارات التحية والترحيب، وفي دعوتهم إلى الطعام على الترتيب الذي يرضاه كل واحد منهم ـ وهو من المستحيل ـ ثم تشييعهم، عند الذهاب بما قوبلوا به عند الحضور، وزد على ذلك أن كل هفوة تقع ممن يخدمون في الفرح لأحد المدعوين تتجسم فتصير جرماً يعلق في عنق صاحب الفرح.

فانظر مما تقدم إلى رجل لم ينم ثلاث ليال إلا لهفوات يختلسها، ولم يقض حاجة إلا غشيته حاجاته أخرى لا مفر له من قضائها، وهو مقسم الفكر في حفظ نظام الفرح، يخشى في كل لحظة ما يكدر صفاء الأنس ويرى كل هفوة تصدر من غيره ذنباً يلصق بأديمه، وكلما أفاق لحظة خاف أن يكون مقصراً في إكرام من دعاهم، وهو مع هذا كله قد بعثر أمواله بدراً بدراً بعد أن جمعها بكل الوسائط درهماً درهماً، وإن سألت عن الأمر العظيم الذي أجبره على الوقوع في هذه الورطة لا تجده إلا تقطيب زوجته ليلة أو ليلتين إذا أبى عليها تقليد فلان وفلان في أعراسهما، على أنه لو تأمل بعض التأمل لوجد أن هذا التقطيب أخف محملاً مما يعقب العرس من الشقاق الذي ينتهي أحياناً بالفراق فما أضعف الرجل القوي إذا تسلطت عليه المرأة الضعيفة.

ولا يفوتنا أن نذكر ما تصاب به ربة البيت من صواحبها في الاستقبال والترحيب والترتيب والتشييع وغيره، مما يفوق ما ذكرناه عن رب البيت بأشياء كثيرة نكتفي بأن نذكر منها اهتمامها بملاحظة ما على المدعوات من الحلي والجواهر، فإن ضاع منهن شيء وهو ما يقع كثيراً تكدر الصفاء وانحل النظام بينهن واتهم بعضهن بعضاً وكادت تحس بأنها السارقة لما ضاع، وعواقب ذلك كله لا تقع إلا على رأس صاحب البيت الذي كلما التفت وجد مشكلاً جديداً.

ومن الغريب أن الختان مع عدم الضرورة لاشتهاره لا ينقص الاحتفال به عندنا عن الاحتفال بالزواج.

وهذه النفقات الطائلة التي تنفق على العرس أو الختان لم نسمع أنها جلبت نفعاً صغيراً في جنب ما تجلبه من المضار والخسائر الجسيمة، سوى أن يؤرخ صاحب الفرح حوادثه به فيقول: حصلت حادثة كذا بعد فرحي بسنتين أو قبله بسنة، وتؤرخ به صاحبة البيت مواليد أبناء الجيران، والطامة الكبرى إذا كان الفرح لزواج بنت، فإنها تستنزف مال أبيها بما يشتري من أصناف الجواهر التي يقبر فيها المال الحي.

يحكى أن المرحوم علي باشا شريف طلب من والده المرحوم شريف باشا الكبير أن يشتري عقداً من الجواهر لإحدى بناته فماطله مدة، ولما أكثر من الإلحاح عليه أمر بإحضار عقد من باعة الجواهر ثم أرسله إلى المقومين فقومه واحد بألف جنيه وقومه ثان بثمانمائة وقومه ثالث بألف ومائتين، فأخرج المرحوم من جيبه جنيهاً وناوله أحد جلسائه وسأله عن قيمته؟ فقال: مائة قرش ثم أداره على بقية الحاضرين، فلم يختلفوا في مقدار قيمته فقال لابنه: ينبغي للعاقل أن لا يقتني إلا ما اتفق الناس على قيمته وأمر برد العقد لصاحبه بهذه الحجة الدامغة.

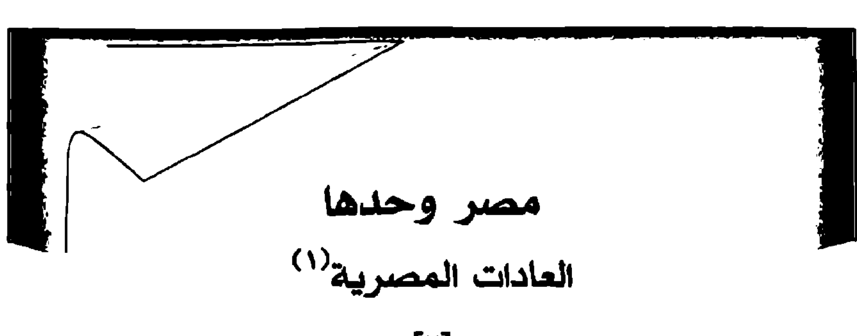
ولو أن أصحاب الأفراح وضعوا ربع ما أنفقوه على أفراحهم في صندوق مثل صناديق الإدخار في أوروبا، لتجمع منه في بضع سنين من المال ما يشترون به شركات مثل شركات بسنديلة والبواخر الخديوية والدائرة السنية وغيرها، وقد كان في هذا الإسراف على علاته فائدة لأهل البلد بما كان يشتري منهم من لوازم الأفراح، فتحولت تلك الفائدة عنهم الآن إلى الأجانب وصار يجلب جميع ما يلزم للأفراح من البلاد الأجنبية.

ومن البلاء أننا نترك كل عادة نافعة ونتمسك بالعادات المضرة؛ فمن العادات التي تركت عادة إهداء الهدايا إلى صاحب الفرح، فإنها كانت تخفف من إنفاقه وكان يردها لأصحابها في أفراحهم، وكان في هذه العادة مبدأ جليل من مبادىء التعاون لو اتسع لنفع في غير الأفراح، كما انتفع به أهل الغرب فزالت هذه العادة من بين الرجال وبقيت عند النساء في الطبقة العليا، ولكنهن لا ينتفعن بها فإن كل واحدة من المدعوات تهدي ليلة الزفاف للعروس شالاً من الكشمير أو أكثر، فتقوم امرأة فتأخذه بيدها وتعرضه على الحاضرات وهي تصيح بأعلى صوتها باسم من أهدته، فيجتمع من هذه الشيلان في بعض الأفراح مئات فيوزعها أصحاب الفرح على حواشي البيت وخدمه وعلى من يعملون فيه فترجع تلك الشيلان إلى السوق لبيعها بأرخص الأثمان ممن أعطيت لهم، ومن الشيلان ما يتردد على السوق للبيع أو الرفو حتى يصير في اهتدائه إليه كطيلسان بن حرب.

لو بعثناه وحده لتهدى

ولا يزال الشال منها ذاهباً آيباً، والذهب عليه ضائعاً ذاهباً. ومن هذا وغيره مما يضيق المقام عن استيعابه في الأفراح، يتبين

أن الناس إذا تمادوا على إسرافهم في أفراحهم وترقيهم في تقليد بعضهم بعضاً، انتهى أمر المثري إلى الاحتياج والمكتفي إلى الفقر والفقير إلى الدين، ولذلك لما بلغ سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين أن الأهالي في جهة الأناضول أخذوا في التباهي والتفاخر بينهم في الأفراح وتبذير الأموال فيها، حتى اضطرهم ذلك التباهي والتفاخر إلى بيع أملاكهم، أصدر إرادته السنية بأن يكفوا عن ذلك وأن تكون أفراحهم بسيطة؛ كأفراح أهل دار الخلافة، وهذا مما يدل على عناية جلالته بمصالح الأمة، فلم يبق على المصريين إلا أن يتبصروا لأنفسهم، ويحتاطوا لأمرهم.



مصر وحدها

العادات المصرية[1]

[٢]

ثَلَاثَةٌ تَشْقَى بِهَا الدارُ ... اَلْعُرْسُ وَاَلْمَأْتَمُ وَ اَلزَّارُ

[المأتم]

أما المأتم ـ ونعوذ بالله من المأتم ـ فإنه من أشنع العادات، وأبشع المبتدعات وأسخط ما يغضب الرحمٰن، وأرضى ما يعجب الشيطان، وأوضع ما تنحط به درجة الإنسان، عن دركة الحيوان. يستنكره الشرع ويستقبحه العقل ويستنكره الشرع؛ لأنه لا ينبغي لمن آمن بالله واليوم الآخر أن يتغالى في الحزن وراء من دعي إلى لقاء ربه، وهو يتغالى في الفرح به إذا دعي إلى لقاء عظيم أو أمير؛ ولأن ما يفعله الناس في المأتم منهي عنه شرعاً ويستقبحه العقل؛ لأن ما يقع في المآتم من تكبير الأحزان وتكثير الهموم وتجسيم المصائب وتعظيم النوائب مناف للعقل، وجهد العقل أن يخفف من مصيبته ويلطف من بليته، وهذا التلطيف والتخفيف من أجل وظائف العقل، وقد حض الشرع والعقل على التعزية والتسلية وإن في تقصير مدة الحزن دليلاً واضحاً على استعمال نواهي الشرع وامتثال أوامر العقل.

والحزن ليس بالأمر الطبيعي للإنسان إذ لو كان أمراً طبيعياً لبقي

---

(١) ٢٢ سبتمر (أيلول) ١٨٩٨م.

ملازماً له لا يفارقه، والحقيقة خلاف ذلك، فإن الزمن يزيل الحزن فلا يبقى له من ذكر في الفكر، والشيء الذي يزيله طول الزمن لا يصعب على العقل أن يزيله إذا حاول إزالته ومحوه، وما على الإنسان لتصديق هذه الحقيقة إلا أن يذاكر نفسه فيما ألم به من الأحزان العظيمة بموت أقاربه وأصدقائه، فإنه لا يجد لها عنده من أثر يذكر ويجد أنهم لا يكادون يخطرون بباله إلا بالمناسبات وشجون الأحاديث، ويقول شيخ الشعراء أبو العلاء:

نسيت أبي كما نسيَتُ رِكابِي　　　وَهذِي الْخَيْلُ شَذْقَمْ والْجَدِيلَا

والإنسان بمخالفته الشرع والعقل يشقي نفسه ويسيء إليها فيوردها موارد المخاوف والمطامع والأحزان، ثم لا يكتفي بها بسيطة بل يعمل على تعظيمها وتجسيمها وتكبيرها وتكثيرها ويشكر من يعظمها معه ويشكو من يصغرها له.

ولا يستريح الإنسان في هذه الفانية ولا تهنأ له الحياة فيها مهما خدمه السعد وساعده المقدور ورفعته الحظوة وتوفرت لديه أسباب اللذات والشهوات والغنى والثروة وأحاط به أماجد أسرته وبلغ من الفخر والمجد والعز والجاه ما لم يبلغه بشر، إلا إذا نزع من قلبه خوف الموت، فإن حياته هذه وما تزينت به من المعالي والتغالي في أنفس المقتنيات تكون كلوح تصوير أجاد رسمه مصور ماهر فضمنه من مجالس الأنس ومنازه الأبصار ما يفوق وصف الواصفين، ويكون الخوف من الموت كزجاجة مداد أهراقه صبي على ذلك اللوح الثمين فطمس به بدائعه ومحاسنه ومنازهه، فإذا كان ينبغي لمن يروم التمتع بالحياة وما تجمع من منظر يروق ومخبر يطيب أن لا يخاف من الموت على نفسه، فكيف ينبغي له أن يفرط في الحزن على غيره حتى يخرج به إلى غير لائق بالسداد.

والناس في التمتع بالحياة قسمان: قسم عالجوا أنفسهم بمواعظ الدين وقواعد الحكمة فمحوا خوف الموت من صدورهم وعاشوا في راحة وهناء أنى قلبتهم يد الدهر وقليل ما هم؛ لأن الارتقاء إلى هذه النعمة الكبرى صعب والطريق إليها وعر ورياضة النفس لمحو ذلك الخوف من أشق الرياضات وأتعب المشقات، والقسم الآخر: وهو السواد الأعظم إنما يتمتعون بالحياة بنسيان الموت، فإذا وقع سهمه قريباً منهم، فأصاب من طالت عشرته معهم جال ذكر الموت في أفكارهم فحزنوا وبكوا وهم يظنون أن الباعث على هذا الحزن وهذا البكاء هو موت من مات لهم، وإنما باعثه في الحقيقة هو خوفهم من الموت على أنفسهم.

وإليك ما يجري في المأتم. بينا الجيران في نومة السحر يتقلبون في مضاجع الراحة على جنوبهم، إذا هم بصيحة أعقبتها ضجة تكفي لإيقاظ أهل الكهف، فيهبون من نومهم وقد أحاط بهم الفزع والجزع، وهم يتساءلون عن تلك الصيحة والضجة فيعلمون أن فلاناً مات، وربما وقع هذا الصياح المستنكر والضجيج المستقبح والمريض في النزع والاحتضار لم يمت بعد، ولا يزال هذا الصياح في ازدياد والولولة في ارتفاع كلما دخل البيت داخلة من النساء، فلا يتعالى النهار حتى يصير البيت كسفينة تموج بركابها وقد أدركها الغرق، ومن لنا ببليغ يصف ما يقع حينئذٍ من النساء من شق الجيوب ونشر الشعور ودق الصدور ولطم الخدود وفرط الدموع، وقد وقفت النوائح بين تلك الصفوف بالدفوف يهيجن أشجانهن ويثرن أحزانهن بألفاظ ملحنة تذيب الجماد، وتفتت الأكباد وهن يضربن الأرض بأرجلهن دائرات صائحات باكيات نائحات. ثم يشيعنه بالصياح والبكاء ولا ناهي لهن من رجالهن الذين يعلمون أن

ما يفعلنه مناف للشرع مناقض للعقل، وأن ردعهن عن هذا المنكر بالقهر والقوة مما يقضي به الشرع، لا فرق في ذلك بين الحقيرة والعظيمة والبعيدة والقريبة، فإن أول ما ضرب عمر بالدرة ضرب أخت أبي بكر ﷺ لما منع النساء من النوح عليه فلم تطاوع.

ولا يفرق المأتم عن الفرح في الفخفخة الباطلة والنفقات الضائعة، إذ لا يزال الكيس مفتوحاً إلى الأربعين ومن الناس من يقترض لهذا الإنفاق أو يظلم الورثة بالإسراف فيه وربما كان ما ينفق على المأتم يزيد على ما ينفق على القصر سنوات، واسأل بذلك المجالس الحسبية فقوائم الحساب فيها تشهد على ما نقول.

وما قلناه عن الفرح من التكليف بالاستقبال والترحيب والتأهيل والتعظيم والإجلاس والتشييع، وما يتبع ذلك من الانحراف بالتقصير كل ذلك واقع في المأتم بحيث أنك لو شاهدت مأتماً لما وجدت الفرق بينه وبين الفرح، إلا برفع المغني ووضع القارىء.

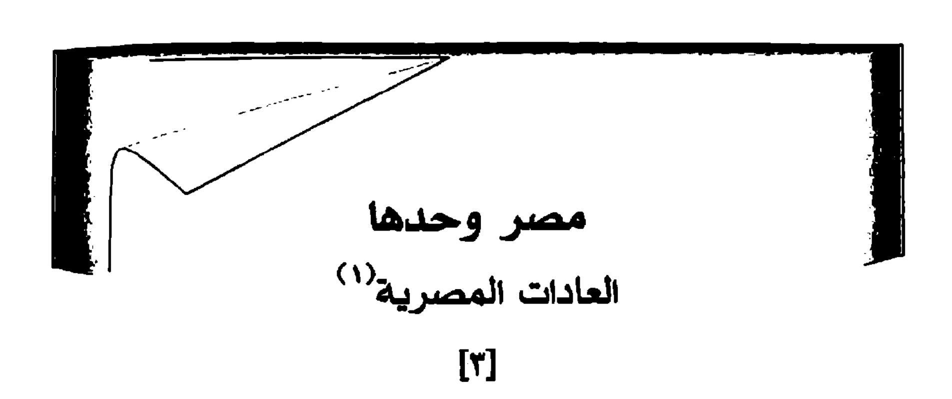
ومن العادات القبيحة خروج النساء إلى المقابر في الجمع والمواسم والأعياد بالمآكل والمشارب، فيقضين الليالي في تلك الخلوات؛ كأنهن في بعض المنتزهات، وهذا مما ينهى عنه الشرع وتنفر منه الآداب.

ولو نظرنا إلى سائر البلاد الإسلامية لوجدنا المآتم فيها مطابقة للشرع وفي غيرها موافقة للعقل، فإنها تنقضي بليلة واحدة ولا تتغير حالة البيت عما هو عليه، ولا تسمع صياحاً ولا عويلاً ولا بكاء ولا نحيباً.

ومن العادات الممدوحة في دار الخلافة أن الوافدين للتعزية بعد تشييع الجنازة لا يتلاهون بالحديث ولغو القول كما نفعله في مآتمنا، بل يجدون في وسط قاعة الجلوس أجزاء القرآن الشريف في صندوق، فيأخذ

كل واحد منهم جزأ فيقرأه ويهدي ثوابه إلى الميت، ثم ينصرفون وينتهي المأتم.

فما أولى المصريين بأن يقتدوا بهذا العمل وأن ينبذوا مثل هذه العادات القبيحة، التي ليس وراءها إلا ضياع المال واختلال الصحة والإخلال بالآداب والتهاون بأوامر الشرع ونواهيه، وفوات الزمن سدى على غير جدوى، واحتمال انتقاد المنتقدين وتقريع المنددين من الأجانب الذين يلصقون هذه العادات وأمثالها بآداب الشريعة الإسلامية وهي بريئة منها، وسيأتي الكلام على الزار.



مصر وحدها

العادات المصرية(١)

[٣]

ثَـلَاثَـةٌ تَـشْـقَـى بِـهَـا ٱلـدّارُ ٱلْـعُـرْسُ وٱلْـمَـأْتَـمُ وَ ٱلـزَّارُ

[الزار]

مضى الكلام على العرس والمأتم، وهما آفتان من آفات الجمعية المصرية، سالبتان للأموال جالبتان للأحزان. وبقي الكلام على شر الثلاثة وهو الزَّار، ولا تجد في مفردات اللغة كلمة تفي ببيان ضرره وشره، بل ولا جملة تكفي لإيضاح ما يجمع من القبائح والفضائح، وكفى به عاراً أن تكون المخدرة مطية من مطايا الجن.

ولو اجتمع جماعة من المجانين في مكان لما بلغت غوغاؤهم معشار ما يحصل في مجلس الزار من الصياح والجلبة، ولو اجتمع في المنعطف المستميح ما تظهره السيدات الأميرات المترفعات المتكبرات من الخضوع والخشوع والذلة والمسكنة أمام شيخة الزار أو كودية الزار لكفى لانعطاف أشد القلوب قسوة، ولو حسب ما ينفق على الزار من سائر الطبقات، وما يصاغ له من الحلي من الذهب والفضة في مدة قصيرة، لبلغ مبلغاً يمكن أن تشاد به مدرسة للبنات من أعظم المدارس،

(١) ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٨٩٨م.

يخرجن منها متعلمات مطهرات من أدران هذه المفسدة الشيطانية، ولو تنبهت المشيخة الأزهرية إلى الإعلان بتحريم هذا الزار، وتفسيق من يعين عليه، وتبكيت من يرضى به لأهله، لكتب لها به عمل صالح، ولكن بعض علمائنا الأعلام وجهابذتنا العظام يرون أن وظيفتهم العلمية توفي بمثل الاعتراض والتنديد على من يدخل المسجد برجله اليسرى مثلاً، وما لهم ولما يكدر خواطر الكبراء ونساء الأمراء، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولو امتنع الرجال عن الإنفاق على الزار لكان أجدر وأحرى بمن يطيع الشرع والعقل ويخالف الشيطان والمرأة، ولكن المصيبة كل المصيبة أن ينتهي أمر المرأة مع الرجل بعد تسخيره إلى تبخيره، فقد سمعنا عن كثير ممن يجلهم الناس ويعظمونهم أنهم قد طأطأوا رؤوسهم إلى الكودية تبخرهم وتناجي عفاريتهم.

وَٱللهِ لولَا أَنْ يُعاتِبَ صاحبٌ وَيَقُولَ بَعْضُ ٱلْقَارئينَ تعمَّدا

لذَكرْتُ أسْمَاء عَظيماً قدْرُهَا تَخذَتْ لَها وِرْدَ ٱلْضَّلَالَةِ مَوْرِداً

واحكم ما جرى على لسان أحمد بن الحسين[1] قوله:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ شَيْئاً كَنَقْصِ ٱلْقَادِرِينَ عَلَى ٱلْتَّمَامِ

ولو وقفت في مجلس الزار ورأيت ما يجري فيه من المضللات والمكفرات بتزيين القرابين والركوب عليها والطواف بها وشرب الدماء وتلطيخ الوجوه والثياب بها وشي أحشاء الذبيحة، لرأيت نفسك كأنك واقف في معبد من معابد اليونان لعبادة الأصنام والأوثان.

أما ما يجري في الزار فإننا نذكره ببعض التفصيل؛ لأن كثيراً من الناس يسمعون به إجمالاً ولا يعرفونه تفصيلاً، وإليك البيان.

---

(١) أحمد بن الحسين هو من اشتهر بيننا باسم المتنبي.

إن السبب الصحيح في انتشار الزار هو التقليد لا غيره فترى المرأة تدَّعي المرض ومن يتمارض يعجز الطبيب فيه، فإذا عجز الطبيب طلبت الزار وأقنعت زوجها بأن فلانة كانت مريضة بمثل مرضها ولم تبرأ إلا به وكأنها تنشد:

أَلَا يَا طَبِيبَ ٱلْجِنِّ هَلْ لَكَ حِيلَةٌ   فَإِنَّ طَبِيبَ الْإِنْسِ أَعْيَاهُ دَائِيَا

ثم تستحضر شيخة الزار، وهذه تطلب منها إجراء العقد على اصطلاحهن، والعقد عبارة عن ربع ريال يوضع في إناء ويصب عليه ماء الورد، ويوضع هذا الإناء على كرسي محاطاً بأطباق فيها من أنواع الجوز واللوز والبندق واللبن الحامض، ثم تغتسل الممسوسة وتلبس ثياباً بيضاء وتخضب يديها ورجليها، وتضع هذا الكرسي بما عليه عند رأسها تلك الليلة، وفي الصباح تحضر الشيخة فتثقب ربع الريال ثم تضع فيه خيطاً وتعقده على عضدها، ثم تصنع رقاقاً بالسمن والعسل وتطعمه الممسوسة، وتكلفها بأن تجهز لنفسها في مسافة ما بين ليلة العقد وليلة الزار حلياً معروفة لهم عند الصائغ، وهي عبارة عن خلاخل ودمالج ومعاصم ومعاضد وخواتم وأقراط مرصعة باللؤلؤ والمرجان، ومناطق وقلائد وخناجر وسيف ومصقلة وسوط وصولجان وخوذة وسكاكين وغيرها.

وجميعها إما أن تكون ذهباً خالصاً أو فضة صافية وتكلفها أيضاً بإحضار كثير من ملابس الرجال والنساء المختلفة من أردية وملاآت وأوشحة وأخمرة، وكلها من الحرير الملون المزركش بالذهب والفضة، فإن لكل عفريت وعفريتة لباساً خاصاً، وقد تكون الممسوسة ذات أخدان كثيرة يترادفونها، فإذا حانت ليلة الزار دعت صاحبته صواحبها ونصب الكرسي ووضعت عليه الحلي، وقامت الشيخة عليها مع توابعها وفي أيديهن الدفوف يضربن عليها ثم يبخرن الحلي، وبعد ذلك يفتتحن مجلس

الزار بكلام مقفى ملحن تدور فيه أسماء العفاريات وكناهم، فإذا بدأن بالنقر والألحان وذكرن اسماً من هذه الأسماء قامت الممسوسة من صاحب هذا الاسم أو صاحبته وعملت ما يعمله، فإن كان العفريت هو البدوي وضعت اللثام، وأخذت الحسام، ولعبت به لعب الريح بفضل منطقتها. وسط حديقتها. وصالت كما تصول الأبطال. وقالت للأتراب: نزال نزال.

وإن كان العفريت هو المغربي احتدت وغضبت، وحسرت عن جبهتها وقطبت، وأبدلت الجيم بالزاي، وقالت لفتاتها: يا مولاي، وأسرعت في الكلام، وابتدرت بالخصام.

وإن كان العفريت هو أوربي لبست الطربوش على حرف، وغمزت بالحاجب والطرف، ثم اختالت وتمايلت، واستمالت وغازلت.

وإن كان العفريت هو الصعيدي علقت في الهراوة جراب الزاد، وأكثرت من قولة: عاد.

وإن كانت العفريتة رينه كشفت عن ساقيها، وشمرت عن ذراعيها، وأخذت المصقلة[1] وأومأت إلى العمل بها فلا تزال؛ كأنها تنتشر ثياباً وتطوي، وتصقل وتكوي.

وإن كانت العفريتة سفينة لعبت برأسها في طست من الماء. لعب السفينة في الدأماء.

وإن كان العفريت طفلاً أو طفلة تكلمت بألفاظ الأطفال، وحذفت من كلامها الحروف الثقال، فيكمل جمالها بهذا النقص. كما كمل حسنها بذلك الرقص.

---

(١) المصقلة: خرزة يصقل بها.

وهكذا كل واحدة في دورها تلبس لبس عفريتها وتمثل عمله حتى تتأثر صاحبة الزار عند ذكر اسم عفريت من هذه الأسماء، فتقوم وتعمل عمل صاحبه فيعلم حينئذٍ أنه العفريت الذي مسها.

ولا يزلن في رقصهن وتمثيلهن حتى تضعف القوى وتنحل الأعصاب فيترامين مغشياً عليهن، ولا يفقن حتى تأخذ الشيخة في فمها شيئاً من ماء الورد ثم تمجه في وجوههن، فإذا فقن عدن إلى ما كن عليه من دق الدفوف ودعاء العفاريت حتى يقلقن الجيران، وكلما هَمَّ جار بالشكوى اعترضته زوجته خوفاً عليه أن يمسه عفريت وقالت له: «إياك والاعتراض» حتى إذا أشرقت الغزالة[١] برز الكبش يتهادى في الحلي والحلل. بين الخدم والخول. بعد غسله وتطهيره، وتعويذه وتبخيره، وقد ركبته صاحبة الزار وأحاط بها ضاربات الدفوف فتطوف بهذا الزفاف سبعاً حول ذلك الكرسي الذي بات وعليه النقل واللبن والشموع متقدة بين يديها، فإذا انتهت من الطواف أخرجته إلى الجزار فذبحه وتلقين الدم في إناء فتدهن الممسوسة به قلبها وتلطخ وجهها ويديها وثيابها وتشرب منه!! ثم يتناوب الحاضرات ذلك فيفعلن فعلها، وبعد ذلك يستحضر إناء كبير من المزر (البوزه) ويشربن منه ويأكلن أحشاء الكبش بعد شيها ثم تدق الدفوف ويحرق البخور ويجلن في المكان راقصات صائحات بقولهن: «يا شايل الدم يا شارب البوزه، يا رينه يا بتاعة الزار، يا رينه حلقك مرجان. سفينه في البحر عوامه. تقلع وتلبس وهدومها غرقانة، ولا يزال الحال على هذا المنوال إلى أن ينضج الشواء فتضع الكودية على كل قرص من الفطير قطعة من الشواء وتناول كل واحدة نصيبها.

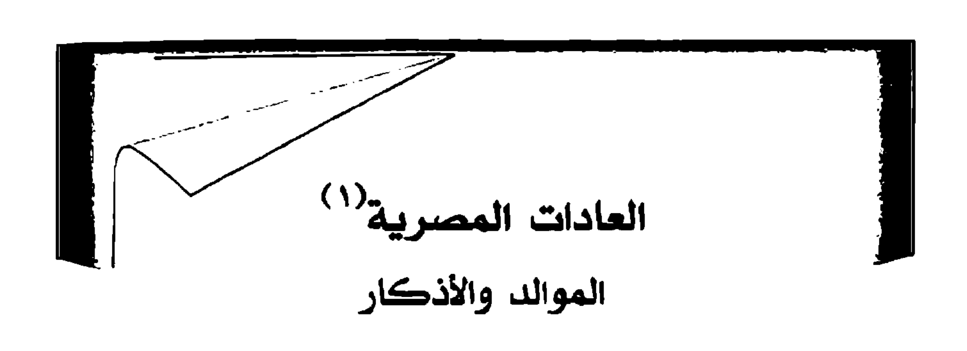
---

(١) الغزالة: الشمس.

وهذا الترتيب بعينه من تطهير الذبيحة وتبخيرها وتحليتها وزفها، والطواف بها وذبحها والتلطخ بدمها وشيّ أحشائها وتفرقة أجزائها مع الفطير كان يعمل عند عبدة الأوثان في تقديم قرابينهم ونذورهم.

وبعد الأكل يعدن إلى ما كن فيه إلى أن ينطوي النهار، فتذهب كل واحدة من الحاضرات إلى بيتها بعد أن تقبل يد الشيخة وتتبرك بها.

ولا تسل عما يصيب كل واحدة منهن من وهن الجسم واضطراب الأعصاب واختلال الصحة فما أشبههن في هذه الحالة التي يعتبرنها شفاء لأمراضهن بحالة أولئك الذين كانوا يقومون من تحت حوافر الفرس مرضضين في تلك العادة القبيحة، عادة الدوسة التي أحسنت الحكومة كل الإحسان في إبطالها ويا ليتها تلتفت الآن لإبطال هذه العادة الوثنية، فتطهر الآداب من أرجاسها إذا لم يكن بالأزواج نخوة تدفعهم لمحو هذا العار من بيوتهم وتنزيه نسائهم أن يكن، من مطايا الجن.



العادات المصرية[1]

الموالد والأذكار

لو قام السيد الرفاعي والسيد البدوي والسيد الدسوقي والشيخ البيومي ﷺ، وغيرهم من أقطاب الحقيقة وأعلام الشريعة من مضاجعهم ومراقدهم ونظروا ما يعمل الناس في مولدهم من ارتكاب الفجور ومعاقرة الخمور ونشر البغاء وطي الحياء ورقص النساء وإغضاب رب السماء، لأعملوا فيهم سيف الشرع ولجاهدوا فيهم حق الجهاد، لهذه المعاصي التي ألصقوها بأديم الدين وجلبوا بها العار على الإسلام والمسلمين، فماذا يقول الأجنبي إذا وقف في مولد البيومي الذي يقام في العباسية مثلاً، ورآى مركبات الترامواي كخلايا النحل بالناس يتزاحمون عليها من كل فج ولا تزاحمهم على مناسك الحج، فإذا جاؤوا إلى المولد لم يكن لهم قصد فيقصدوه ولا وجهة فيتوجهوا إليها، وإنما يختلط بعضهم ببعض تحت سحب من الغبار وفوق طبقات من الأقذار، ورآى حلقات الأذكار وما يدور فيها من الشطح والتغني والتمايل والتثني وسمع صنوج الراقصات في أماكن اللهو مختلطة بدفوف الشاطحين وضوضاء الذاكرين، ونظر إلى قلائد البغايا في أجيادهن لا تبعد خطوات عن سبح المشايخ في أيديهم وأعناقهم، ورآى حانات الخمر والقمر والزمر تجاور مجالس القرآن ومحافل الذكر ورآى قوماً يموج بعضهم في

(١) ٢٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٩٨م.

بعض والأعلام تخفق على رؤوسهم، والدفوف تدق أمامهم فيقفون على كل خيمة للتحية والسلام بنغمات منكرة حتى يصلوا إلى خيمتهم، فيأخذوا في الشطح والتواجد على نقرات الدفوف وعزف الصنوج وأصوات المزهر.

وقد علم ذلك الأجنبي أن هذا الاجتماع والاحتفال وتزاحم الأقدام إنما هو تذكار لمولد ركن من أركان الإسلام، وقطب من أقطاب الدين، لا جرم أنه يعتقد أن جميع ما رآه وسمعه هو من قواعد الدين وشعائره، وأن النبي ﷺ وأصحابه ﷺ كانوا يفعلون هذه الفعال، أو أنه يعتقد أن ما رآه من الملاهي وارتكاب المنكرات إن لم يكن من الدين، فإنه من المباحات فيه بدليل وجوده أمام أعين المشايخ وسكوتهم عنه، وعما هو موجود في حلقات الذكر مما له شبيه في مراسح الرقص ومجالس الطرب من الدفوف والنايات وغيرها، وعن شدة التشابه بين رقص الراقصات في حانات الأوزار وشطح الشاطحين في حلقات الأذكار.

وقد بلغ بالأجانب اعتقاد أن هذا من الدين إلى إثباته في مؤلفاتهم، وقد قرأنا في بعض الكتب الألمانية أن مدينة طنطا من المدن الإسلامية المقدسة عند المسلمين، وأن زيارتها أيام المولد تقوم مقام الحج فتسقط فريضته عن الزائر، هذا مع العلم بما يقع في هذه المدينة من الموبقات وارتكاب المحرمات مما يتبرأ منه الدين وتتنزه عنه آدابه الشريفة، ولكن وقوعه في عرض الاحتفال بتذكار مولد ولي من أولياء الله تعالى وسكوت العلماء ورجال الدين عنه جر الأجانب إلى الاعتقاد بأن الدين يأمر بهذا، أو أنه لا ينهى عن فعله حتى قرروا في كتبهم عن الدين الإسلامي أنه مملوء بالخرافات مشحون بالترهات والخلاعات، مع أن النبي ﷺ نهى

مؤذنه عن التطريب في الأذان، وقال رجل من المؤذنين لابن عمر رضي الله عنهما: «إني لأحبك في الله» فقال له: «لكنني أبغضك في الله» فقال: «لِمَ يا أبا عبد الرحمٰن؟» قال: «لأنك تغني في أذانك» فإذا كان التغني في الأذان منهياً عنه فكيف يليق بنا معاشر المسلمين أن نساعد الأجنبي على اعتقاد ما اعتقده فينا وفي ديننا، لا سيما من اتخذ منا دعوى التصوف وسيلة يستعين بها على قضاء أغراضه الدنيوية، فأدخل في طريق القوم ما ليس منها ونسب إليها أموراً هي منزهة عنها، وجعل مجالس الأذكار حلقات شطح ولهو وسماع، وقد تقرر أن الفقير المنقطع لا يتصرف إلا في واجب أو مندوب وأن المكروه عند طائفة الصوفية كالمحرم لا سبيل إلى ذكره فضلاً عن فعله، فكيف يفعلون الآن أفعالاً قد اتفق العلماء على تحريمها، ومع ارتكاب بعضهم ما ذكر، فإنهم يدعون الوصول إلى مقامات ومنازل رفيعة يستعظمها الإنسان في الغالب على من هو متصف بالاقتداء والاتباع، فكيف ينالها أهل التخليط والشطح وهم على ما ترى في ارتكاب ما نهى الشرع عنه؟.

وقال الإمام السهروردي: «لا شك أنك إذا تخيلت بين عينيك جلوس هؤلاء للذكر وما يفعلونه فيه، فإن نفسك تنزه أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم عن ذلك المجلس وعن حضوره».

واستفتى بعضهم في سنة (٦٦١هـ) علماء المذاهب الأربعة بهذا الاستفتاء: «ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين وفقهاء المسلمين وفقهم الله لطاعته وأعانهم على مرضاته في جماعة من المسلمين وردوا إلى بلد فقصدوا المسجد وشرعوا يصفقون ويشطحون فهل يجوز فعل ذلك شرعاً؟ أفتونا مأجورين يرحمكم الله». فقال الشافعية: «السماع لهو مكروه يشبه الباطل من قال به ترد شهادته والله أعلم». وقال المالكية: «يجب على

الحاكم زجرهم وردعهم وإخراجهم من المساجد حتى يتوبوا ويرجعوا والله أعلم». وقال الحنابلة: «فاعل ذلك لا يصلى خلفه ولا تقبل شهادته ولا يقبل حكمه إن كان حاكماً، وإن عقد للنكاح عقداً فهو فاسد والله أعلم». وقال الحنفية: «لا يصلى على الحصر التي يرقص عليها حتى تغسل، والله أعلم».

أما من اتخذ منهم الأعلام تخفق فوق رأسه فليس من أهل الطريقة في شيء؛ لأن السالك لو قدر أن يدفن نفسه لفعل فراراً من الشهرة، فكيف ينشر الأعلام على رأسه وذلك من الشهرة والدعوى وأهل الإيمان براء من ذلك كله، ألا ترى إلى قول عمر بن الخطاب لتميم الداري ﷺ لما سأله أن يعظ الناس ويذكرهم، فقال له عمر: «أنت تريد أن تقول: أنا تميم الداري فاعرفوني؟» وقد غرَّ هؤلاء المشايخ ما يظهره الناس لهم من الاعتقاد فيهم إما لغفلتهم وجهالتهم أو لقضاء مآربهم منهم حتى التزموا البلاد وصار كل صاحب طريقة منهم لا يقول بقبول ذكر الله في البلد الذي هو فيه إلا إذا كان على طريقته، وقد ترقى الغرور بأرباب هذه الطرق إلى دعوى الكرامات الباهرة والتبجح بها في المجالس، وعدم التيقظ إلى صحة الاعتراض عليها وسهولته.

فمن ذلك ما يحكى أن المرحوم الشيخ البكري الكبير كان جالساً مع الشيخ الغلبان أمين الفتوى والشيخ علي الدرويش شاعر ذلك العصر وإسماعيل أفندي الخربتاوي من الأدباء، فخرج عليهم ثعبان ففزعوا منه فقال لهم الشيخ: كيف تفزعون من ثعبان وأنتم في حضرتي؟ وكان الخدم قد عاجلوا الثعبان فقتلوه، فقال له الشيخ الدرويش: «إن الثعبان لم يخش جَدَّك في الغار، بل لدغه وبقي أثر تلك اللدغة فيه وفي ذريته» فتنحنح الشيخ البكري وضحك الحاضرون.

وقد تغالى الناس في الاعتقاد حتى انتقل بهم ذلك إلى التبرك بالحيوان، فنسبوا إلى السيد البدوي ﷺ عجلاً يدورون به في البلاد وفي عنقه أنواع من الجلاجل والأجراس فيجمعون له النذور ويدخلونه الدور للتبرك به والأخذ من شعره للاستشفاء من الأمراض والتحصن من العين، ولو حضرهم السيد لفعل بأصحاب العجل ما فعله موسى بأصحاب العجل.

ومن العجب أن علماءنا الأعلام يرون هذه البدع ويحضرونها ويأكلون في ولائمها، ولا ينهون عنها ولا ينبهون الحكومة عليها مع علمهم أن الحكومة تجيب، ولكنها تحتاج إلى من ينبهها كما حصل في الدوسة وزفة الفار، وأكل النار وضرب السلاح واللعب بالثعابين، وغير ذلك من الأشياء التي يتعجب من رؤيتها بسطاء العامة، وهي في الحقيقة حرفة يتعيش منها كثير من الهنود وغير الهنود ممن لم يكونوا من المسلمين، وأولياء الله أجل قدراً وأسمى منزلة أن يحتاجوا في إثبات ولايتهم إلى عامي لا يقوم بالواجبات الشرعية، يأكل ثعباناً لم يزكُ فيستدل بارتكاب المحرم وهو أكل الثعابين مثلاً على أمر قدسي جليل وهو إثبات الكرامة للولي، وأولياء الله لا يتحدون بالكرامات؛ لأنهم ليسوا بأنبياء، وإنما تصدر عنهم الكرامات عفواً، وقد لا يعلمون أوقاتها ولا أنواعها وإنما يكرمهم الله بها عن غير علم وتحدّ منهم، ولا شكُ أنهم لا يرضون عن مريديهم ولا عمن كان على طريقتهم أن يقفوا في أوقات معلومة من السنة في تلك المواقف فيفعلوا أفعالاً من نوع واحد طول عمرهم كما يقف المشعوذون.

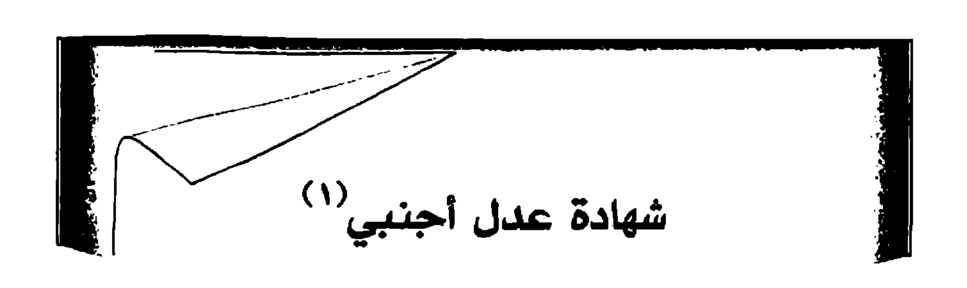
فينبغي على علمائنا الأعلام أن يحفظوا كرامة الإسلام بتنبيه الحكومة على محو ما من شأنه أن يحط من قدر هذا الدين المنزه عن

السفاسف والترهات والخزعبلات والأباطيل والأضاليل وأن يذبحوا عجل السيد كما ذبح محمد بك لزوغلي[1] تلك العنز المذكورة في تاريخ الجبرتي.

فقد كان جماعة ممن تجاسروا على الله أخذوا عنزا فألبسوا أنواعاً من الحلي وشرعوا يطوفون بها على بيوت الأمراء للتبرك بها وينسبون إليها كرامات يصادق بعضهم على بعض في صدورها عنها، فاعتقد الناس فيها، وصاروا ينذرون لها النذور ويجلونها ويقبلونها، ويتمسحون بها، وأتباعها يزيدون كل يوم للخيرات التي تدرها لهم فطلبها محمد بك لازوغلي إلى بيته ليتبرك بها أهله، فاحضروا إليه بالطبول، والدفوف، والأعلام، والرايات، والغوغاء، والضوضاء، فاصعدها الخدم إلى الحرم بالتجلة والإجلال، ثم مد لأتباعها ومريديها مائدة فأكلوا ما شاؤوا، ولما طال عليهم الانتظار التمسوا نزولها إليهم، فأبلغهم لازوغلي بك أنها في بطونهم. ثم أمر بجلدهم، وقال لهم: لم أضربكم على التي في بطونكم، وإنما ضربتكم لتحذروا أن تجدوا لها أختاً.

---

(١) محمد لازوغلي، وزير في عهد محمد علي الكبير.



شهادة عدل أجنبي[1]

قال الموسيو هانس برث الألماني في كتابه «حق الهلال»، عند كلامه في باب «الإصلاح» ما يأتي:

«كتب مولتك عندما أدخلت أوروبا ما تسميه بالنظام والإصلاح في الدولة العثمانية سنة (١٨٣٠م) يقول: «إن أوروبا لم تنظر إلى وجه النفع للدولة العلية فابتدأت الإصلاح من آخره واعتمدت فيه على ظاهره واكتفت منه دون الحق بالباطل...».

وفي الواقع فإن الخلل والفساد والشر والضرر الذي نتج عن هذا الإصلاح الباطل لا يكاد يأتي عليه شرح ولا وصف، وما كان ذلك الإصلاح إلا قيود تخبيل وسلاسل تعطيل للدولة العلية، أرادت به أوروبا وقوعها في حبائله لاقتناص الفائدة السياسية لها من ورائه فعطلت النافع وأفسدت الصالح، فخربت ما كان مشيداً وهدمت ما كان قائماً من القواعد المتينة والسنن القويمة، وأبدلتها ببدع ومحدثات غربية يجهلها الشرق ولا تنطبق على طبيعة الأمة العثمانية ولا تأتلف بأخلاقها.

وقد تجاهلت أوروبا أن ما أدخلته مما هو نقيض المدنية الشرقية، لا يلبث أن ينشأ عنه ضعف الجامعة العثمانية وزعزعة أركان السلطنة،

---

(١) ٢٧ أبريل (نيسان) ١٨٩٩م.

وأن ليس من ورائه أدنى منفعة لأحد في الأمة حتى ولا لنفس المسيحيين الذين تدعي أوروبا السعي لهم في المدافعة عنهم والمطالبة بإصلاح شؤونهم.

وما الإصلاح الصحيح والمدنية الحقة والحضارة النافعة التي تنتفع بها الأمة العثمانية إلا في التأليف والتوفيق وحفظ التوازن بين جوهر المدنية الشرقية والمدنية الغربية، وفي التمييز بين ما ينطبق فيهما وما لا يتفق، فرب إصلاح عند قوم يكون فساداً عند آخرين، وما يوافق بلداً لا يوافق غيرها.

وقد قال أوتاندريك: «إن خسارة الدولة العلية بدخولها في صف الدول الأوروبية وارتباط علائقها بها كانت أعظم من ربحها منها».

ومع ذلك كله فإن قوة الطباع العثمانية وحكمة العادات الشرقية تمكنت من مصادمة هذه الغوائل، فلم تصل بالدولة إلى الانحلال والتقويض، بل خرجت بها سالمة من بين أنياب الخطوب والنوازل، وهي سائرة اليوم في طريق التقدم والترقي بالتوفيق بين المدنية الشرقية والغربية، والتفريق بين النافع والضار منهما، وإذا استمرت الدولة في سيرها على هذا النمط الحالي أوشكت أن تصل إلى الدرجة العالية التي تستحقها بين الدول.

والذين ينتقدون على الدولة حالتها الحاضرة يعترضون أولاً على أمورها المالية، والحقيقة أن ذلك ليس بناشىء من عمل الدولة العلية ولا من سوء الإدارة وقلة التدبير.

ولكن أوروبا كلما رأت مالية الدولة على وشك الانتظام ابتكرت لها ورطة من الورطات ونازلة من النوازل، تضطرها إلى كثرة الإنفاق.

وحسبك شاهداً على ذلك أنه ما كادت مالية الدولة تتوازن وتستقيم

على نظام دائم في هذه السنين الأخيرة حتى ظهرت الفتنة الأرمنية، ومن ورائها الحوادث الكردية ومن بعدهما الحرب اليونانية.

فأية كنوز لا تفنى؟ وأي مال لا ينفد وأية ميزانية تعتدل مع وجود هذه الخروق التي لا تقوى على سدها أقوى حكومة أوروبية دون أن يأتي الفساد على ماليتها؟.

وأعجب ما في الأمر أن أوروبا تفتح على الدولة هذه المهالك التي تستنفد المال والرجال ثم هي لا تسمح لها أبداً بأن تزيد شيئاً من المكوس والضرائب، وأن تساوي بين سكانها فيها ليتيسر لها بذلك سد النقصان عند وقوعه.

ومما يعترضون عليه أيضاً ما يزعمونه من خلل الإدارة وسوء سيرة الحكام، وفات المعترضين من كتبة الغربيين أن ينظروا إلى ما حولهم من إدارة بلادهم وحكامها وما يتجدد أمامهم كل يوم من مثل فضائح بناما وغيرها من نوعها.

وقد علم كل منصف أن في الإدارة التركية من الاستقامة وفي حكامها من حسن السيرة ما لا يقل عن كثير من الحكومات الأوروبية، ولو أننا استشهدنا اليونانيين والسربيين[1] والبلغاريين الذين انفصلوا من الدولة العثمانية واستقلوا عنها لشهدوا لنا بأنهم كانوا أحسن حالاً وأنعم بالاً وأرغد عيشاً في حكومة الترك الإسلامية منهم الآن تحت حكوماتهم المستقلة بهم من جنسهم ودينهم، ولا يعلم إلا الله مقدار سخطهم على شمس ذلك اليوم الذي خرجوا فيه من طاعة الحكومة العثمانية، وتمنيهم الرجوع إلى ما كانوا عليه فراراً من مرارة ما يذوقونه من حالتهم

---

(١) سكان صربيا.

الحاضرة، وبودهم جميعاً لو أمكنهم الرجوع إلى ذلك الحكم الذي تخلصوا من عذابه في زعم الأوروبيين.

وقد كتب غولتز كثيراً عن الإدارة التركية وامتدح ما رآه من جد المأمورين ونشاطهم وحسن قيامهم بوظائفهم واعتكافهم على الأعمال دون توزيع أوقاتهم على ما لا يجدي، وما على الدول الأوروبية إن أرادت بالدولة العثمانية خيراً إلا أن تترك لها وقتاً لا تشغلها فيه بالمشاكل السياسية فتتمكن من التفرغ لإصلاح ماليتها وتنظيم إدارتها، وحسن مكافأة القائمين بها على ما تقضي به المصلحة، فيتضح لها عند ذلك أن الموظف التركي لا ينقص درجة عن الموظف الغربي في استقامة سيرته وحسن القيام بالمفروض عليه.

ومما يرمون الدولة به: التقصير في عدالة القضاء، والمنصف المتجرد عن الهوى يحكم بأن القضاء التركي لا يقل في العدالة عن القضاء الغربي في كثير من دول أوروبا، فضلاً عن ممالك البلقان ومملكة اليونان. ولم يكتب أبوت الكاتب الفرنسوي عبارته المشهورة عن القضاء التركي بل كتبها عن القضاء اليوناني حيث قال: «سألت أحد رجال العدلية اليونانيين عن القاضيين القائمين بالقضاء في أثينا أيهما أقوم حكماً وأعدل سيرة؟ فقال لي: لا هذا ولا هذا».

ويا ليت كل القضاة في أوروبا يكونون مثل كثير من قضاة تركيا لا يلفتهم عن الحق أهواء سافلة ولا أغراض دنيئة.

ومما يدلل في باب الاعتراض أيضاً دعوى فقد الأمن في كثير من النواحي بداخلية البلاد، وتعرض قطاع الطريق للرحل من الأجانب مع أن الحقيقة أن جميع أولئك المغيرين السالبين هم من غير الأتراك، ونعد لك من مشاهيرهم: حاجي استاورس ولفتيري وهيرو جورجي وأتاناس

وغيرهم، على أن وقوع مثل هذه الحوادث شائع في كل مملكة ولا تكاد تخلو منها يوماً جزائر أوروبا الجنوبية.

ويعترضون أيضاً على حالة السجون في البلاد العثمانية فيصورونها مقراً للتعذيب والتنكيل وارتكاب الفظائع، ويكفي لرد اعتراضهم هذا وتفنيد أقوالهم فيه أن نذكر شهادة واحدة مما لا يحصى من شهادات الذين زاروا تلك السجون وعاينوها بأنظارهم ولم يعمهم الهوى عن الإقرار بالحقيقة.

فقد كتب الكاتب ميجند في العدد (٤٤) من جريدة زيتجست عما شاهده في السجن العام بالآستانة فقال:

«زرت السجن وأنا ممتلىء الخيال بما كنت أسمعه عنه من الظلمة والضيق وتراكم الأوضار والأقذار وكثرة السلاسل والأغلال وآلات التعذيب والإيلام، تقبر فيه الأحياء ولا تخترق جدرانه أصوات الشاكين وأنات الباكين، فوجدت الأمر على خلاف ما كنت أسمع ورأيت مكاناً فسيحاً وظلاً ظليلاً، ووجدت المسجونين مسرحين فيه بغير قيد ولا غل، ونظرت في مأكلهم ومشربهم فوجدت معيشتهم أحسن من معيشة كثير من المطلقين.

وبالجملة فإني رأيت سجناً أمريكانياً في شكل شرقي، ومما أدهشني أني وجدت فيه بجانب الجامع الإسلامي كنيسة مسيحية، فأثَّر في نفسي هذا المنظر تأثيراً لا أنساه في دهري، واستضللت أولئك الذين يصيحون في أوروبا بعد ذلك بتعصب الأتراك في دينهم على بقية الأديان، خصوصاً وأن إقامة هذه الكنيسة في هذا المحل المستتر عن الأعين مما لا تقصد به الدولة الرياء ولا التمويه على الأوروبيين.

وأعرف كثيراً من البلاد الأوروبية لا تسمح حكومتها لتعصبها بإقامة

مسجد في أرضها، ولو فعلت لقامت عليها قيامة اللوَّام ولسلقها رؤساء دينها بألسنة حداد، فما بالك إذا قامت بما تقوم به الحكومة التركية من تلقاء نفسها بإقامة الكنيسة في جوار الجامع.

وأشهد أنني لم أشعر في نفسي بانقباض ولا في صدري بحرج كالذي يعتري كل إنسان عند دخوله أي سجن من سجون المدنية الغربية، ولم يصبني من ذلك ما يصيب كل من دخل سجن مونتويك في إسبانيا وقلعة سان بولص وسجن القوضويين في شيكاجو وسجن البارهميدي بقرب نوبلي، الذي تتمثل لك فيه المدنية اليونانية الحاضرة بأقبح شكل وأشنع منظر، فقد شاهدنا فيه المسجونين بأعييننا يموتون صبراً كالحيوانات العجم مقيدين مغلولين في مطامير مظلمة وسراديب في بطون الأرض»، اهـ.

تلك هي النقائص وهذه هي المغامز التي يعترض عليها المعترضون وينتقد المنتقدون ويملؤون الأفق صياحاً بالشكوى منها والتحريض والتهييج على إزالتها.

واعلم أن كل ما يترقبونه للدولة من التقويض والانحلال لا ينطبق على ما يتبين منها للباحث في أحوالها ولا يتوقع لها ما تتربصه الدول الأوروبية بها، فإن المملكة العثمانية التي أمكنها أن تقاوم كل هذه الخطوب والنوازل، وتجلدت على احتمال ما لا يتصور من المصاعب والمشاق، وأقامت زمناً طويلاً بين الدول على هذا الحال تراها ساكنة، فإذا نهضت جاءت بما يدهش الألباب من القوة والبطش، وقد انتشرت فيها المدارس الحربية وانتظمت مثل انتظامها في أوروبا، وتفرعت في أرضها الطرق الحديدية لتيسير نقل الجنود وتسيير الجيوش حتى أصبح جيشها مما تفتخر بمثله دول أوروبا، وهي لا تخلو من رجال نبهاء ذوي

قدرة على الأعمال وتفنن في وجوه التدبير والتصرف، ومن كانت هذه حالته لا ينبغي أن يحكم عليه بالتلاشي والاضمحلال كما يتوسمه فيه العدو.

ومن الذي يقرأ ما كتبه غولتز عن الدولة في هذا الباب ولا يجزم بحسن مستقبلها؟ حيث قال: «إن قوة الحكومة العثمانية قوة دائمة؛ لأنها تستمدها من القوة الكامنة في نفوس الأمة التركية بطباعها وسجاياها وما في أخلاق الأفراد من حب القناعة والشهامة والبساطة وسلامة النية، وشعورهم جميعاً باتفاق منافعهم وائتلاف مصالحهم أمام الأجنبي الطامع، ومما غرسه التاريخ منذ الفتوح في صدورهم من رفعة قدرهم وعلو مقامهم بين الأمم وما تكنه صدورهم من الإخلاص وانحناء الضلوع على محبة حكومتهم وتدينهم بدين الطاعة المطلقة المفروضة عليهم لخليفتهم».

وقال صاحب الكتاب في كلامه عن تقدم الدول العثمانية وترقيها: «كثر قول القائلين في: هل يمكن للدولة العثمانية أن تخطو مثل الدول الغربية في سبيل التقدم والترقي؟

وهي مسألة اشتغل بها الفحول من علماء السياسة الغربية فاختلفوا فيها وذهبوا مذاهب شتى بين مثبت وناف، وإنما أكثرهم ممن لا يعلمون أخلاق الأمة التركية وأحوال الدولة العثمانية وطباع أهل المشرق إلا من طريق السماع دون المعاينة والاختبار، فهم يحكمون بأن لا تقدم لها ويبنون حكمهم هذا على أن القرآن مخالف لطريق التقدم والترقي، كما زعمه الموسيو رنان في قوله: «إن القرآن حلقة من حديد مفرغة على رؤوس المسلمين».

وهو حكم فاسد ورأي مأفون وزعم باطل، دفعه إليه الخفة في

الرأي والطيش عند الحكم، فإن أقل نظرة في تاريخ العرب وأيام مجدهم فضلاً عن الأتراك كانت تثبت لهذا الفيلسوف الفرنسوي أن دين المسلمين أرفع مما افتراه عليه، وأن المدنية والدين الإسلامي شيئان لا يختلفان بل هما نسيبان لا يفترقان، إن لم يقصد بالمدنية مدنية اللهو واللعب في مثل باريس ومونتكارلو.

وهذا الدين الذي هو ثابت مغروس في نفوس الأتراك هو أكبر مساعد بطبيعته على تقدم الجمعية التي تدين به لما يلم به من قواعد الاشتراكية القويمة العادلة، المبنية على التعاون وحب الخير والإحسان والشفقة الإنسانية، كما أنه يعين بذاته على التقدم في طريق المباحث العقلية والأصول العلمية، لا يعوق صاحبه فيها عائق؛ لأنه ليس لرؤساء الدين فيه سلطة مخصوصة على النفوس؛ كسلطة رؤساء الدين المسيحي.

وقد حكم بعض العلماء بأن المدنية أقرب للدين الإسلامي تناولاً من الدين المسيحي، وقال في موضع آخر: إن الدين الإسلامي بقطع النظر عما يدفع إليه بذاته من الاجتهاد والبحث في العلوم هو أكبر الأديان مساعدة على نشر الحرية والمساواة والإخاء.

فالدين الإسلامي على ما يراه الباحث البعيد عن الهوى، لا يمنع مطلقاً من التقدم والترقي في المدنية الحقة، وقد كتب في ذلك هامر بورجستال وبيَّنه حيث قال: «لقد أخطأ من يظن أن أخلاق الشرق وعادات أهله ثابتة البقاء لا تتحول ولا تتزحزح، على عكس الحال عند الغربيين فليس في الطبيعة من شيء إلا وهو متحول، وليس لهذا الثبات من وجود إلا في الظاهر، وكما أن النجوم الثوابت تراها العيون جامدة ثابتة في مكانها على توالي القرون الطويلة، وهي مع ذلك جارية تتقدم

مع الدور الأكبر في نظام الكون فكذلك تتقدم الحضارة والمدنية في الشرق وإن خاله المتخيل ثابتاً على أخلاقه وعاداته».

ولكن بالرغم عن هذا كله فإن الغربي الذي يتنقل في الممالك العثمانية ولا يتلقى أحوالها إلا عن أفواه الرواة من الأجانب والأرامنة واليونانيين وغيرهم، لا يروق له إلا أن يحكم على الدولة ببعدها عن التقدم في المدنية، وكل من وقف حق الوقوف على ما هي عليه الأمة التركية من جميل الصفات التي عددناها، وعلم مقدار تعلقها برئيسها الذي يسلك بها مسالك المدنية والتقدم وحسن قبولها لذلك يضمن أن الدولة العثمانية ستصل بعد وقت قريب إلى درجة عالية ما دامت آخذة في أسباب الحزم والتروي لنشر المدنية الغربية على حسب ما يوافق العادات الشرقية.

وعلى ذلك فإن امتناع الدولة العثمانية عن قبول الخياليات من المدنية الغربية التي لا توافق الأخلاق الشرقية، إنما هو من أعظم وجوه الحزم وأكبر أبواب السداد، فإن حالة الدولة العلية لا تقبل إلا المستطاع المحدود من المدنية الغربية، كما أدرك ذلك جلالة السلطان وباشره على هذا الوجه، والذي تقتضيه الحال اليوم لحفظ الدولة العلية وصيانة بلادها حتى يتيسر لها الارتقاء في المدنية إلى الغاية المطلوبة هو الالتفات إلى تشييد القوة العسكرية وتأليف العثمانيين جميعهم قلباً واحداً؛ ليثبتوا أمام ما يحيط بهم من الأخطار من كل ناحية مع إعلاء كلمة الخلافة حتى تكون الدولة العثمانية هي دولة المسلمين كلهم في العالم يرتبطون بها في السراء والضراء، وما يتبع ذلك من تحسين الإدارة على وجه التروي والتبصر، فإن كل انقلاب فجائي مضر بالدولة مهما كان نفعه في ذاته عظيماً، وإصلاح الأمور شيئاً فشيئاً على مناسبة الزمان وما تقضي به

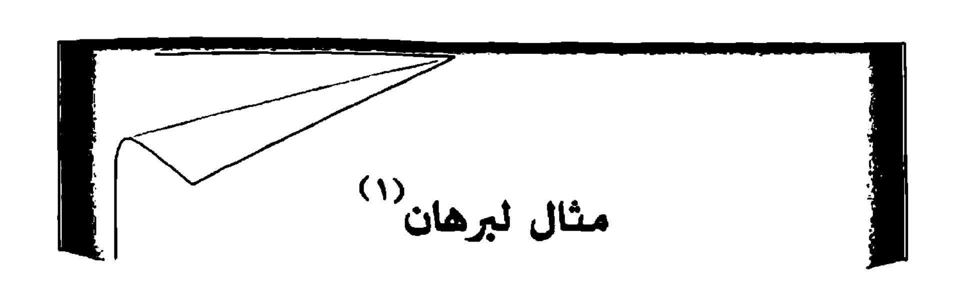
حاجات الأمة لا ما يقضي به الأجنبي بما تمليه عليه أغراضه ومطامعه.

وكل باحث في التاريخ يعلم أن الدولة العثمانية لا يضعفها ما انسلخ عنها من البلاد منذ الحروب الأخيرة، ولا يؤثر على شأنها في التقدم بل ربما كان الأمر على العكس.

فقد قال غولتز: «إن قوة الدولة العسكرية التي تتألف من المسلمين وحدهم لم تكن على نسبة اتساع حدودها الشاسعة قبل تلك الحروب».

وكما أن إنكلترا لم يضرها ولم يضعفها ما ضاع من أملاكها التي كانت تمتد في ما سبق إلى «اللوار»، ولم يضعف فرنسا نزولها عن الحدود التي اختطها لها نابوليون قبل سنة (١٨١٢م)، ولم يضعف السويدخروج ولايات البلطيق من يدها، ولم يضعف ألمانيا ما اضطرت إلى تركه من فتوحات أرباب الطريقة المعروفة بطريقة السيف، كذلك لا يضعف الدولة العثمانية ولا يذهب باستقلالها ما تنازلت عنه من ولايات نهر الطونة.

ومن نظر في التاريخ وجد أنه لم تخل أمة من الأمم من الاندفاع أولاً بعوامل الظروف والأحوال إلى تجاوز طوقها في توسيع حدودها برهة من الزمن، ثم لا تلبث أن تقتصر على قسطها وما تقدر على حمايته والمدافعة عنه».



مثال لبرهان(1)

من أعجب ما في أخلاق الناس وسجاياهم أن الباطل الذي هو خلاف الحقيقة، وهو الوهم وهو الخيال وهو العدم، لا يحتاج لغرسه في النفس إلى دليل معقول أو برهان محسوس، بل يعلق بها علاقة يعسر ملخه عنها بدليل أو برهان، وإن وضح الدليل وسطع البرهان، وذلك لأمرين:

الأول: أن كثيراً من النفوس يكون من خلائقها سرعة القبول وسرعة التصديق وسرعة التسليم، لضعفها عن احتمال مشاق النقد والبحث ومتاعب التنقيب والتفتيش ومصاعب المجادلة والمناقشة، التي لا يتأتى بدونها تمحيص الحقائق وإثباتها وكشف الأباطيل ومحوها، فإذا دخل في اعتقاد تلك النفوس أمر رسخ فيها لعدم المنازع له، فإذا أنت حاولت نزعه عنها بإقامة البرهان على فساده أعرضت عنه لاستراحتها عند ذلك الاعتقاد، ولنفورها من إعمال الفكرة وقدح القريحة للتفريق بين الصحيح والباطل، ولا تزال كذلك حتى تأتيها حادثة محسوسة تكفيها تلك المؤنة وتوضح لها من طريق العيان والمشاهدة نور الحق وظلمة الباطل فتقلع عن الضلال وتتمسك بأسباب الهداية.

والأمر الثاني: أن من الناس من يغلب عليه الهوى ويحكمه الغرض

---

(1) ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٩٩م.

في الميل إلى اعتقاد الباطل، فيبقى مقيداً به ما دام الغرض ملازماً لذلك الاعتقاد، فإذا وضح البرهان، قام المثال وشهد العيان لم يزدد إلا تمسكاً بمعتقده والتزاماً لهواه وانحاز إلى جانب التعنت والعناد وسوء الأضرار، فهو من أولئك الذين لا ينجع فيهم علاج ولا ينفعهم دواء ولا يرجى منهم إذعان، وهو من أولئك الذين يعنيهم الله ﷻ بقوله في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٩ ـ ٩٣]، وأولئك يكون أمرهم بعد ذلك مكشوفاً وحالهم بين الناس معروفاً، فلا يؤخذ عنهم قول ولا يقبل منهم عدل. على ذلك دارت الدهور وفيه استوت العصور.

وقد كتبنا ما كتبنا وسطرنا ما سطرنا في بيان [أن المدنية الغربية ليست على شيء من الفضل والكمال، ولا تقوم كما يزعمونه على دعامة الأخلاق الفاضلة وما تشمله من العدل والإنصاف والإخاء والمساواة والرحمة والشفقة والمحبة الإنسانية والحرية العامة، وإن جل ما فيها بل كله تزويق وتنميق وتضليل وتمويه وزخرف، وبطلان يختفي في طياتها ما ركب في طباع الإنسان من النقائص التي ينطوي تحتها الظلم والجور والعداء والأثرة والقسوة والطمع والنهم، بل إن تلك المدنية تزيدها حدة وتكسبها نمواً وتبلغ بها أخص معانيها فتعممها من الأفراد إلى الجمعيات، حتى تصبح لا أثر فيها للشعور الشريف والإحساس الطاهر

والعواطف الكريمة، هذا هو الأساس الذي بنت عليه الحكومات الغربية اليوم معاملاتها.

والسبب فيه أنها ترقت في الصناعات وفضول الحاجات والكماليات حتى أصبحت الكماليات عندها من الحاجيات فكثرت المطالب وقلّت الموارد فتستلب الأمة نفسها بنفسها، ثم تستلب ما تقدم على استلابه من الغير، على طريق وضعتها بينها؛ كالقواعد لها ليست في شيء من الإحساس الشريف والخلق الكريم، ولذلك رأينا الشرق لتأخره في هذه المدنية ولكونه لم يبلغ في كمالياته إلى حاجيات الغرب، كان لا يزال يغلب على أبنائه في حالتي الأفراد والجمع كرم الأخلاق وشرف الطباع في المعاملات، ونجد اليوم من المشاهد أن الشرقي كلما تقدم خطوة إلى المدنية الغربية وترقت حاجياته تأخر خطوة عن ما كان عليه من هذه الفضائل ومشى على أثر الغربي في أخلاقه، وإنا لنقيم لك الآن شاهداً عياناً ومثالاً محسوساً على صدق ما قلناه، ونقوله في هذا الباب فنقول:

قام في أوروبا عظيم من أعظم ملوكها عزاً وجاهاً وقوة وسلطاناً، وأراد لأغراض جمة أن يظهر بين الخافقين يوماً من الأيام في ثوب الراهب المتبتل، لا في ثوب الفارس المتدجج وأن يحذو حذو جدته (كاترينا) فيجذب لجانبه قلوب علماء الأخلاق الذين حفيت أقلامهم في مباحث الفضائل والكمالات وباتوا حيال أقلامهم ودواهم وقراطيسهم مكبين على وجوههم غماً وحزناً من كساد الأخلاق الكريمة والصفات الفاضلة، في وسط هذه الجمعية المتمدنة كما بات من قبلهم الحكيم العادل أفلاطون في قصر الملك الظالم دينيس ـ قام ذلك القيصر فاقترح عقد مؤتمر السلام محبة للإنسانية ورحمة بالنوع البشري من رزايا

الحروب وبلاياها، فأفاق أولئك العلماء من غشوة حسرتهم، فأخذوا يمدحون الرجل ويبجلونه ويعظمونه ويوقرونه ويعلنون له أن الانتصار في مثل هذا الموقف السلمي لا يوازيه ألف انتصار في الموقف الحربي، وأن مجد الملوك أولهم وآخرهم في فتوحهم ووقائعهم لا يعد شيئاً في جانب هذا المجد المؤثل الناتج من ذلك الاقتراح الشريف، وأجمعت أقلامهم على ذلك في كل قطر إجماعاً واحداً عساهم أن يحصلوا على ما ينقع ظمأهم ويبل أوارهم مما ينفع الإنسانية ويخفف من آلامها وأرزائها.

فما اجتمع المؤتمر إلا وتغلبت أميال المدنية فتفرقت الأهواء واختلفت الآراء، وانتهى على غير نتيجة، ولم تقو الدول على أن توفق بين مصالحها السياسية وبين أميال المحبة الإنسانية وكرم الأخلاق، وخرج الناس منه بأمانيّ وآمال يعللون النفس بها على رجاء الخير منها في المستقبل، ولكن لم تكد التواقيع تجف على ورقة القرار حتى قامت الدولة الإنكليزية تنتحل الأسباب وتختلق الذرائع وتلتمس العلل لتناوىء حكومة الترنسفال وتسومها الذل والهوان، وتنادي عليها بالويل والحرب وتميل عليها بكلكلها لتسحقها وتمحقها، ولم نسمع أن دولة من الدول أو حكومة من الحكومات أو أمة من الأمم أو جمعية من الجمعيات تكلمت بينهما بكلمة طيبة، أو أشارت بإشارة خيرة أو تداخلت مداخلة تحكيم للسلم، بل انكمشت جميعها وأرخت على عيونها عصابة الرضا بهذا الميدان الذي يهجم فيه أربعمائة مليون من النفوس، وهي الدولة الإنكليزية، على أقل من مليون واحد، وهم أهل الترنسفال، لإحساس تلك الدول من نفسها أن هذا الفعل أمر جائز محتمل الوقوع في كل آن لكل واحدة منهن يجري عندهن مجرى الأمور العادية والحوادث المألوفة.

فيا له من عدل ويا له من إنصاف ويا له من كرم ويا لها من مدنية يزعم لنا الزاعمون أنها صاعدة بأصحابها إلى أعلى مراقي الكمال في خدمة الإنسانية وحراسة الضعيف وكف يد القوي ونصرة العدل وخذلان الظلم وتشييد بناء العمران.

وقد كتبنا ما كتبنا في إظهار أن المعول عليه اليوم في حفظ الممالك وصيانة المصالح وتأييد الحقوق وسلامة الأمم في وسط هذه المدنية، التي يزعمون لها السير على قواعد العلم ودعائم الفضل، إنما هو القوس والسهم والرمح والسيف، وإن العزة كل العزة في القوة وإن ضعف كلمة الدولة العلية في سياسة الدول الأوروبية وعلو شأن الكلمة الروسية فيها، مثلاً ليس هو عن تقدم روسيا في العلوم والمعارف وأسباب العدل والعمران، وما يلحقها من ألفاظ المدنية، بل هو راجع إلى الشهرة بالقوة.

فإن الأمة الروسية وحكومتها لا يشهد لها أحد بأنها أعظم من الأمة العثمانية وحكومتها درجة في العلوم والمعارف والعدل والإصلاح، بل ربما كانت هذه أرفع من تلك درجة في ذلك، ولكن تقديس أوروبا لاسم القوة قسم الدرجات بينها في العلو على قدر اتساع الشهرة فيها، وقد قلنا إن المكتوب على رجال الدولة العلية وأولياء أمور الخلافة الإسلامية أن يصرفوا جل همهم ويقصروا كل جهدهم الآن على تعزيز قوة الدولة، وتحصين سياجها دون الاشتغال بغير ذلك، لتحفظ ما بيدها وتنال المقام اللائق بمجدها بين سياسة دول قصرت همها في نيل الأغراض وترويج المصالح والاستيلاء على المنافع، على طريق القوة بل على طريق الإيهام بها ومجرد التمويه باسمها والشهرة فيها.

وهذه مسألة الترنسفال أيضاً مثال آخر على صدق ما قلناه ونقوله،

فإن الدولة الإنكليزية التي تمتلك ثلث العالم ويرتعد من اسمها الثلثان الآخران، إذا أشار وزير منها بإشارة باتت الممالك على وجل تترقب ما وراءها من الخطوب والنوازل والدواهي والكوارث، وإذا تحرك سفير لها حركة في مقر سفارته، قلب أمور المملكة إلى خير دولته ومصلحة أمته، وإذا خطب خطيب من خطبائها بكلمة أزعج بها القلوب وأرجف النفوس من عربها إلى عجمها ومن مشرق الأرض إلى مغربها، وإذا كتب محرر جريدة فيها سطراً انحل بسطره المشكل وانكشف المعضل وتيسر العسير وسهل الصعب، وإذا شاعت عنها حركة لإسطولها اضطربت للخبر الحصون واهتزت المعاقل واكفهرت الثغور ـ هذه الدولة التي نسمع من وصف قوتها وسلطانها ما نسمع لما حان الحين لاستعمال قوتها الحقيقية. [رأيناها اليوم في حركة واضطراب ولا اضطراب الطير المذبوح لجمع العدد المتفرق من العساكر، الذين تؤلفهم جيشاً تزحف به على تلك الأمة الضعيفة، وأخذت تطاول في المخابرات وتماطل في المراسلات لتتخذ لها زمناً يكفيها لجمع قوتها الحربية ولم شتاتها.

ولقد أقمنا شهراً وفوق الشهر لا تأتينا تلغرافات الشركات السياسية عن حوادث أوروبا إلا بأخبار هذا التجميع من كل قطر وواد، فتنبئنا بانتقال كتيبة من الشرق وكتيبة من الغرب وفصيلة من الهند وأخرى من جزائر المحيط ومائة عسكري من هنا ومائة جندي من هناك، وتعلمنا بأوامر تصدر بإيقاف البواخر السائرة في عرض البحر ليؤخذ منها شرذمة كانت مسخرة إلى بلاد أخرى]، كأنما الدولة الإنكليزية في جمعها لقوتها الحربية وحشدها لأشتات عساكرها تجمع خرزات عقد مسرود تبدد على سطح الكرة الأرضية، أو كأنها مرتب حروف الطبع يجمع كلمة أول حروفها ألف وآخرها ياء، إلى أن انتهى بها الأمر إلى استدعاء الجيش

الاحتياطي وإلى الاحتياج لخيول مركبات الطرق في المدن الإنكليزية.

كل ذلك لأجل أن ترسل الدولة الإنكليزية إلى ميدان القتال خمسين ألف جندي يوجد عند حكومة الترنسفال التي لا يبلغ عدد سكانها ثمانمائة ألف مثلهم عداً، ولذلك وثقت الترنسفال بقوتها وانقلب الأمر فأصبحت هي اليوم التي تطلب من إنكلترا المطالب وتمهلها بالساعات وتنذرها بالحرب وتهددها بالقتال.

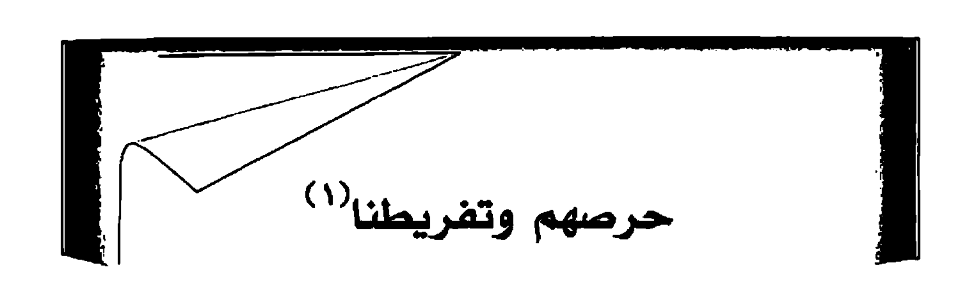
ومع هذا كله لم يعتقد أحد أن إنكلترا أصبحت من القوة الحربية في مثل هذا الضعف، لطول ما تسومع في الآفاق بهول قوتها وما رسخ في الوهم من قوة سلطانها وعزة جانبها.

ولو كانت الدولة العلية اليوم في موضع الدولة الإنكليزية أمام مسألة الترنسفال بوجهيها اللذين شرحناهما لك فيا فظاعة ما كنت تسمع من القدح والطعن، ويا شناعة ما كنت تقرأ من اللوم والذم، فلو فرضنا أنها قامت قومة المعتدي على إحدى حكومات البلقان الصغيرة مثلاً لتكاشفها بالحرب وتبادئها بالقتال، لاصطفت الدول الأوروبية في وجهها صفاً واحداً لتصدها عن عزمها، ولنادت عليها بالهمجية والوحشية ولاتحدت عليها باسم العدل والإنصاف وخدمة الإنسانية لنصرة الضعيف وكف يد المعتدي وحقن دماء الخلق.

ولو كانت الدولة العلية تجهز العساكر الذين تبغي بهم القتال على نحو ما تجهزه الدولة الإنكليزية اليوم، لكنت سمعت المطرب والمعجب في بيان ضعف أركان الدولة العثمانية وسقوط منزلتها وإهمال حكامها وفساد نظامها واحتلال أمورها وقرب انحلال أجزائها، ولوقف أولو الأغراض على أطلالها واستوقفوا وبكوا واستبكوا وبكتوا وعيروا. أما الدولة الإنكليزية اليوم فلا يلحق بها عار ولا يعلق بذيلها استخفاف؛

لأنها دولة مشهورة بالقوة وكفاها بهذا ستراً للعيوب وغفراً للذنوب.

ولذلك فإنا لا نفتأ نكرر القول ونعيده ونقيم البرهان ونضرب الأمثال حتى يعتقد أهل المشرق أن الخير كل الخير في أن لا يغتروا بتمويه المدنية الغربية، وأن لا يندفعوا إلا إلى أخذ ما يكسبهم قوة منها ونبذ ما استطاعوا نبذه من آفاتها، كما أن النفع للدولة العلية كل النفع في أن تبذل قصارى المجهود نحو تعزيز قوتها الحربية حتى تمحو عنها شهرة الضعف الباطلة التي ألصقها بها تألب الدول عليها في كثير من الأمور، وصعوبة دفعها عن مطامعها وأن تثق الدولة بعد ذلك بقوتها فإن توهم الضعف في النفس هو الذي ينزل الضعف بصاحبه.



حرصهم وتفريطنا[1]

إن أجمع ما يتسلى به الشرقي في انحطاطه أمام الغربي في ارتفاعه، مزعمه بأن ما وصل إليه الغربي لم يكن إلا من فضل الشرقي، وأنه هو الأصل الذي تفرعت عنه العلوم، والمَنْبَت الذي ازدهرت منه المعارف، فيتغطى بملاءة من الفخر مطرزة ببهرج الفخفخة.

ثم يستمر غافلاً في رقدته غريقاً في نومته لا يتحرك منها إلا ساعة مفتخره ومباهاته بأن أصل هذا العلم كان من وضع أجداده الشرقيين، وتلك المعارف إنما كان مطلعها من أفقه غير آخذ مأخذ الغربي في الانتفاع بما لديه ليبلغ شأوه في تقدمه، بل تراه يستعظم ما في رأسه من خيال المجد الماضي ويستهين بما في يده من البقية الموجودة التي ورثها عنه، فيتخطفها الأجنبي من جوانبه وهو ممسك بأهداب ما تغطى به من ثياب الفخر، مسترسلاً في خموده ورقوده دائباً في ركوده وهموده.

وربما كان يلتمس الملتمس عذراً للشرقيين في كثير من الأزمان التي دهمتهم فيها الخطوب بدهيائها، وعضتهم الحوادث بأنيابها، وكانوا يجهلون عاقبة إهمالهم فلم ينتفعوا بتلك العلوم، ولم يسمعوا في التحفظ على تلك البقية، ولكن ما وجه العذر لهم اليوم في البقاء على حالهم الأول؟! وقد كشفت لهم أدوار الحوادث أسباب تأخرهم وأعلمتهم بنتائج فتورهم وهم يعيشون في زمن سهل لهم فيه التواصل، وتوفرت

---

(١) ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٩٩م.

لديهم معدات الانتفاع بما بقي في حوزتهم، ولكن طاب لهم الرقاد كما عذب للأجانب السهاد فترى الأجنبيين يتغالون في اقتناء تلك البقية من كتب العلوم الشرقية ويغارون عليها ولا غيرة مؤلفيها.

ومن آخر ما سمعنا في هذه الغيرة وهذا الحرص على ما نستهين بمثله، ما ذكرته جرائد باريس الأخيرة، وهو أنه لما مات المسيو شفر مدير مدرسة اللغات الشرقية في هذه الأيام، علمت نظارة المعارف الفرنسوية أنه خلف ألفاً ومائة وستين كتاباً من كتب الشرقيين، صرف في جمعها خمسين عاماً من عمره متنقلاً في ولايات الدولة العثمانية كلها، وعلى الخصوص مصر وسوريا متجولاً في بلاد العجم وممالك الهند، وهذه الكتب تنقسم إلى ستة وأربعمائة من الكتب العربية، وأربعة وأربعمائة من الكتب الفارسية، وخمسين كتاباً وثلاثمائة من الكتب التركية.

ولما اشتهر عن هذه الكتب من الندرة وعلو القيمة في ذاتها خشيت نظارة المعارف أن يبيعها الورثة في المزاد مع التركة فتقع في يد من يخرجها من البلاد الفرنسوية، ويحرم علماءها من الاستفادة منها كما أخرجها جامعها من بلاد الشرقيين، ويصيبها عندهم ما أصابها من قبل فتوسلت الحكومة الفرنسوية بعاطفة الوطنية إلى الورثة، وقدمت لهم مبلغاً طائلاً من المال تعويضاً لهم عنها ثم عزمت على ضمها إلى الكتبخانة الأهلية الفرنسوية باسم جامعها حيث يستفيد منها العلماء الفرنسويون.

هذا مثال من حرص الغربيين وغيرتهم على كتب غيرهم، ودونك مثالاً في إهمال الشرقيين وتفريطهم في كتبهم.

ذلك أن تلك الكتب التي جمعها سلاطين آل عثمان في فتوحاتهم واكتنزوها زينة لملكهم وذخيرة لرعيتهم، أصبحت الآن في الحالة التي

تتلى عليك، فإنه يوجد في دار الخلافة اثنتان وأربعون خزانة متفرقة في أنحاء المدينة، قد جمعت نفائس الكتب ونوادر التآليف وهي معرضة من تفرقها وتشتتها للبلى والضياع والأرضة والعث، فلا تخلصها من هذه الهوام إلا يد طامعة فيها من أجنبي عنها وفقر خزنتها يساعد الأجنبي على غرضه، فترى الخزانة التي تحتوي على آلاف من نفائس الكتب، قد قام وتكفل بحفظها خازن مرتبه خمسة عشر قرشاً في الشهر، فإذا اشتكى الخزنة إلى نظارة الأوقاف من نزارة أجورهم اعتذرت لهم بشرط الواقف الذي قدر للخازن أجرته هذا القدر منذ مئات من الأعوام.

لا جرم إن سمعنا بعد ذلك من يوم لآخر بنقصان في خزائننا وازدياد في خزائن غيرنا.

ومما سمعناه من أفانين الحيل التي يتحيل بها الغربيون بأنفسهم وبمن يسخرونه لها أن رجلاً أكثر الترداد على خزانة راغب باشا الشهير[١] للمطالعة في كتبها حتى إذا وقع نظره على النفيس منها وانتقى من تلك التآليف ما شاء أن ينتقي، وتآلف مع الخازن، قال له ذات يوم: هل لك في غذاء تستلذه وشواء تستطيبه؟ قال: هذا ما أشتهيه وأرغب فيه، وإني لأعرف رجلاً في آق سراي معروفاً بجودة الشواء، فنقده المحتال ثمن ما يكفيهما من الشواء، فذهب الخازن يهرول وترك ذلك الذئب عند متاعه، فأصاب من الخزانة ما أصاب وعاد الرجل بشوائه، فلم يجد صاحبه

---

(١) إسماعيل راغب باشا: ولد في اليونان سنة ١٨١٩م، وذهب إلى الأناضول، وجاء إلى مصر في أواخر عهد محمد علي، وتولى عدة مناصب كبيرة، وأعد لوائح وقوانين كثيرة، وتولى رئاسة الوزارة في مصر زمن الثورة العرابية ١٨٨٢م، وتركها في أغسطس في نفس السنة، وكان موالياً للخديو توفيق.

فتفقد الخزانة فوجد نقصاً في أجزائها ولم يفده صياحه وبكاؤه وقد أحيل على المحاكمة.

هذه حال حراسة الكتب والمحافظة عليها في الخزائن، التي بعض ما فيها من نفائس الكتب كتاب عربي قديم في التاريخ الطبيعي تبلغ أجزاؤه اثنين وستين مجلداً، وطالما كتبت نظارة المعارف أن تجمع هذه الكتب المتفرقة في مكان يجمع أشتاتها على الطرز الجديد، ولا تزال المشيخة الإسلامية تعارض متسلحة بشروط الواقفين، وفي الشرع - يعلم الله - منتدح ومتسع لخلاص هذه الكتب من البلى والضياع وبقائها هكذا مخزونة على شرط الواقف.

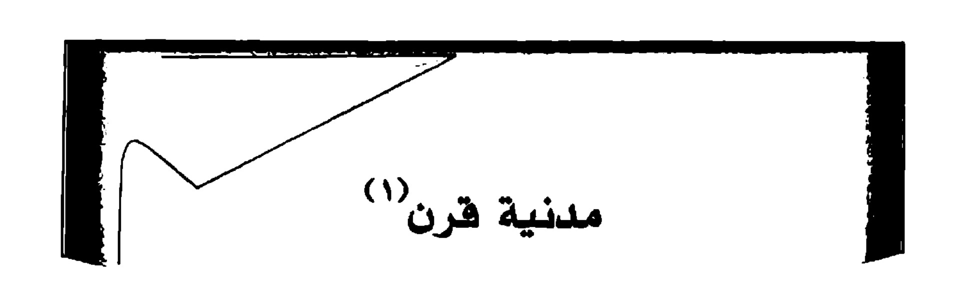
ولا أمل في حفظ هذه الآثار النفيسة إلا في عرض الأمر على مقام مولانا الخليفة الذي هو إمام المسلمين وله من الولاية العامة ما ترجح به الأقوال الضعيفة في الشرع، فتصدر منه كلمة على عادته في نفع المسلمين فنرى تلك الكتب بعيدة عما يحيط بها من البلى والضياع والنهب.

ثم إننا إذا التفتنا إلى شأن الكتب في مصر وقيمتها عند الأهالي والحكومة، فلا نجدها أحسن حالاً من سواها أيضاً فبينا ترى الحكومة تنفق الآلاف المؤلفة من الجنيهات لاستخراج قطعة من حجر قديم لا فائدة للمصريين منه، إلا تمتع الغربي بالنظر إليه والانتفاع به، ترى الكتب النفيسة في الكتبخانة الخديوية أجزاء ناقصة فلا تعتني الحكومة بالإنفاق على رجل أو رجلين من النساخ ينسخونها لها من أصولها في خزائن الآستانة.

وأغرب ما جاء في باب الإهمال أن الكتب النفيسة تستمر مخزونة بخط مؤلفيها في الخزائن، ولا ينهض أحد إلى طبعها لتداولها بين الناس

مع كثرة المطابع، ومن يصدق أن هذه الكتب كانت أكثر تداولاً في الأيدي في زمن الاستنساخ منها في زمن الطبع.

أوليس من العار في زماننا هذا أن يكون عدد الكتب النافعة المخطوطة أكثر من عدد الكتب النافعة المطبوعة؟!.



مدنية قرن[1]

كان مذهب أكثر الباحثين من الغربيين أن هذه المدنية الحاضرة ستبلغ بأهل الغرب ما لم يبغله أحد من البشر قبلهم، من راحة الحياة ورغد العيش وسعادة الحال، فتصبح بلادهم جنة الدنيا ودار الخلد يتفيأون فيها ظلال النعيم في أمن وسلام، وانبرت أقلامهم في تبجيلها وتعظيمها والافتخار بها والمَنِّ على أهل المسكونة بانتشارها عليهم من فضلهم، وتعالوا بذلك على العالم علواً كبيراً. فما لبث الدهر والدهر أبو العجب يظهر لهم من مكنونات الحوادث ما يخيب الظن ويضعف الأمل ويوافيهم بعكس الهوى وخلاف المراد، حتى أحسوا بالضرر واستشعروا الأذى واستبانوا شر العقبى وسوء المصير، فتراهم اليوم لا تخلو كتبهم وصحفهم من التشكي والتأذي من أسواء مدنيتهم ومضارها، وحسبان العواقب لها والتحذر من الأخطار، وانقلبت تلك الجنة في أعينهم ناراً وسعيراً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً، وأبلغ ما قاسوا منها أن هذه المدنية التي زعموها أم السلام وأخت الأمان لا تقوم إلا على ظبا للسيوف ولا تحيا إلا فوق شبا الرماح، ودونك اليوم نموذجاً مما يقال عنها صدر عن أكبر كبير من رجال العلم والسياسة ودعاة التقدم والتمدن: النائب الفرنسوي الشهير المسيو «بلتان» في مقدمة تقريره الذي يقدمه الآن إلى مجلس النواب عن ميزانية الحربية الفرنسوية، قال:

---

(١) ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٠٠م.

«كان المنتظر عندنا أن التقدم في المدنية يبعد بنا على توالي الأيام عن الاعتماد على سلطة القوة، وأن يخفف من أثقال التكاليف الحربية عن كواهل الأمم، ولكن جاء الأمر بالنقيض فترى النفقات الحربية براً وبحراً تزداد وتتضاعف من كل جانب بمقادير هائلة توجب الوهل والفزع، ومن أعجب وأغرب ما جاء به التاريخ أن نشاهد فجر القرن العشرين يطلع على أوروبا وهي على نظام مثقل بنفقات الحرب من كل نوع، وفي حالة سلم شائك بالأسنة والسهام هو في الحقيقة أشد فظاعة وأعم خراباً من تلك الحرب العوان التي انشق عنها فجر هذا القرن المنقرض، ويكفي في ذلك أن ننظر إلى ما بلغته ميزانية الحربية في أربع من كبار الدول في هذا العام، فقد بلغت في إنكلترا ملياراً و٩٨ مليوناً فرنكاً، وفي روسيا ملياراً و٨٤ مليوناً، وفي فرنسا ملياراً و٣٠ مليوناً، وفي ألمانيا ٩٧٢ مليوناً»، انتهى.

ومن نظر بعد هذا التغالي في القوة إلى مجرى الأمور الخارجية بين الدول الغربية، وما تتقلب به السياسات في أيدي رجال تلعب برؤوسهم الأطماع والأهواء ويستهويهم حب الفخار والمجد ورفعة الصيت وانتشار الذكر، تكفي اللحظة الواحدة والإشارة الخفية منهم في تحويل الأحوال وتغيير الأمور ـ لم يأمن على تلك الدول من وقوعها في الحرب والدمار.

ومن نظر إلى عامة الأهالي في داخلية هذه الدول وما هم فيه من ضنك العيش، وضيق الرزق مع اتساع الاحتياجات وتضاعف الضرائب والمكوس عليهم يوماً بعد يوم للقيام بهذه النفقات الحربية، ورأى أن الحرية المطلقة بينهم وصلت بهم إلى حد الوقاحة فانتشر التحاسد

والتباغض بين الطبقات، وتحزب الأحزاب بعضها على بعض ـ لم يأمن عليها من وقوع الفتنة.

ومن نظر إلى اضطراب علماء الإحصاء وفزعهم مما حل بالأفراد من الانهماك في الشهوات والملاذ وانكبابهم على أسباب الترفه والتنعم وما تجر إليه فضول هذه المدنية حتى اعتلت الأجسام وضعفت البنى وقل النسل ما لم يأمن عليهم من الانقراض.

هذه هي المدنية الغربية وهذي بعض نتائجها كل واحدة منها ثالثة الأثافي وأم الدواهي تجر الخراب وتجلب الدمار، وتتركها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، وتلك أقوال أهلها وآراء كبرائها تكفينا مؤنة البحث والتبصر في أحوالها، ولكن أعجب ما يكون في هذا الباب أن فينا جماعة لا يزالون مفتتنين بظاهر هذه المدنية قد تصوروها على صورة جميلة تولعوا بها ولم يلتفوا إلى هذه المضار، فهم ينادون على المسلمين كل يوم من أقطار العالم بالضعف والانحلال والسقوط والهبوط واليأس والقنوط، وأنهم لا عيش لهم في الحياة إلا بالسعي وراء الغربيين واقتفاء آثارهم في هذه المدنية، والأخذ بعلومها ومعارفها وأن دولتهم لا تقوم إلا بنشر المعارف وحرية الجرائد وما شئت من محدثات النظام الغربي وفضول المدنية ومخترعاتها، ولو نظروا إلى حقيقة الحال لعلموا أن قوة المسلمين ودولتهم لا تقوم إلا بالانقباض عن هذه المدنية والكف عن مباراة الغربيين فيها، وإن الانكماش عن كمالياتها أحفظ لهم من الضعف وأسلم لهم من الانحلال، وإن مائة بندقية موزر مثلاً أنفع لهم في هذه الحال من مائة كتاب، وأن مائة جندي على عيش البداوة عندهم خير من مائة تلميذ أتموا علوم العصر الحاضر بأجمعها.

وأمامنا من حرب الإنكليز والترنسفال[1] أكبر شاهد وأعظم دليل على أن السلاح إذا كان في أيدي الذين لم يترقوا في المدنية غلبوا به أضعافاً مضاعفة من هؤلاء الغربيين الواصلين إلى أقصى غاياتها، وسواء انتهت هذه الحرب بالانتصار أو الانكسار لأهل الترنسفال، فقد تبين لنا منها أن أمة مؤلفة من مائتي ألف نفس فيهم الشيوخ والنساء والأطفال قد قاوموا مثل عددهم من جيوش دولة تملك ثلث العالم، فكسروه وهزموه وفتكوا برجاله وقواده مدة من الزمن، وفقدت فيه إنكلترا من الضباط برتبة الميرالاي وحدهم ستة عشر ضابطاً وكل ما عندها منهم في جيوشها خمسة وأربعون فذهب بذهابهم الثلث، وأنفقت ثلاثة وعشرين مليوناً من الجنيهات في بضعة أشهر. وسقط اسمها من عالم القوة الحربية وطمع فيها من كان يخشاها.

وما ذلك كله إلا من تأخر أهل الترنسفال في تلك المدنية وبعدهم من كثرة احتياجاتها وقربهم من عيش البداوة وما ينشأ عنه من صحة الأجسام وجلد النفوس فالبويري؛ كالتركي والبدوي والكردي قليل الحاجة خفيف الحركة في الحرب يحمل كل قوته في خريطته، والجندي الإنكليزي يحتاج إلى المراكب؛ كالبلاد تنقل له أسواق المطاعم والمشارب وفضول العيش ثم تسير العجلات وراءه بها؛ كالأعلام والأطواد إن نقصه شيء منها نقص بقدر ذلك من صبره وجلده وإقدامه وقوة ثباته، وناهيك أن زجاجة الوسكي الواحدة يبلغ ثمنها اليوم في

---

(١) حرب إنجلترا والترنسفال تعرف أيضاً بحرب البوبر، والبوبر من أصول هولندية، ويقيمون مع السود في جمهورية الترنسفال، ووقعت الحرب في أكتوبر ١٨٩٩م، واستمرت أكثر من عامين ونصف، وخسرت انجلترا أكثر من مئة ألف جندي بين قتيل وجريح، وانتهت بضم الترنسفال إلى التاج البريطاني.

ساحة القتال عند الإنكليز عشرة جنيهات، والرطل الواحد من الدخان أربعة جنيهات والجندي الإنكليزي لا يحيا بفقدهما ولا يتحرك بدونهما، وما ضر البوبر بعد ذلك تأخرهم عن الإنكليز في العلوم والمعارف والاختراعات، وما شأنهم أن تكون مدافع مكسيم في أيديهم يقتلون ويفتكون بها؟ وليس فيهم من اخترعها أو صنعها وما حمى الإنكليز منها أن المخترع والصانع منهم، وما الفضل في ذلك كله إلا للمال الذي يجلب به العدو اليوم من عدوه ما يستعمله في النكاية والإيقاع به.

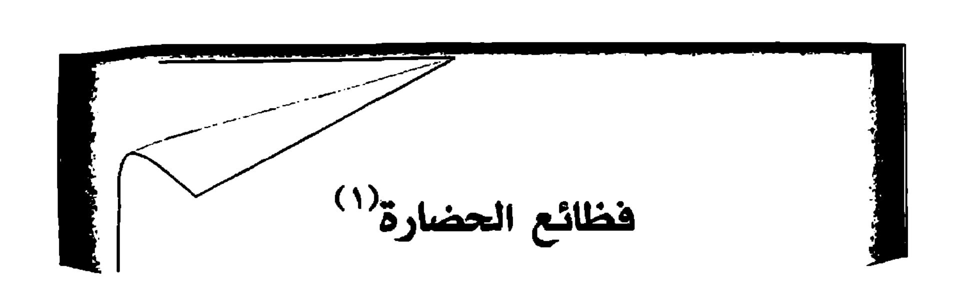
فقد تبين من جميع ما تقدم أن سلامة المسلمين وحفظ دولتهم الآن في قوة السلاح، لا في انتشار المعارف الغربية وحرية الجرائد واقتفاء آثار الغربيين في مدنيتهم، فإن قلت: إن هذه الأمور لازمة لاستدرار وجوه الثروة والغنى واتساع موارد المال الذي تقوم عليه هذه القوة، قلنا لك: إن سبق الغربيين للشرقيين في هذه الأبواب والسبل وتقصيرنا الآن عن بلوغ درجتهم مما يجعل للغربي الدرجة السابقة علينا في بلادنا فيخلفنا دائماً وراءه في تقدمه، وتقليدنا له يمكنه من الانسياب في أرضنا والاستبداد بموارد الثروة عندنا كما هو مشاهد الآن، فتكون مجاراتنا له في المدنية أحبولة يسلب منا بها المال وأسباب القوة، ويتركنا منغمسين في مضار المدنية وأسباب ضعفها، فتصير حالتنا إذ ذاك أعظم ضرراً مما نحن عليه الآن.

ومن عجائب أحكام الدهر أن يبقى رجالنا غافلين ذاهلين عن هذه النتائج، مغرورين مفتونين بأضاليل المدنية الغربية مع قربها ودنوها منا وتهتدي إلى صواب الرأي فيها امرأة في الصين. فقد أصدرت وصية الإمبراطور أمراً عالياً بالامتناع عن هذه المدنية الغربية بمعارفها وعلومها ومحاكمة من يعمل بها ويسير عليها ويتلقى تعاليمها، وأن يرجع الناس

كافة إلى التمسك بوصايا كونفيشيوس وأحكامه، ورأت أن ذلك هو الحاجز المنيع الذي تصد به سيل التداخل الأجنبي في بلادها.

أفلم يأن بعد ذلك للمسلمين أن لا يغتروا بهذه المدنية ويرجعوا هم أيضاً إلى أوامر دينهم وأحكامه، ويروا أن حفظ حوزتهم وعلو كلمتهم لا يتم لهم إلا بالرجوع إلى تعليم الدين القويم والتمسك بأحكام القرآن الكريم وسُنَّة النبي العربي، وقد رأوا امبراطورة الصين ترى الخير كل الخير في التمسك بكتاب كونفيشيوس المجوسي؟.

إن في ذلك لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين.



فظائع الحضارة[1]

منشأ شقاء الإنسان ومنبت بلائه ومصدر آلامه وأصل عذابه وعلة تعبه وداعية نصبه حب هذا المال، فهو الذي غمسه في الهموم والأحزان وغمره بالغموم والأكدار، وهو الذي غرقه في بحر لجي من الأحن والمحن وزجَّ به في ليل دجوجي من الكرب والنوب، وهو الذي طوقه بسلاسل وأغلال من البلايا والرزايا، وكدر عليه صفو الحياة ونغص عليه لذيذ العيش، وهو الذي دنس طباعه وأفسد أخلاقه وأورثه الذل والصَّغار، وألبسه لباس الضيم والهوان، وهو الذي لطخه بوضر العار والشنار ولوثه بقذر النفاق والخداع، ووسمه بميسم الخبث والمكر، وصبغه بصبغة الكذب والبهتان، وبقدر ما يتمكن هذا الحب في النفس تتمكن معه أمهات الرذائل وتتأصل فيه جذور الكبائر وتنمو أغراس القبائح، هنالك التخاصم والتنازع والتكالب والتواثب، وهنالك يقضي الناس حياتهم التي وهبهم الله لذاتها ومنحهم طيباتها في أرزاء المشاغب والمشاكل، حتى يخرجوا من دار الدنيا إلى دار الجزاء؛ كأنهم خارجون من دار القضاء خلفوا فيها أبناءهم وأورثوهم شقاءهم وبلاءهم.

وأشد ما يكون تهالك الناس على حب المال لأمرين: ازدياد الحاجات لبذله في قضائها، واكتنازه اعتماداً عليه واطمئناناً به واعتزازاً بوفره بين أهل الحاجة بإظهار القدرة على قضائها دونهم.

---

(١) ٣٠ مارس (آذار) ١٩٠٠م.

ولا يعرف في عصر من العصور أن هذا الداء بلغ من الحدة والشدة والانتشار والتعميم، ما بلغه في هذا العصر عصر الحضارة الغربية بما استحدثوه من فضول العيش وزوائد الحاجات، فازداد شأن المال عزاً فتغالى الناس فيه حباً، فصار الفضل كله فيه، وحل عندهم محل كل فضيلة فانطمست الفضائل في وجهه وسطعت الرذائل بوهجه.

وأعظم ما يكون ذلك وأكبره وأشده وأبلغه حيث تكون هذه الحضارة وهذه المدنية مرتفعة المنار منتشرة الأعلام، حيث ينمو الطمع والجشع والحرص والنهم والبخل والشح، حيث تغلظ الطباع وتقسو القلوب وتضرى النفوس. فانظر بعيشك معي إلى هذا الغربي المتمدن وسط هذه المعارض وما تشتمل عليه من الألوف وألوف الألوف من الأشياء التي يتطلع إلى اقتنائها، وتدفعه الرغبة إلى التنافس فيها يتأبط كتاب الفضائل ويحمل ديوان الحقائق ويعرف كل الفضائل بأنواعها، من شفقة على الإنسان ورحمة بالحيوان وتعاون على الخير وتساو في المنافع وكف عن ضرر الغير، واستكشف معي خفايا أمره وخبايا سره تجده لتعارك الرغبات وتزاحم الإرادات فيه أضرى من الأسد بات على الطوى ولاحت فريسته، وأقسى من النمر وأخدع من الذئب وأحيل من الثعلب وأحقد من الجمل وأحرص من النمل وأكثر تلوناً من الحرباء، وتجده في ديار تراكمت فيها أنواع الجرائم وتكاثرت فيها أصناف الكبائر وتشعبت فيها أساليب الآثام، فما شئت من وقائع تبتدع في التدليس والتزوير والغش والاحتيال والغدر والاغتيال، وحوادث تبتكر في السرقات والقتل، قتل الجار جاره والصاحب صاحبه والمرأة زوجها والأخ أخاه والابن أباه والوالد ابنه والمرء نفسه.

ومن غريب الابتداع في الاستلاب مما لا يحدث مثله في البادية

القفراء، ما روته جرائد باريس الواردة بالأمس، وهو أن المركبة المعينة لنقل المال المتجمع من مكتب السكة الحديد إلى بنك فرنسا وقفت على حسب العادة أمام المكتب في ذلك الشارع العظيم من تلك المدينة أم الحضارة والنظام، في ضحوة النهار فنقل الحارسان إليها مائتي ألف فرنك من الفضة وأربعمائة ألف فرنك من أوراق النقود وضعها أحدهما في عيبة له ووضعها بجانب السائق، ووقف يحرسها حتى يدخل صاحبه إلى المركبة فيناوله إياها، فما هو إلا أن تقدم رجل بين زحام المارة وسأل السائق بلهجة الغرباء أن يدله على الشباك الذي تؤخذ منه التذاكر إلى لوندره، فأشار له بيده نحوه وجاء رجل آخر في نفس هذه اللحظة، وسأل الغلام الحارس بنفس تلك اللهجة أن يرشده إلى الشارع الفلاني بجانبه، فأشار الحارس كذلك إليه ـ حتى تقدم الثالث واستلب العيبة بما فيها واختفى الثلاثة عن الأنظار بين الجموع في مسافة الإشارتين واللفتين ولم تقف الشرطة لهما بعد ذلك على أثر.

ومن أفظع ما يدخل في هذا الباب وأشنع ما وقع من هذا القبيل وأبعد ما يتصور الإنسان وقوعه من الحيوان المفترس، اندفاع هذا المتمدن الغربي من نزلاء الإسكندرية بدافع الطمع وحب المال إلى تلك الفعلة الشنعاء التي فعلها بأخيه، مما ترتعد لذكره الفرائص وتقشعر لهوله الأبدان، فإن القاتل لم يكتف بما سولته له نفسه من قتل أخيه حتى أدته القسوة الوحشية إلى التفنن في تفصيل أعضائه وتشريح أوصاله وكشط اللحم من العظم بسبع مدى شحذها لذلك وأعدها، وأغرب ما في هذه الوحشية وأدل على استئناس نفوس المتمدنين بها اشتراك المرأة في هذا العمل الفظيع واقتدارها على مشاهدة هذا المنظر الشنيع ثم اعترافها بتفصيل الجريمة دون اضطراب ولا وجل واعتذارها عن تلك المشاركة

بمصلحة زوجها والحرص على مستقبل أولادها، فقصت على أهل القضاء بعد إقرار زوجها بجناية القتل؛ أنه كلف خادمته في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر بالذهاب إلى منزل أخيه واستدعائه إليه، بعد أن صرف أولاده مع خادمة أخرى إلى النزهة، ولما حضر أخوه عند الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم ابتدأ الجدال بينهما على ميراث أبيهما، فلم يمهل الجاني أخاه أن طعنه بمدية في نحره، اهتز لها هزة الموت ووقع على يد القاتل فعضها ثم سقط إلى الأرض صريعاً وقد فارق الحياة، فأسرع الشقي وحمله إلى فسحة المكان وعاونته امرأته على ذلك، وبعد أن جرده من الثياب أحضر تلك المدى وأخذ في تفصيل أجزائه بها بمهارة وإتقان، وبعد أن جرد اللحم من العظم ألقى اللحم في المرحاض وهشم العظم بآلة حادة كان أعدها لذلك، ثم وضعه مع الرأس في حقيبة وخرج بها، وتفرغت المرأة لغسل الدار من الدم ومحو آثار الجريمة وعاد زوجها وباتوا كأن لم يقع شيء منها.

هذان مثالان من نتائج حب المال الناشىء عن تحكم الاحتياج إليه عند المتمدنين وأرباب الحضارة الحاضرة، ذكرناهما لقرب وقوعهما وهو غيض من فيض مما يقع في البلاد الغربية من أمثالهما، ولو شئنا أن نعدد ما تنشره الصحف الأوروبية كل يوم من وقائع القتل والانتحار المتسببة عن حب المال لاتسع معنا المجال وضاق نطاق المقال.

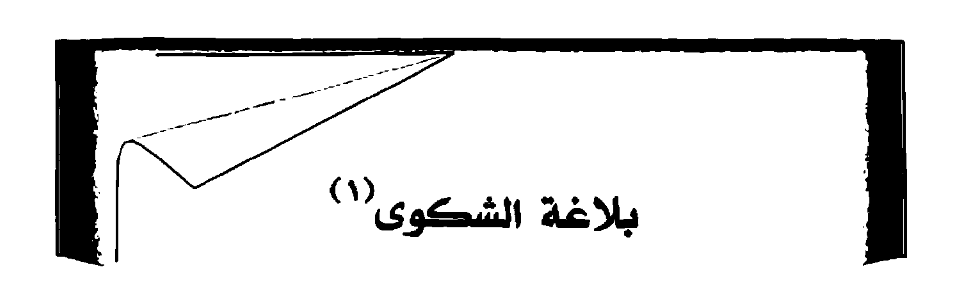
فإذا رجعنا البصر إلى ذلك البدوي الذي يصفونه بالتوحش والهمجية والانحطاط من مرتبة الإنسانية، ورأيناه مستلقياً بين اعنزه وشياهه مكتفياً بألبانها غذاء وبأصوافها مسكناً ولباساً لا يطلب عليها مزيداً ولا يسأل فيها متسعاً، هنالك نرى الفضائل تتجلى في أجمل حللها الفطرية فما شئت من كرم وجود وقناعة وعفاف وسماحة وشهامة وصدق

ووفاء؛ بل إذا نظرنا إلى الضواري في غاباتها والجوارح في وكناتها لرأيناها منزهة عن العدوان مبرأة من الفتك إذا سدت رمقها وكسرت من حدة جوعها، فأمنت بجانبها الوحوش، وهذا الإنسان المتمدن لا ينتهي له جوع ولا تشبع له بطن ولا ترتوي له كبد ولا تنقضي له رغبة ولا يقتصر عند طلب ولا يأمن بجانبه أخوه، بل لا ترتفع غائلته عن أبيه وبنيه وصاحبته التي تؤويه.

وهكذا الحال كلما ابتعد الإنسان عن هذه الحضارة المشحونة بفضول الحاجات قلَّت همومه وأكداره وخفت جرائمه وآثامه، فأصبح قرير العين مستريح البال رغد العيش بعيداً عن النقائص والرذائل قريباً من الكمالات والفضائل، وإن كان في مظهره أمام الغربي رث الهيئة رديء العيش مختل النظام سيىء الحكومة، وخير للإنسان أن يكون في نظر الغير شقياً وهو عند نفسه في باطن الأمر سعيد، من أن يكون كالإنسان الغربي يراه غيره سعيداً وهو عند نفسه في نفس الأمر من أتعس التعساء وأشقى الأشقياء.

لهذا كله لا نزال نكرر كلما عنت فرصة تحذير الشرقيين من مجاراة الغربيين في تمدنهم وحضارتهم، والتمادي وراءهم في غلوائها لئلا يصبحوا مع ما هم عليه من الضعف والفقر أتعس حالاً منهم مع ما هم عليه من القوة والغنى، والله يعلم أن المراكشي في حكومة فاس تحت سلطة الحكم المطلق ربما كان أروح بالاً وأخف آلاماً وأشرح صدراً وأهدأ نفساً من النائب الباريسي مشاركاً في حكومة الجمهورية، وأن الأفغاني في إمارة كابل تحت حكومة الاستبداد أهنأ عيشاً وأصفى حياة وأطيب مقاماً وأرضى حالاً من اللورد يملك شوارع من لوندره في حكومة الحرية والنظام.

انظر في ما نبسطه لك وتأمل حقيقة ما نقول وحكم نفسك في الفرق بين الحالتين، ودعني من اغترار المغترين وانبهار أبصارهم بزبرج الأباطيل وزخرف الأضاليل، دون إمعانهم في فحص الحقائق وتبصرهم في تمحيص الفضائل الصحيحة ولا تعتمد على ادعاء من يدعون أن الأمم الغربية قد ارتقت إلى هذا السؤدد والعلو على سلم الفضائل ودرجات الكمالات، فإنما هي لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بحق القوة لا بحق الفضائل، فإن الفضيلة والعدوان نقيضان لا يتفقان، وطرفان لا يجتمعان.



بلاغة الشكوى(١)

لا تزال تبدي لنا الأيام من أعمال أهل المدنية الغربية المتمشدقين بألفاظ العدالة والحرية، الساعين بدعواهم في فك بني الإنسان من أغلال الذل والهوان، وأداهم الرق والاستعباد ما لا يصدر عن المعرقين في الهمجية المقيمين على قسوة الأخلاق الوحشية.

ولا يزال من الواجب على كل كاتب شرقي أن يحذر الناس من التشبث بأذيالهم، والأخذ بأقوالهم والوقوع في أشراكهم، وهذه حوادثهم قائمة بين أيدينا في كل يوم تشهد بسوء العقبى وشناعة المنتهى أن تمكنوا يوماً بكذبهم وريائهم ومكرهم وخداعهم من التداخل تحت ظلال مدنيتهم في ربوع الأمم الشرقية، فما أسرع من أن يقلبوا لها ظهر المجن ويفعلوا فيها الأفاعيل الشنيعة ويتفننوا لها في أبواب الظلم والاستبداد بما يذرف الدموع ويفتت الأكباد.

وقد انتشر في هذه الأيام ما وقع لولي عهد مملكة كمبودج الداخلة تحت الحماية الفرنسوية من ممالك الهند الصينية، وهروبه من باريس والتضييق على والده ليستدعيه إليه والسعي لحرمانه من ولاية العهد كل ذلك؛ لأن الولد انتهز فرصة فخفخة الفرنسويين بمعرضهم وحثهم الناس على زيارته فتمكن من الحضور مع أخيه إلى باريس ليعرض على رجال الحكومة الفرنسوية ما هو ملم بأهل بلاده من المظالم التي أبدع فيها

---

(١) ١٩ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٠م.

الفرنسويون إبداعهم في الشهوات والملاهي، وقد تمكنت جريدة «المآتن» الفرنسوية المشهورة من اختلاس نسخة التقرير السري الذي قدمه ولي العهد إلى رئيس الجمهورية وأعضاء الوزارة فنشرته، ولم تلتفت إلى فظاعته وبشاعته ونظنها لم تنشره إلا لبلاغته في أسلوب اللغة الفرنسوية.

وقد رأينا أن نبسط هذا التقرير للقراء ففيه من الوقائع عبرة للمعتبر ومن الحوادث ما كان يكفي أقله لقيام بعض الدول الأوروبية إلى المطالبة بإصلاح هذه الحال، لو كانت هذه المعاملة صادرة عن دولة شرقية لا عن دولة غربية.

قال البرنس نيوكاثور، ولي عهد مملكة كمبودج في تقريره الذي رفعه إلى رئيس الجمهورية الفرنسوية أيام إقامته في باريس:

«لقد رأيت هنا من حسن الاحتفاء بي والاعتناء بأمري وشاهدت من صنوف الإعزاز والتكريم ما يخالف معاملة الحكام الفرنسويين لنا في بلادنا، فلم أملك نفسي من إباحة ما في الضمير وكشف الحقيقة التي بقيت مستورة عنكم إلى اليوم، وأن أجمع بين تبليغكم سلام والدي وتحيته وبين تظلمه وشكايته، خصوصاً وأن الحوادث والأخبار الواردة عليّ أخيراً مما تجعل هذه المكاشفة فرضاً واجباً يجب عليّ القيام بحقه.

وليس من شأني اليوم أن أقص عليكم تاريخ وضع الحماية الفرنسوية على مملكتنا، فإنه مودع عندكم في بطون الأوراق بوزارة الخارجية ونظارة المستعمرات، وهي توضح لكم كيفية التدرج الذي سار عليه الحكام الفرنسويون من الحماية البسيطة التي طلبوها منا ورضينا بها عن طيب خاطر إلى الاستيلاء على إدارة البلاد والسير في إدارة الأحكام سيرة الفاتحين القاهرين.

وإني على يقين أن الحكومة الفرنسوية لم تعلم إلى اليوم ما هي

الطرق التي سلكها حكامها في هذا التدرج، وبأي الوسائل توصلوا إلى عقد الاتفاقين المشهورين في سنة (٨٤ و٩٧م) اللذين أتوا بهما على جميع الحقوق الملوكية والأهلية، فأذكر لكم أن المسيو تمسون حاكم الهند الصينية لم يتوصل إلى عقد الاتفاق الأول إلا بعد أن عمد إلى استعمال القوة، وهجم على القصر الملوكي ووضع السيف بين عيني والدي يهدده بالخلع تارة والنفي أخرى، حتى ألجأه إلى التوقيع عليه.

ولم ينل المسيو دومر الحاكم الحالي العقد الثاني إلا بمثل هذه الوسائط من العنف والقسوة والترهيب والتهديد، فتنازل به الملك عما بقي له من الحقوق الإدارية والمالية مع حق امتلاكه لأراضي بلاده.

وتفصيل ذلك أن المسيو فرنفيل الوزير الأعلى في بلادنا (هذا اللقب يطلق على نائب الحكومة الفرنسوية في تلك المملكة) بعد أن أقام فينا يحكم بالظلم والغشم مشتركاً في ذلك مع امرأة وطنية اختارها لنفسه، أعلن ذات يوم من الأيام أن الملك مصاب بخلل في قواه العقلية ثم قبض عليه وألقاه في السجن وهدده بالقتل، ثم قرر خلعه ونفيه إلى الليمان في جهة بولوكندور، فجاء والمسيو دومر وأنقذ الملك في مقابلة التوقيع منه على هذا الاتفاق الثاني، الذي جعل الملك وأمته كرة في يد الوزير الأعلى يقذفها كيف يريد ويتلقفها كيف يشاء دون تحديد أو تقييد.

ويعلم الله أننا لو رأينا أدنى منفعة من المنافع للأهالي من هذا التسلط المطلق لما ارتفعت أصواتنا بالشكوى من هذه الحالة، فإنا أهل بيت يحكم على هذه البلاد منذ ألفي سنة لم يكن من همّ أعضائه في مدة ذلك العهد الطويل إلا راحة الأهالي وتطييب عيشتهم.

وليس يخفى أن أوامر الدين البوذي الذي ندين به يفرض على أهل بيت الملك فروضاً بينة في حسن إدارة الأحكام بين الأهالي، لا مناص

لهم من العمل بها، والانقياد لما ترشد إليه، ولم يقصر أحد منهم في القيام بتلك الواجبات ما بقي له شيء من عز الجاه أو سعة المال، ونحن لا ننفك كذلك عن طاعة تلك الأوامر والقيام بذلك الواجب الذي يدعونا إلى احترام العدالة، ويدفع بي إلى رفع شكوى والدي للحكومة الفرنسوية، فأقول لكم: إن الرجل من أهل بلادنا الذي كان حراً مستقلاً تحت نظام مدنيتنا القديمة وسلطة الملك المطلقة أصبح اليوم عبداً، قِنًّا تحت سلطة إدارتكم الموسومة بالعدالة والحرية.

وقد كان من نتيجة اجتهاد الحكام الفرنسويين في تحرير رقاب الأهالي بزعمهم من حكومة الاستبداد أنهم سلموها إلى أيدي الوافدين على بلادنا من الفرنسويين الذين تقذف بهم بلادهم للتكسب والارتزاق بالتوظف في وظائفنا والحكم فينا، فوقع بذلك من الضرر على الكبير والصغير، ما ليس يطاق احتماله، وانتهى الأمر بأن انتقل الأهالي من ظل السلطة الملوكية الشرعية الجامعة لأسباب النظام إلى لهيب السلطة الحالية التي تعددت أشكالها وسفلت وسائلها، فتسلطت فينا المرأة من أدنى الطبقات مثل ميرونغ التي كان يهواها المسيو فرنفيل الوزير الأعلى، وتسلط فينا الغلام مثل تيون المترجم في أيام المسيو دوكو والمسيو لوس.

وقد سرى الاقتداء بسيرة هؤلاء الحكام في بقية الموظفين من أول الدرجات إلى آخرها، حتى صار الأمر في الأعراض والأموال لمن يتعشقه أولئك الحكام من القينات والغلمان، ينهبون الأموال ويحكمون بهواهم في النفوس.

وقد كان للمسيو لورين خليلة لها ولع بلعب القمار، فكان ما ينتزعه من ثروة الأهالي ذاهباً إلى يد تلك المرأة تقذف به في مهاوي المقامرة.

وقد صارت الوظائف منذ إضعاف السلطة الملوكية تعطى وتمنع على حسب الأهواء والأغراض، فلا يلبث الموظف في وظيفة إلا ريثما تنتقل إلى من يسعى لها سعيها لدى أولئك النساء والصبيان.

هذا وأكبر ما تشتكي منه الأمة وتئن تحته هو تحويل أمر الملكية في الأراضي إلى رأي الوزير الأعلى بعد أن كان الحق في امتلاكها للملك اسماً، ولمن يحتلها ويستثمرها فعلاً، كما تقضي به أوامر الدين البوذي حيث جاء فيه: «إن أرض الله في كفالة الملك يدعها لمن ينتفع بها من أهل الحاجة» دون شرط أو تقييد.

فكان من أمر إدارتكم أنها وضعت حدوداً للملكية فتقدمت الشركات الفرنسوية وراجت بينها سوق الامتيازات فهجم جيش الفقر على الأهالي في الحال والتزموا بدفع الأموال للتمتع بأراضيهم التي كانت الشريعة الملوكية تضعها في أيديهم بغير ثمن ولا أجر، ومما يذكر نموذجاً من هذا الباب الامتياز الذي ناله المسيو فارو والمسيو فاندلي، فإنهما توصلا بدعوى تربية الحيوانات إلى امتلاك ما يحيط بالعاصمة من الأراضي وحرموا الأهالي من رعي أنعامهم فيها والسير بها وحواليها، فإذا شردت بهيمة ودخلت تلك الأرض كان من وراء دخولها القبض عليها والحكم بالغرامة، وكم من مرة حكموا فيها على أخي الموجود معي الآن بباريس؛ لأن بعض فيلته وأفراسه وطئت أرض الشركة في عودتها إلى داره.

والمصاب الأعظم في هذا الباب أن المقابر المقدسة عندنا التي يؤدي نحوها الأهالي ما تقضي به فرائضهم الدينية دخلت في ضمن أراضي هذه الشركة ترعى فيها الماشية وتسوم السائمة بعد أن كانت محلاً لإقامة الشعائر المقدسة والاحتفالات الدينية. ولولا مكانة الملك في

نفوس الأهالي وميله إلى اجتناب أسباب القلق والاضطراب لم يصبر أحد منهم على قبول هذه الإهانة واحتمال هذا الضيم.

وقد تقدمت الشكوى إلى المسيو دومر، فلم يلتفت إليها وكانت الغلبة للمنفعة التجارية على الأوامر الإلهية، وما ذكرت هذا الأمر إلا على طريقة التمثيل وإلا فهناك من أمثاله ما يفوق الحصر.

وقد ذكرت لك أيها الرئيس في مقابلتي لكم أشياء كثيرة نفر منها طبعك الحر. وأذكر هنا واحدة في باب الاستبداد وهي أن قاضي محكمة الولاية واسمه صوفي خون حضر يوماً إحدى جلسات مجلس النظار في سنة (٩٨م) وليس يغيب عنكم أن مداولات هذا المجلس وأحكامه هي تحت مراقبة الوزير الأعلى لا دخل للملك فيها مطلقاً، وإن كان له حق الموافقة على القرارات، إلا أنها تصدر في الغالب بغير علمه وبدون التفات إلى رأيه فيها، وأعضاء المجلس يتألفون من أعداء الملك خاصة، وحضر تلك الجلسة كذلك أحد الموظفين من الأهالي، وكان قد عينه المجلس حاكماً في بعض الجهات، فأظهر رغبته في العمل بالقاعدة المتبعة عند كل تعيين، وهي تقديم الشكر للملك، فقال له رئيس النظار: «لم يبق هنا ملك ولم تبق سلطة لأحد غيري وأنا أنهاك عن مقابلة نورودوم (اسم الملك)»، ثم أخذ يسب والدي ويشتمه ما شاء، فلما سمع الملك بالخبر دعا صوفي خون المذكور وسأله: هل سمعت حقيقة رئيس النظار شتمني ويهزأ بي؟ قال له: «نعم»، فكانت إجابته بالحقيقة لملكه وسلطانه سبباً في إرساله إلى ليمان بولوكوندور وبقي مسجوناً فيه حتى أدركته المنية ولم يلتفت المسيو دومر إلى أمره مع علمه بالحقيقة.

فقد صار القتل والنفي والطرد والسجن عندنا من الأمور العادية

التي يدعونها بالاحتياطات السياسية، فانتشر الروع والفزع بين قومي مما نلاقيه من وجوه الانتقام التي يأتيها أعداء الملك وتهور الوزراء الفرنسويون في الأحكام، وهم تحت سلطان الخمر والأفيون وسلطان العشق والجنون، وصار كل من يشتكي من هذه الحال إن لم يصبح قتيلاً، فإنه يصبح مسجوناً.

ولما علم المسيو لويس بعزم والدي على إرسالي إلى فرنسا هددني بالسجن؛ لأنه يعلم أنني إذا وصلت إلى فرنسا يوماً من الأيام ناديت فيها بالحقيقة فتنصفنا الحكومة، أما الشكاية في كمبردج فلا تعود إلا بالعذاب على أربابها، ولذلك فقد حكم على الأبرياء وتعدى الحكم جانب الجناة.

استولى أحدهم على امرأة أخي وسلب منها جواهره ومتاعه وكل ما يملكه من المال، فبادر أخي بالشكاية فمات مسموماً فاستأنف والده الشكاية، ولوضوح الحق فيها حكم المجلس العالي بصحتها، ولكن لما جاء يوم الحكم انتزع الوزير الأعلى الجاني من يد العدالة وأنقذه من عقاب الجريمة، ثم عاقب أولئك القضاة بالعزل وأقام هذا السارق القاتل مع أبيه رئيس النظار في أعز مراتب الجاه يهزأ ويسخر في كل يوم بالملك وأولاده، واعلموا أن رئيس مجلس النظار والمترجم العام هما الآن المتسلطان على المملكة بالنهب والسلب وهذا الوزير الذي يصطنعه الحكام الفرنسويون للحط من قدر الملك ومحو سلطته لا يزال يغشهم؛ بأنه كان السبب في إطفاء الفتنة سنة (٨٥م)، وما أطفأها إلا والدي وقد كاد يصدر الحكم على الوزير بالإعدام لجبنه وهروبه من وجه الثورة، فكانت مكافأة والدي على ذلك وضعه عند الحكام موضع الأعداء، ورفع ذلك الوزير إلى رتبة الأولياء.

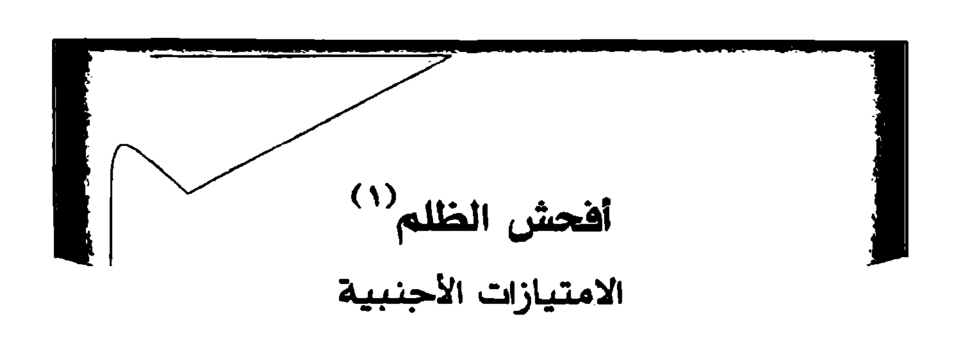
فإذا استمر هذا الحال ووالدي في سن الشيخوخة لا يلبث أن يقضى عليه من الهم والحزن فيكون لي الحق إذ ذاك أن أعتبر موته من باب القتل الذي لا فائدة لأحد فيه، فإن زعموا أن فائدته إراحة الأهالي؛ فالأهالي اليوم في أعظم شقاء وإن زعموا أنه من فائدة حكم الفرنسويين في المستعمرات، فقد أصبح شأنهم ضعيفاً وحكمهم ممقوتاً، فإن زعموا أن ذلك في فائدة بعض الأحزاب السياسية التي تقوم سلطتها مقام سلطة الملك، فليس يوجد إلا هؤلاء الجناة السارقون المحتاطون بالوزير الأعلى وتلك القينات والغلمان التي تتسلط على أولئك الحكام، وأولئك المشاركون لتجاركم في السرقة والنهب، وما هذا الحزب الذي تعتمد عليه فرنسا إلا العكر والرغاوة من أهل مملكتنا، فإن شهامة النفوس في قومي ونظام الجمعية فيها مؤرخ من ثلاثة آلاف سنة، فمن زعم أنه يغير نظامها في عشرين سنة فهو مغرور مجنون، وكم ذهب هذا الجنون بسلطة الأمم المتغلبة وساءت لها العقبى.

واعلموا أن قومنا لا يعترفون في العالم إلا بسلطة الملك، ولولا أنهم يرونه على حال مودة معكم وميل إليكم لما تحمل أحد منهم شيئاً مما تعملونه تحت اسم الملك، ولولا أن والدي يريد أن يقضي بقية حياته في أمن وسكون لما ضرب المثل بطاعة أهل بلادي تحت هذه الأحكام التي لا يحملها إنسان في العالم.

فأنا أستعطف إلى حالة والدي وألتمس منكم أن تنظروا في هذه المظالم فتخففوا من آلامه في أخريات عمره، وتذكروا بأن هذا الملك أعطاكم بيده أعظم مملكة في الهند الصينية عن طيب خاطر وارتياح فؤاد، واختاركم لثقته بكم دون سواكم من الأمم، واعتقاده في عدالتكم التي لا يزال يتمسك به اليوم، فإنه لا يتصور أن أولئك الفرنسويين

المقيمين في بلاده هم حقيقة من الفرنسويين، بل يؤمل أنني أجد هنا خلقاً آخر غيرهم يقضون بالعدل وينصفون من الظلم.

وأردد الرجاء بأن لا تهملوا والدي يقضى عليه من خيبة أمله فيكم، ولست أدعوكم إلى النظر في أمره الآن بصفتي ولي عهد له بل بصفتي الولد الذي يطلب الرحمة والشفقة لأبيه»، انتهى.



أفحش الظلم(1)

الامتيازات الأجنبية

ليس المظلوم هو العبد الذي يعيش في خدمة مولاه يأكل من فضل طعامه وشرابه ويلتجىء إلى رحابه ويحتمي في جنابه ويرجو منه الإحسان ويترقب المعروف ويتحين منه العتق بعد الرق.

ولا هو الذليل الذي يعيش في دولة الاستبداد وحكومة الاستعباد، إن ظلمه من فوقه ظلم هو من تحته، وإن أسيء من أقوى منه أساء هو إلى أضعف منه، وإن بات ليلته خائفاً ربما أصبح في غده آمناً، وإن خشي ضرراً يوماً ربما رجا نفعاً أياماً، وإن توجس شراً مرة ربما توقع الخير مراراً، لا يعدم شفيعاً عند الحاجة ولا يفقد وسيلة لسلامة إن ناله المكروه في نفسه ربما سلم له أهله، وإن تحكمت فيهم المصيبة في دولة حاكم انتظروا به أدوار الدهر وتقلبات الزمان.

ولا هو الأسير يؤمل الفكاك ويترصد الافتداء.

ولا هو البريء المأخوذ بذنب غيره وجريرة سواه ينتظر تبلج الحق ويستمتع ضميره بحلاوة البراءة ويتشفى بمرارة الندم في صدور الظالمين.

ولا هو المسلوب الذي صودر في ما يملك وحرم مما يحوز.

ولكنما المظلوم والذليل والأسير والمستضعف والمسلوب

---

(1) ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٠م.

والمغلوب من أمن ظلم حاكمه وسلم من عادية رؤسائه واطمأنت نفسه من غائلتهم في روحه وعرضه وماله وتساوى بجميع أرباب الطبقات في الحقوق ثم تراه وهو على هذه الحالة يأتيه رجل أجنبي عن أرضه، أجنبي عن جنسه، أجنبي عن لسانه، أجنبي عن دينه، أجنبي عن أخلاقه، من أحقر الناس ومن أضعف الخلق ومن أصغر أمة وأدنى حكومة فيركب قفاه، ويأخذ بناصيته ويسوقه إلى ما يشتهي فينهب ماله ويسلبه عيشه ويحوز أملاكه، ويستبيح حياته ويهريق دمه لا خاشياً من عقاب ولا قصاص ولا مفكراً في عقل ولا قود.

ذلك هو الظلم المبين والغشم الفظيع والعدوان الكبير وهذا هو امتيازات الأجانب. فقل لي بعيشك أي إصلاح يذكر وأي عدل ينشر وأي نظام يعتبر، لا بل أي خطب فادح وظلم واضح من أن نبقى إلى اليوم في قيود من العهود، عهود القرون الوسطى وقد تقلبت بعدها الأحوال وتعاقبت الأطوار وتغير وجه الدهر، ولم يبق شيء على قديمه ونحن لا نزال مرهقين في السلاسل والأغلال من تلك الامتيازات.

ومن غريب الأمر فيها أنها لم توضع لتمييز الأجنبي على الوطني تمييز استعلاء، ولا كانت له من أثر القهر والغلبة ولا هو اكتسبها من طريق القوة والسلطان، وإنما جاءت له من جهة الرحمة بالضيف الضعيف والرقة للغريب الذليل، ومن قبيل التسكين للمقهور والمروع والتأمين للمرعوب المفزع، وعلى سبيل المنحة والإحسان والعفو والكرم، فقد كان مبدأ وضعها في الدولة العلية والدولة في قوة سلطانها وشدة عنفوانها وجدة بنيانها وعلو مكانها، وسلاطين آل عثمان يلعبون بتيجان الملوك من أهل أوروبا لعب الأكر، وأهل البلاد العثمانية يعاملون أهل البلاد الغربية معاملة الأسراء الأرقاء وكانت الأحكام جارية على الشريعة الإسلامية

دون سواها، فالتمس فرنسوا الأول ملك فرنسا من السلطان سليمان التماس الولي من مولاه والمحكوم من حاكمه، أن يسمح لرعيته بالإقامة والإتجار في البلاد العثمانية، وأن تسير مراكبهم الفرنسوية في بحار الدولة العلية تحت العلم الفرنسوي آمنة سوء التعرض لها، وأن يفوض الحكم في المنازعات بينهم لرجل منهم لكيلا يكون فصل التنازع على شرع دين غير دينهم فنال من لدنه ذلك الامتياز.

ولما لم تجترىء بقية الدول الغربية على مثل هذا الالتماس ولم تطمع في مثل ما ناله ملك فرنسا، رضيت أن تسير مراكبها تحت العلم الفرنسوي في بحار الدولة العلية، ثم نالت الدول بعد ذلك واحدة أثر أخرى مثل ذلك الامتياز، وقد مضى عليه اثنتا عشرة معاهدة بين الدولة العلية والدولة الفرنسوية من سنة (١٥٣٥م) إلى سنة (١٧٤٠م) وآخرها معاهدة سنة (١٧٤٠م) الباقية إلى الآن، ولم تكن الدول لترسل أحداً من رعاياها إلى بلاد الدولة إلا بعد أن تتوثق من حسن سيرته بما تأخذه عليه من الكفالة والضمانة.

وعلى هذه القيود والشروط كان الوافدون من الأجانب على بلاد الدولة عدداً يسيراً وكانوا في عزلة عن الأهالي في الإقامة والسكنى، وما كان لهم حق الملكية في أرض الدولة، ولم يسمح لهم به إلا في سنة (١٨٦٧م).

هذا هو الأصل في الامتيازات، ولكن الأمر أخذ يتحول شيئاً فشيئاً بلا عهد ولا عقد، فصارت الدول تخل بما عليها والدولة تساهل في ما لها والأجانب يتواردون على بلاد الدولة ويتوغلون في أرضها، ويشتبكون مع الرعية في أنواع المعاملات وتوفرت بينهم أسباب المنازعات والمخاصمات، فانتصروا عليهم وعلى أموالهم بهذه الامتيازات التي

صارت في يد أدنى دنيء من الأجانب، يفتك بها في بلاد الدولة فتك الجيش العرمرم في الهيجاء بعد أن كانت في يد فرنسوا الأول صحيفة استرحام ورجاء.

ومن أظلم الظلم أن الدولة العلية لما أدخلت النظامات الغربية في بلادها وأدخلتها الدول الغربية في عدادها ولم يبق من الأسباب التي دعت لهذا الامتياز سبب، طلبت الدولة من الدول رفع هذه الامتيازات في مؤتمر باريس سنة (١٨٦٥م) فأبت الدول أن تسمع لها ثم جددت شكواها في سنة (١٨٦٢م) فلم تصغ لها، ثم ألحت ثالثة في طلبها هذا سنة (١٨٦٩م) فلم تلتفت إليها.

وكان الشر من هذه الامتيازات بالبلاد المصرية أخص وعليها أعم، إذ كان من هم الولاة السابقين فيها أن يتقربوا من الأجانب فيرفعوا من شأنهم ويحطوا من شأن رعاياهم لمقاصد وأغراض كانت لهم وانطوت معهم فتمثل الأجنبي في أعين المصريين في تمثال جنكيزخان أو تيمورلنك أو نادر شاه من جهة الصولة والسطوة والعظموت والجبروت، ووقع الرعب منه في قلوبهم أشد من رعبهم كان من ولاتهم، ومضت على ذلك السنون يتوارث الأبناء عن الآباء ذلك الخوف وذلك الرعب، حتى وصل الأمر في الخوف والرعب إلى مجرد زي الأجنبي يتزيا به اليهودي المصري فترتعش منه الأيدي التي كانت تصفعه بالأمس، وصارت القبعة أهيب في قلوبهم من التاج وصار أكبر كبير فيهم يفتخر بمصاحبة من يلبسها كائناً من كان، وبقي الأمر على هذا النحو إلى الآن.

حكى لنا واحد من المصريين أنه كان يقضي حاجته في ناحية من الشارع فجاءه الخفير يتبعه البوليس فزجراه ونهراه وهمَّا بأخذه إلى القسم

لولا أن تخلص بالاعتذار والتوبة، ثم عاد في الليلة الثانية فرمى بطربوشه وفعل فعلته وهو لابس قبعة اشتراها بأربعة قروش بمنظر ومرأى من الخفير والبوليس، فلم يسعهما إلا أن حوَّلا وجههما وتشاغلا بالحديث عنه، لئلا يضطرب في عمله أو ينقطع عن إتمام حاجته، فبكى من وجوده في بلد بين الإعزاز والإذلال فيها أربعة قروش.

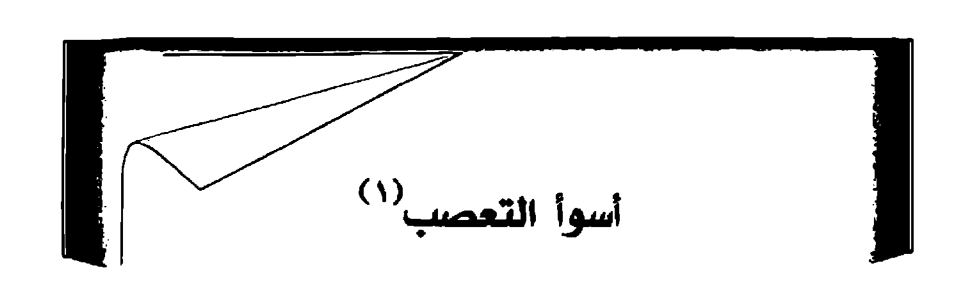
وليس من غرضنا أن نشرح هنا ما أصاب المصريين من ضرر الامتيازات، فذلك أمر مكشوف معلوم لا احتياج للكلام فيه، فإن كل إنسان يحس به في كل يوم وكل ساعة، والوقائع من هذا القبيل تمتلىء منها المجلدات وتنضب لها المحابر وتحفى لها الأقلام، وإنما غرضنا أن نبين كيف انقلب الحال في الامتيازات، فبعد أن كانت مجناً يتقي به الأجنبي الذل والهوان، أصبحت سيفاً في يده يغمده في رقاب الذين أحسنوا بها عليه، وأنه لم يبق من سبب لبقائها في الدولة على العموم وفي مصر على الخصوص، وأنها ساقطة من ثلاثة وجوه:

أولها: إخلال الدول في القيام بما يجب عليها فيها، كما تقدم ذكره. **والثاني**: تنظيم محاكمنا على طرز المحاكم عند الغربيين والعمل بقانونهم فيها واقتصار الشريعة الإسلامية بيننا على أمورنا الشخصية التي كان تعميم الحكم بها في الأزمان السابقة عذراً في التماس تلك الامتيازات. **والثالث**: وجود الاحتلال الإنكليزي في مصر، وأي ضمان يكون أعظم لحفظ حقوق الأجانب من احتلال دولة من دولهم في بلادنا، يدير رجالها شؤون الحكومة بأيدهم ويجرون فيها من الأحكام ما يجرى في بلادهم، ووجود الاحتلال وحده كاف لإلغاء تلك الامتيازات كما ألغيت في بوسنه وهرسك باحتلال النمسا، وكما ألغيت في قبرص باحتلال إنكلتره، وكما ألغيت في مصوع باحتلال إيطاليا، وكما هي اليوم على الإلغاء في السودان.

وقد كان من رأي جماعة من المصريين أن التشكي من ثقل هذه الامتيازات والسعي وراء التخلص منها مما يزيد قدم الاحتلال رسوخاً وسلطته توسيعاً، وأنه إذا توصل إلى إلغائها استراح من معاكسة الغربيين له، ولكن قد دلتهم الحوادث على أن هذا الرأي ليس بسديد وأن الامتيازات لم تخفف من وطأة الاحتلال شيئاً، وأن بقاءها ضرر مع ضرر ومصيبة مع مصيبة، فصار الناس اليوم إجماعاً واحداً على وجوب السعي في ما يكشف ضرر هذه الامتيازات ويخفف أذاها عن المصريين، وتعددت مقالات الجرائد في هذه الأيام في شرح مضارها والتماس الدواء النافع لدائها، ونحن نؤمل من جميع الجرائد التي يهمها تخفيف الويل عن المصريين أن يواصلوا الكلام في هذا الباب، لعل الحكومة تنتبه إلى ما يقاسيه الأهالي وتقاسيه هي نفسها من عاديات الأجانب فتشكو إلى الدول من هذا الظلم الفاحش، وإذا لم يأخذ بيدها رجال الاحتلال في هذا السبيل فلا يفخروا على المصريين بالإصلاح والنظام، فإن كل ما صنعوه إلى اليوم منه لا يوازي نفعه الضرر الواقع على المصريين من تلك الامتيازات، وليس لهم أن يقولوا: إنهم أراحوا المصريين وأسعدوا أحوالهم، والمصري لا يزال أسيراً تحت حكم مائتي ألف ملك وامبراطور مستبد من هؤلاء الأجانب في بلاده، أيديهم كلهم في أحشائه وأغلالهم في عنقه، ولا لرجال الاحتلال في سكونهم عن المساعدة في ذلك، وقد علموا أن المصريين جميعاً يتألمون من هذه الامتيازات ويستغيثون بالدول أن ترفع عنهم هذا البلاء الذي لا تستوجبه حال من الأحوال، فتمحو في القرن العشرين وهي في عزة الجانب أثر ذلها في القرن السادس عشر.

فإن لم يقبل رجال الدول بذلك كان فيه دليل على سوء التعصب

وحب التعدي الذي يرموننا به ونحن بريئون منه، ولو كان في المصريين ذرة منه لما شاهدنا الأجنبي من أسفل الطبقات يتعدى على المصري بالإهانة والضرب، فلا يقابله بالمثل بل يسكن على ذلك الضيم في قدرته أن يسبقه إلى العدوان، كما يتعدى المصريون بعضهم على بعض في كل يوم ويترك للأجنبي حق شكواه إلى المحاكم الأهلية لا يخشى المصري فيها ظلماً ولا جنفاً، فيقف الأجنبي معه على السواء مهما عظم قدره وصغر قدر المصري، ولرأينا الأجانب يترددون على المحاكم الأهلية أفواجاً كما يتردد عليها جماهير المصريين صباح مساء، ولكن مع علم الناس بذلك قل ما نسمع أن أحد الأجانب ذهب يوماً إلى محكمة المخالفات أو محكمة الجنح يشتكي أحد المصريين، فهل يعد ذلك في جانب المصري إلا من قبيل الحلم والكرم، وهو يعلم أن التعدي على السائل الوطني والتعدي على مدير البنك الأجنبي سواء في العاقبة وواحد في العقاب.



أسوأ التعصب[1]

يرتدي أرباب السياسة الغربية أمام عيون المسلمين في الشرق بكل رداء مفوف ويتراءون لهم في كل لباس مزخرف ليستروا به ذلك الثوب الأسود، ثوب التعصب اللاصق بأجسادهم منذ القرون الوسطى، فإذا هبت نسمة من النسمات كشفت عن ذلك الثوب المصبوغ بظلمات الأضغان والأحقاد.

وقد مضى بنا الكلام في العدد الماضي عن تعصب الغربيين في التمسك إلى اليوم بامتياز الأجنبي على الوطني في بلاد الدولة العلية، مع زوال الأسباب الداعية إليه، وكيف أن الدول تدرجت من معاهدة فرنسوا الأول في إيواء الأجانب بالبلاد العثمانية، إلى أن انقلب الأمر فصار الضيف الوافد حاكماً مستبداً في ديار الذين أطعموه من جوع وأغنوه من فقر، وصار الذي كان سائلاً على باب البيت قابضاً على مفتاحه.

وقد يجوز أن يعتذر معتذر للدول في بقاء تلك الامتيازات بأن لها أصلاً في تلك العهدة القديمة وذلك الصك البالي، ولكن بماذا يعتذر لها المعتذر في ما اختلقته لنفسها بنفسها من غير عهد ولا ميثاق من حق التداخل في داخلية البلاد العثمانية، وتمييز طائفة على طائفة من رعية واحدة تحت حاكم واحد والانتصار لفئة من الأهالي على فئة من مثلهم.

---

(١) ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٠م.

فقد انتحلت الدول لنفسها في ذلك تعلة إقامتها مقام الصك والعهد وهي «خدمة الإنسانية» و«حب الإنصاف»؛ فإذا عنّ لبعض أهل الطوائف من غير المسلمين في بلاد الدولة العلية أن يتظاهروا بالشكوى من الأحكام العثمانية لحاجة في النفس رأيت الدول تقوم وتقعد وترغي وتزبد وتهجم على بلاد الدولة فتستخلصها من أيديها وتنزعها من حكمها وتسلمها إلى تلك الطوائف بذاتها، فتحكم على المسلمين حكم الظلم وتسلك معهم سبيل الانتقام حتى تلجئهم إلى الخروج من ديارهم وهجرة بلادهم، ثم تستولي على مساكنهم وتعيث في أرضهم، فهي إذاً تخدم الإنسانية لأهل مذهب من المذاهب بذاته، وتحب الإنصاف لأرباب دين من الأديان بعينه.

ولو كانت هذه الدول قائمة بخدمة الإنسانية على حقيقتها وحب الإنصاف على وجهه لتساوى لديها صوت الاستغاثة صادراً عن المسلم بصوت الاستصراخ صادراً عن المسيحي، ولاهتمت برفع الظلم عنهما على السواء، ولكننا نراها تسمع بما يلحق المسلمين في أقطار الأرض من أنواع الظلم والجور فلا تلتفت إليهم ولا تعطف عليهم، ولا يخاطب بعضها بعضاً في تخفيف ما تصبه كل واحدة منها على رؤوس رعاياها المسلمين من صنوف الشقاء وضروب البلاء، ولا نراها تسمح للخليفة الذي هو رأس الإسلام أن يظهر لها التألم مما يقع على أعضاء الجسم الإسلامي من فوادح المظالم ونوازل الاعتساف، ولا تجيز للدولة العلية في شرعها أن تخاطب الدولة الروسية يوماً في رفع ظلامة عن مسلمي بخارى، ولا الدولة الفرنسوية عن مسلمي الجزائر، ولا الدولة الإنكليزية عن مسلمي الهند، ولا المملكة الهولاندية عن مسلمي جاوى، ولا حكومة الصرب عن مسلمي الصرب، ولا إمارة البلغار عن مسلمي البلغار، ولا ولاية كريد عن مسلمي كريد.

أستغفر الله، بل هي ترى المسلمين من أهل هذه الولاية يهاجرون من أوطانهم وينزحون عن ديارهم وزمامهم مسلم في أيدي المسيحيين بعين الارتياح والقبول وما كان الإنسان ليهاجر من بلده ويرحل عن أرضه ويحرم نفسه من مساكنه ومتاجره ومصانعه ومزارعه ومساجده وجوامعه، إلا إذا وقع عليه من الظلم أقصى غاياته وأبعد مراميه.

يشتهر ذلك بين الغربيين، ويعلمون به حق العلم ولا يأخذ أرباب السياسة وأرباب القلم منهم هزة للخدمة الإنسانية، ولا ينعطفون مرة عطفة الإنصاف بل تراهم يعتبرون تلك المهاجرة ونزوح هؤلاء المسلمين عن بلادهم خلو الديار من آثارهم مما يريح البال ويزيح الإشكال، ويحل لديهم عقد المسائل، كما نراه في المقالة التي نشرها أحد كُتَّاب السياسة في جريدة التيمس منذ أيام وقام للرد عليها مسلم من أفاضل المسلمين من أهل الهند المقيمين في لوندره، مشهور بغيرته على الإسلام وتفانيه في الدفاع عن مصالح المسلمين بقلمه ولسانه، كلما سنحت له فرصة ينتهزها بين صفحات الجرائد الإنكليزية ليردها عن كثير من الخطأ التي تقع فيه عند البحث في أمور المسلمين.

*** وهذه ترجمة الرسالة التي ردّ بها ذلك الفاضل على ذلك الكاتب ونشرتها جريدة التيمس بتاريخ (٢٢) أكتوبر:**

مسألة كريد المفتوحة

سيدي محرر التايمس...

اطلعت في يوم السبت (٢٠) أكتوبر على مقالة في جريدتكم تحت عنوان: «مسألة كريد المفتوحة»، وبما أنني قد حضرت منذ أيام من الجزائر التابعة للدولة العلية في البحر المتوسط، وكنت قد انتهزت مدة إقامتي هناك فرصة للوقوف على أحوال قطانها من المسلمين، فلذلك

أرجوكم أن تقبلوا مني بعض ملاحظات على تلك المقالة المهمة خدمة لمصلحة إخواني من المسلمين في كريد، فأقول:

إن كاتب المقالة وقع في غلطة سياسية حينما تكلم عن مستقبل سكان كريد فقال: «ولا حاجة إلى الاهتمام بالمسلمين منهم؛ لأن عددهم بعد أن كان يبلغ ثلث السكان انحط إلى العشر ولا بد أن ينتهي الأمر بهذه البقية بعد مضي قليل من السنين إلى التلاشي والانقراض».

ولا يخفاكم أن الازدراء والاستخفاف بفئة ضعيفة من المسلمين بين فئة عظيمة من المسيحيين في قطر واحد ليس مما ينطبق على تعاليم الدين المسيحي، وبالأخص على قواعد السياسة الإنكليزية وهو مصدر إشكال ومورد ارتباك في سياستها.

ومن المعلوم أن المسلمين من أهالي كريد قد غادروا بلادهم وهاجروا إلى إزمير وإلى بلاد أخرى من جهات آسيا، وما أشرتم إليه في جريدتكم من هذه الهجرة لا يمنع من الاعتراف بسوء الأحوال المحزنة التي قسرت المسلمين من أهل كريد على ترك أوطانهم، ودعتهم للالتجاء إلى حمى إخوانهم المسلمين في البلاد الأخرى.

ومن الغلط الفاحش أن يتصور المتصور أن هؤلاء المسلمين تركوا بلادهم وأوطانهم من تلقاء أنفسهم عن رغبة في الهجرة لذاتها، ولكن ما وقع عليهم من أنواع الظلم بنهب بيوتهم وسلب أموالهم والاستيلاء على مساكنهم ومساجدهم من مواطنيهم اليونانيين، هو الذي أخرجهم من ديارهم وألجاءهم إلى الغربة من أوطانهم، وقد تعهدت الدول على رؤوس الأشهاد أمام هذه الأهوال بأنها ستعوض على المسلمين ما أصيبوا به من الخسائر، وأنه لا بد من إنصافهم بعقاب المعتدين عليهم أمام القضاء عند استتباب الأمن والنظام في كريد.

وقد استتب يا سيدي الأمن وقام النظام في الجزيرة والمسلمون من أهلها ينتظرون، ولكن أي انتظار؟ ما هي الطرق التي اتخذتها الدول لإمكان عودتهم إلى أوطانهم ورجوعهم إلى سكنى ديارهم؟ ولم نر في هذا النظام ما يحل المشكل ويدفع الضرر عن المسلمين ويرد لهم حقوقهم ويحفظها لهم في مستقبل الأيام.

وليت شعري ماذا يكون شأن الدول الأخرى في مثل هذه الحال إذا كانت دولة بريطانيا التي تحكم على مائة مليون من المسلمين وقفت قبالتها وقفة المتهاون اللاهي، ووافقت بسكونها وسكوتها على استدامة هذه الأحوال وما يلحق المسلمين من ضررها، وعلى ذلك فكأن الدول أعطت كريد إلى اليونانيين يتصرفون فيها مكافأة على سوء طاعتهم لنصائحها التي كانت تنصح لها قبل الحرب.

ولكن، أليس لسلطان الدولة العلية صوت في هذه المسألة؟ وهل فقد العثمانيون الألوف من أبطال رجالهم في ساحة الحرب على غير طائل؟.

على أنه من البين أن كل عقبة تعارض سيادة السلطان في كريد تكون بداية افتتاح للمسألة الشرقية على أبلغ وجوهها، وقد علم الناس اليوم بأن علاقات الوداد بين الدولة العلية ومملكة اليونان أصبحت متينة.

فإذا كان الملك جورج مصيب الرأي في سياسته، فإنه يستفيد فوائد مهمة بالاتحاد مع السلطان أكثر مما يستفيد من استماعه لآراء المشيرين عليه داخلاً وخارجاً.

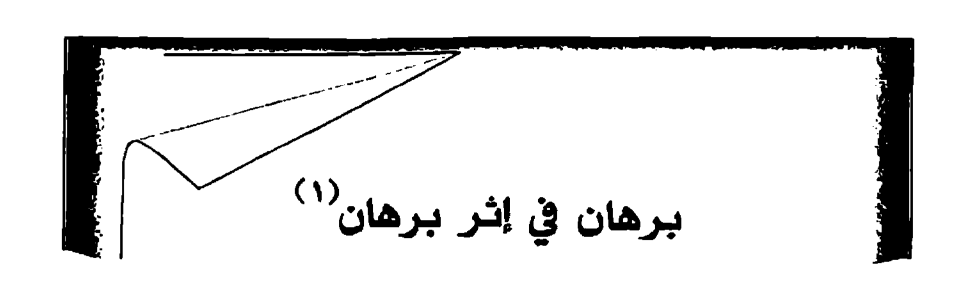
✍ الإمضاء
رفيع الدين أحمد

ومن هنا يتبين لك أن دول الغرب بيتت كلمتها فحشدت جيوشها وسيرت أساطيلها لتنزع من يد الدولة العلية إحدى ولاياتها، بدعوى حفظ السلم وخدمة الإنسانية وحب الإنصاف لتلقي بضعفاء المسلمين من أهلها في أيدي الأقوياء من المسيحيين، فيسلكوا بهم مسالك التشفي والانتقام حتى يجلوهم عن أرض الجزيرة ليسكنوا في مساكنهم ويرتعوا في أرضهم.

فأي تعصب أسوأ من هذا التعصب؟ وأي تحزب أفظع من هذا التحزب؟ وأي تحيز أشنع من هذا التحيز؟

لقد تشوهت في ألسنتهم تلك الألفاظ الجميلة من «خدمة الإنسانية» و«من حب الإنصاف» و«نشر العدل» وصار إذا سمعها الشرقي تولاه من الفزع، كما يتولاه من ذكر ألفاظ «القسوة» و«العسف» و«الظلم» وأخواتها.

لا جرم أن الأولى بالغربيين وهم أرباب الاختراع والابتداع أن يبتكروا لنا ألفاظاً غيرها، وكلمات سواها، فينشروها بيننا على وجه جديد يغرر بها من يغرر، وينخدع لها من ينخدع، وإلا فليعمدوا إلى الشهامة التي يستدعيها ما هم عليه من القوة والبأس فيجهروا بما انطوت عليه ضمائرهم من بغض الإسلام والمسلمين والجنوح إلى التشفي والانتقام منهم، والرجوع في ذلك إلى عهد القرون الوسطى، وليقروا لنا بأن هذه المدنية إن كانت أكسبتهم قوة الغنى، وقوة السلاح، فإنها لم تكسبهم فضيلة التربية، وتهذيب الطباع، وأنهم بأخلاقهم في القرن العشرين لا يزالون في القرن الثالث عشر.



برهان في إثر برهان[1]

إذا خلا الإنسان من مزية أو فضيلة كان أولع الناس لانتحالها والتحدث بها وكلما كان انحطاطه فيها ظاهراً وقصوره عنها واضحاً ازداد بذكرها شغفاً واشتغل لسانه بها على قدر بعده عنها وخلوّه منها، فترى البخيل أكثر الناس ذكراً للجود والكرم، وترى الخائن أشدهم كلاماً في الأمانة والوفاء، وترى الفاسق أطولهم حديثاً في الصيانة والعفة وترى الجبان أبلغهم قولاً في الشجاعة والإقدام.

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا[2]

هذه قاعدة مطردة في الناس يكشفها للناظر في أحوالهم أدنى لمحة منه، ثم لا تلبث الحوادث أن تأتي بما يفضح المستور ويهتك المخبوء.

وعلى هذا النحو سار أهل الغرب من علماء ورؤساء وأرباب أقلام فصدعونا زماناً طويلاً بأن مكارم الأخلاق وفضائل الطباع سرت في عروقهم واختلطت بدمائهم فصارت تصدر عنهم عفواً، وتأتي منهم دون تكلف وخيلوا للناس أنهم برعوا فيها براعتهم في الصناعات ومهارتهم في اختراع الآلات، وأخص ما يميزون به أنفسهم دون سائر الأمم قديمها وحديثها قيامهم لرفع الظلم وبسط العدل وإغاثة الملهوف وكف الأذى عن الضعيف، ومساعدة الناس كافة على التمتع بحقوقهم الطبيعية من

---

(١) ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٠م.

(٢) البيت للمتنبي.

استقلال وحرية وراحة وأمن، حتى كاد يركز في النفوس اعتقاد أقوالهم وتنطوي الضمائر على تصديقها، حتى كاد يصح في الناس قول فيلسوفهم الشهير: «إذا عاودت الكذب مراراً بقي منه أثر في النفوس».

ولكن الحوادث، والحمد لله، لا تزال تكشف لنا غطاء التمويه وترفع حجاب المواراة وتجلي الحقائق وتمحق الأباطيل، ولا يزال من دأبنا أن نسهب القول ونطنب في الشرح عن كشف ذلك الزور والإفك، كلما عنت الفرصة وحانت حادثة يتأيد بها الدليل ويعز بها البرهان في إزالة ما لصق بالأذهان، واختلط بنفوس أهل الشرق من أضاليل هذه المدنية الغربية، لينتهوا إلى التخلص من أشراكها وحبائلها وليبتعدوا عن نقائصها ورذائلها ويتمسكوا بما أبقته فيهم الأيام من خصلة حميدة وخلة سديدة وعادة مفيدة، ونكرر اليوم شيئاً مما نشره «المصباح» منذ أكثر من عام من مقالة عنوانها «مثال لبرهان» عند انتهاء مؤتمر السلام ومداولة الدول فيه على وجوب التوسط والتحكيم بينها لكف عادية الحرب ونشر راية السلم، وعند ابتداء الحرب الترنسفالية وقعود هذه الدول نفسها عن النطق بحرف واحد لإعانة أمة ضعيفة تنشد استقلالها ورد أمة عظيمة عنها تروم امتلاكها:

«إن المدنية الغربية ليست على شيء من الفضل والكمال ولا تقوم كما يزعمونه على دعامة الأخلاق الفاضلة، وما تشمله من العدل والإنصاف والإخاء والمساواة والرحمة والشفقة والمحبة الإنسانية والحرية العامة، وإن جل ما فيها بل كله تزويق وتنميق وتضليل وتمويه وزخرف وبطلان يختفي في طياتها ما ركب في طباع الإنسان من النقائص التي ينطوي تحتها الظلم والجور والعداء والأثرة والقسوة والطمع والنهم، بل إن تلك المدنية تزيدها حدة وتكسبها نمواً وتبلغ بها أخص معانيها

فتعممها من الأفراد إلى الجمعيات حتى تصبح لا أثر فيها للشعور الشريف والإحساس الطاهر والعواطف الكريمة، وهذا هو الأساس الذي بنت عليه الحكومات الغربية اليوم معاملتها، والسبب فيه أنها ترقت في الصناعات وفضول الحاجات والكماليات حتى أصبحت الكماليات عندها من الحاجيات، فكثرت المطالب وقلَّت الموارد فتستلب الأمة نفسها بنفسها ثم تستلب ما تقدر على استلابه من الغير على طرق وضعتها بينها؛ كالقواعد لها ليست في شيء من الإحساس الشريف والخلق الكريم، ولذلك رأينا الشرق لتأخره في هذه المدنية ولكونه لم يبلغ في كمالياته إلى حاجيات الغرب، كان لا يزال يغلب على أبنائه في حالتي الإفراد والجمع كرم الأخلاق وشرف الطباع في المعاملات، وتجد اليوم من المشاهد أن الشرق كلما تقدم خطوة إلى المدنية الغربية وترقت حاجياته تأخر خطوة عن ما كان عليه من هذه الفضائل، ومشى على أثر الغربي في أخلاقه»، انتهى.

نعم، فأين أخلاق أهل المغرب اليوم سادة وملوكاً وصعاليك وسوقة من أخلاق أهل المشرق في الوفاء والمروءة والشهامة والفتوة من لدن عهد البداوة الجاهلية إلى حضارة الدول الشرقية، وهذه كتب التواريخ مشحونة بمئات من الوقائع والنوادر في هذه الفضائل، نقص عليك منها قصتين نموذجاً؛ إحداهما: في خشونة الجاهلية، والثانية: في ترف الحضارة:

كان لبسوس بنت منقذ جار من جرم يقال له: سعد بن شمس، وكان له ناقة يقال لها: سراب، وكان كليب قد حمى أرضاً من أرض العالية في أنف الربيع، فلم يكن يرعاه أحد إلا إبل جساس صهره، فخرجت سراب ناقة الجرمي في إبل جساس ترعى في حمى كليب، ونظر

إليها كليب، فأنكرها فرماها بسهم فأختَلَ ضرعها فولت حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب دماً ولبناً، فلما نظر إليها صاحبها صرخ بالذل فخرجت جارية البسوس ونظرت إلى الناقة، فلما رأت ما بها ضربت يدها على رأسها ونادت «واذلاه» ثم أنشأت تقول:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ ... لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة ... متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل ... فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادي فإني عنهم ... لراحلة لا يفقدوني بُنياتي

فقام الشر لهذا الاستصراخ ونشبت الحرب بهذه الاستغاثة بين تغلب ووائل أربعين سنة.

وجاء إلى باب المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين تاجر وطلب من الحاجب الإذن بالدخول على الخليفة لأمر يكاشفه به، فدخل الحاجب، وكان المعتصم في مجلس أنس له فقال المعتصم: «سله إن كان ما أتى به يستحق التهجم علينا في مثل هذا الوقت فليدخل، وإن لم يكن كذلك عاقبناه؟»، فخرج الآذن إلى التاجر وبلَّغه رسالة أمير المؤمنين، فقال الرجل: ما جاء بي إلا أمر عظيم، فدخل به على الخليفة ولما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين كنت في عمورية من أعمال الروم فرأيت علجاً اغتصب حق امرأة مسلمة وهتك حرمتها فصاحت بقولها: «وامعتصماه» فقال العلج: ليأت لك على الخيول البلق في أوان التين والعنب، فأخذت في وجهي حتى جئتك يا أمير المؤمنين لأخبرك بهذا الخبر، فقام المعتصم من ساعته وطوى المجلس وكفأ الكأس وختم على الشراب، وحلف أن لا يذوقه حتى يفتح البلدة ويستنقذ المرأة وأمر بالخيول البلق من أطراف المملكة فجمعت، وأمر بتعبئة جيش جرار

وجعله تحت قيادته، وركب فيه ولم يعبأ بما أشار به المنجمون من التأجيل حتى يحل القمر برج القوس بل أفحمهم بقوله وقد رأى مملوكاً له بارعاً في الجمال قد تقلد قوساً: «هذا القوس وهذا هو القمر» وسار بالجيش ففتح المدينة وأنقذ المرأة وأحرق البلدة ولم يتنازل لأخذ شيء من غنائمها، وعاد إلى مجلس أنسه يشرب فيه ما ختم عليه.

وفي ذلك يقول أبو تمام في قصيدته البائية المشهورة التي مطلعها ـ السيف أصدق إنباء من الكتب ـ وأشار فيها إلى استهانة الخليفة بقول المنجمين في جانب قوة عزيمته بقوله:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

وقال في استصراخ المرأة:

لبّيت صوتاً زبطريّاً هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرّدِ العرب[1]
عداك حر الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الخصب
أجبته معلناً بالسيف منصلتاً ... ولو أجبت بغير السيف لم تُجب

وقال في ترفع الخليفة عن الغنائم، وأنه لم يفتح هذا الفتح إلا لمجرد إغاثة الضعيف:

---

(١) يذهب الإمام الطبري وابن الأثير في تاريخيهما في أحداث سنة ٢٢٣هـ إلى أن إمبراطور بيزنطة تيوفيل بن ميخائيل أغار على زِبَطْرة وملطية وغيرهما من البلدان التي يقطنها مسلمون، فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء، ومثّل بمن صار في يده، فسمل أعينهم، وقطع أنوفهم وآذانهم. ويقول د. إحسان حقي في هوامشه على كتاب «الدولة العثمانية العلية» للزعيم محمد فريد: إن الروم حاولوا تنصير امرأة وأبت، ولما حاول عبد رومي أن يغتصبها قالت: «وامعتصماه» فلما سمع المعتصم بالله بذلك قال: «لبيك» وذهب إلى عمورية بنفسه على رأس جيش واستنقذ المرأة وثأر لأهالي زِبَطْرَه وملطية.

لما رأى الحرب رأي العين توفلس | والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال خزيتها | فعزه البحر ذو التيار والعبب
هيهات زعزعت الأرض الوقور به | عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربي بكثرته | على الحصى وبه فقر إلى الذهب
إن الأسود أسود الغاب همتها | يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وأشار إلى قول العلج في تهكمه بأوان العنب والتين وإلى إحراق المدينة وهزيمة ذلك الملك بجيشه:

إن يغدُ من حرها عدو الظليم فقد | أوسعت جاحمها من كثرة الحطب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت | جلودهم قبل التبن والعنب

وقال في وصف همة الخليفة وطموح نظره إلى العلياء:

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها | تنال إلا على جسر من التعب

أين اليوم ملوك الغرب من ملوك الشرق وأين كروجر[1] في عهدهم من هاتين المرأتين وأين هذه القوى الحربية التي لا تستعمل إلا في اغتصاب حق واستلاب غنيمة وانتزاع ملك وإغارة على ضعيف، ولا يستفزهم نداء ذلك الشيخ من تلك القوى التي كانت تبذل في حماية الجار وإغاثة المستضام ورد الحقوق، وإن كان المستغيث بها امرأة أو جارية.

اغتر هذا الرئيس المسكين على بداوة أخلاقه بما سمعه من شقشقة أهل المدنية الغربية وتمشدقهم بألفاظ الحرية والإنسانية والنجدة والمروءة، ولم يعلم أنها عندهم ألفاظ فارغة يكتبون ألفاظها ولا يأبهون لمعانيها، فعمد إلى استنهاض تلك الهمم واستثارة تلك النخوة، فغادر

---

(١) كروجر: كان رئيس جمهورية الترانسفال وهو الذي قاد الحرب ضد إنجلترا.

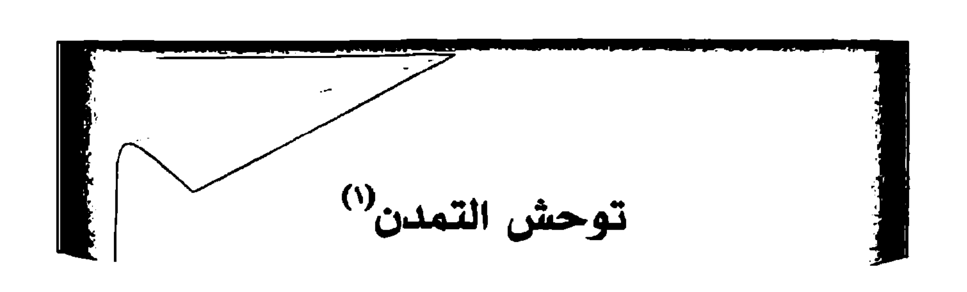
بلاده مثقل الكاهل بعبء السنين وعبء الهموم ضارعاً مسترحماً لمن تركهم وراءه جزر السيوف وفريسة النيران، يعرضون أنفسهم للقتل رجالاً ونساء وأشياخاً وصبياناً دفاعاً عن ديارهم وحمية على حماهم، فلم يرَ إلا صمماً في الآذان ومرضاً في النفوس وقسوة في قلوب؛ كالحجارة بل أشد قسوة، وعلم أن ما كان يبلغه من أقوال العظماء والكبراء ويقرأه من مقالات الجرائد وخطب الخطباء لا قيمة له إلا مثل قيمة إعلانات الأدوية التي يبالغون في نفعها أنها تشفي من سبعين داء وتطيل العمر وتعيد الشيخ شاباً والشاب صبياً، أو هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووقف في ثلج أوروبا في هذه الأيام على أحر من الجمر وأصبح كالمستجير بعمرو فحرم عليه دخول المدينة التي صدر له منها ذلك التلغراف، ولا تزال جدرانها ترن بصدى الأسلاك البرقية في اهتزازها لتهنئة هذا الرئيس في القصة الماضية وتثبيته على التشدد في حماية بلاده والدفاع عن حوزتها، ومن المطرب المعجب في السياسة الأوروبية إن صح هذا التعبير على ما يبكي ويحزن أن التلغراف الذي حرم على ذلك الشيخ زيارة ذلك البلد اليوم كان عنوانه «إلى رئيس الترنسفال السابق» وهي أول مرة أطلقت عليه هذه الصفة فيها منذ باشرت إنكلترة ضم الجمهوريتين إلى أملاكها، فكأن تحمل هذا الشيخ لكل هذه المشاق في أسفاره على تقوس أضلاعه وإنحناء ظهره إنما كان لأجل أن تنتهز الدولة الألمانية فرصة مخاطبته بهذه الصفة لتوافق على ضم بلاده إلى أملاك الدولة الإنكليزية تصريحاً سبقاً منها لبقية الدول.

ولا شك أن المسكين قد استيقظ الآن من منامه بعد طول الغفلة وانتبه من رقاده بعد كثرة الاغترار وذاق بنفسه مرارة الاختبار وأيقن أن ما سمعه وما يسمعه من حديث أوروبا هو طنين ذباب ونقنقة ضفادع، وأن

ملوك أوروبا وكبراءها صيارفة وتجار في وسط أمم من الصناع والعمال وأن الاحتفال الذي رآه في بعض المدن هو أشبه شيء باحتفال الجنائز.

ولا يبعد على كروجر ولا على الدولة الإنكليزية أن يتخاطبا معاً على طريقة تضع بها الحرب أوزارها فيتوفر على البوير ما يهدرونه من دمائهم خشية فنائهم ويتوفر على إنكلتره ما تنفقه من أموالها التي يقدرونها اليوم بمائة وعشرين جنيهاً في كل دقيقة فيكون في الساعة ٧٢٠٠ جنيه وفي اليوم ١٧٢٨٠٠ جنيه حذراً من وقوع الضعف بها.

هذه هي أوروبا وهذه مدنيتها مكشوفة الغطاء للعيان بأبلغ موعظة وأفصح عبرة تنادي أن الرذيلة فيها فوق الفضيلة، وأن الخاسر من عمل بها والرابح من ابتعد عنها.



توحش التمدن[1]

إننا مهما كتبنا وشرحنا في سوء أفعال المدنية الغربية وبعد الغربيين عن التحلي بالفضائل التي ينتحلونها لأنفسهم، ومهما بالغنا في كشف الحقائق عما يأتونه من الأعمال الشنيعة والأفعال الفظيعة تحت ستار هذه المدنية المموهة، فلا يؤثر في النفس مقدار ما يؤثر به قولهم هم عن أنفسهم بأقلام المتفردين بينهم بحب الفضيلة والميل إلى الحق، وأسمع اليوم ما يقوله المسيو «كميل بللتان» أشهر الكتاب الفرنسويين وأكبر كبير في مجلس نوابهم وأعظم رئيس من رؤساء أحزابهم في كلامه عن الأسلاب التي سلبتها العساكر الفرنسوية من مدينة بكين وأوقفت الحكومة الفرنسوية دخولها في مرسيليا دفعاً لسوء القالة وقبح التعبير. قال:

«لا يسعنا إلا الإقرار بأن الذي وقع من الجنود الأوروبية في الصين هو فضيحة الدهر على صفحات التاريخ وسمة العار التي لا تزول عن جبهة المدنية الغربية مدى الأيام، على أنه لا يزال يقطر من جباهنا عرق الخجل مما وقع من العساكر الأوروبية في حرب الصين السابقة عندما نهبت «قصر الصيف» في بكين ولكن أين هذا النهب والسلب مما وقع اليوم؟، فإن دول أوروبا كانت إذ ذاك في حرب منتظمة مع الصين قد جوزت لعساكرها نهب ذلك القصر قصر الإمبراطور الذي كانت تحاربه

---

(١) ٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٠١م.

وكان يحاربها، ولكن العساكر الأوروبية تدخل اليوم في مدينة لا تزال الدماء فيها سائلة من أهل الثورة في الصين بعدما نهبوها فوجدناها تفعل هناك ما لم يفعله أولئك الذين جاءت لطردهم وكف عدوانهم عن الحكومة والبيت الإمبراطوري، ومن العجيب أننا نفخر ونتباهى بأننا ذهبنا إلى الصين لاستتباب الأمن وترتيب النظام فرتبناه حقيقة، ولكن على طريقة جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو ونادر شاه، وأننا إذا قابلنا بين النيات وجدنا أن ما أتى به أولئك الجبابرة المتوحشون أخف مما وقع منا معشر الرحماء المتمدنين».

«وإنا لنجد الفرق عظيماً إذا ضاهينا بين ما فعله أولئك الجبابرة في تخريبهم للبلدان التي لا شأن لها في سالف الأزمان، وبين ما فعلته عساكرنا في نهب مدينة هي ثالثة المدائن العظمى في الكرة الأرضية وأقدم مدينة اشرأبت النفوس منذ ثلاثين قرناً إلى الاطلاع على غرائبها وبدائعها وصنائعها، وهي المركز الأول للتقدم الإنساني والمدنية البشرية وهي المدينة التي ظهر فيها فن الطباعة منذ ألفي سنة، وهي المدينة التي هي أم المدائن في العلوم والمعارف والتي كانت لنا مورداً عذباً ننهل ونعل منه، وهي الكنز والمدخر الذي جمع من البدائع طوال القرون ما يبهر الألباب ويفتن النفوس ولا أخص بذلك ما احتواه قصر الملك وحده بل قصور الأمراء وبيوت الناس وهياكل العبادة ومعابد الدين التي اشتهر صيتها في الخافقين.

دخلت عساكرنا وهي عساكر الدول الغربية المتحدة التي تتباهى بأنها حاملة لواء المدنية الخالصة الرفيعة، فكأنما انتشر من القبور أهل الفظائع في الأزمان المتوحشة من أقوام «الهون» و«الفندال» و«التتار» و«المغول»، دخلوا في المدينة كدخول قطيع من الثيران أثارته كلاب

الصيد فهجم على متحف من أكبر متاحف الدنيا فجعله حطاماً. هكذا فعلت عساكر المدنية في تلك المدينة».

«وما عجبنا من قسوة العساكر بأقل من عجبنا من تسامح كبار الضباط وكبار المأمورين الغربيين هناك وقد ذكرت الجرائد ولم يكذبها مكذب أنهم لم يكتفوا بهذا التسامح، بل غمسوا أيديهم في ذلك العار ولكن بصورة أخرى فكنت ترى الضابط العظيم العريق في الحسب والنسب بين قومه والذي يفتخر أكبر كبير منا بمصاحبته والتشرف بمعرفته ليكتسب من فضله وأدبه وحسن تهذيبه ولطف شمائله، يعمد إلى حيلة باردة يحتال بها ليسلب كما سلب العسكري وهو يتصور بها أنه حافظ على شرف الكسوة العسكرية ونسبته إلى المدنية الغربية فيدخل على الصيني الغني في صورة المشتري وفي يمناه المسدس وفي يسراه بعض الدوانيق فيقنعه بما في يمناه أن يبيع له بما في يسراه ما أراد من متاع يساوي الملايين فيقدم له الصيني بيد ترتعش وقلب يخفق ما ينتقيه الضابط وهو صاغر فيرمي له تلك الدوانيق، ويأخذ منه صكاً بالبيع متخيلاً أنه ستر بذلك الصك وجه الفضيحة في هذا السلب.

وهي أفعال من دونها ما يصدر عن قطّاع الطريق في ضواحي المدائن الذين يخجل أولئك الكبراء أن يجري ذكرهم في مجالسهم في باريس وقد صاروا أفظع منهم عملاً في بكين.

وقطّاع الطريق أرفع من هؤلاء الضباط درجة من وجهين: الأول حاجتهم إلى القوت، والثاني أنهم يخاطرون بأجسامهم وأرواحهم في عملهم الذي ينتظرهم من ورائه إحدى البليتين، إما السجن وإما الإعدام وهؤلاء الكبراء الذين يقلدون أولئك الأسافل يأتون مثل أعمالهم وهم في حرز حريز وأمكن مكين أن ينالهم سوء من عاقبة فظائعهم.

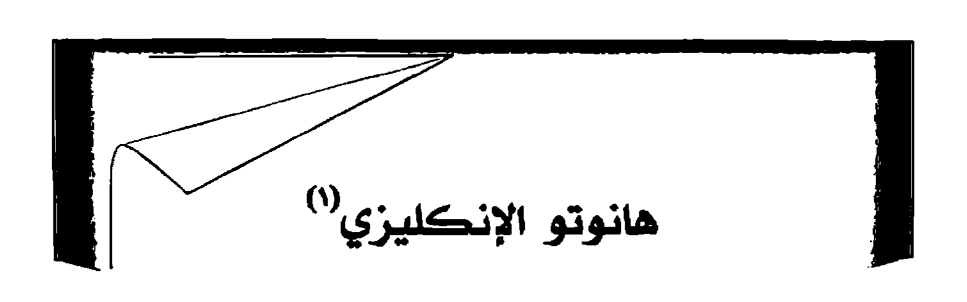
ومن أبدع الشواهد على ما ارتكبه كبار الضباط في السلب والنهب أن أحدهم اضطر أن يغادر الصين راجعاً إلى بلاده، فاحتار في نقل نصيبه من تلك الأسلاب لفقدان وسائل النقل في بلاد عمَّها الخراب واستولى عليها الدمار فاعتدى على الوظيفة العسكرية، فأنزل مدافع دولته عن مركباتها وجعلها تحت الأخطار مع عساكرها وضباطها ووضع مغانمه فوق تلك المركبات وبقيت المدافع هناك بجانب سور البلد في غير مأمن عليها حتى أوصل ما نهبه إلى مأمنه بالساحل».

«ولكن مما يسلي النفس قليلاً أن نصيب الفرنسيين من هذه الفظائع كان أقل من نصيب بقية الدول التي تتقدمها الدولة الألمانية، كما أنه مما يهون الخطب علينا أن الإرشاد إلى هذا العمل لم يكن مصدره باريس، وإنما كان مصدره من برلين ولا يزال رنين تلك الخطبة الصادرة من برلين عند تشييع العساكر إلى الصين يدوي في الآذان إلى اليوم بأن يضعوا السيف في الصينيين ولا يبقوا على أسير منهم حتى يتركوا من أثر القسوة في الشرق الأقصى ما ترتعد له فرائص كل واحد من أهله على مدى الدهور والأزمان. نعم إن الأمر صدر بوضع السيف ورفع الرحمة ولم يكن للنهب والسلب ذكر ولكن لا يخفى أن بين القتل والسلب علاقة وارتباطاً قلّ أن تنحل عراهما».

«وقد ظهر لنا اليوم أننا جمعنا على أنفسنا بين خجلين بأن وضعنا جيوشنا تحت الأمرة الألمانية وقبلنا الاشتراك في العمل بتلك القسوة، وقد أحسنت الحكومة الفرنسوية في صيانة أرض مرسيليا أن تدخل فيها هذه الأسلاب، ولكن هذا لا يكفي بل كان الواجب أن ترد إلى أهلها وكيف ترد إلى أربابها وقد ضاع منها النصيب الأوفر بالإتلاف وسوء الاستعمال؟! فقد قرأت بعيني رسائل لبعض الكبراء من الذين شاهدوا

وقائع النهب بأعينهم أنهم رأوا أَنْفَس ما يصنع من الحرير وأجمل ما يزركش من الديباج أغطية وأجلالاً لظهور الخيل. هذا ما فعلته الجمهورية الفرنسوية في دفع العار عنها وصيانة أرضها عن تلك الأسلاب فهل لبقية الدول الأخرى أن تتبع هذا المثال»، انتهى.

وليس لنا بعد تعداد تلك الفظائع وسردها بلسان أربابها أن نضيف إليها قولاً من عندنا يشهد على بطلان هذه المدنية الغربية وسوء أفعالها إلا أن نتمدح بسيرة تلك البضعة من أفاضل الغربيين الذين لا يبالون بذكر ما يلحق مدنيتهم من العار والشنار، ولا يتأخرون عن التقبيح والتعنيف والتمثيل والتشهير والاعتراض والانتقاد على تلك الأعمال بأسنة أقلامهم فوق صفحات جرائدهم، ولا شك أن وجود هؤلاء الأفاضل دليل على أن الحق لا يعدم في كل زمان أنصاراً.



هانوتو الإنكليزي[1]

لا نزال نرى من علماء الغربيين الذين يزعمون التجرد عن الأغراض والأهواء في خدمة العلم كل يوم برهاناً جديداً على أنهم أشد الناس تعصباً وأعظم المتوحشين جهالة.

قام هانوتو في فرنسا في العام الماضي، فقال ما قاله عن الدين الإسلامي وقد قام في هذا العام شبيه به في إنكلترة اسمه «السر ويليم مور» فنشر في مجلة القرن التاسع عشر وهي أكبر المجلات الإنكليزية وأعظمها قدراً فصلاً في الكلام على كتاب نشر حديثاً اسمه «أصل الإسلام» فشرح ما في ذلك الكتاب من القدح في الديانة الإسلامية والطعن على الرسالة المحمدية بما لا يكاد يدخل تحت التصور من الحماقة والنزاقة وضروب الافتراء والبهتان.

وقد وردت إلينا مجلة القرن التاسع عشر الصادرة في هذا الشهر فوجدنا فيها مقالة لحضرة الفاضل العالم السيد رفيع الدين أحمد من أعيان الهند المشتغلين بفن المحاماة في لوندره يرد بها على كاتب تلك المقالة وعلى كتاب صاحبه. جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ولا حرم أهل الشرق ممن يقوم مثله بدحض المفتريات عن أهله بين الغربيين بلغتهم في جرائدهم في بلادهم، ولو كان في الشرقيين من يهتم بقومه مثل هذا الاهتمام ويدرأ عنا تلك المفتريات لما بقيت الجهالة آخذة

---

(١) ١١ يناير (كانون الثاني) ١٩٠١م.

بنفوس أهل الغرب في حقيقة أحوال أهل الشرق وهذه ترجمة الرد تحت هذا العنوان:

رد على مقالة «اصل الإسلام»

«لاحظت في أثناء سياحتي في تركية، أوروبا وآسيا ومصر، أن جل الكلام يجري بين المسلمين في انتشار المرسلين للدين المسيحي بينهم، وفي نتائج أفعالهم وما نشأ عن ذلك في جهات الصين وما عساه أن ينشأ عنه أيضاً من الاضطراب في العالم الإسلامي، وقد حذر اللورد سالسبري جمعية «نشر الإنجيل» في خطابه الذي ألقاه عليها في شهر يونيو الماضي من سوء عاقبة سعيه بقوله: «قد وضحت لكم أن من أصعب الأمور خدع الأمم عن أديانها وإغراءها على التدين بدين آخر واعلموا أن الديانة المسيحية ليست بآلة لحكومة من الحكومات وإن أصعب الأمم مراساً وأقواهم شكيمة في التمسك بدينهم هم المسلمون، وأنه من المحال أن تستنزلوهم عن دينهم. ولست أتخيل أن هؤلاء المبشرين بالإنجيل ضد الدين الإسلامي يدخل في حسابهم تعضيد الحكومة الإنكليزية لهم، فإن ما يسعون فيه يعارض مصلحتنا. وإذا استمر المبشرون على حركتهم هذه فإني أخشى أن تأتي بنتيجة لا تحمد عاقبتها من إثارة حركة عامة في النفوس يصعب تسكينها، وإنكم إذا تأملتم في ما تفعلون علمتم أن ما تسعون فيه لا يساوي ما يأتي وراءه من المشاكل والمعضلات التي يتسبب عنها سفك الدماء ووقوع الضرر العظيم بالديانة المسيحية، فأنا ألح عليكم بالامتناع عن المظاهرات التي تولد البغضاء في قلوب المسلمين وأن تمتنعوا بقدر الإمكان عما ينفِّر قلوبهم منا، فإن ذلك مُضر بالدين المسيحي الذي نرغب جميعاً في إعلاء كلمته».

ولما كان الجناب الخديوي العالي مقيماً في لوندره وهو أكبر أمير

شرقي مسلم وأشهر حاكم متنور في الشرق قال في ليلة مغادرته للونذره للسرجون سكوت: «إني لا أخشى مواقع الخلاف في السياسة بين الحكومتين، ما أخشاه من مواقع الخلاف في المسائل الدينية وأعمال المبشرين».

ومع هذا كله فإن «السر ويليم مور» المتضلع في العلوم الغربية والمحنك في التجارب الإدارية، قد بدا له في مثل هذه الأوقات أن يطعن في أساس الدين الإسلامي فزعم أنه اكتشف أمراً عجيباً من كتاب جديد وادّعى أن براهينه تهدم بناء الدين الإسلامي وتحل تركيبه واعتقد أن صاحب ذلك الكتاب جاء للأمم المسيحية بما يستوجب منها الشكر على هذا العمل الجليل ثم أشار بترجمة الكتاب من اللغة الإنكليزية إلى جميع اللغات الشرقية، ونشره بين الأمم الإسلامية مع طبع نسخة إنكليزية بأنواع الزينة والزخرفة إجلالاً لهذا العمل وانتفاعاً بأثره.

على أن هذا الكتاب الذي يزعم أنه جديد هو كتاب مطبوع منذ خمس سنوات وقد نشرته جمعية «تقدم العلوم المسيحية» في بقاع الأرض منذ أعوام قبل أن يتمنى له النشر، وإني لأعجب للسير ويليم المشهور بشدة العناية والاهتمام بأعمال المرسلين ونشر كتبهم، كيف فاته العلم بهذا الكتاب مع كثرة انتشاره وقد ألقى القسيس «السر كليرتسدال» مؤلف ذلك الكتاب والسكرتير لجمعية المرسلين في أصفهان بالعجم جملة خطب في سنة (٩١) و(٩٢) في الديانة الإسلامية بناء على إشارة جمعية نشر الخطب المسماة «جمس» لونج ثم قام بطبعها ونشرها سنة (٩٥) جمعية «النشرة الدينية» على هيئة كتاب في أربعة فصول الأول: «قوة الإسلام» والثاني: «ضعف الإسلام» والثالث: «أصل الإسلام» والرابع: «تأثير الإسلام والإسلامية والمسيحية» وسماه: «دين الهلال» وهذا الفصل هو بعينه الذي

طبع أخيراً على حده مع بعض زيادات وسموه «أصل الإسلام»، وهو الذي يتكلم عنه السير ويليم في مقالته بقوله: «إنه يوجد باب بحث جديد لم يطرقه طارق من المسلمين والنصارى إلى اليوم وهو الكلام عن أصل القرآن ومنشأ الحديث وعن مصادرهما ومآخذهما ولو كان هذا الكتاب العظيم ظهر بين المسلمين في بدء الإسلام وعلموا بالمصادر السهلة القريبة لانفض المسلمون من حول النبي ولسقط الإسلام إلى الهاوية».

ولم يَصْدُق السير ويليم في دعواه، فإن الكتاب الذي يُنَوِّه به منتشر في العالم منذ خمس سنوات ولم يؤثر على ركن الإسلام، ولم يسقط من بنائه لبنة واحدة وقد ذهل المستر ويليم عن كتابه الذي ألفه لجمعية المرسلين وسماه «تعاليم القرآن وتفسيره» وطبعته جمعية النشرة الدينية سنة (١٨٨٧م) فقد كان يعتقد فيه أنه لا بد أن يسقط الإسلام إلى الحضيض، فلم يؤثر هو أيضاً على الإسلام بشيء كما لم يؤثر فيه قبله كتابه المسمى «سيرة النبي» المطبوع سنة (١٨٥٥م) حين تهلل به عالم المسيحية بشراً بما تكهن فيه عن تقويض بناء الإسلام وظهر أنه هو الكاذب في تكهنه. أما هذه المطاعن والاعتراضات فهي قديمة منذ نزول القرآن وهذه الأبواب المهمة التي يشير إلى البحث فيها مؤلف الكتاب قد استفرغها جماعة من العلماء الذين يفوقون المؤلف وصاحبه معرفة وعلماً من أزمان مديدة يتداولونها من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل، وإذا نظرنا في أوجه اعتراضهم وجدناها تنقسم إلى خمسة أقسام: أولها: أن القرآن مأخوذ بعضه من كلام العرب، وثانيها: أنه مأخوذ بعضه من دين اليهود، وثالثها: أنه مأخوذ بعضه من دين النصارى، ورابعها: أنه مأخوذ بعضه من دين المجوس أصحاب «زردشت»، وخامسها: أنه مأخوذ بعضه من دين الحنيفية الذي كان يدين به جماعة من العرب في زمن النبي وقاموا بمساعدته على نشر دينه.

وأنا أقول إن القرآن الشريف قد أجاب عن كل تلك المطاعن في محالها بآيات متعددة وليس في علماء المسيحيين من يجهلها، فكم من مجالس ومجامع عقت بينهم لخدش هذا الدين فلم يفلحوا وقد تحدى النبي بالقرآن أن يأتي أحد بسورة من مثله فأعجز العرب قاطبة وهم أهل الفصاحة والبلاغة ومن آيات التحدي قوله ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل كما أنه رد قول من ادّعى على النبي أنه أخذ الدين عن آخر، ولم يقم أي برهان على توالي القرون في دعوى المدعين بأن النبي استمد في الدين بفكر أحد من البشر، وأما قولهم: إنه أخذ الدين عن الكتب الأخرى السماوية فلا خلاف في أن النبي جاء بما جاء به إبراهيم وموسى والنبيون من قبل وذلك مبسوط في آيات القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

ودين الحق واحد، فإن كان ثم خلاف بين الديانة الإسلامية والديانة النصرانية واليهودية، فذلك ناشىء عن التغيير والتبديل الذي وقع في هاتين الديانتين الأخيرتين، والقرآن في المشرق والمغرب واحد لم يعتوره تغيير ولا تبديل في حرف واحد منه وتعدد الأناجيل ونعت النصارى لبعضها بأنه مشكوك فيه (Apocryphal gospel) دليل على التغيير والتبديل كما أن تعبيرهم عنها بالنسخ المنقحة (revised editions) دليل على الإدخال والإخراج.

وقد ذكر المنقحون من الإنكليز في مقدمة نسخة العهد القديم

العبرانية المطبوعة سنة (١٨٨٤م): أن أقدم نسخة لهذا الكتاب يرجع تاريخها إلى سنة (٩١٦) ميلادية، ثم إن الدكتور «ويكس» من كلية «اكسفورد» قال في كتابه عند كلامه عن السِّفر الواحد والعشرين من العهد القديم: «وكم من جمل عبرانية يجب حذفها عند تدقيق النظر فيها خصوصاً في السِّفر الثاني عشر الذي يثبت أن النسخة الإسبانية هي من غير شك أحدث من النسخة التي نعول عليها وهي المطبوعة سنة (١٨٥٦م) كما أنه يقول: إن النسخة الموجودة في كتبخانة بطرسبورج هي أيضاً أحدث من تلك النسخة».

والأبحاث الحديثة تؤيد أن نسخ العهد الجديد في القرن الثالث والقرن الرابع بعد الميلاد هي في الواقع من وضع القرون الوسطى، وعلى هذا فقد وقع التغيير والتبديل في الكتابين قديماً وحديثاً كما يشهد بذلك أقوال أهل البحث والنقد، وأما من جهة القرآن فإن «السير ويليم مور» نفسه يعترف أنه لا يوجد في الدنيا عمل من الأعمال أقام اثني عشر قرناً بدون أن يحدث فيه تغيير أو تبديل إلا كتاب القرآن كما جاء ما يؤيد ذلك بنص الآية الشريفة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ومما يؤيده أيضاً قول المستر كارليل المؤلف الإنكليزي الشهير وهو: «أنه يوجد العدد العظيم من مخلوقات الله ثابتين دائماً على الاعتقاد في الكلمة الواحدة من كلام النبي دون ما سواها من الكلمات لحد هذه الساعة، وأما ما نرمي به نبي المسلمين من الطعن والقذف فذلك لا يقبله أحد ولا يصدق به إلى الآن، وغاية ما ينالنا من هذا الطعن أننا نثبت للملأ وجود غيرة سافلة لدينا توجب لنا الفضيحة».

وفي الواقع فإن هذا الرأي هو الرأي الصحيح، ونرجع إلى أن القرآن لم يستمد شيئاً من أناجيل رهبان إسبانيا الذين لا يحترمون دين

الإسلام بل هم الذين استمدوا من القرآن والحديث، وجاء في كتاب عظيم اسمه «إعلاء الدين المسيحي» تأليف المعلم «أدين جونسن» معلم الألسن الأجنبية سابقاً في كلية ثوس همسند عند بحثه في الكتب المسيحية المقدسة وأنها مستمدة من الإسلام قوله: «لقد قضيت أكثر من ثلاثين سنة من حياتي جعلت فيها همي البحث والتنقيب في الديانات المختلفة وآدابها، وكان أهم ما شغلني تحقيق أصول الديانة المسيحية وتاريخ وجودها في العالم وقد انتهيت في جملة أبحاثي إلى الاعتقاد بأن علوم الكنيسة وآدابها ناشئة عن المذهبين: مذهب القديس «باسل» والقديس «بنديكت» وقد طالعت القرآن وقرأت تاريخ الطبري الشهير فوجدت أن أهل مذهب البنديكتين تعمدوا فيها التحريف والإفساد ليظهروا الدين الإسلامي في الشرق بمظهر ينفر منها ويميل بأهل الإلحاد إلى التدين بدين الكنيسة، ولم يزل هذا التحريف باقياً فيها إلى الآن.

وبالجملة فإن الدين الإسلامي ليس مستمداً من الدين اليهودي ولا الدين النصراني وبالعكس، فإن هذين الدينين هما المستمدان من المذاهب المختلفة القديمة وقد بحثت في كتب أحاديث اليهود فوجدت أن السبب في اختلاف الأقوال وتغييرها عندهم كان يشابه السبب الذي أوجب التغيير في مذهب الكاثوليك، وقد أخفيت عنا الحقيقة في هذا الباب من قديم؛ لأن أصحاب مذهب البنديكتين تعمدوا الإخلال في ترجمة القرآن وحرّفوه بما يتوهمون استفادة الكنيسة منه وبقيت الترجمة على خطئها إلى اليوم، ثم إننا إذا تأملنا في نصوص القرآن ونظرنا إليه بنظر خال عن الأغراض والأحقاد النفسانية نجد أنه لا يخالف التوراة الأصلية والأصول التي نص عليها قدماء الربانيين في التوراة والتلمود».

ومن هنا يتبين أن الخطأ في هذه الترجمة هو الذي أوقع «مارتن

لوثير» في عداوة الدين الإسلامي، فإنه ذكره في موعظته التي ألقاها على الجيش لمحاربة الأتراك فقال: «إن قرآن محمد لا يعلّم شيئاً نافعاً، وإنه غطاء ينطفىء تحته نور العقل الإنساني وإن شريعته لا تهدي الناس إلا إلى ما تميل إليه أهواؤهم وشهواتهم».

وهذا يدل على أنه قال ما قاله ولم يقف على القرآن إلا من طريق السماع ولما قرأ القرآن سنة (١٥٤٠م) في نسخة من النسخ المترجمة على الخطاء كتب في خطابه إلى القسيس «ريتشارد» صاحب كتاب «تزييف القرآن» الذي وضعه في البحث عن التفضيل بين البابا والنبي يقول: إن محمداً أفضل من البابا وإن البابا هو عدو المسيح (anti-Christ).

وأما قولهم: إن النبي أخذ كثيراً من الكتب اليهودية والمسيحية فهو اعتراض مدفوع؛ لأن النبي لم يقرأ ما يسمونه بالعهود وهم يزعمون أنه أخذ عن اليهود من طريق السمع أشياء محدودة مما جاء في التلمود، فينبغي لنا الآن أن نبحث في هل كان التلمود كتاباً موجوداً في جزيرة العرب في ذلك الزمن أو في أي مكان آخر بين أهل تلك الأزمان وقد جاء ذكر التوراة في القرآن ولم يجر للتلمود ولا لكتاب آخر من مثله ذكر فيه، وقال المعلم «أداوين جونسن» في كلامه عن تاريخ التلمود: «إن الربانيين الذين وضعوا هذا التلمود جعلوا تاريخ وضعه سراً بينهم وبقي مجهولاً عند عامة اليهود، ولا يزال تاريخه محلاً للاختلاف، ولا نزال نرى أقوال اليهود مضطربة متضاربة في البحث عن أصول التلمود وتاريخ وضعه، ولا يزال أمر الوقوف عليه محالاً للأوهام والظنون ومن المحقق أن الإبراهيمي أو اليهود أو بني إسرائيل لم يبتدئوا في تدوين الحوادث التاريخية إلا في القرن الحادي عشر، ومن هذا العصر بدأ انتشار كتب آداب الدين الإسرائيلي في الوجود».

وإذا سلمنا أن بعض التعليمات المقدسة كانت منتشرة بطريق الرواية ما بين اليهود عند العرب في الأزمان الماضية، فإن قدماء العرب أنفسهم كانت لديهم صحف إبراهيم وتعاليم الأحبار القدماء واليهود قد أخذوا هم أيضاً من الأحبار، فلا محل للقول بأن النبي تلقن منهم كما أنه كان يوجد بين العرب القدماء طائفة تدين بدين الصابئة وأرسل إلى العرب خمسة أنبياء وهم هود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وشعيب، وكانت رسالتهم قبل رسالة موسى وكلهم كانوا يدعون العرب إلى الوحدانية، فدين النبي العربي لم يستمد من اليهود ولا من النصارى شيئاً بل هو يحترم موسى وعيسى بأنهم أنبياء الله وجاء في القرآن: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] وجاء النبي داعياً إلى التوحيد في رسالته فنفى الشرك وأنكر التثليث وأبطل تمييز الطبقات في الدين وقضى على مذهب الربانيين.

هذا ولما كان الكلام في مثل هذا الموضوع متسع النطاق بعيد الأطراف لا يسعه المقام، فلذلك أقتصر على ما ذكرته.

ومن أراد الوقوف على أطرافه بما يدحض مفتريات «السير ويليم مور» وصاحبه فعليه أن يطلع على الكتاب الذي وضعه السير السيد أحمد خان في سيرة النبي وسواه من كتب علماء الهند ومصر التي تدفع سفسطة كل كاتب يطعن في دين محمد ﷺ. على أنني لا أرى بُداً من تنبيه إخواننا المسلمين في الهند إلى تأليف جمعية يسمونها «جمعية ترقي العلوم الإسلامية» لتقوم بالمدافعة عن الدين الإسلامي عند القدح فيه والطعن عليه من مثل السير ويليم وأصحابه، كما أنني لا أستبعد أنه لا بد أن ينشأ عن تواتر هذا التعدي من الغربيين في البلاد الإسلامية المستقلة من المشاكل السياسية والحركات الأهلية ما لا تحمد عاقبته

وكيف لا يكون ذلك وقد ختم المستر «تسدال» كتابه المسمى «أصل الإسلام» الذي يشير المستر ويليم بترجمته إلى اللغات الشرقية بهذه العبارة:

«هذا ولا يزال أمامنا صوت بطرس السائح وغيره من أمثاله ينادون بالدعوة إلى إنقاذ بيت المقدس من أيدي الكفار الأشرار، وكيف يليق بنا والقوة في أيدينا وعناية الله معنا أن نتركهم يشربون من كأس النعيم ببقاء هذا البيت في أيديهم وأن نخلص منهم من يميل قلبه منهم إلى إيماننا ونطهرهم من رجس الشيطان، ولا شك أن الله قائم بنصرتنا فيما نفتتحه من البلدان في هذا العصر، فكيف لا ينصرنا على إظهار الحق ومحو الباطل من أهل الأديان المختلفة. فما أقل عملنا وما أضيع تعبنا إذا قصرناهما على تطهير تلك البلاد الشاسعة من الوثنية وما ينجح لنا عمل في البلاد التي تشرفت بإقدام أنبيائه إبراهيم ويعقوب وإسحاق وموسى وعيسى في بلاد مصر والسودان وجزيرة العرب ومراكش وفلسطين والشام وجزيرة النهرين وأفغانستان وتركستان وآسيا الوسطى والعجم وتركية أوروبا وآسيا، فيلزم علينا أن نضع الصليب على بواطن قلوبنا لا على ظواهر صدورنا وأن نتقدم ونجاهد لنمحق الهلال أمام عظمة إلهنا ومخلصنا».

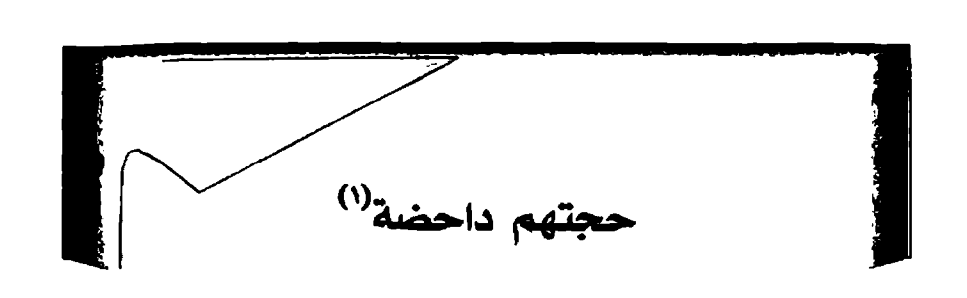
فهل من سياسة الإنكليز أنهم يقتحمون البلاد ويحاربون الأمم ليقسروهم على قبول الدين المسيحي؟، وهل هذا الكلام ينطبق على ما حذر به اللورد سالسبري؟ وهل هو إلا شعلة من تلك النار التي يخاف اللورد ضرامها؟. أوَ ليس ذلك هو من باب إغراء المسلمين على النفور من المسيحيين والنظر في وجوب المدافعة عن أنفسهم ودينهم؟.

وفي الختام نقول: إن كان في الإنكليز مثل هذا المتهور ففيهم المنصف والعادل مثل المعلم «جونسن» مؤلف كتاب «إعلاء الدين

المسيحي» فإن كل من قرأه من المسلمين لا يسعه إلا الشكر له والثناء عليه فمن قوله فيه: «إننا نرى أصحابنا المسلمين يتولعون بالوقوف على أحوالنا وعاداتنا ويسعون في تقليدنا، ولكننا نحن الذين يجب علينا أن نتعلم منهم ونأخذ عنهم، فهم أصحاب التعاليم الحكيمة وهم المقدمون علينا في سبل الهداية وهم أصحاب الكنيسة الحقة، وهم أصحاب علم الإلهيات وعلم الكلام في العالم المتمدن بأسره، وإن لهم الصنع الجميل في المدنية الغربية، ومن الواجب على أهل المملكة الإنكليزية أن يحترموا آثارهم ويسعوا في رفع الأباطيل والأضاليل المنتشرة بين العامة عندنا بالنسبة إلى دينهم وعاداتهم منذ القرن الرابع عشر، وأن يتجنبوا ما استطاعوا معاكستهم ومعارضتهم، وأن يراعوا احترام كتبهم المقدسة وشريعتهم ولا محل بيننا للجدال والنزاع إذا تبصرنا في أمورهم وأدركنا فضائلهم، ولذلك يلزمنا أن نبدأ في هذا الباب بترجمة القرآن إلى اللغة الإنكليزية ترجمة جديدة صحيحة، فإن عدم وجود ذلك بيننا إلى الآن مما تتألم له نفس كل إنسان يشتغل بالعلوم والآداب».

وإني مع إقراري بالقصور والعجز مستعد للمساعدة على تنفيذ هذا القصد الشريف بإصدار جريدة أسبوعية في لونده تنشر باللغة الإنكليزية ولغة شرقية للمدافعة عن مصلحة المسلمين وإظهار حقيقة أمرهم، وإني لأشكر أصحاب مجلة القرن التاسع عشر على ما فسحوه لي في مجلتهم وما ظهروه من عدم تحيزهم إلى حزب من الأحزاب، انتهى.

✍ رفيع الدين أحمد



حجتهم داحضة[1]

لو أننا جمعنا اليوم فحول الرجال من أهل الأمم الغابرة ودول الحضارة السالفة بهؤلاء المشاهير من أرباب العقول في هذه الأمم الغربية المتمدنة وقامت للمفاخرة بينهم سوق لكان منتهى فخر الغربيين ـ دع ذكر التفاوت في الصناعات ـ التباهي عليهم بأنهم بلغوا ما لم يبلغه أولئك في تلك الأزمان من حرية الأفكار، وحرية الأقوال، وحرية المذاهب والأديان، فأصبح الناس في عصرهم لا يفرق بينهم دين ولا يضرم نار التخاصم فيهم تحيز لمعتقد أو مذهب وأن مشاحنات الأديان التي قامت من أجلها الفتن واشتعلت بها الحروب وضلت لها الأحلام في الأعصر الأُول صارت نارها اليوم برداً وسلاماً بفضل علومهم وفضائل أخلاقهم. ذلك ما يقولونه بأفواههم ويكتبونه بأقلامهم، فإذا نظرنا في حقيقة أعمالهم وجدنا الأمر معكوساً والتناقض محسوساً، فإن اجتهادهم وتفننهم في أنواع الحيل لنشر دينهم بين سكان البسيطة ترغيباً بالذهب وترهيباً بالحديد ينادي عليهم ببطلان دعواهم.

ولو أنهم وقفوا عند هذا الحد من ترويج دينهم ونشر كلمتهم على ما فيه من التحكم على حرية الناس والتحزب لغرض النفس لاحتمله الناس ولقل عليه اللوم، ولكن من غريب تناقضهم أننا نجد معتمدهم

---

(١) ١٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٠١م.

الأول ومعوّلهم الأكبر في نصرة دينهم هو الطعن والذم والقذف والقدح في الأديان الأخرى إجمالاً وتفصيلاً.

ولو أنهم تعمدوا بذلك ديناً حديثاً يقاومهم ويخالفهم أو ديناً من أديان الشرك بالله وعبادة الأصنام والآلهة المتعددة مما يكثر فيه المغامز وتدخل عليه المطاعن لخفت المعرة ولم يثقل عليهم الوزر، ولكن من عجيب أمرهم أيضاً أن كل اهتمامهم وجلَّ عنايتهم مصروف في مسالك الطعن، وسبل القدح نحو الدين الإسلامي والحنيفية البيضاء.

فيقوم زعماء حريتهم ورؤساء علومهم آخذين بأيدي بعضهم للحط من مقامه والنقص من كماله، ولو رجعوا إلى أحلامهم وارتدوا إلى صوابهم لعلموا أن الطعن في الأديان لا يأتي بفائدة ولا ينتهي إلى مصلحة وأن الوضع من دين لا يرفع من شأن دين آخر، وأن نسبة النقص إلى مذهب لا تولد الكمال لمذهب سواه، وأن الأديان أرفع من أن يجري فيها ما يجري عليه أهل التقصير الذين يتوهمون أن يصيبهم طرف من الفضل بانتقاص أهله، والكامل لا يحتاج في تقرير كماله إلى انتقاص غيره، وإنما هي شنشنة الناقص يحط من أخيه ليعلوا عليه وما يحط إلا من نفسه وما ينقص إلا من قدره، والأديان التي تدعو إلى وحدانية الله ومحاسن الأخلاق هي من بحر واحد فطعن أرباب دين في دين منها طعن في نفس دينهم ونقض لأساس بنيانهم ولا يجتريء على الإقدام في هذا الطريق الوعر إلا كل متجرد عن دين وخال من اعتقاد وجاحد لوجود واجب الوجود، كما أنه لا يجوز للدين المتقدم في التاريخ أن يطعن في الدين المنزل بعده، فإنه لم يأت عليه إلا للحاجة إليه ولتطهيره مما طرأ عليه من الزوائد وما لحقه من النقص وما اعتراه من التبديل والتحريف، وما اختلط به من اللغو والحشو مما تنسجه أيدي الأغراض والأهواء على مرور الأزمان وتوالي الأحقاب.

فقيام جماعة من أهل الغرب اليوم للطعن على الدين الإسلامي وتهالكهم على البحث في أصوله والكلام عن وجوه مآخذه ومصادره لثلمه وتجريحه كما نراه من مثل السير ويليم مور وصاحبه وهانوتو وصاحبه جهل محض، وعنت صرف وذهوب عن وجه المصلحة لهم وضلال عن وضح الطريق لأمرين: الأول: أنهم كلما طعنوا في الدين الإسلامي ازداد المسلمون تمسكاً بدينهم وتنبهوا للدفاع عنه وهبوا لتوضيح حججه وتبيين براهينه، فيزداد شأنه علواً وقدره ارتفاعاً فيهتدي الناس بنور يقينه، ويعتقدون بقوة براهينه، فيدخلون فيه أفواجاً بدل أن يخرجوا منه أفراداً وتنعكس قضية المبشرين على أصحابها، والأمر الثاني: أن هذه المطاعن والمثالب على بطلانها لا بد أن تكون سبباً في تولد النفور واضطرام نيران العداوة والبغضاء في صدور المسلمين حمية لدينهم، والغربيون في حاجة دائمة إلى استرضائهم للارتزاق من حولهم والانتفاع من ورائهم.

على أن الطعن في الدين الإسلامي ليس بشيء حديث عليه ولا هو غريب عنه بل قد ألفه وقام عليه منذ أول ظهوره، وقد قام النبي ﷺ بالدعوة ولم يكن من بيت ملك ولا سلطان ولم يكن ذا شوكة وعضد يدفع به طعن الطاعن وثلب الثالب، وقد لقي من سفهاء قريش ومن أحبار اليهود ورهبان النصارى وهم منتشرون في وقته بجزيرة العرب ما لم يلقه أحد من النبيين قبله، ولم تكن الدعوة إلى الدين بعد وفاته عليه الصلاة والسلام حتى تكون قد زالت بوفاته أسباب التضاغن والتحاسد من صدور أهله ومعاصريه، ولم يكن لديه في أول الأمر من قوة يدفعهم بها إلا قوة الحجة وبرهان الدعوة ولم يكن صاحب جند وعسكر حتى يلجم بها أفواه المشركين، وأهل الكتاب وأهل السلطان من قومه الذين

كانت تذهب بهم الآنفة وتشمخ بهم الحمية أن يذلوا لسلطة أو يخضعوا لدين، فانصبوا على الدين وصاحبه وكادوا له ورموه بالسفاهات وتناولوه بالأذى وهزئوا به وسخروا منه، وقالوا عنه: مجنون تارة وساحر أخرى، واتهموه في القرآن أنه من كلامه، وقالوا: هو إفك افتراه. وقالوا: إنما يعلمه بشر. حتى اضطروه إلى الهجرة من وجههم وعرض نفسه على قبائل العرب ليجيروه من ظلمهم ويغيثوه من أذاهم؛ فلم يجد منهم في أول الأمر إلا أذى فوق أذى، واضطهاداً فوق اضطهاد، ومشى إلى ثقيف كما هو منصوص في كتب السِّيَر، فقصد عبد ياليل ومسعوداً وحبيباً ابني عمرو بن عمير وهم سادة ثقيف يومئذٍ فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وإلى نصرته، فقال له أحدهم يهزأ به: أمَا أوجد الله أحداً أرسله غيرك؟! وقال الثاني: والله لا أكلمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت كاذباً على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام رسول الله من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، واجتمع عليه صبيانهم وسفهاؤهم وصاحوا به وسبوه وطردوه حتى اجتمع عليه الناس يعجبون منه، وألجؤوه بالحجارة والطرد إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما يومئذٍ في الحائط، فلما دخل في الحائط رجع عنه سفهاء ثقيف فعمد إلى ظل حبلة فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف، فلما رأى عتبة وشيبة ما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً نصرانياً لهما يقال له: عداس فقالا له خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل وقل له: فليأكل منه. ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه فوضع يده فيه فقال: بسم الله، وأكل، فقال عداس: والله إن هذه الكلمة لا يقولها أهل هذه البلدة! فقال له الرسول ﷺ: من أي البلاد أنت وما دينك؟ قال: أنا نصراني من أهل نينوى، قال: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟،

قال: وما يدريك من يونس بن متى؟، قال: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، وما زال ﷺ يسطع بنور برهان اليقين على الغلام حتى هداه إلى الإيمان، فأكب عداس على يديه ورجليه ورأسه يقبلها فيقول: ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاءهما قال: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خير منه فقد سمعت منه ما لم أسمعه من أحد.

فمن هذا وأمثاله يتبين لك أن الدين الإسلامي قام في أوله على البرهان والحجة، لا كما يتوهمه جماعة الغربيين من أنه قام بالسيف وحده وقد جرد النبي ﷺ لقومه الحجة أولاً والسيف آخراً، فلم يعارضوا إلا السيف وحده على أن السيف القاضب مخراق لاعب إن لم تمض الحجة حده، فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطم وقاموا إلى معارضة السيف فقهرهم بالسيف في مواطن عديدة بفئات قليلة غلبت فئات كثيرة فثبتت له المعجزة في الحالتين.

وما زال أهل العناد من أهل الكتابين يخالفونه ويعارضونه ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦] وما زال القرآن ينزل بينهم آية إثر آية فيحاجونه فيه كلمة كلمة فيعلو برهانه ويسقط بطلانهم، وأهل الهدى يدخلون في الدين أفواجاً لما يرونه من علو حجته ونور برهانه، وهذا القرآن الشريف ناطق بأقوال المعارضين مع الرد عليهم في مواطن كثيرة منه حتى قال الله تعالى يسجل عليهم عجزهم عن مقاومة الحجة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦] ولما انتهى دور الحجة وبان قصورهم وعجزهم

وهم ما زالوا على عنادهم دعا عليه الصلاة والسلام نصارى نجران إلى المباهلة، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١] أي يَدْعُ كلٌ مني ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المُبَاهَلَة ثم نَتَبَاهَل بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم، والبهلة اللعنة وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، والقصة أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم -: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهَلَ قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغرهم ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليٌّ خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمّنوا فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا، فقال للنبي: يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك ونثبت على ديننا. وفي حديث عائشة ﵂ في هذه القصة أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم فاطمة ثم عليٌّ ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت.

أَبعَد هذه المحاجة وتلك المخاصمة وذلك الإغراق في العناد من أهل الكتاب والتعنت في الخصومة في عهد صاحب الرسالة وجهاً لوجه وحين نزول القرآن آية فآية، وبعد ما توالى على الدين الإسلامي من المطاعن من أهل الفرق الضالة وأصحاب الزيغ وأرباب الإلحاد وجماعة

الزنادقة في كل جيل وعصر، وبعد قيام أهل الأديان الأخرى لمحاربة الدين الإسلامي وأهله بالسيف والسنان وبعد أن مضى على الإسلام ثلاثة عشر قرناً وهو ينتشر فيها على ظهر البسيطة يعارض الأديان ويقاومها بوضوح برهانه، يقوم مثل السير ويليم مور فيزعم أن النبي أخذ القرآن بعضه من التوراة وبعضه من الإنجيل وأنه لو انتشر كتاب «جنسن» صاحبه على المسلمين في بدء الإسلام لسقط الإسلام في الهاوية؟!.

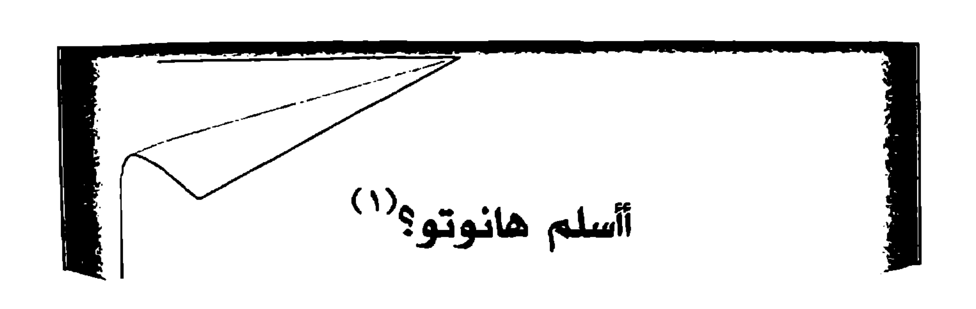
فأين كانت التوراة التي يزعم أن النبي نسخ قرآنه منها لما طلب من اليهود أن يأتوه بنسختها ليحجهم بها في قول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٣ ـ ٩٥] فحاجهم بكتابهم وبكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه، والرواية على أنهم لم يأتوا بها وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ، وأنهم المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات، وفي تنحيهم عن إبراز التوراة خلاف ذلك أمران: إما أن تكون سراً مكتوماً لدى زعمائهم لا يطلعون عليه أحداً، وإما أن تكون ليست موجودة لديهم في ذلك العهد، وعلى كلا الوجهين كيف كان يمكن للنبيّ العربيّ الأميّ أن يقف عليها ويقرأها وينقل ما فيها إلى كتاب الله؟!.

وما الذي منع أهل الكتاب بعد الذي تبين لك من التهابهم على الإسلام غيظاً وحنقاً في بدء ظهوره ومن ضعفه في جانب قوتهم، وكانوا أصحاب كلمة بين العرب أن يكتبوا ما يكتبونه في تفنيد دين الإسلام ورد القرآن إلى مآخذه وإثبات تهمة النقل ونفي هذه القصص والوقائع التي

تسجلت عليهم في كتب الإسلام بين أيديهم وتحت أنظارهم وألزمتهم الحجة في أعناقهم، وما كان لهم أن يسكتوا على هذه الغلبة التي غلب بها برهان الدين الإسلامي ويتركوا ذكر المصادر والمآخذ حتى يأتي مثل هذا الإنكليزي وذاك الفرنسوي بعد ألف وثلاثمائة سنة ليحاجوا بها القرآن مكانهم.

لا جرم بعد ذلك كله أنه لا فائدة للغربيين وعلى الأخص أرباب الدين منهم من المبشرين وغيرهم من القيام بمثل هذه المطاعن التي مضى وقتها ورمي الإسلام بأبلغ منها فلم تؤثر فيه وما زادته إلا رسوخاً بين الناس وانتشاراً في أطراف الأرض ونمواً متوالياً إلى اليوم جاذباً إليه النفوس بنفسه دون مبشر يبشر به أو قوة يلجأ إليها أو طعن من علمائه فيما سواه من الأديان ليحل محلها.

والأولى بأرباب الحلوم من الغربيين أن يردوا سفاهة السفهاء عن الدين الإسلامي دفعاً لما عساه أن يلحق بهم من الضرر بإثارة النفوس الإسلامية وإيغار صدور المؤمنين وليوفروا على أنفسهم تعب الاشتغال بالعبث في الطعن على الدين الحنيفي، وليعلموا أنهم مهما تغالوا في هذا الباب، فإنهم لا يصلون إلى ما وصل إليه أسلافهم في الأعصر الخالية، وأين مطاعن الآباء اليسوعيين والمبشرين البروتستانت من مطاعن مشركي قريش وأحبار خيبر وأساقفة نجران، وأين مطاعن كيمون وهانوتو وجنسن ووبليم على رأس القرن الرابع عشر من مطاعن أبي جهل وأبي لهب وابن أبيّ والنضر في أوائل الهجرة.



أأسلم هانوتو؟[1]

أبى الدهر إلا أن يظهر لنا كل يوم برهاناً جديداً ودليلاً قاطعاً على تناقض مسيرة الرؤساء والكبراء من الغربيين وسرعة تقلبهم وتغيرهم ومخالفة أقوالهم لأفعالهم وسلوكهم مع أهل الشرق عامة والمسلمين منهم خاصة مسالك الختل والخداع والتلبيس والتدليس، لا يعتورهم في ذلك خجل ولا يمنعهم عنه تخوف عار، فترانا لا نفتح له صحيفة ولا نقرأ لهم سطراً إلا وهم يتمدحون ويتبجحون بأنهم ذوو العدل والإنصاف وأرباب الشفقة والرحمة وأصحاب الخير والإحسان وأهل التمسك بالمبادىء القويمة والتحفظ على الأصول الحميدة، ثم نراهم يفعلون ما يفعلونه في أنحاء المشرق من الظلم والعسف والقسوة والجور وضروب الشرور، والأسواء متنقلين في هذا الطريق من باب إلى باب ومتقلبين من فكر إلى فكر، فتارة يلجؤون إلى المجاهرة بالعدوان والمكاشفة بالبغضاء وتراهم يرتدون تارة أخرى إلى كظم الغيظ وكتم الحقد ويرتدون لنا برداء الولي الناصح والمحب الصادق يخطبون مودتنا ويتمنون قربنا ويهوون انعطافنا ويموهون على أبصارنا بما يشاؤون من أنواع المداهنة والرياء وصنوف الكذب والنفاق كل ذلك لشفاء غليل الصدر ونيل منى النفس، وما هم يعلم الله في هذا الطريق طريق المسالمة بأقل كيداً لنا ولا أهون شراً علينا من طريق المناجزة بالعدوان والمبارزة بالسيف والسنان.

---

(١) ٨ مارس (آذار) ١٩٠١م.

لا يخدعنك من عدو دمعه وارحم شبابك من عدو ترحم

وهذا المسيو هانوتو قد رمى الإسلام والمسلمين بنار غضبه، وقذفهم بشهب ضغنه وصوَّر ديننا ما شاء أن يصوره للأمم الغربية بصورة الوحش المفترس والأسد الضاري، وحمل حملته تلك المشهورة على الدين وأهله، فلم تمض على أقواله بضعة أشهر حتى رأيناه اليوم قد نزل من عرش تمرده وتجبره علينا إلى بساط الموادة والتقرب إلينا، كما يتبين لك ذلك جلياً من هذه المقالة التي كتبها أخيراً في جريدة «الجرنال»، مبتدئاً فيها بالكلام عن أحوال المملكة التونسية ومنتهياً فيها بمدح المسلمين ودعوة قومه إلى اصطفائهم واستخلاصهم ووجوب الارتباط بهم والاتحاد معهم من بين سائر الأجناس.

ولم يخجل هذا الوزير الكبير لنفسه في ترويج ما كمن من أغراضه من سرعة هذا الانقلاب ومفاجأة الناس بهذا الارتداد، ولكن الذي حكم على الدين الإسلامي في أواسط العام الماضي بما حكم به من الهمجية والوحشية لا يبعد عليه أن يحكم على المسلمين في أوائل هذا العام باستحكام الغباوة والبلاهة فيهم وقلة الإدراك وضعف النظر لديهم حتى يقبلوا منه كلامه اليوم بنفوس مطمئنة وثقة خالصة وقبول حسن.

وهذه ترجمة المقالة بنصها:

«جرت المفاوضة يوم الجمعة الماضي في مجلس النواب في أمور الحكومة التونسية وأسهب المسيو بارتلو على مسامع النواب في وجوه الاعتراض على سياسة الحكومة في تلك المملكة، وقد اتسع له مجال المقال فلم يتيسر له استكمال خطابه إلا في جلسة ثانية، ولقد أحسن هذا الخطيب جميل الإحسان في الكلام على سياستنا الإفريقية وأصاب كل الإصابة في مكاشفة الأمة ونوابها بوجوب الانتقاد والاعتراض عليها،

وأرى من الصواب مداومة البحث في هذا الباب، فإن فرنسا بذلت غاية مجهودها في طريق الاستعمار وصرفت كل همها نحوه منذ عشرين سنة وهي لا تزال تعاني ما تعانيه من المشاكل والمعضلات التي تقوم في وجهها كل يوم ولم تكن اعتادتها من قبل، فقد تعين إذاً في مقابلة هذا العناء أن نستخرج وجوه الفائدة ونجتني ثمرة المنافع.

هذا وقد أصبحت مصالحنا اليوم متعددة متشعبة في أطراف أفريقيا وآسيا وأمريكا وجزائر الأقيانوس، وانتشر أبناء وطننا من النزلاء والمستعمرين في أنحائها واستحكم اختلاطهم وامتزاجهم بأهالي الجزائر وتونس والسودان ومدغشقر والهند والصين، ومن الواجب علينا أن نترك للأجيال الآتية ما يتفقهون به في سياسة هؤلاء الأمم ودوام الحكم والتسلط عليهم بما يلائم طبائعم ويوافق أمزجتهم ويناسب أقاليمهم، ولا يتيسر ذلك إلا بأن نصرف كل اهتمامنا إلى الوقوف على أخلاق أولئك الأقوام ومعرفة أفكارهم ومراقبة ما يجرون عليه في مرافقهم ومعايشهم ومتاجرهم وصنائعهم وعاداتهم وأخلاقهم وما يجري في خواطرهم، وينطبق على أمانيهم بالنسبة لأحكامنا وطباعنا وعاداتنا مع تدقيق البحث في ما عساه يوافقهم أو يخالفهم منها، وأرى أن ذلك هو الأساس الوحيد الذي يقوم عليه حسن المستقبل في تلك الأقطار الشاسعة وينجح به مشروعنا في توسيع نطاق الاستعمار وانتشار الحضارة والعمران الذي كلفت به فرنسا نفسها وزاد اهتمامها به على الأخص في الربع الأخير من القرن الماضي، فلذلك أعود وأكرر بأن مثل تلك المفاوضات والمناقشات والأخذ والرد في وجوه الاعتراض والانتقاد في مجالس الأمة على ألسنة خطبائها مما يأتي بالنفع العميم في هذا الباب وينتج لنا النتيجة التي ننشدها في حسن تصرفنا بالتسلط على تلك الأمم المتباينة».

وقد ذهب الخطباء في تلك المفاوضة مذاهب شتى في كلامهم عن إدارة الحكومة التونسية، فرأينا منهم من يصف أحوالها بالاختلال والاعتلال ويبالغ الوصف في فسادها وانحطاطها بما يحل العزائم ويثبط الهمم ويسجل على تلك الإدارة بسوء النتيجة وقبح العاقبة، وقد زعم أنه لا توجد في الأرض إدارة أسوأ حالاً منها.

فالقوانين معتلة والأحكام متعطلة وقد استولى على ثروة البلاد جماعة من المتمولين الفرنسويين واستأثروا بها ولا يوجد من صغار المستعمرين فيها منا أكثر من أربعين بيتاً إلى اليوم مع كثرة عدد النزلاء فيها من أهل إيتاليا فهم يفدون عليها كل يوم أفواجاً حتى بلغ عددهم ثمانين ألف نفس ينتفعون فيها بوجوه المنافع ويحتكرون وجوه الرزق وأبواب التجارة والصناعة دون الفرنسويين، حتى بلغ بنا الأمر إلى استخدامهم في إقامة الحصون وابتناء القلاع التي نقيمها على الشواطىء التونسية. وإن حرية الجرائد فيها لا وجود لها وإن المستعمرين اشتد بهم الضيق والضنك هناك بما أثقل كواهلهم من ضروب الضرائب والجبايات. وبالجملة فالبلاد التونسية أصبحت في زعمه منذ احتلتها الحكومة الفرنسوية إلى اليوم أشبه شيء بولاية من الولايات التركية القديمة «باشالك» وأصبح الوزير المقيم فيها يحكم مثل أحكام «الباشا» مطلق اليد مرخي العنان.

ومنهم من يقول بانتظام الأمور واستقامة الأحوال وسير الإدارة على أكمل وجوه الإصلاح، ويزعم أن البلاد التونسية أصبحت جنة العالم وروضة الأقطار وغرة العصر في التقدم والعمران، وأن التونسيين أهل رضى وتسليم يعيشون اليوم العيش الرخي ويتفيأون ظلال الأمن والراحة في كنف الحماية الفرنسوية، وأن المدارس والمكاتب عامرة آهلة بالطلبة

وكل الأمور جارية على ارتقاء النفوذ الفرنسي فيها دون سواه ولا عبرة بنزوح الإيتاليين إليها من بلادهم أفواجاً وانتشارهم بها، فإن ذلك ناشيء عن شدة الفقر المدقع في بلادهم، لاسيما أهل صقلية منهم ولا يزيد ربحهم في البلاد التونسية على عشرين سنتيماً في اليوم (يعني أقل من القرش الواحد المصري) فهم يفضلون الإقامة فيها على الإقامة ببلادهم التي لا يجدون فيها غير الحرمان المطلق، وأن حسن الإدارة بلغ في تلك البلاد الأخرى من مستعمرات الدول ويكفي شاهداً على ذلك مقابلة نتائجها بنتائج الإدارة النمسوية في بوسنه وهرسك، وما قاله أحد كبار السياسيين النمساويين للمسيو ألبان روزيه وهو «إننا جعلنا همنا منذ احتللنا هاتين الولايتين أن نقتدي فيها بما أجرته فرنسا من النظام وإصلاح الإدارة في تونس ونؤمل منه النجح بحسن العاقبة».

ومنهم من قام يعدد وجوه الإصلاح في البلاد التونسية ويستشهد على كلامه بأن الفرنسويين صاروا يمتلكون الآن من الأراضي التونسية خمسمائة ألف هكتار (يعني مليوناً وربعاً من الأفدنة)، وأثبت أن عدد المستعمرين من الفرنسويين فيها أكثر كمية مما يذكره أهل الإحصاء، وأن ميزانية الحكومة على أتم نظام في الدخل والخرج، ولكن البلاد لا تزال تحتاج إلى أبواب كثيرة من الإصلاح يزداد بها ارتقاء العمران مثل إنشاء قرى على الطرز الفرنسوي وتأسيس بنك عقاري.

ثم تكلم أحد النواب عن الجزائر في المجلس وقابل بين الحالتين من جهة الإدارة الفرنسوية في الجزائر وتونس وأن أهل الجزائر يغبطون أهل تونس على ما هم فيه من النعم التي أفاضتها عليهم الحماية الفرنسوية وحرمت أهل الجزائر منها وأسهب في سوء الإدارة في الجزائر، وقال: إنه كلما استفادت تونس فائدة من السلطة الفرنسوية

كانت خسارة على أهل الجزائر، ولا يزال الخلاف قائماً بين هاتين المملكتين المتجاورتين استحكاماً أفضى إلى قطع العلائق بينهما ووضع حاجز للجمرك كما يوضع بين الممالك الأجنبية.

ثم قام بعد ذلك المسيو دلكاسه وزير الخارجية ورد على كل قائل، وعارض المعارضين ببراهين شرح بها مجموع النتائج التي نتجت من إدارة الحكومة الفرنسوية للبلاد التونسية، وذكر ما كان من الصعوبة في البداية وما كانت عليه الأحوال من الارتباك والتقييد بقيود المعاهدات الأوروبية والاتفاقات التي غلّت يد الحكومة عن حرية العمل في ترتيب الجمارك وفي أبواب الإصلاحات المالية، وأن يدها لم تطلق في إدارة الحكومة التونسية على حسب ما تشتهيه إلا منذ أربعة أعوام كان فيها التقدم ظاهراً والارتقاء سريعاً بخلاف الأيام الماضية، وقد كانت جملة الطرقات العامة في سنة (١٨٩٠م) ستمائة كيلو متر فبلغت الآن ١٧٥٠. وكانت خطوط السكة الحديد لا تتجاوز ٢٦٠ كيلو متراً فوصلت اليوم إلى الألف وتم بناء مراسي بنزرت وتونس وسوسه وصفاقس وبلغ ما أنفق على ذلك من المال ثلاثين مليوناً، وفوق ذلك فقد امتدت أسلاك البوستة والتلغراف والتلفون في كل مكان بعد أن لم يكن يوجد منها إلا القدر اليسير قبل ذلك، واتسعت المزارع ثلاثة أضعاف وانتشرت زراعة الزيتون حتى بلغ مقدار أراضيه مائتي ألف هكتار وسيكون لتلك البلاد منه أكبرمصدر للثروة.

ثم شرح حالة التجارة ونموها وميزانية الخزينة التي كانت سنة (١٨٨٥م) تبلغ ١٨ مليوناً ونصفاً في الدخل و١١ مليوناً في الخرج، فأصبحت سنة (١٨٩٩م) تبلغ ٢٨ مليوناً و٧٠٠ ألف فرنك في الدخل وبلغ المال المدخر الاحتياطي ٤٧ مليوناً، وهي نتائج باهرة تدل على

اقتدار فرنسا في ميدان الاستعمار والعمران لا ينكرها عليها إلا كل من أضله الغرض، على أن هذه النتائج الحسنة لا تمنع من الاهتمام بما ذكره المعارضون من وجوب ملاقاة الأضرار التي أسهبوا الشرح فيها وأخصها منع انهيال الإيتاليين على البلاد التونسية واشتراء الأراضي المتسعة بمعاونة الشركات المالية حتى لا يزداد عددهم ويسابقوا الفرنسويين إلى الحصول على الثروة برضاهم بالأجر اليسير وشظف العيش. على أن في القطر التونسي متسعاً لارتزاق كل قاصد ووافد عليه ولا بد لنمو الزراعة من كثرة العمال، فوجود عشرين أو ثلاثين ألفاً من الإيتاليين لا يضر بالبلاد التونسية ولا يستدعي التخوف من عاقبته.

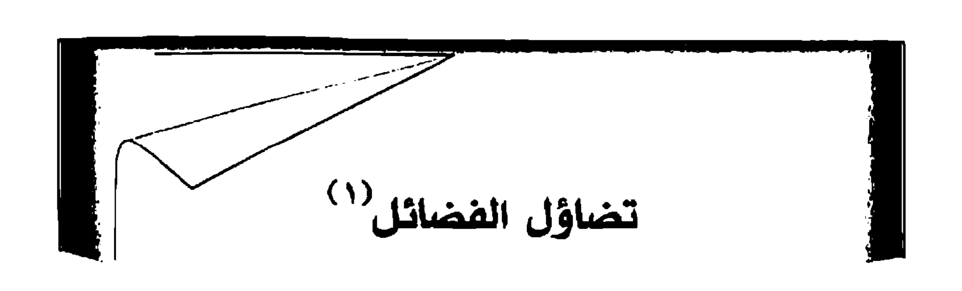
نعم يصح كلام الوزير إذا كان عدد المستعمرين من الفرنسويين يزداد بازدياد عدد الإيتاليين ولكن الأمر اليوم بالعكس، فإن عددهم في نماء وعدد الفرنسويين في نقصان على الدوام ولذلك علل شتى. منها أن الفلاح الفرنسوي بطيء الخدمة وله عادات في الرفاهة والرفاغة لا تمكنه من مسابقة الإيتاليين أو التساوي بهم، وهو إنما يهاجر من الأوطان الفرنسوية ليكون رئيساً متغلباً على مصلحة زراعية أو صناعية لا أن يخدم خدمة الأجير اليومية كما هو شأن الإيتاليين، ويشترط في نجاح الاستعمار تعيين الأموال العظيمة وتأليف الشركات الكبيرة لاشتراء الأراضي والانتفاع بها.

ولكن رُب قائل يقول: أليس لهذا الداء من دواء؟ فأقول: نعم. قد اقترح بعضهم عدة طرق له من مثل مشاركة المستعمر الفرنسوي لصاحب الأرض بالخمس في ملكه أو أن تشتري الدولة الأراضي ثم توزعها على صغار الفرنسويين من غير مقابل ليرغبوا في استعمارها، والذي أراه أن هناك وجهاً أنفع وأنجع من كل الوجوه استدعي إليه دقة أنظار رجال

السياسة الفرنسوية ونواب الأمة، وهو السعي في تحكيم روابط الائتلاف والاتحاد بين أبناء وطننا الفرنسويين وبين المسلمين وتعاون الفريقين قولاً وفعلاً على ما فيه المصلحة للجميع، والعرب من السكان وإن كان يعوزهم المال وليس لهم نصيب من المعارف والفنون، إلا أن فيهم جميع فضائل الفلاحين من الصبر والجلد واحتمال المشاق ولين الأخلاق والقناعة وحسن الرضا، فهم بذلك أقدر الناس على مقاومة الإيتاليين في مضمار الأعمال البدنية ويزيد على ذلك أنهم شم الأنوف لهم همة شماء تأنف لهم احتمال الأذى وقبول الضيم، وتؤيد فيهم التمسك بطبائعهم وعقائدهم وعاداتهم المتأصِّلة فيهم، فلا غرو إن كان أول واجب علينا أن نحترم دينهم المبجل وعقائدهم الصادقة وأن نتأدب معهم تأدباً تغبطنا عليه بقية الأمم.

وقد حاول بعضهم غرس بذور الفتنة والشقاق في هذه المملكة وغيرها بيننا وبين الإسلام، ومن أفحش الغلطات أن نقع في هذه الأحبولة ونسقط في تلك المكيدة ولنا في المملكة التونسية أعظم مضمار لمعاملة المسلمين بقواعد الحرية التامة التي هي من أصولنا، فعلينا أن نلج هذا الباب ونتوغل في هذا الطريق وننبذ مذهب الذين يسعون في قلب العقائد ونشر الديانات وتغيير المذاهب، كما ننبذ مذهب الذين يشيرون بإبعاد العرب إلى الجهات السحيقة والتعدي على أموالهم ومصادرتهم في أملاكهم، بل ينبغي أن نحترم عادات هؤلاء الأقوام ونحافظ على أموالهم وعقائدهم وأبدانهم، فعلى هذا الأساس تقام دعائم الاتحاد النافع للجانبين أحدهما بجده واجتهاده ومواظبته وخبرته بالتربة والإقليم، والثاني بحزمه وإقدامه وبذل أمواله ومعارفه ونشر أصول التقدم والعلوم الدنيوية وكلاهما ينتفع المنفعة الكبرى من تلك المساعي،

وباتحادنا مع المسلمين يمكننا أن نقاوم المزاحمين لنا في الاستعمار حيث لا يجدون لهم نصيراً من أهل البلاد فتزداد المملكة الفرنسوية قوة على قوتها بالارتباط مع المسلمين والاتحاد معهم على العمل وتصبح البلاد قدوة للعمران في تاريخ الإنسانية، انتهى. جبرييل هانوتو.



تضاؤل الفضائل[1]

لا تزال الحوادث تشهد لنا يوماً بعد يوم بأن هؤلاء الغربيين في حالتي انفرادهم واجتماعهم من أقل الناس حظاً في الأخلاق الفاضلة وأنهم كلما مرت عليهم السنون في تقدمهم المدني تقدموا في الصناعات وتأخروا في الفضائل، وبقدر صعودهم في عالم الإبداع والاختراع وسبقهم في ميادين الإجادة والإتقان كان مقدار انخفاضهم في محاسن الأخلاق وعلو الصفات، والمطلع على أخبارهم السائرة في الجرائد يكاد يجمد ذهولاً من انتشار الرذائل بينهم وتناهيهم في أبواب المشاحنات والمخاصمات ووجوه الاحتيال والاغتيال وإتيانهم المدهشات من فنون الفظائع والجنايات، لا رحمة ولا شفقة ولا مروءة ولا نخوة.

فإن التقدم في هذه المدنية الصناعية تقدم في ازدياد الحاجات وارتقاء في التهالك على اقتناء المقتنيات، ومن وراء ذلك شدة الحرص على طلب المال حتى قام المال بينهم اليوم مقام الفضائل كلها وجمدت في صدورهم محامد الخصال ومحاسن الخلال جمود الذهب في خزائنهم، حتى أن الباحث ليتخيل أن هذه المدنية ستنتهي بهم إلى الوحشية الحيوانية من جهة الأخلاق النفسانية لا أنها ستنتقل بهم كزعمهم من درجة الإنسانية إلى درجة الملائكية، وهم وإن أطالوا الحديث

---

(١) ١٩ يوليو (تموز) ١٩٠١م.

وأكثروا القول في اتصافهم بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق، فما ذلك إلا لخلوهم منها وبعدهم عنها.

ومن الحقائق الشائعة أن الإنسان يتولع بذكر ما ينقصه ويتظاهر باقتناء ما خلت منه نفسه فترى البخيل أكثر الناس تمدحاً بالكرم والجبان أعظمهم تحدثاً بالشجاعة والجاهل أشدهم تمشدقاً بالعلم، وإنك إن فتشت اليوم في أعمالهم وصفاتهم وقابلت فيها بين الماضي والحاضر وجدتهم أفضل أخلاقاً في أوائل قرنهم الغابر منهم في أوائل قرنهم الحاضر، وأنهم إن أحسنوا في الماديات يوماً بعد يوم فقد أساؤوا في المعنويات عاماً بعد عام، انظر إلى حال الأمة الفرنسوية صاحبة الزعامة في التمدن والتقدم ورافعة راية الحضارة والعمران كيف انقلبت أخلاقها انقلاباً يشهد به العيان في جيلها الحاضر عما كانت عليه في جيلها الماضي.

اجتمعت كلمة الفرنسويين منذ حرب سنة (٧٠)[١] على أنه لا خير في الحياة ولا صفو للعيش ما لم يأخذوا بثأرهم من عدوهم وينتقموا لأنفسهم من قاهرهم، واتّحدت على ذلك قلوبهم واتفقت أغراضهم على كثرة تباينهم في المشارب واختلافهم في الأهواء يتحاربون بينهم عند كل حادثة ويتضاغنون لدى كل نازلة، فإذا ذكرت بينهم كلمة الأخذ بالثأر تضاءل لها ما كان في النفوس من الأحقاد وانطفأ ما كان في الأفئدة من الأضغان وقام الضغن شعلة واحدة على الأمة الألمانية، وصارت تلك الكلمة تلوكها ألسنتهم في ليلهم ونهارهم، وغدوهم ورواحهم لوك الخيل للشكائم، يتناغى بها الطفل في مهده، وتهتف بها العروس في خدرها،

---

(١) الحرب السبعينية (١٨٧٠م) كانت بين فرنسا وألمانيا، وانتهت باحتلال ألمانيا لمقاطعتي الألزاس واللورين وهما من الأراضي الفرنسية.

وتتغنى بها القيان في مجالسها، ويخطب بها الوزير في دسته، ويتشهد بها الشيخ الفاني ساعة موته، وتنتهي بلاغة الشعراء وفصاحة العلماء عند حدها، وركز في طباعهم جميعاً، ورسخ في عقولهم أن فضيلة الأخذ بالثأر وكشف العار هي أم الفضائل وجماع الكمالات ومفتاح باب السعادة في الحياة. وكانت الأمة الفرنسوية بأسرها تغار غيرة الضرائر على أزواجهن إذا آنست من إحدى الحكومات أو الأمم ميلاً إلى الأمة الألمانية ورمتها في الحال بشواظ الأحقاد والأضغان.

عزم الفونس الثاني عشر ملك إسبانيا السابق على زيارة باريس وبرلين، فرأى أن يبدأ بزيارة برلين وينتهي منها في رجوعه إلى زيارة باريس، فلما علم الفرنسويون منه ذلك انتظروه في محطات الطريق جماعات جماعات يصفرون له وينهقون ويقابلونه بما تفردوا به من عبارات السب واللعن، واشتغلت الجرائد زمناً طويلاً بنشر ما يهينه ويشينه، وما زالت البغضاء قائمة عليه في صدورهم حتى أدركته المنية وفقدوا بذلك محبة أمة تجمعهم بها جامعتان: الجنسية والجوار، والشواهد من أمثال هذه الحادثة لا تكاد تحصى وتحصر.

ولكن ما لبثنا أن رأينا الهمم قد فترت والعزائم قد خمدت في نفوس هؤلاء الذين يفخرون على العالم بأن الدين عندهم الوطنية، والفضيلة أم الفضائل الأخذ بالثأر، وأخذنا نرى اليوم هذه الفضيلة تتضاءل وتتلاشى يوماً بعد يوم حتى كاد يزول أثرها ويعتفي رسمها. وما كان ذلك من نقص في قوة الأمة الفرنسوية ولا عن زيادة في القوة ازدادتها الأمة الألمانية، فالفرنسويون اليوم أقوى منهم بالأمس في عدة السلاح وقوة الكفاح، وإنما أصاب النفوس ما أصابها من الضعف الذي دعا إليه ما تملّك هؤلاء المتمدنين من الترف والرفه وشدة الحرص وكثرة

التوقي، وأصبحنا نرى من كان يتقدم في حكومتهم بالأمس بتغاليه في محبة أخذ الثأر أول الساعين في التزلف إلى العدو والتقرب منه وأنست النفوس بذلك فطاب للحكومة الفرنسوية أن تتظاهر به في سياستها على الوجوه الرسمية وأول ما ابتدأت به من هذا القبيل اشتراك أسطولها في الاحتفال بافتتاح مينا كييل الألمانية.

ثم قبلت بعد ذلك أن تضع عساكرها الذين كانت تعدهم لسفك دماء الألمانيين تحت قيادة قائد ألماني يتصرف في دمائهم وأرواحهم في بلاد الصين، ثم انتهى الأمر في هذه الأيام إلى ما رأيناه في الجرائد الفرنسوية الأخيرة من عظم الاشتغال بمسابقة مركبات الأتوموبيل بين باريس وبرلين، فقد عظم اهتمامها بهذه المسابقة واقتصر عليها كلامها وذكرت عن حركاتها وسكناتها من التفصيل والأسباب ما لا يوازيه الكلام عن حركة جيوشهم في ساحات حروبهم أيام عزهم ومجدهم، وصاروا يعنونون مقالاتهم بألفاظ الانتصار والظفر والغلبة والفوز ويصفون من ذلك ما لم يصفه هوميروس في وقائعترواده والعتبي[١] والفردوسي في وقائع ابن سبكتيكن[٢]، وكان افتخارهم بسبق أحد الفرنسويين إلى قصر بوتسدام فوق مفخرهم بيوم بات فيه نابليون الأول وملوك أوروبا على بابه ينتظرون يقظته من منامه انتظار الحشم والخدم، وأصبح الذين كانوا يصيحون على جيوشهم في سنة (٧٠): «إلى برلين! إلى برلين!»

---

(١) العتبي هو: محمد بن عبد الجبار المشهور بأبي النصر العتبي صاحب كتاب «سيرة محمود صاحب غزنة» وهو يمين الدولة محمود بن سبكتكين، وعاش بين القرن الرابع والخامس الهجريين.

(٢) محمود بن سبكتكين الغزنوي رأس الدولة الغزنوية. ولد سنة ٣٦٠ وتوفي سنة ٤١٠هـ، قضى على الدولة السامانية واستولى على خراسان وسجستان وقهستان وغيرها وكانت أهم أعماله فتوحه في الهند التي غنم منها ذهباً كثيراً.

يكررون هذا النداء لركب الأتوموبيل، ولسنا نرى حجة دامغة ودليلاً ساطعاً على صدق ما نقول أبلغ من أن نضع تحت أنظار القارىء ترجمة مقالة كتبها أحد عظماء المشاهير من كتاب الفرنسويين ممن يدركون الحقائق ولا يبالون بمكاشفة أمته بها في مناسبة تلك المسابقة قال:

«قد وصل المتسابقون والحمد لله إلى برلين سالمين غانمين في أقصى ما يكون من الفرح والجذل، وقد لقوا في طريقهم منذ خروجهم عن الحدود الفرنسوية من وجوه الحفاوة والإكرام من الولائم والمآدب ما لم يسبق له مثيل، وتواترت علينا أخبار المكاتبين والمخبرين والشركات التلغرافية تنبئنا بأن الأعلام الألمانية كانت تخفق متعانقة بالأعلام الفرنسوية على رأس كل مرحلة، وأن الموسيقى الألمانية كانت تحيي أهل السباق بنشيد المارسييز عند كل نزلة، وأن الأشربة والأنبذة في الولائم والمآدب التي أعدها الألمانيون لهم تسيل بين أيديهم سيل الغدران فيتناولونها أرطالاً ويشربونها بذكر رئيس الجمهورية الفرنسوية بعد أن قلدوهم بباقات من الأزهار مثلثة بألوان الإعلام الفرنسوية، ولا تسل عما قيل هناك من عبارات الترحيب والتأهيل.

وبالجملة فلا يكاد يذكر الإنسان في خاطره ما يماثل هذا الاحتفال في اختلاط الأجناس المختلفة، ولا ما يماثل هذا الفرح والسرور، لولا ما وقع فيه منا من التقصير الذي يؤسف له في اختيار طرق المسير، فإن المتولين لأمر هذا السباق ضنوا بجماعة المسابقين الفرنسويين أن يسيروا في أرض الولايتين المسلوبتين[1] وتحاموا بهم أن يجتازوا أرض اللورين إلى الإلزاس وأعينهم شاخصة إلى غرضهم الأقصى وهو مدينة برلين غير ملتفتين إلى ما بين أيديهم من الحدائق والجنان والمروج والحقول التي

(١) هما الألزاس واللورين.

كانت بالأمس ملكاً لفرنسا، ولا ناظرين إلى تلك القرى والبلدان التي كانت تخفق فوقها الراية الفرنسوية ولا مبصرين تلك الجبال التي شهدت ما شهدته من وقائعنا الحربية ولا ذلك النهر الذي كان في ما سبق الحد الفاصل لحدودنا، بل اختاروا أن تكون خطة السير من جهة البلجيك واللوكسبورج وهانوفر.

ولا شك أن هذا بقية فينا من ضعف النفوس ومراعاة للحرمة في غير موضعها وأحجام معيب غير لائق بجماعة من شأنهم السرعة في التقدم، ولما كانت عزيمتهم أنهم يزورون تلك العاصمة لتحية ذلك القيصر الأكبر وتناول قدح الرهان الذي أعده جائزة للفائز منهم، فكان اللائق بهم من باب التلطف والتقرب أن يستخبروا في طريقهم عن أخبار فتوحاته وما وضعته انتصارات الحروب في يديه من الأقطار والبلدان ليجمعوا له في مقابلتهم به بين التهنئة بالظفر والتحية بالسلم.

«وما عدا هذا التقصير الوحيد فقد تم الغرض بأكمل وجوهه وتمتع العالم بمشاهدة الفرنسويين والبلجيكيين والأمريكانيين والإنكليز يسابق بعضهم بعضاً ليحوز الفائز راية الانتصار في الرهان التي يلوح لهم بها غليوم الثاني، وقد كان السابق إليها أحد الفرنسويين ففاز على أقرانه بالنصر وحق لنا معشر الفرنسويين أن نسعد بذلك وأن نفخر وحق لمشاهير سكان القبور منا أن يسروا بطول نومهم فوق حشايا التراب تحت طبقات الأرض، وحق لأولئك الأبطال الذين مارسوا الحروب وشاهدوا الوقائع وسفكوا دماءهم في خدمة الأمة الفرنسوية أن يتقلبوا على جنوبهم في أكفانهم كيف شاؤوا آمنين أن يأتيهم من إخوانهم من ينازعهم أمكنتهم ويضايقهم في مضاجعهم ويشاركهم في مجدهم.

نعم لقد صفا للناس الزمن وراق العيش وخفقت أجنحة السلم على

الأقطار المتجاورة وطارت تحت ظلال النعيم، وقامت أجراس الأتوموبيل مقام أبواق الحروب، واستغنينا باشتعال خلاصة الزيوت والخمور في وقودها عن اشتعال الديناميت والبارود في ساحات القتال، ولم تعد تسمع الآذان من قرقعة أو دوي سوى ما تمزق مما استدار بالعجلات من أطواق الكوتشوك، وأما من جهة القتلى والموتى في هذا الميدان لميدان السلام والأمان، فإن عددهم لم يتجاوز والحمد لله طفلين أو طفلين وشيخاً وذلك مما لا يذكر ولا يعتني به، فقد وجب علينا إذاً في جانب هذه النعمة العظمى والمنة الكبرى أن لا ينطلق لنا قلم ولا ينطق لنا لسان إلا بجمل الحمد والشكران، ولكن من الذي يخلو فكره من الدهشة والعجب لما يراه من سرعة التقلب لدينا في الأفكار وكثرة التغير في الآراء والطفرة من حال إلى حال وسوء النقلة من شكل إلى شكل ومن ضد إلى ضد.

كنا نقرأ في العام الماضي المقالة إثر المقالة والخطبة عقب الخطبة في جرائد زعماء الوطنية وأهل الحمية يتفجعون فيها ويتألمون ويفزعون ويجزعون من احتمال زيارة إمبراطور ألمانيا لباريس أيام المعرض بعد أن بذل فيه كل عناية لتشييد معالم الصناعة الألمانية وإظهار فضلها على سواها، ثم نحن لا نرى اليوم منهم من يفتح فاه أو يجري قلمه بكلمة اعتراض على تزاحم قادة الأتوموبيل في طريق قصر بوتسدام لينالوا من فضل الإمبراطور الألماني ابتسامة ترحيب أو إشارة تأهيل أو نيل جائزة من الجوائز ولم يكونوا ليرضوا بزيارة الإمبراطور لنا منفرداً فرضوا بأن نزوره نحن جماعات، وأعجب من ذلك وأعجب أن بين أهل ذلك الركب المتسابقين منا إلى زيارة برلين من كثر اعتراضه وخشن لومه لحضور أسطولنا مع أساطيل بقية الدول عند الاحتفال بافتتاح مينا كييل

الألمانية. فهل كان اعتراضهم على ذلك وسكوتهم اليوم؛ لأن زيارة البلاد الألمانية في البحر غير زيارتها في البر وهل كان يلزم أن توضع السفن على عجل من الكوتشوك ويدفع بها في طرق البر حتى تزول أسباب الاعتراض والانتقاد من أولئك المتغالين في التظاهر بالحمية الأهلية والغيرة الوطنية.

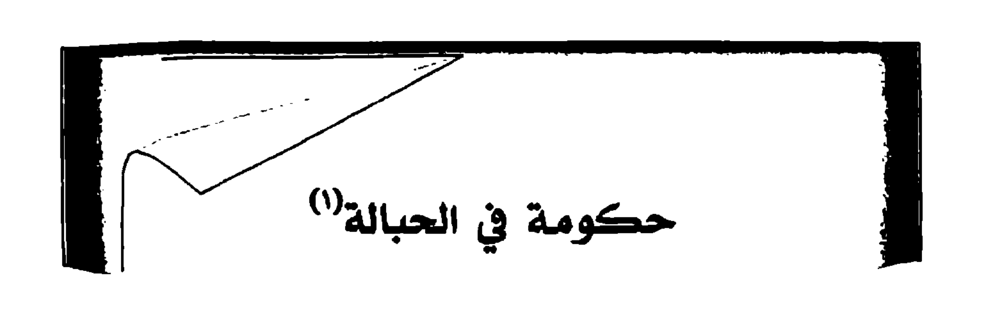
لا أقول: إن هذه الحالة التي سقطنا فيها اليوم هي حالة تناقض في الأفكار وفساد في الآراء وخلل في الأحكام، وإنما هي يعلم الله حال من ضعف إدراكه وذهب لبه وغاب عنه رشده وصوابه، وكيف لا يكون ذلك وقد رضينا بالاشتراك رسمياً في هذه المسابقة عن صفاء خاطر لم يشبه ما يكدره ولم نحس بأدنى كراهة فيه؟!.

لو انتبه الأموات في الأجداث وانتشرت العظام المدفونة طول تلك الطريق في الأراضي الألمانية وأدرك أولئك الأبطال المشهورون من أجدادنا ما يجري فوقهم وسمعوا دوي تلك المركبات ودكدكتها على ظهر الأرض من فوق رؤوسهم، لرأيناهم قد أخذوا يرجمون بالظنون ويكثرون من الحدس والتخمين تتملكهم الحيرة ويتنازعهم الشك في أمرهم لأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: «ما هذا الدوي الذي نسمعه فوق رؤوسنا؟ وما هذه الحركة التي أقلقتنا في منامنا؟ أهي حركة مركبات المدافع الفرنسوية تدك الأرض الجرمانية مرة أخرى؟ ولكننا لم نعهد من مركبات المدافع في أيامنا الماضية مثل هذا الدوي العظيم، فهل تراهم قد تفننوا في الاختراع حتى وصلوا إلى طرز جديد منها يسمع لمسيره مثل هذا الدوي الذي يفوق دوي الصواعق بين الرعود؟ ولكن ما أسرع اليوم سيرها وأضعف عملها فقد اجتازت الأرض فوقنا كلمح بالبصر. وما بالنا لم نسمع صوت القنابل وصدى المعارك، وما بالنا لا نحس بسير الجنود

من ورائها، وأين المشاة، وأين الفرسان؟!. أهم يقيمون الحرب اليوم على غير ما كانت تقام في أيامنا؟!. أَفَتُراهم قد عادوا إلى أزمان البداوة التي كان ينازل الأقران فيها بعضهم بعضاً وهم ركوب فوق تلك العجلات القديمة يتطاعنون عليها بالدبابيس والخناجر؟!. وما هذا الذي يسيل على الأرض بعد أن رويناها بدمائنا من أثر تلك العجلات بلون غير الدماء؟!، وما هذه الرائحة الكريهة التي نشمها اليوم من دخان بارودهم؟!. وما هذا الذي نسمعه من أصوات التهليل والتكبير ونشيد المارسييز[1] أتُراهم انتهت بهم المعركة فتم لهم الانتصار ودارت الدائرة على العدو بالانكسار؟!».

«كذلك يكون حال المستشهدين من قدماء أبطالنا من كثرة التساؤل والاستفهام لا تنفك عنهم حيرتهم، ولا يهتدون إلى حل ما غمض عليهم من أمرنا، ومن الذي يمكن له أن يفهمهم ويعرفهم أن أولئك الراكبين الذين يمرون فوق رفاتهم مر السحاب هم وفود الفرنسويين يغذُّون السير على عجلاتهم ليسبقوا سواهم إلى نيل جائزة من تلك اليد الغالبة القاهرة لهم»، انتهى.

(١) المرسييز: نشيد وطني فرنسي مشهور وضعه الضابط الشاعر الفرنسي «روجيه دى ليل» ولحنه، وقد تغنى به الفرنسيون أثناء الثورة.



حكومة في الحبالة[1]

لا تظنن أيها القارىء أن أولياء الأمور وسُوَّاس الحكومات الغربية أرقى درجة وأعلى منزلة من سائر الأفراد في مرقاة الفضائل، بل الجميع سواء في درجة الانحطاط فيها وليست الفضيلة عند مجموعهم إلا السعي وراء اجتلاب الغنى وتوسيع الملك، لا يبالي كبراء السياسة منهم أن ينزلوا إلى استعمال ما يستعمله العامة من وجوه الغش والخداع وضروب المداهنة والمخاتلة وصنوف المكر والحيلة، وإذا تأملت في سيرة سياستهم ببلاد المشرق صغر في عينك ما تستكبره من عظمة الملك وقوة السلطان لديهم، وتمثل أمامك أولئك العظماء أساطين التدبير وأئمة السياسة؛ كأنهم هؤلاء الأفراد من عامتهم الذين تراهم يدورون في عرض البلاد الشرقية وطولها يستلبون من الناس أرزاقهم بما تعلمه من أساليبهم العديدة التي تتبرأ منها الفضيلة وتنتسب إليها الرذيلة، وترى سواس الدولة التي تعد عساكرها بالملايين وثروتها بالمليارات ويعدون أنفسهم فخر التاريخ وغبطة الدهر لا يستنكفون أن ينزلوا بمعاليهم في ترويج أغراضهم إلى ما يأنف من مباشرته تاجر الأسواق وراعي الإبل.

وكما أنه لم تبق لدى الأهالي من فضيلة يتظاهرون بها إلا وهي واسطة إلى رذيلة تندمج فيها أنواع الرذائل؛ وهي التهالك على جمع

---

(1) ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٠١م.

المال، كذلك روؤساء حكوماتهم لم تبق لديهم فضيلة يدعونها كدعواهم تمدين الأمم وتحية الإنسانية، ألا وهي آلة إلى افتتاح موارد الثروة واغتنام أرزاق العباد ففاقوا بجماعة الجزويت في العمل بآيتهم الكبرى للوصول إلى رغائبهم الدنيوية وصارت الغاية آية عندهم تبرر الواسطة والواسطة تبرر الغاية.

أما أفانينهم في ترويج أغراضهم على الأمم الشرقية لا تحصى، فمنها أنهم يبدؤون بغرس الوهم بين الشرقيين أنهم أقوى الناس، وأنهم أرقى العالم لتهابهم النفوس وتكبرهم القلوب، ثم يرسلون من خلال ذلك سهام مكائدهم، فإن كانت الأمة الشرقية مؤلفة من نحل مختلفة، وملل متعددة، ومذاهب متفرقة، سعوا بين الطوائف في إضرام نار الحقد والبغض والتغرير بالصغير ليجرأ على الكبير، وبالوضيع ليتطاول على الرفيع، حتى تنقلب الأمور بينهم عاليها سافلها بما يقع بينهم من التخاصم والتشاحن وانحلال روابط الطبقات مما يجعل الأمة مهيأة في كل آل لحدوث الفتنة واشتعال الثورة فينفتح من أثنائها مجال لتداخلهم في البلاد وتمكنهم منها.

ومنها استهواء الحكام الشرقيين بزخارف المدنية وفضول المقتنيات وأسباب الملاهي، حتى ينغمسوا في شواتهم وتكثر احتياجاتهم إلى تلك الفضول وتزيد نفقاتها عما في وسعهم فينتهي الأمر بهم إلى العسر والضيق فيمدوا أيديهم إلى أولئك المحتالين يستقرضونهم من الذهب ما يستردونه منهم أضعافاً مضاعفة، فإذا أوشك أولئك الغافلون على السقوط في مهواة الإفلاس دخلوا في بلادهم رقباء على خزائنهم، ومسيطرين على أحكامهم، ثم ينتهي الحال بمُلْك البلاد بما عليها فيتصرفون فيها تصرف الفاتح الفاتك والثائب الناهب، وأمامنا الكثير من الممالك

الشرقية التي نُفِّذت فيها أمثال هذه الحيل مراراً متعددة حتى لم يبق عذراً لمن بقي منها عن الوقوع فيها بعد أن تجلّت العبرة بها.

ولقد أقامت الحكومة المراكشية على الركون إلى عاداتها القديمة والتمسك بدينها القويم زمناً طويلاً لم تحفل فيه بتقليد الغربيين في مدنيتهم ولا التعويل عليهم في نصائحهم، وبقيت بمَعْزل عن مداخلة الأجنبي فيها مع إحاطته بها ومجاورته لها وطموح أنظاره إليها، وكان أعظم ما ينجع فيها من حيل أهل السياسة الغربية أن يعرّضوا بعض رعاياهم لحنق الأهالي بما يأتونه معهم من ضروب التنفير والتكدير، فإن أهانوا أجنبياً أو قتلوه اتخذت حكومته ذلك ذريعة إلى التحكم في سبل التداخل وقامت تطالب بالترضية أو التعويض فتخرج بعد كثرة الوعيد والتهديد غانمة بالمال مرفوعة اليد عن حكم البلاد.

فكانت مراكش بذلك منيعة الجانب محفوظة الأطراف مغبوطة بهذه الحال بين الأمم الإسلامية، ولم يكن يخطر ببال أحد أن ستأتي عليها يوم تنطبق عليها فيه أحكام الدور، فتدخل في ما دخلت فيه أخواتها من الممالك الشرقية، وتنتهي إلى ما انتهين إليه، حتى تُوفِّي حاكمها الماضي وتولى أمرها هذا الحاكم الحالي مولاي عبد العزيز، فوجد أهل السياسة الغربية فيه مغمزاً وآنسوا من سنه ميلاً إلى ما يسمونه بالفنون المستظرفة وإقبالاً على كل ما يستظرف، وانعطافاً إلى كل ما تصبو إليه قلوب الفتيان من الملاعب والملاهي، فتهافتوا عليه وتراموا بين يديه بما في مدنيتهم من أنواع المحدثات والمخترعات من آلات اللعب والتزويق، واستراح سفراء الدول من إعمال الفكر في تحيل الحيل ودس الدسائس، وانحصر تسابقهم وتنافسهم واشتغال أفكارهم في اختبار ذوقه وما يميل إليه في ساعته من تلك السلع والبضائع، فأصبح السفير منهم لا يهمه إلا مسابقة

زميله في استحضار المطلوب قبله وقد اشتغلت الجرائد الأوروبية بالكلام عن فوز السفير الفرنسوي على السفير الإنكليزي، فذكرت أن كُلًّا من السفيرين أراد أن يسبق الآخر في استحضار «فونوغراف» من آخر طرز صنع في بلاده، فكان السابق إلى إحضاره سفير إنكلترا ولكن جاء بفونوغرافه مختلاً، فلما أحضر السفير الفرنسوي فونوغرافه حاز القبول وفازت السياسة الفرنسوية، وكان خلل الفونوغراف سبباً في اختلال نفوذ الإنكليز.

ثم أخذ السفراء يتفننون ما شاؤوا في هذا الباب حتى أصبح الشغل الشاغل لهم، وتحولت رسائلهم التلغرافية من نظارات الخارجية إلى المعامل الصناعية وأصبحت دورهم؛ كأنها مخازن الألاعيب معروضة للبيع يوم رأس السنة، وحتى قامت فهرست المخزن مقام أوراق الاعتماد، و«الاسطوانات» مكان لفائف الأوراق السياسية، وألواح «الفوتوغرافيا» مقام المعاهدات، ومناظر «السينيماتوغراف» مقام المنشورات، والفونوغراف مقام المخابرات، والدراجات و«الأتوموبيل» بدل نموذجات كروب ومكسيم، وقام السفير نائباً عن بيت الوزارة ونائباً عن بيت التجارة.

ومن هذا كله يتبين لك أن أهل السياسة الغربية قوم لا يبالون بالوسائط ودناءتها والوسائل وسفالتها، وأن الرذيلة يصطادون بها المنافع ويجتلبون الفوائد خير لديهم من الفضيلة التي يكثرون ذكرها على ألسنتهم وينكرونها في قلوبهم، وأن حيلتهم القديمة التي استغووا بها كثيراً من أمراء الشرق حتى حل بممالكهم منها ما حل قد تمت على هذا الأمير الشاب فعظمت في عينه قدرتهم وهالته قوتهم ولعبت بلبه مدنيتهم بمقدار ما لعبت بعقله لعبهم، وأخذت بمجامع قلبه آلات لهوهم، وما يلعب إلا

باستقلال حكومته وما يلهو إلا بمستقبل أمته، وقد وقع بها في الشرك وابتدأنا نشاهد نوادر ذلك عياناً في حوادث متتابعة فقد عرّض أحد الفرنسويين نفسه لأذى بعض أهالي النواحي في مراكش وأثارهم عليه كما يقع ذلك آناً بعد آن فنالوا منه وقتلوه بفعله، فقامت الحكومة الفرنسوية تطالب بالترضية والتعويض على حسب العادة فما أسرع ما لبّتها به الحكومة المراكشية وبالغت لها في الاستعطاف والاسترضاء ودار برأس مولاي عبد العزيز أن ذلك وحده لا يكفي في تكفير الذنب، وأن غضب الحكومة الأوروبية من غضب السماء ولا بد من متابعة الاستغفار وحسن الإنابة والانقطاع إلى ما يقربه منها زلفى، فانتخب وفداً من علية وزرائه وقواده وأرسل به إلى زيارة البلاد الفرنسوية يحمل شيئاً كثيراً من طرائف التحف ونفائس الهدايا ليقدمها إلى رؤساء الحكومة الفرنسوية وليعتذر إليهم وليسترضيهم سراً وعلانية وليلمس الصفح عما عساه أن يكون باقياً في نفوسهم من أثر تلك الحادثة بعد الذي أصابوه من المال الطائل في التعويض.

والغربيون إذا أنت بالغت لهم في الإعظام والإجلال بالغوا لك في التحقير والإذلال، فقوبل الوفد في باريس بمثل ما يقابل به بعض أمراء الجزائر لا يتكلفون لهم حسن الحفاوة ولطف الإكرام، ودعي هذا الوفد إلى بعض ولائم رئيس الجمهورية وهو وفد من ملك مستقل يحكم على أمة شريفة، فلم يكن جلوس رئيسه على المائدة لا عن يمين رئيس الجمهورية ولا عن شماله ولا قدامه بل كان عن يمينه رئيس مجلس الشيوخ وعن شماله رئيس مجلس النواب وأهل الوفد المراكشي متفرقون بين عامة المدعوين من النواب الفرنسويين وفيهم من هو حجام وفيهم من هو إسكاف أو دباغ، ثم انتقل الوفد إلى زيارة المملكة الإنكليزية فاستقبل

مدينة لوندره وبذل هناك من وجوه الطاعة والضراعة ما بذله. ثم أتم العمرة بالسعي إلى مدينة برلين ووقف أمام الإمبراطور الألماني وقفة الخاشع الخاضع يلتمس منه أن يكون عضداً للحكومة المراكشية في دخولها إيوان الحضارة الأوروبية، وأن يكون إماماً هادياً لها في استقبالها قبلة المدنية الغربية، وأن يأخذ بيدها ليخرجها من العهد القديم إلى العهد الجديد.

ثم قفل الوفد بعد ذلك راجعاً، ولم يأت في خاطر صاحب المغرب أن يوحي إلى الوفد في طوافه بالعواصم الأوروبية أن ينتهي بزيارة دار الخلافة الإسلامية، وقد جفت الأقلام ونضبت الدوي من طول ما كتب كتاب الإسلام من مشارق الأرض ومغاربها في دعوة حكام المسلمين وأمرائهم إلى التقرب بعضهم من بعض، والارتباط بمقام الخلافة الإسلامية ليدفعوا هذا السيل العارم، ويتقوا هذا البلاء النازل على الإسلام وأهله من أهل السياسة الغربية ورؤساء الممالك المسيحية، ورضي هذا العريق في الشرف والدين لنفسه أن يقف رئيس وفده في الأرض الفرنسوية موقف الراكع من المحراب أمام العلم الفرنسوي عند استقبال نفر من الجند الفرنسوي له، ورسمت الجرائد المصورة على صفحاتها هذا المنظر تزهو به وتفخر، ولم يرض لوفده أن يجري على سنن شاه العجم في الانتهاء من زياراته بزيارة أمير المؤمنين حيث شرح صدور المسلمين في سائر أقطار الأرض وسر قلوبهم. ولم يقبل الأمير لرئيس ذلك الوفد الذي وقف هذا الموقف أمام العلم الفرنسوي أن يزور الآستانة فيصافح عبد الحميد ويقبل الخرقة الشريفة ويتبرك بالعلم النبوي، فأغضب المسلمين في أقطارهم ومحمداً في قبره ورب محمد في ملكوته.

إن رضي الأمير بهذا كله وقذف بمملكته في مهواة المدنية الغربية

لتحطم بنيانها وتهدمت أركانها، فهل يرضى به أولئك الفحول من المراكشيين أهل الثبات في الدين والصدق في اليقين، وأصحاب العزة والإباء وأرباب الشهامة والشجاعة الذين يفتخر بهم الإسلام وليس فيهم إلَّا كل من ينطبق عليه بيت المتنبي في المطالبة بالحقوق:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد؟!

وهل يرضى هؤلاء المشايخ أعلام الدين وأحلاس الخيل وفوارس الحرب، الذين حفظوا هذه المملكة بخشونة المركب وتقشف العيش والتحلي بعزة البداوة وفضائل الفطرة والذين تولد أطفالهم في الهيجاء وتفطم في الميدان وتشب على الطعن وتلعب بالأسنة والعوالي أن يروا صورة حاكمهم في الجرائد الفرنسوية اليوم واقفاً بطيلسانه الأبيض وحذائه الأصفر مستنداً على البيسكليت (الدراجة) ومقبض زمارتها في يده كمقبض السيف في أيدي فتيانهم ساعة الطعن والضرب؟!، وهل يكفي هؤلاء الرجال أن يذرفوا دموع النساء على مملكة يسير بها صاحبها إلى الضياع والتلاف لاهياً بين دراجة أوفونوغراف؟!.

بين السخط والسخرية[1]

الغربيون قوم إذا عبست لهم تبسموا وإذا تبسمت لهم عبسوا، وإذا خاشنتهم تذللوا وإذا حاسنتهم تدللوا ترى ذلك فيهم ظاهراً بيناً ـ سواء كان في معاملاتهم الخاصة أو سياساتهم العامة، ومن جهل أمراء الشرق بأخلاقهم ظنوا أنهم كلما عملوا على شاكلتهم وأخذوا بسُّنتهم وتلبسوا بلباس مدنيتهم، كبروا في أعينهم وعظم مقدارهم في صدورهم وعطفوا عليهم عطف الشاة على السخلة والموضع على الفطيم، وأن تقليد الإنسان للآخر في بعض أحواله وأطواره مما يحببه فيه ويدنيه من قلبه، ولكن الأمر دائر على خلاف ظنهم وعكس معتقدهم، فإن الغربيين إذا رأوهم قد انسلخوا عن عادات قومهم وبلادهم وخرجوا عن سُنة آبائهم وأجدادهم وخلعوا عنهم ثوب التقية منهم، تبدى لهم عوارهم وانفضح لديهم سترهم وانكشف فضل التشبه بهم عن هوان أمرهم عليهم، واطمأنوا على عجزهم بما نبذوه وراءهم ظهرياً من قوة الدين والملك والعادات التي ورثوها عن أسلافهم، ولا يزال الغربيون يهابونها ويخشونها منذ الأجيال الغابرة إلى هذا اليوم الذي ظهروا فيه بمظهر الصولة والبطش، فإذا خلص الأمير الشرقي في أيديهم نابذاً لعادات أهله وقومه آخذاً من المدنية الغربية بما يخالف تلك العادات وينافرها، وقف في وسط الطريق وقفة العاجز المقصر لا هو إمكانه أن يلحق بمن يقلدهم

---

(١) ٢ أغسطس (آب) ١٩٠١م.

ويجاريهم فتتكافأ الحال بينهم ولا هو قادر على مغالبة هوى النفس والرجوع إلى سالف عهده فيبقى محلًا للسخط والغضب الذي يستحقه من قومه بسوء حكمه ورأيه ومطاوعته لمن يبغي بهم الهلاك وينوي لهم الافتراس، ويا ليتهُ يجد حينئذٍ من حسن نظر الغربيين وجميل انعطافهم ما يخفف عنه من آلام هذا الموقف، وإنما يجد منهم صنوف الاستهزاء والسخرية ووجوه التقريع والتحقير، ومن أعجب العجب أن يرضى القتيل وليس يرضى القاتل.

هذا حاكم مراكش قد ذكرنا ما ذكرناه عن إلقائه بنفسه في أيدي الغربيين وانهماكه على الأخذ بأسباب ترف مدنيتهم وزخرف حضارتهم، بعد أن حفظ آباؤه ملكهم عليهم طول هذه الأزمان باجتنابها، قد أصبح ذكرهُ اليوم بين الغربيين مجالاً تتسابق فيه أقلام كتَّابهم بالهزؤ والسخرية، وننقل من ذلك ما جاء عن أحد كبار السياسيين منهم، فما ظنك بما يكتبه سائر الكتاب وأهل الرقاعة والدعابة من الظرفاء والشعراء فيهم؟.

كتب أحد رجال السياسة الإنكليزية فصلاً في إحدى المجلات عن مقتل حاكم مراكش السابق، بدأهُ بالمقارنة بين موت هذا الحاكم وبين موت كلوديوس إمبراطور رومية الذي قتلتهُ امرأتهُ «اجريبين» لتضع ابنها نيرون مكانهُ فتكون لها السيطرة من بعده، ومما جاء في هذا الفصل قوله:

«من المحتمل أن حاشية حاكم مراكش لم يقرأوا من مصنفات «تاسيت» شيئاً، ولكنهم حين قتلوا مولاهم دبروا له من المكائد ما دُبر لكلوديوس واحتاطوا في أمرهم كما احتاط أولئك الذين أهلكوا ذلك الإمبراطور، والمطلع على قصة موت هذين الأميرين لا بد أن يندهش من اتفاق التدابير التي اتخذت لقتل الأول منذ تسعة عشر قرناً والتي دبرت

أخيراً لقتل مولاي حسن ولا فرق بين الجريمتين إلا أن إمبراطور رومية مات مسموماً في قصره، وحاكم المغرب مات مسموماً في معسكره، وأن الذي دس السم للأول زوجته لتحكم باسم ابنها، والذي دس السم للثاني أول وزرائه ليحكم باسم ابن مولاه».

«وليس من العجيب أن يقع مثل هذه الحادثة، فإن محبة السلطة والشغف بالإمارة من الأدواء القديمة التي جرَّت إلى اقتراف كثير من مثل هذه الجريمة وارتكاب ما لا يكاد يحصر من نظائرها، ولكن العجب كل العجب أن يفوق المراكشيون ـ وهم في نظرنا لا يزالون في دور الهمجية ـ جماعة الرومانيين مع ما كانوا عليه من المدنية في شدة التحفظ والتيقظ وإحكام التدبير كما ستراه»:

«خرج مولاي حسن عام (١٨٩٥م) بفرقة من جنده إلى الأقاليم الوسطى من مملكته، فمات فجأة في وسط خيمته محاطاً بذلك الجند الكثيف، وقد سقط إلى الأرض بغتة يختبط ويتألم دون أن يفكر أحد ممن حوله في استدعاء طبيبه، وقد بقي أمر وفاته مكتوماً عن الوزراء أنفسهم ولم يعلم به أحد من الكبراء إلا سي أحمد بن موسى الوزير الأكبر وبعض النسوة والعبيد، ولكن هذا الوزير لم يظهر أدنى اندهاش ولا أقل استغراب لهذا الخطب المفاجىء؛ كأنما كان يتوقع حصوله وينتظر وقوعه، وبقيت الجثة تسير مع الجيش مدة يومين يحملها الجند في المحفة التي كان يجلس فيها الحاكم وهم لا يدرون أن وراء هذه الستائر المحكمة جثة مولاهم لا حياة فيها، وكانوا إذا حضر وقت الطعام أوقفوا الركب ووضع الجند المحفة على باب خيمة السلطان فيأتي الوزير الأول ومعهُ بعض الخدم من الواقفين على دخيلة الأمر يحملون طعام مولاهم فيدخلونه ويأكلون منه قليلاً ليوهموا أن الآكل لهُ هو مولاي حسن،

وكانت الموسيقى تعزف كل مساء أمام خيمة السلطان كالمعتاد». وقد بقي هذا الحادث مكتوماً ثلاثة أيام قضاها سي أحمد في إتمام مشروعِهِ، فبعد أن أحكم أمره أوفد رسولاً إلى «رباط» حيث يقيم أصغر أبناء، مولاي حسن وكلفه بأن يبايعه.

ثم أنه لم يذع خبر وفاة سيده وارتقاء ابنه مكانه إلا بعد أن وثق من نجاح عمله، وكان من جملة تدابيره أن زج أخوة الملك في السجن حتى لا يبقى في أنفسهم أثر للشك في عظم سطوته وقوة جبروته، وقد جرى هذا الوزير على مثال «أجريبين» وحذا حذوها في هذا الحادث العظيم، وهو لا يخالجه شك بأنه لم يسبقه أحد في ارتكاب مثل جريمته ولكنه رأى أن لا مندوحة من التخلص من أخي السلطان الأكبر، فلم يوافقه أحد أن يفعل به كما فعل نيرون ببريتانيكوس ابن كلوديوس فاكتفى بأن ألقاه في السجن خمس سنين ثم أخرجهُ منهُ واسكنهُ على الرغم منه قصر مكناس ولا يزال أسيراً به إلى الآن.

«ولا إثم على الحاكم الحالي مولاي عبد العزيز في ما لحق بأخيه، فقد دعي لأن يكون حاكماً وهو في السادسة عشرة من عمره بعد تدبير المكيدة على أبيه وهو لا يعلم من أمرها شيئاً، وبقي سي أحمد بن موسى إلى آخر أيامه قابضاً على زمام الأحكام التي استولى عليها بالحيلة لا ينازعه فيها منازع ولا يشاركه في أمره مشارك، وقد ترك بعده ثروة طائلة آلت إلى الحاكم كما هي العادة في مراكش؛ من أن الحاكم هو الوارث الوحيد لوزرائه، وليت مولاي عبد العزيز دامت له حرية الحكم التي نالها بعد وفاة وزيره الأول الذي أصعده إلى سرير الحكم اسماً وجرده عنه فعلاً ولكنه سقط في يد الوزير سي مهدي من أشياع سي أحمد ومن المتخرجين عليه وهو الذي ورث الملك والسلطة بعد سيده

وجرى على سننه في الأوامر والأحكام، وليس يشاركه اليوم في الأمر والنهي إلَّا سي عبد الكريم بن سليمان ناظر الخارجية فهو يديرها بتدبير غريب وذكاء عجيب. أما الوزراء الباقون فكلهم من أقارب الوزير الأول أو صنائعه وهم اتبع لهُ من ظله وأطوع له من نعله، ولما رأى هذا الحاكم المطلق أن يرسل الوفود إلى الدول الغربية باسم مولاي عبد العزيز جعل لنفسه الرئاسة على الوفد الذاهب إلى لوندره وترك لسي عبد الكريم رئاسة الوفد الذاهب إلى باريس».

«أما مولاي عبد العزيز، فإنه لم يخطر بفكره قط أن يستولي على أحكام مملكته أو أن يتداخل في أمورها بل اكتفى بظواهر الملك وأبهة السلطنة، ومن رأى هذا الملك الشاب على صهوة جواده وأطراف برنسه الأبيض الناصع تتراوح على السرج المصنوع من الحرير الأخضر المزركش بالذهب يختال تيهاً ويميس عجباً ظَنَّهُ أحد أولئك الملوك الذين فتحوا الأندلس، وهو أكثر رجاله تدرباً على ركوب الخيل وأشدهم افتخاراً بذلك ولم أرَ منظراً أجمل من منظره وهو يقاوم جواده جامحاً، فتراه يثب به ويتعاصى عليه وهو لا يتحرك من سرجه ولا تبدو عليه سيماء الخوف ولا أثر الانزعاج، وإذا نزل عن متنه زال بهاء هذا المنظر الذي كأنه منظر أحد الخلفاء من بني أمية أو بني العباس في أيام مجدهم ورونق عزهم».

«ولقد كان والده يقوم من نومه في أخريات الليالي الباردة إذا أذَّن المؤذِّن للصلاة فيجتاز عرض معسكره ليصل إلى الخيمة المعدة للعبادة ويركع خاشعاً لله. أما ابنه فإنه بعيد عن كل هذا الصلاح قليل الاهتمام بالعبادة غير محافظ على فرائضه الدينية، وأن كان قد تظاهر في أول أمره بالغلو في التمسك بالدين، فمن ذلك ما يذكر عنه أن سفير إنكلترا قدم له

كتاباً مكتوباً بخط الملكة السالفة، فلم يتناوله بيده بل لف يده بذيل البرنس وتناوله به كي لا تلمس يده كتاباً كتبته يد مسيحية، فاغتاظ السفير وكاد هذا الحادث يجر إلى مشكلة سياسية. ثم أخذ من ذلك العهد يخفض من بغضه للمسيحيين بفضل تأثير والدته عليه وأخذ في الميل الشديد إلى المخترعات والمحدثات الغربية، وأمه هذه شركسية تربت في الآستانة ورأت هناك من آيات المدنية ما لم يرَهُ سواها من ضرائرها، وهي التي حببت إلى ولدها الاشتغال بالفوتوغرافيا أولاً، ومما لا شبهة فيه أنه نبيه ذكي وقد برع في زمن قليل في فن الفوتوغرافيا حتى أصبحت مهارته فيها مما يصح أن يفتخر به أحد المثابرين عليها، وهو لا يكتفي بأخذ الصور على ألواح الزجاج وطبعها على الأوراق، كما يفعل المشتغلون بها، بل يلصقها على ورق مقوى ويعمل فيها كما يعمل أرباب الفن وله في ذلك ذوق غريب، واشتغاله بالفوتوغرافيا لا يمنعه من الاهتمام بالمحدثات الأخرى فهو لا يقتصر على استعمال التلفون أو المصابيح الكهربائية وما ماثلها من الآلات التي تحركها القوى الخفية الغامضة بل يريد أن يقف على دقائق صناعتها وعلى طرق استعمالها مما يحتاج لكثرة الاطلاع وسعة المعرفة».

وترى هذا الشاب الذي اشتغل عن جميع شؤون المملكة بحب الفوتوغرافيا وصار يشتغل بتصوير ما يروقه من حوادث حكمه، وبلغ منهُ شغفه بها أن أسف يوم كان يستقبل سفير إنكلترا الجديد على أن ليس لديه آلة الفوتوغرافية ليصور المندوب العسكري وكان قد أعجبه منظر قبعته والريشة التي عليها حتى ألهاه ذلك عن سماع خطبة السفير، وترى هذا الذي فتنتهُ المحدثات والمخترعات الغربية، وترى هذا الذي يدعي أنه صاحب الحق في الخلافة وفي الإمارة على المؤمنين والذي وصلت

إليه عدوى العادات والأخلاق الغربية لم يبقَ إلا على عادة واحدة من عادات أجداده وبلاده وهي أنه يعاف أصناف الطعام التي يجهزها الغربيون، فبقيت مطابخ القصر؛ كأنها إحدى دعائم الحكومة لم تتغير على مرور الأيام منذ القرن السابع عشر.

«وهم يوزعون كل يوم الصدقات من مطابخ القصر على ألفي نفر يأخذ كل واحد منهم جزءاً من «الكسكوسي» أما طعام السلطان وطعام أهله فيجهز على حدة وتتخذ كل الاحتياطات اللازمة عند تجهيزه خشية وقوع «حادث»، وإذا كان الحاكم في الحرب أو في السياحة يعهد بأمر المطابخ إلى نفر من قبائل أولاد العلوي وهم أولاد النصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في عهد مولاي إسماعيل في القرن السابع عشر يتوارثون هذا الشرف صغيراً عن كبير».

«ومولاي إسماعيل هذا هو ذلك الذي أرسل إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا وفداً من رجاله يخطب منه أميرة كونتي، وكان يفخر بأنه قتل بيده تسعة عشر ألف نفس من رجاله، ومتى عرفت هذا سهل عليك إدراك السبب في انتقائه طهاته من الأجانب؛ لأنه كان على يقين أنهم أبعد من أهل مراكش عن التداخل في الدسائس والمكائد التي ربما دسها له ودبرها رجال حاشيته أو بعض أعدائه فيدسون له السم ليستريحوا منه وليريحوا الناس من شره».

«وقد بقيت هذه العادة إلى اليوم وليس ما يدعو لبقائها إلا اتقاء السم لا اشتهار هذه العائلة بالمهارة في ذلك الفن».

المدنية في أعلى مراتبها[1]

مضى زمن طويل على أهل المشرق لا يسمعون فيه عن المدنية الحاضرة غير المدح والثناء، ولا تجري الأقلام فيها بينهم بغير التعظيم والإطراء، ولا تشعر فيها نفوسهم بغير المحاسن والكمالات، فانبهرت بها العقول وانخدعت القلوب، وسلموا جميعاً بفضل الغربيين عليهم وأقروا لهم بعلو المرتبة فوقهم، ورأوا أن السعادة كل السعادة في اقتفاء أثرهم واحتذاء مثالهم، وصار السعيد منا من وقف أمامهم موقف الصبي من المؤدب، والتلميذ من المعلم، ورفعناهم فوقنا درجات فتجاوزنا بهم طبقة الأنس إلى طبقة الجن في قوة الإبداع ودرجة الملائكة في طهارة الأخلاق، فتمت لهم السعادة علينا واستلموا مقاليد الرئاسة فينا واجتهدوا هم وأنصارهم بيننا في إخفاء ما في ذلك الكمال الكاذب من النقص وما في خفايا تلك الزخارف الباطلة من الشرور، وخرست الأفواه وانكمشت الأقلام بيننا عن التنبيه على مفاسد مدنيتهم وأضرارها، وصار القائم فينا بذلك كمن يحاول تبديل السُّنَّة بالبدعة، وتغيير الحق بالباطل وصار من لم يقم منا مقام المنذرين بسوء أحوالنا وقبح أعمالنا ومقام المبشرين بصالح أعمالهم وحسن مآبهم؛ كأنما ينطق بكلمة الكفر بعد الأيمان ويدعو إلى ظلمة الشرك بعد نور الهدى، وغفلنا عن استماع ما يقوله أصحاب العقول والبصائر وأهل البحث والتدقيق من الغربيين أنفسهم في

---

(١) ٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٠١م.

وصف الفساد والهلاك والخراب والدمار الذي تجرهم إليه مدنيتهم وتنتهي به حضارتهم.

فكان من أجلّ وظائف الكاتب الذي يخلص في الخدمة للأمم الشرقية وينصح لها أن لا يمل ولا يسأم أبداً من ترديد القول وتكرير الكلام في بيان تلك المضار ونقل ما يكتبه العقلاء من أهل الغرب عنها لكشف المقابح وتوضيح المفاسد، كما لم يملّ دعاة المدنية بيننا إلى اليوم من تزويق الأباطيل وتمويه الأضاليل في تلك المدنية التي يتأذى منها عقلاء الغربيين مع انطباقها على عاداتهم وأخلاقهم، فكيف بأذاها فينا مع منافرتها لأرضنا وديارنا ومخالفتها للمألوف لدينا والمعروف عندنا؟!

ونأتي اليوم لحضرات القراء بشيء مما يكتبه فضلاء الغربيين عن مدنية أهل أمريكا التي هي الجوهرة اليتيمة في تاج المدنية وواسطة العقد في جيد الحضارة ولباب الأمم في هذا العمران، وهي الأمة الخالصة التي لم يعلق بها شيء من أدران التاريخ القديم، ولم يلصق بها وضرٌ من أوضار القرون الغابرة بل ولدت على فراش المدنية، ونشأت في حضن الحضارة وقامت فيها المدنية الغربية مقام كتاب أفلاطون في تأليف جمهوريته، وقامت مدينة نيويورك فيها مقام «المدينة الفاضلة».

كتب أحد الباحثين المحققين من علية الكتبة لدى الفرنسويين في أكبر جريدة من جرائد باريس ما نبسطه عليك:

«يوجد في مدينة نيويورك شركة كبيرة اسمها «تماني» من أعظم الشركات رواجاً وأوسعها ربحاً. تتصرف في رأس مال عظيم وتوزع على المساهمين فيها أرباحاً طائلة، لكنها شركة غريبة في بابها عجيبة في صفاتها لا يوجد في أنحاء العالم كله ما يشابهها من جنسها فهي لا

تشتغل بالمضاربات في البورصة ولا بالسكك الحديدية ولا بالمعادن ولا بما يماثل ذلك من أبواب المنافع، بل لها تجارة يفوق ربحها سائر المتاجر، فإنها تتجر بجميع وظائف الحكومة ومناصبها ومجالسها بلدية وغير بلدية في نيويورك، وهي تباشر ذلك جهاراً آمنة مطمئنة بمرأى من الجميع ومسمع منهم».

وإذا أردت أن تعرف طرفاً من أعمال تلك الشركة فما عليك إلا أن تتصور جماعة متعاقدين على ابتياع أغلبية الآراء في الانتخاب ليصلوا بطريقة شرعية إلى استلام أزمة الأعمال في الحكومة ـ وأن تتصور هذه الفئة قد استولت بحق الانتخاب الشرعي على فروع الحكومة من المحافظة إلى الشرطة إلى المجلس البلدي إلى مجلس التجارة إلى مجالس الأحكام إلى مجالس العمد إلى جميع ما يتصل بالسيطرة على الأهالي والحكم فيهم، وكل ما يتعلق بشؤون الإدارة من حاكم المدينة إلى كناسها، ومن رئيس الشرطة إلى أصغر جندي فيها، ولا تنيل الجمعية وظيفة من هذه الوظائف إلا لمن يساوم فيها ويزيد في ثمنها لا لمن يستحقها بالأهلية والاستعداد ـ وأن تتصور أنك لا تنال مثلاً وظيفة ضابط في الشرطة أو قاض في المحاكم إلّا بعد أن تدفع للجمعية مبلغاً يتفاوت بين أربعة آلاف وستة آلاف جنيه، لك أن تسترده من سكان القسم وتتقاضاه من المحامين ـ وأن تتصور أن هذه الجمعية قد وصلت من بيع الوظائف إلى درجة ثروة عظيمة تنقسم إلى مبالغ احتياطية ومبالغ للاستهلاك ومبالغ لتوزيع الربح على السهام على ترتيب بنك الكريدي ليونيه أو بنك فرنسا مثلاً ـ إذا تصورت كل هذا فقد وقفت على بعض شيء من تعريف تلك الجمعية.

«وأهل الشرطة في هذه الجمعية هم عمادها ورأس مالها، كما ترى

الأوراق المالية عماد تلك البنوكة ورأس مالها، وهم يستلبون الأموال من جميع طبقات الناس، فيأخذونها ممن يريدون فتح أماكن الفاحشة والميسر، ومن أولئك الذين لا يريدون إغلاقها، ويأخذونها من أرباب الحانات كما يأخذونها من جمعيات مقاومة المسكرات الذين يراقبون تلك الحانات لمصادرتها، ومن أرباب الحانات في مقابلة تنبيههم عن أوقات تفتيش الجمعيات عليهم، ويأخذونها من الأغنياء لحمايتهم، من الفقراء لإعانتهم على الأغنياء، وهو نصب واحتيال ألبسوه لباس الضرائب الشرعية وأنزلوه منزلة المكوس الأميرية».

«وأعجب أمر هذه الجمعية ما وقعت فيه اليوم من الخصام والنزاع، فقد حدث ما لم يسمع بمثله عندها في الانتخابات الأخيرة، وهو أن الأهالي انتخبوا في جمهور النواب عنهم ستة رجال من أهل العفة والأمانة قاضيين وأربعة ضباط للشرطة فما استلم هؤلاء النفر وظائفهم حتى أعلنوا بأن سيرتهم فيها ستكون مطابقة للقوانين موافقة للعدالة لا يقبلون رشوة ولا يختلسون درهماً مما في أيديهم من مال الحكومة، فكان ذلك عند الجمعية من أقبح ما جاءت به الانتخابات مخالفاً للعادة، وفي الواقع فإن أهل نيويورك رأوا ما لم يكونوا يرونه من قبل من إغلاق الشرطة بعض الحانات في يوم الأحد على مقتضى ما يحكم به القانون، ورأوا بعض رجال الشرطة كذلك يقتحمون أمكنة الميسر لمصادرتها وإبطالها، ورأوا ما هو أبلغ من ذلك في سيرة العدالة، وهو إلقاء القبض على المسمى «بيسير» أحد ضباط الشرطة لارتكابه الرشوة والاحتيال فقامت قيامة الجمعية عند ذلك ووقعت الأنظار على حادثة مدهشة لا يبلغ كنهها الخيال ولا تدخل في التصور، ذلك أن جميع الموظفين في نيويورك من أهل الشرطة وأهل القضاء وأهل المجالس البلدية هبّوا هبة

واحدة لإنقاذ ذلك الضابط وقرروا أن لا يتركوا وسيلة في سبيل هذا الغرض إلا فعلوها ولو بارتكاب الجريمة.

فاضطر أولئك الأشخاص الستة الصادقون في خدمتهم إلى تجنيد بعض الأهالي وتقليدهم وظائف الشرطة ليدفعوا أهل الشرطة ويمنعوهم من استخلاص المجرم من وجه العدالة ثم أقاموا حرساً خاصاً على حجرة القضاة يوم الحكم عليه ليحفظوهم من أيدي المعتدين عليهم من موظفي الشرطة، كما أنهم أحاطوا جماعة الشهود بحرس آخر يحرسهم في طريقهم إلى المحكمة، وذهبوا بهم في الخفاء ليلاً إليها ليبيتوا فيها ليلتهم آمنين ويؤدوا من الغد شهادتهم؛ حذراً عليهم أن يغتالهم رجال الشرطة في بيوتهم، ومع كل هذا الاحتراس وهذه الحيطة، فإن المتعصبين من أهل الحكومة تمكنوا من اختطاف الشاهد الأول في القضية أثناء الطريق من بيته إلى المحكمة ولم يقف له أحد بعد ذلك على أثر وليس من المظنون أن يظهر له خبر كما تشير إليه إحدى جرائد نيويورك في قولها: «إذا أصبحت السرقة قاعدة من قواعد الموظفين في الحكومة فلا بدع أن يستعينوا على أغراضهم بارتكاب القتل والاغتيال»».

«وليس الغرض من ذكر هذه الشركة وشرح حالها في سوء أفعالها أن نفتخر بحكومتنا ونتباهى بنظامنا، ولا أنها عبرة نعتبر بها ولا أن ننبه على العلة لاجتناب ما يماثلها فينا، بل غرضنا أن نبسط للعالم ما تضمنته أفعالها من الدلائل القبيحة والأغراض الفظيعة في تاريخ هذا العصر الحاضر».

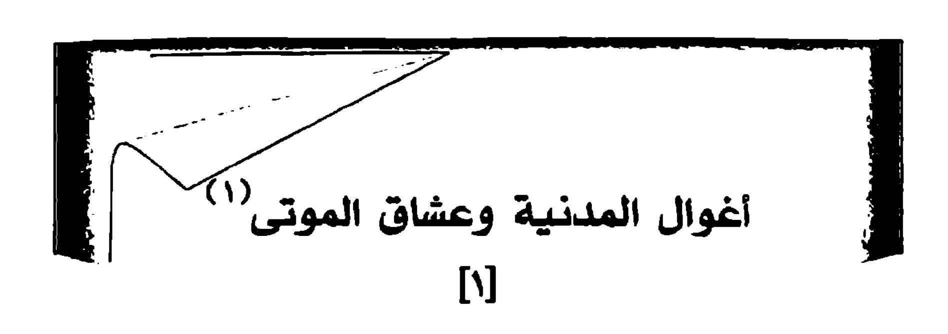
هذا هو الجيل من الناس الذي تراه كالشاب الغرنيق في مقتبل عمره وعنفوان شبابه يغلي في عروقه دم الفتوة وتلتهب في جسمه حدة

الصبا، قد جرى في ميدان التقدم والمدنية شوطاً بعيداً وبلغ فيها شأواً رفيعاً حتى سبق بقية الأمم التي وُجدت قبله، ولم يرَ منذ نشأته في أدوار حياته إلا حسن الحال وسعادة العيش ـ دع ما كان من تذمر تلك العجوز (يعني إنكلترا) منه وحقدها عليه حيناً من الأحيان ـ ولم يرَ من سائر العالم إلا قلوباً راضية ووجوهاً باسمة، ولم يرثْ قط شيئاً من أضغان القرون وأحقاد التاريخ التي تفسد أخلاق الأمم وتؤذي طباعها.

وكان الإقدام في سيرته ملازماً له والنجاح في كل حال قرب يده ـ هذا الجيل كان ينبغي له أن يكون متمتعاً بتمام الصحة وكمال القوة وجمال الشبوبية، ولكنه قد أصبح جسمه متأكلاً وداؤه عضالاً، وظهرت عليه تلك القرحة الخبيثة قرحة الرشوة فأفسدت دمه وشوشت بنيته وشوهت خلقته، وأصبح هذا الجيل الذي وُلد بالأمس متشبعاً بجراثيم الأمراض القتالة المنبثة في الأمم التي هرمت وشاخت ووقعت في دور الانحطاط والانحلال وأصبح لا إله له إلا الدينار، ولا ربّ إلا الدرهم، ولم يبق في اعتباره من عظماء الرجال وأشرافهم عنده إلا طبقة واحدة هم أصحاب المليارات والملايين، ولو كانوا من أهل الغارة وقطّاع الطرق، ولم يكن عنده من طبقة عالية رفيعة إلا اللصوص والسّراق الذين يصبحون أصحاب المليارات والملايين، وقد ترك عاصمة بلاده التي هي ثالثة العواصم في العالم فخامة وجلالة في قبضة من اللصوص، وقطاع الطرق يضعون مناصب العدالة، ووظائف القضاء في المزايدة ليغتنمها المغالي بها، ويعهد بإدارة المحافظة على الأرواح والأموال في بلاده إلى المساوم الأرجح، ويسلم زمام أموره كلها إلى يد شركة يكفي النطق باسمها للدلالة على أعظم القبائح، وأفظع المخزيات في هذا العالم

فشركة «تماني» هي القيصر الذي يدير أكبر بلدة في أكبر جمهورية في العالم، فإذا كانت هذه عقبى المدنية والحرية التي يجب أن ينتشر نورها على العالم فما أسوأ حظ العالم، وما أقبح الحرية والمدنية، انتهى.

✍ **ستيفان لوزان**



أغوال المدنية وعشاق الموتى[1]

[١]

جاءتنا الجرائد الفرنسوية في البريد الأخير تقص على التتابع في أعدادها حادثة ننقلها عنها كما ترى:

«استشعر بعض أهالي قرية «موي» من قرى فرنسا برائحة كريهة تنتشر من دار أحد الجيران فذهبوا إليه يستخبرونه الخبر فبحث معهم عن مصدر الرائحة، فاكتشفوا في جرن الدار جثة طفلة تبلغ من العمر أربع سنوات منفشجة الفخذين منفصلة الرأس، فبادر رب الدار إلى رجال الشرطة، فأخبرهم بما عنده فألقوا عليه القبض مع امرأته وابنه المسمى «أرديسون» البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، ولما أعاد رجال الشرطة البحث في الدار وجدوا بها آثار أكفان ووجدوا بها أيضاً رأساً من رؤوس الموتى، ثم اتضح في ابتداء التحقيق إن صاحب الدار وامرأته يجهلان جلية الأمر ثم انتهى التحقيق مع ابنهما «أرديسون» بإقراره أنه صاحب الفعلة وأنه كان يذهب في داجية الليل إلى مقبرة القرية فينبش القبور ويستخرج منها جثث من مات حديثاً من العذارى والفتيات ليفسق بهن، واعترف بأنه دخل المقبرة في مساء اليوم الذي دفنت فيه جثة هذه الطفلة المسماة «لويز مارتين» المتوفاة بمرض الإلتهاب الرئوي في (١٢) سبتمبر الماضي فنبش قبرها، ووضعها في ملحفة وحملها إلى داره فوضعها في

---

(١) ١١ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠١م.

الجرن حيث كان يفعل بها الفاحشة آناً بعد آن، وقد ثبت من التحقيق أنه ابتدأ في ارتكاب هذه الجرائم منذ عودته من الخدمة بالجيش في (٢٠) فبراير سنة (١٩٠١م)، فنبش أحد المدافن عن جثة فتاة تبلغ الرابعة عشرة من العمر، ثم ثنىّ في (٢٨) إبريل بجثة فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، ثم ثلَّث في (١٢) سبتمبر بهذه الطفلة «لويز مارتين» في الرابعة من عمرها.

أما الجثة الأولى: فإنه لما دنا منها وجد بها قرحة في الفخذ أنف معها من إتيانها. وأما الثانية: فإنه فعل بها فعلته في المقبرة ثم فصل الرأس عن الجثة، وأخذها معه إلى داره ليتمتع بتقبيلها في أوقات خلوته كما قاله بلسانه وتلك هي الرأس التي وجدت مع جثة الطفلة، وأما الثالثة: فهي هذه الطفلة، فإنه حملها إلى داره للتمتع بها في ليله ونهاره».

«ولكن ظهر بدقة البحث بعد ذلك إن هذا الشاب لم يقتصر على تلك الفعلات الثلاث بل أتى كثيراً من أمثالها قبل دخوله الخدمة العسكرية مما يفوق العشرات في جثث الثائبات والأبكار».

هذا هو تفصيل الحادثة مختصرة ملخصة ولو كانت أول حادثة وقعت من هذا القبيل وكانت وحيدة في بابها لم يكن هناك محل للاهتمام بها والاشتغال بأمرها، وكانت تلحق بأفعال المجانين الذين يشتد بهم الجنون، فيأتون من الأفعال بنوادر المستغربات، ولكن الداهية العظمى والبلية الكبرى على المدنية الغربية أن مثل هذه الحادثة متعدد الوقوع، وأنه قد سبقها كثير من أخواتها، وأن إفراط الغربيين وتأنقهم في الشهوات أدى بهم إلى ما لا يدخل تحت التصور؛ من إتيان المنكرات، وأن هناك فئة بذاتها يشغفها حب الموتى كما يشغف سواها حب الأحياء

بما لم يسمع بمثله في قرون الهمجية الوحشية ولا في عصور الترف أيام الدولة الرومانية ولا في طبقات أدنى الطبقات الحيوانية.

وقد ذهب أحد محرري الجرائد الشهيرة الفرنسوية عند وقوع هذه الحادثة إلى الدكتور «جارنييه» طبيب الشرطة في باريس ليحادثه في أمر هذه الحادثة وتوالي وقوع أمثالها للوقوف على أسبابها فكان مما أجابه به قوله:

«قد تقرر لدى العلماء اليوم أنه يعتري الطبيعة الشهوانية من كثرة الإفراط في الشهوات فساد وزيفان يدفع ببعض الناس دفعاً لا يستطاع رده ويقسرهم على إتيان الفاحشة مع الموتى، فيعمدون إلى نبش المقابر واستخراج الجثث لإطفاء شهوتهم فيها مهما كانوا محاطين بالأخطار التي لا يبالون بها، وأكثر ما تميل نفوسهم في الجثث إلى الولائد والفتيات، وأرى أن حادثة «أوديسون» هذه داخلة في دائرة ما يسميه العلماء بشهوة «عشق الموتى» (Néerophilie).

وقد اتضح على العموم أن هذا الفساد يعتري الإنسان منذ سن المراهقة قبل البلوغ فينمو فيه ويظهر أثره حتى يستولي عليه ويتمكن من التسلط على إرادته فيقذف به دافع الشهوة إلى تلك المهواة.

والعلماء يفرقون في هذه الأحوال بين من يكون إتيانه لهذا المنكر ناشئاً عن فقد القوى العقلية وتبلد الإدراك فيكون الاندفاع إليه على العمى بدون إرادة ولا تبصر، وبين من يكون إتيانه له ناشئاً عن فساد الطبيعة الشهوانية كما قدمنا مدفوعاً باستيلاء الشهوة على نفسه، وإن كان يتعقل ويدرك ويقدّر النتيجة ويجتهد للامتناع عن إتيانها ولكن يغلبه على ذلك حدة الشهوة وقوة استمساكها بإرادته، وهذه الحالة هي المسماة بالقوة المخبلة للنفس القاهرة لحرية الإرادة، وينبغي عند وقوع مثل هذه

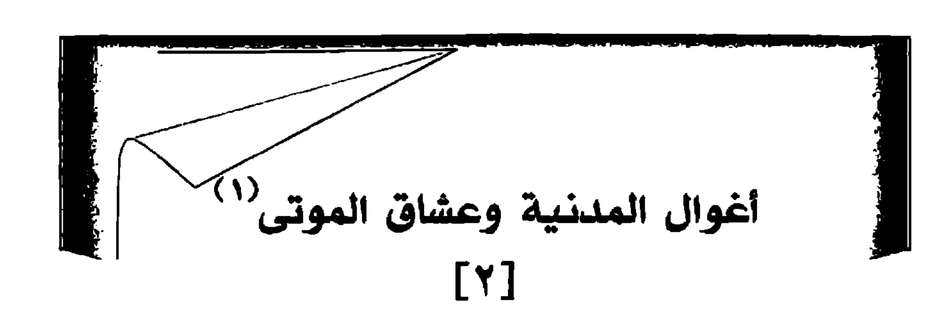
الحوادث البحث أولاً في الشخص من جهة الغريزة ومن جهة التربية، فإذا توضحت فيه هذه القوة القاهرة واستولى عليه هذا الداء فقد سقطت عنه المسؤولية وارتفعت الكلفة؛ لأنه لم يأت ما أتاه إلا وهو مقصور على إتيانه غير حر في الامتناع عنه. كما أنه لا بد من الالتفات في هذه الوقائع إلى نسبتها لما نطلق عليه اسم (Sali-fétichisme) وهو زيغان القوة الشهوانية البهيمية وميل النفس إلى عبادة الأجسام (وعبادة الأجسام مذهب قديم عند بعض القبائل المتوحشة في أفريقيا يعمد الواحد منهم إلى القطعة من الحجر والعود من النبات والعضو من الحيوان فيتخذه معبوداً له) ومن تتبع آثار أولئك الأشخاص في إيقاعهم بالموتى واختيارهم لأعضاء دون أعضاء من الأجسام حكم بأن الشهوة الدافعة إلى مثل هذه الحوادث؛ من تجزئة الجثث وتقطيع الأعضاء هي داخلة في حكم عبادة الأجسام كما قطعت به المشاهدات الطبية العلمية، فهذه الحالة المعروفة بعشق الموتى هي الرغبة في مصاحبة الرمم، وملامستها وهذه الرغبة هي الدافع وحدها لارتكاب ما ارتكبه «ارديسون» الذي اعترف بأنه كان يجد لذة في تقبيل رأس الفتاة المنفصلة عن جسمها».

ثم انتقل هذا المحرر نفسه من ديوان الشرطة إلى مستشفى الأمراض العصبية حيث قابل رئيسه الدكتور «فوازين» فأيد له أقوال الدكتور «جارنييه» وزاد عليها قوله:

«إن أرديسون هذا من طبقة الذين فسدت طبائعهم وزاغت أميالهم الغريزية فاندفعوا إلى التطرف بدافع الرذائل التي ورثوها عن آبائهم، وليس ثم من علاج لهذا الداء وما يتجدد عنه من فظائع الوقائع إلا طريقة واحدة وهي الاحتياط في مداركتها، ويلزم لذلك تربية طبية خاصة في مدارس تؤسس لهذا الغرض يدخلها كل من ظهر عليه البله وزيغان

الطبيعة وفساد الأخلاق الموروث، وبهذا وحده يمكن التخلص من نتائج هذا الفساد الذي لا ينجع فيه تعليم المعلم ولا مراقبة الأقارب، وإنما ينجع فيه التربية التي يكون من شأنها تقويم الأفكار المعوجة والرغائب القبيحة، وحجز الرذائل والشهوات الفاسدة عن الوصول إلى غاياتها وإيقافها عند حدها».

هذا هو رأي أشهر الأطباء من أهل باريس في كلامهم عن هذا الداء الذي سئلوا عنه بمناسبة حادثة «أرديسون» وبين أيدينا كتاب حديث من تأليف أحد علماء الأخلاق وأشهر الكتَّاب؛ وضعه في شرح ما وصلت إليه الحال من الإفراط في الشهوات البهيمية عند بعض الفرنسويين وفساد الطبيعة وزيغان الشهوة؛ منذراً بسوء العاقبة، وملأه من الوقائع والنوادر بما لا يدنس قلم شرقي بتسطيره ولا تقبل أذن المتوحش الإفريقي أن تنصت له، بل ربما فضل عنده العمى على البصر والصمم على السمع، وقد ورد في بعض أبوابه باب خاص لهذا الداء الذي وضعوا له اسم (Vampirisme) نسبة إلى حيوان خرافي معروف عندهم يخرج من بين الموتى ليمتص دماء الأحياء؛ مما يستدل منه على أن هذا الأمر أمر شائع بينهم معروف عندهم ننقل منه للقراء، في العدد الآتي ما يسمح به المقام إن شاء الله.



أغوال المدنية وعشاق الموتى(١)

[٢]

قال المسيو «ليتوتاكسيل» في كتابه الذي وضعه في فساد الطبيعة وزيغان الشهوة عند بعض أهل المدنية الغربية في كلامه عن تعشق الموتى:

«إن أفظع ما سمع به سامع هذه الشهوة المريعة الفظيعة التي يطلقون على المهوَّسين بها اسم «Vampipsme»(٢) ذلك الحيوان الذي يزعمون أنه يخرج من بين الأموات ليمتص دماء الأحياء فيعمدون إلى نبش القبور وإتيان الموتى، ويقول عنها الدكتور «پول مورو ده تور»: «إنها غاية ما تصل إليه الشهوة البهيمية من الفساد، وهي تدل على أن أصحابها مصابون بأقصى درجات الخلل في القوى العقلية وإن كانوا في ظاهر أمرهم من أمتن الناس عقولاً» ويطلق على هؤلاء المصابين بهذا الداء عدة أسماء، منها: اسم « »(٣) الرجل المستذئب، وهو في الأصل اسم لمن يصاب بنوع معروف من أنواع الجنون يخيل لصاحبه أنه أصبح في الخلقة ذئباً. ومنها: « »(٤) عاشق الموتى، ومن عجيب

---

(١) ١٨ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠١م.

(٢) كذا في الأصل، وما كتبه المويلحي في هذا الشأن أغرب ما في تاريخ الدنيا بأسرها، ولولا أنه ينقل عن أوروبيين ويذكر مصادره ما صدقناه، فإن ما أورده لا يُعلل، وحتى إذا قلنا: إن الفاعل مجنون فإن هذا لا يكفي.

(٣) (٤) ألفاظ أعجمية، غير موجودة بالأصل، ولعل الأولى: «Lycanthrope».

أمرهم أنهم يعتذرون عن إتيانهم لهذا المنكر؛ بأن هناك قوة قاسرة قاهرة تطرأ على إرادتهم فتسوقهم إلى مباشرة هذا الأمر قضاء عليهم مقضياً لا حيلة لهم في رده. ويقول بعض الأطباء: أنه لا بد أن يظهر من البحث في أمرهم واستقراء حوادثهم الماضية أن هذا الداء نتيجة عيب موروث لهم عن أسلافهم، وبالجملة فإن هذا الفساد الفظيع مما يتعلق بعلم البحث في الأمراض العقلية وعللها وأعراضها، وذهب العلماء في تحديده وتعليله مذاهب شتى كثر فيها الجدال وطالت المناقشة في شأنه بينهم. ونأتي الآن على ذكر بعض الوقائع التي وقعت من هذا القبيل نموذجاً لسائرها في هذا الباب.

«أثبت» بريبرده بوامون «في الغازيت الطبية» أن فتاة من أسرة شريفة تبلغ من العمر ست عشرة سنة ماتت بين أهلها، وبينما هم يقضون ليلهم في البكاء والعويل إذ سمعوا صوت شيء من الأثاث سقط إلى الأرض في حجرة الميتة، فأسرعت والدتها إليها وإذا هي برجل قفز من سرير الميتة وحاول الفرار وليس على بدنه سوى قميص النوم فصاحت مذعورة فاجتمع إليها أهل البيت، وتمكنوا من القبض على الرجل وكان على درجة من الذهول لا يعي معها على شيء مما حوله، وكانوا كلما سألوه عن أمره لا يجيبهم إلا بأجوبة مبهمة، وكانوا أول ما خطر لهم في شأنه أنه لص، ولكن صرفهم عن هذا الخاطر ما رأوه من هيئة لباسه وما شاهدوه فيه من بعض العلامات المريبة، فذهبوا إلى سرير الميتة فوجدوا بالجثة أثر الفسق والفجور بها أمراراً متعددة، ثم ظهر بعد ذلك من التحقيق أن هذا الأثيم خدع الحارسة عن الجثة بشيء من المال وانكشف من أمر هذا الشاب؛ أنه ينتسب إلى أسرة نبيلة غنية في البلدة، وأنه تربى تربية عالية في سعة من العيش وبسطة من الرزق، وأن هذه الفعلة لم تكن

بأول فعلاته؛ إذ اتضح في محاكمته أمام المحكمة أنه كان يندس في حجرات الموتى من الفتيات كلما أمكنته الفرصة من ذلك فحكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد.

ومن هذه الوقائع ما جاء في تقرير رفعه الموسيو «بيدور» إلى جمعية العلوم الطبية وهو أن أحد أهالي «تروا» من مدن فرنسا كان يعمل في الأرض فمرت به فتاة فهجم عليها وأراد الفاحشة بها على مشهد من نفر كانوا هناك، فأمسكوا به وعدّوه مجنوناً وألحقوه بمستشفى المجانين فظهر عليه ذلك الداء الخبيث هناك، كان يترقب غفلة الحراس ويدخل إلى قاعة الموتى كلما علم بوجود جثة امرأة فيها، فيفعل بها تلك الفعلة الشنعاء، وكان يباهي في حديثه بفظائعه غير شاعر بقبح هذا العمل وشناعته، ولما وقف أمام مدير المستشفى شرح له كل ما أتاه من هذا العمل شرحاً بيناً، فوضع المراقبة عليه وشدد فيها فلم يمنعه ذلك من ابتكار الحيل للوصول إلى غرضه، فكان يختلس المفاتيح من الأبواب ويجربها في باب القاعة حتى يجد بينها ما يفتحه، ولما أعجز المدير أمره نقله إلى مستشفى آخر لا يتيسر له إتيان فعله فيه.

وقصة الجاويش برتران مشهورة معلومة، فإنه كان ينبش القبور ويفسق بالجثث وقد نشر الدكتور «تارديو» الرسائل التي كان يرسلها ذلك الجاويش من سجنه إلى الدكتور «مارشال ده كالفي» يشرح له فيها تفصيل ما ارتكبه من فظائع الوقائع التي لا تحصى، نذكر منها واحدة وهي بنصها مما حكاه عن نفسه في إحدى تلك الرسائل قال:

«لما انتقلت مع الفرقة التي كنت بها إلى مدينة «دوي» أحسست ذات ليلة بدافع من نفسي يدفعني إلى نبش قبور الموتى والعبث بأعضائها، ولم أتمالك أن عزمت على الذهاب إلى المقبرة في نحو

الساعة التاسعة حيث لا يسمح لأحد من الجنود بالخروج من أبواب المدينة فتخيرت جانباً متخرباً من السور وتسلقته إلى الخارج، فاعترضني الخندق في عرض أربعة أمتار يجري فيه الماء يكاد يتجمد من شدة البرد، فخلعت ثيابي وقذفت بها إلى الجانب الآخر ولما وصلت إلى المقبرة بدأت في الحفر حتى عثرت على جثة فتاة بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من العمر، فكانت هذه الجثة هي أول جثة أتيت معها الفجور، وإني لأعجز أن أصف ما كنت أشعر به من اللذة التي لا تماثلها أعظم لذة في ملامسة الأحياء من النساء، فكنت أقبل الجثة وأضمها إليّ بشغف عظيم من جميع أطرافها، وبالاختصار فقد كان مني لها من الملاعبة والمداعبة ما يكون من العاشق الولهان لمعشوقته، ولما انقضت حاجتي منها أخذت أقطع الجثة إرباً وأغمس يدي في أحشائها، وبعد ذلك جمعت الأشلاء إلى بعضها وأعدتها إلى القبر وهلت التراب عليه ثم عدت من طريقي على نحو الحالة التي جئت بها. ثم انتقلت مع الفرقة بعد خمسة أيام من هذه الحادثة إلى مدينة «ليل» فأقمنا بها شهراً حدث لي في خلاله أربع حوادث من هذا القبيل، وانتقلنا من «ليل» إلى مدينة «دولنس» وأقمنا بها أربعة أشهر لم يتيسر لي فيها إطفاء لوعتي ولا مرة واحدة؛ لأن أرض المقبرة هناك كانت صلبة جداً وعالجت الحفر فيها مراراً إلى أن دميت مني الأظافر ولم أظفر ببغيتي حتى عدنا إلى باريس».

وبقي الجاويش برتران مستمراً على سيرته تلك مع الأموات في باريس، وكان أكثر تردده على مقبرة «مونمارتر» ومقبرة «مونپارناس» وقد أعيا الرقباء أمره وعجز رجال الشرطة عن مفاجأته حتى اهتدوا إلى أن يضعوا له المصائد في الأسوار بالآلات النارية وبذلك تيسر لهم القبض

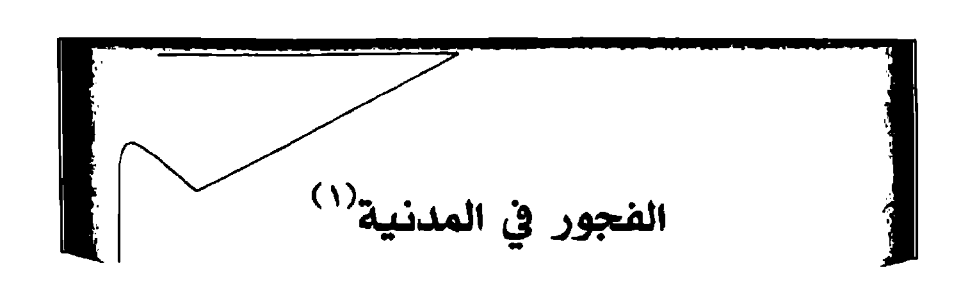
عليه بعد أن أصابه جرح من تلك الآلات في تسلقه السور آخر الليل وكانت نهاية أمره أن حكمت عليه المحاكم بالسجن المؤبد، وقد بلغ عدد ما فجر به من الرمم والرفات مائة جثة فيها المنتن والمتجيف.

ولقد بلغت الدهشة من رجال فرقته مبلغاً عظيماً حين انكشف لهم أمره وعلموا أن ذاك الوحش المفترس صاحب تلك الفعلات الشنعاء، هو الجاويش برتران مثال النزاهة والاستقامة بينهم، وعنوان الجد والنشاط فيهم، والمشار إليه بحسن السيرة عندهم بما جعله محبوباً من رؤسائه مبجلاً عند مرؤوسيه.

وأعجب من وقوع هذه الوقائع أن رجال الشرطة في مراقبتهم بيوت الفاحشة في باريس يعلمون أن مثل هذا الفعل الشنيع مما يكثر وقوعه فيها، ولا يعترضون عليه ولا يتعرضون لمنعه ولأجل هذا قد كلفت نفسي ما كلفتها من تدنيس القلم بسرد ما مر بك لتقشعر أبدان الذين يجهلونه فيلجئوا الحكومة إلى منع ما يجري في تلك البيوت، وإن كنت أيها القارىء قد راعك ما قصصته عليك واشمأزت نفسك منه فأزيدك أن الحكومة تعلم بهذا الأمر وقد صرحت به منذ ثمان سنوات، وطريقته أن أصحاب بيوت الفاحشة يعدون حجرة خاصة لمن يتعشقون الموتى من طرّاق أبوابهم، فيكسون حيطانها بالسواد ويضعون فيها كل ما كان من علامات الحداد والحزن، وفي وسطها نعش مكلل مزين فيه امرأة من بغايا البيت متماوتة مسجاة لا تبدي حراكاً، وحوله الشموع موقدة في الشمعدانات الفضة، وفي كل ركن من أركان الحجرة مجامر الطيب يسطع دخانها، ويحيط بالنعش آنية تلتهب بمزيج من الملح والكحول ينعكس ضوءه على النعش فيصبغ الفتاة بلون الأموات صفرة في بياض، فإذا جاء أحد المصابين بداء عشق الموتى ونقد صاحبة البيت عشرة من

الذهب مفروضة على من يروم قضاء شهوته في تلك الحجرة أدخلوه إليها فبدأ بالركوع أمام المركع المقام عند مدخلها، على صوت الأرغن الموضوع وراء الستر بنغم الموتى المحزن المعروف في الكنائس، ثم يقع هذا الوحش الضاري على الفتاة التي تناهت في محاكاة الأموات فلا تتحرك أقل حركة مهما صنع بها ذلك الفاجر»، انتهى.

هذا ما أمكننا أن ننقله لحضرات القراء من ذلك الكتاب الغريب في بابه، المشحون بعجائب الوقائع مما يشهد على بعض أهل المدنية الغربية بالتناهي في إتيان المنكرات والغلو في وجوه الفسق والفجور، وخروجهم الخروج الشنيع عن حد الطبيعة ومقتضى الفطرة بإفراطهم في أسباب الترفه والرفه حتى فسدت الأبدان، واختل التصور، وضلت الحلوم، وزاغت الشهوات، وفضلتهم حشرات الأرض وحيواناتها الضارية. ونحن نطلب من القراء الكرام قبول المعذرة عن نشر ما نشرناه من هذه الوقائع المعيبة، والحوادث الشنيعة، فإنما ألجأ إليه ما نراه من المصلحة لأهل الشرق بتبيين فساد هذه المدنية الغربية، وإنهم إن شاهدوا من أعمال الغربيين في سياساتهم، ومعاملاتهم في حربهم، وسلمهم الفظيع الشنيع فإن في عيشهم ونعيمهم، ولهوهم ولعبهم وشهواتهم ولذاتهم ما هو أقبح وأفظع وأشنع وأبشع.



الفجور في المدنية[1]

نشرنا ما نشرناه عن تغالي أهل المدنية الغربية في وجوه الفسق والفجور وتهالكهم على استجلاب الملاذ من أبواب الفظاعة والشناعة، ولا تكاد تقع العين على جريدة من الجرائد الأوروبية في كل بريد إلا وفيها حوادث ووقائع تبهر العقل وتدهش اللب من هذا القبيل حتى عظم الأمر وجل الخطب وانصرف هم الدول الغربية أنفسها إلى التفكير والتدبير في علاج يوقف سير الداء ويخفف من وطأته، وفاق اشتغالها به اشتغالها بمهام السياسة في الحرب والسلام وأصبحنا نسمع بتداول المخابرات بينها لعقد مؤتمر لتخفيف الفسق ولمخابراتها في عقد مؤتمر برلين أو عقد مؤتمر لاهي، وقد نشرت جريدة التيمس أخيراً هذا التلغراف الوارد لها من سان بطرسبورغ ونصه:

«دعت الحكومة الفرنسوية سائر الدول لإرسال مندوبين عنها ليكونوا أعضاء في المؤتمر الذي سيعقد للبحث عن خير الطرق في مقاومة انتشار الفسق، ويقال إن جميع الدول قبلت تلك الدعوة واهتمت بوضع التقارير الوافية في الإحصاء ونحوه لعرضها على المؤتمر، ومن المحتمل أن يتم انعقاده بباريس في أثناء هذا الشتاء، وهنا يجب حمد الحكومة الروسية على مبادرتها لإجابة هذه الدعوة ولكونها أصبحت من أشد الدول اهتماماً بدرء المضار الناشئة عن هذا الداء الفظيع خصوصاً

---

(١) ١٣ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠١م.

وإن القيصر مشهور بأنه من أكبر المساعدين والمبادرين لعمل كل ما من شأنه أن يضع حداً لانتشار الفسق والفجور، وأول ما كان من اهتمام دولة روسيا بالأمر أنها قررت أن يكون عمر البغايا من الفتيات في بيوت الفجور لا ينقص عن عشرين سنة بدل إن كان ستة عشر عاماً، ووضعت من الجزاء على أصحاب تلك البيوت إن خالفوا هذا التحديد غرامة جسيمة مع إغلاق بيوتهم»، انتهى.

وكيف لا تهتم الدول مثل هذا الاهتمام بملاقاة فضائح الفسق والفجور وقد أحست بسوء عواقبه وأضرار نتائجه على الأمم والحكومات معاً؟! وأول ما استشعرت به ضعف النسل ونقصان عدد السكان على وتيرة إن دام الأمر على ما هو عليه انتهى بالخراب والدمار على الأمم الغربية، وبالضعف والزوال على قوتها في مدنيتها، وأهم ما يشتغل مجلس الشيوخ في فرنسا به الآن تأليف لجنة للبحث عن الأسباب الموصلة إلى تدارك هذا النقص وتوقيف حركته.

وكيف لا يهتم الغربيون بمداركة ما هو شائع بينهم من الفسق والفجور وقد دب دبيبه من مكامن الملاهي والملاعب إلى أشرف أماكن التهذيب وأسنى أعمال البر والخير وأعظم مواطن التأديب والتثقيف؟!، واسمع بعض ما يخطب به أحد أعضاء المجلس البلدي في باريس فوق منبر الخطابة على رؤوس الأشهاد، في كلامه عن ملاجىء الخير ومآوى الإحسان ودور تربية الأطفال من اللقطاء واليتامى التي تديرها الحكومة الفرنسوية ويراقبها موظفوها. قال:

«لا يخفى أن مقاطعة السين وحدها تعول خمسين ألف طفل من اللقطاء وتنفق على إدارة ملاجئهم نحو مليون جنيه في العام، وقد تعهدت في العام الماضي بصفتي عضواً في البلدية وبصفتي طبيباً من الأطباء

بعض فروع هذه الإدارة في جهة «نييفر» فرأيت من أمرها ما هالني وأدهشني من أشنع الفضائح وأسوأ المقابح، ويبلغ عدد هذه الفروع نحو أربعة وأربعين فرعاً منها الفروع التي تبدأ بتربية الأطفال اللقطاء، فإذا عثرت بلقيط وضعته في مكان معد لذلك في شارع «دانفير روشرو» وبعد زمن قليل ترسل به إلى جهات الأرياف فتضعه في حضانة من تأجرهن من المراضع، فيتربى الطفل عندهن حتى يبلغ سن الثالثة عشرة، ثم ينقل ذكراً كان أو أنثى إلى فروع أخرى من شأنها أن تتوسط له في الاشتغال بالأجرة عند المزارعين أو تضعه في خدمة أهل البيوت، فيأخذ الصانع منهم ثلثي ما يستحقه من الكسب ويدخر الثلث الآخر عند مديري هذه الفروع لوضعه في صناديق التوفير ليستولي عليه بعد تجاوزه سن العشرين.

ولقد أصبحت هذه الفروع محلاً لارتكاب الموبقات ومصدراً لأنواع الفحش والفجور، وقد علمت في أثناء التنقيب عنها أن أحد المديرين المكلف بمراقبة ما تحت يده من الفتيات وملاحظة حسن سيرتهن يرتكب معهن أفضح الفضائح وأفظع الفظائع ويكرههن على البغاء، وأن الكثير سواء من المديرين يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم كثيراً من الحوادث الشنيعة التي يأتيها أهل البيوت مع من يخدمهم منهن، وقد تحققت إن في كل خمس وعشرين منهن خمساً قد حملن مسافحة، وعلمت أن فيهن من اجتمع عليها الوالد وابنه بطريق القهر والإكراه وشاهدت عشر بنات قد وضعن حملهن في مستشفى «نييڤر» ورأيت مثلهن عدداً كثيراً في مستشفيات «ديسيز» و«سان پيير ده موتي» ومنهن من يخيرن بين قبول ما يطلبه منهن أولياؤهن من الفحشاء أو بين الطرد والإبعاد حيث لا يجدن مأوى ولا قوتاً فينتهين بقبول ما يراد بهن من رذائل

الشهوات، وقد انتشرت بين الذكور والإناث على السواء عدوى الأدواء الملازمة للفحش والفجور وصار الأمر معترفاً به مقبولاً فتعينت له فئة من الأطباء للفحص والمعالجة».

«وعلى هذا فإن ملاجئ اللقطاء صارت منابت للقطاء وسارت إدارة هذه الملاجئ الخيرية على عكس المقصود منها، فإنها بدل أن تخفف من ويلات الزنا وحفظ ما في يدها بتربية الصيانة والعفاف باتت محلاً لتوليد اللقطاء من اللقطاء، ونمو عدد الأدعياء من الأدعياء وتلك حال لا يجوز السكوت عليها ولا يليق في دفع شرورها غير الانتفاض إلى اتخاذ الوسائل التي يقضي بها واجب التهذيب والتربية المفروض في مثل هذه الأعمال الخيرية»، انتهى.

هذا هو حال التغالي في الشهوات وانتشار رذائلها قد تغلغلت في جوف هذه الأماكن الخيرية التي طالما حسد عليها أهل الشرق أهل الغرب، ولا نزال نعيِّر بعضنا بعضاً بسبق الغربيين لنا فيها وتخاذلنا عن السعي في انتشارها بيننا، وهذه حال الأماكن التي يفخر بها الغربيون ويتباهون على سائر البشر بحسن الصنع وجميل السيرة في إسداء المعروف وبذل البر والإحسان، فما ظنك بالحال في ما عدا ذلك من الأماكن والطبقات؟!، فلا غرو أن يهتز لدفع هذا التيار عظماء السياسيين وتتعاون أفكارهم لوضع طريقة يضعف بها هذا الويل ويخف هذا الشر.

داء الافتراس عند الافتراش[1]

تشتغل الجرائد الباريسية الواردة في البريد الأخير بالكلام عن محاكمة شخص اسمه «هنري فيدال» على ما ارتكبه من الجرائم التي وصل إلى الحكومة علمها، وبلغ عددها إلى اليوم ست وقائع بين قتل وشروع في قتل، وقد وضح أن السبب الدافع لهذا الجاني على هذا الاجترام داخل في باب فساد الطبيعة وزيغان الشهوة الذي يصاب به بعض أهل المدنية الغربية إصابة السعر والجنون من شدة تغاليهم في أساليب الفجور وإفراطهم في ضروب الفسق وتفننهم في أبواب الشهوات، وقد ارتكب هذا المجرم ما ارتكبه في أشخاص النساء دون الرجال مدفوعاً إلى فعله بدافع حب الافتراس لهن وأكثر ما كان يختار لذلك بيوت الفواجر، وبلغ عدد قتلاه فيها خمس نساء على ما اتصل بالتحقيق إلى اليوم.

وليس هذا المجرم بالوحيد في بابه من هذا القبيل في أوروبا فقد سبقه منذ سنوات شبيه به اسمه «جاك قاتل النساء» حار في أمره رجال الشرطة الإنكليزية في لوندره زمناً طويلاً ولم يتمكنوا من القبض عليه وهو دائر على بيوت الفاحشة يفجر بالفاجرة، ثم يمثل بها في القتل تاركاً عليها حليها وجواهرها غير طامع في شيء منها إذ لا غرض له إلا إطفاء

(١) ٢٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٠٢م.

شهوته في محبة القتل وهوى الافتراس، حتى بلغ عدد قتلاه أربعين امرأة ولم يتصل علم رجال الشرطة بمرتكب هذه الفظائع من جهة البحث والتنقيب عنه، وإنما كان هو الذي يدل على نفسه بنفسه فيترك عند كل حادثة أثراً له ليعلم به.

والباحثون من علماء الأخلاق في المدنية الغربية يرون في تعدد مثل هذه الحوادث داء معلوماً ومذهباً معروفاً عندهم مثل ذلك المذهب الذي كتبنا عنه منذ أشهر تحت عنوان: «أغوال المدنية وعشاق الموتى» وهو يسمى عندهم بمذهب الساديسم «Le Sadisme» نسبة إلى اسم المركيز «ده ساد» ابن أحد كبار السياسيين الفرنسويين، وأول الواضعين فيهم لهذا المذهب، وكان رجلاً منصرف الفكر إلى الفتن في أبواب التلذذ والتنعم، عظيم التهالك على الإفراط في الشهوات غريب الأعمال والأفعال والنوادر فيها.

فمن ضمن نوادره على ما ننقله من كتاب المسيو «ليوتاكسيل» في مفاسد المدنية: أنه أمر أحد غلمانه يوماً أن يأتيه بعاهرتين من بيوت الفاحشة إلى بعض قصوره في ضواحي باريس، وبينما هو ذاهب إلى القصر أعجبته في طريقه فتاة أخرى فراودها للعشاء معه في ذلك القصر فأجابت دعوته ولما استقر بهما المجلس أمرها بتجريد الثياب وهو يحرر أنبوبة الغدارة على صدرها تهديداً لها، فلما أطاعت أمره أمسك بيديها فربطهما وأوثقها كتافاً ثم قام عليها بالسوط يضربها ضرباً مبرحاً حتى أدمى جسدها بالجروح، ولما امتلأ بصره بمنظر الدماء تسيل من أطرافها أخرج من جيبه حقاً فيه شيء من المرهم فطلاها به ثم تركها على هذه الحال وذهب إلى المرأتين اللتين جاء بهما الغلام وكانتا في انتظاره فقضى معهما بقية ليلته، وباتت تلك المسكينة ليلتها تعالج الفكاك من

رباطها حتى تمكنت عند الصباح من التخلص من قيودها، فألقت بنفسها من إحدى النوافذ وبقيت طريحة على الأرض حتى اجتمع حولها جماعة من المارة فتداركوا حالتها وسألوها قصتها، فأخبرتهم بها فدخلوا على الماركيز فوجدوه في أشد حالات السكر بين يدي العاهرتين ورفعوا أمره إلى الحكومة فسجن أياماً ودفع مبلغاً من المال استرضاء لتلك الفتاة وأهلها.

ومن نوادره أيضاً أنه استهوى أخت امرأته ثم سافر بها إلى إيتاليا ثم تركها هناك في بعض لياليه وذهب مع غلامه إلى بعض بيوت الفاحشة، فأقام له هناك مجلس أنس ودفع إلى كل واحدة من النساء قطعة من الحلوى كان قد دس فيها الذراريح (الذباب الهندي) فوقع لهن من التهيج والتسعر ما أفضى بهن إلى مرض بعضهن وموت البعض الآخر، ولما وقع في يد القضاء حكم عليه هو وغلامه بالسجن المؤبد في بعض القلاع، فأقام بها ستة أشهر ثم تمكن من الفرار وعاد إلى البلاد الفرنسوية واستأنف فيها من شنيع أعماله وسيء أفعاله ما تقشعر له الأبدان، وأعجبه مجلسه مع تلك المومسات في إيتاليا، فأراد أن يستعيده مع الأهل والأصحاب في فرنسا فأعدَّ وليمة عظيمة للرقص دعا إليها جانباً من الكبراء مع نسائهم ولما دخلوا حجرة الأكل في نصف الليل تناولوا في ضمن ما تناولوه أقراصاً من حلوى «الشوكولاته» تحتوي على جزء عظيم من الذراريح، ولما انتهوا من الطعام صاروا جميعاً إلى حال غريبة في التهيج واستعار الشهوة والخروج عن طور الإنسانية نساءً ورجالاً وزال من بينهم الحياء والخجل ووصلوا إلى درجة الوحوش الضواري في هياجها عند الافتراس، فتمزقت الثياب وتناثرت الأعضاء وسالت على الأرض

الدماء، ووقف الكافر يتلذذ بهذا المنظر الفظيع حتى إذا حان أن ينشقّ الليل عن فجره عمد إلى الفرار وانتهى ذلك المجلس بموت عدة من النساء والرجال الذين حضروا إليه.

وأقام هذا الفاجر في الاختفاء زمناً طويلاً، فلم يقف على خبره أحد حتى سمع بعض المارة ذات يوم صوت أنين واستغاثة خارجاً من بعض البيوت الصغيرة فتزاحم الناس على الجدران وكسروا الباب وصعدوا إلى موضع الصوت، فوجدوا امرأة مطروحة على الأرض في إحدى الحجرات متجردة من لباسها مكتفة بالحبال غريقة في بحر من الدم، ولما تفقدوا جسدها وجدوه منتقشاً بالجروح الخفيفة من رأسها إلى قدمها فحلوا وثاقها، ولما أفاقت من غشيتها قصت على الحاضرين: أن ذلك المركيز الشهير استدرجها إلى هذا المنزل ويعد أن تناولت معه العشاء أمر غلمانه بشد وثاقها على المائدة بعد أن خلعوا عنها ثيابها ثم أمر أحدهم أن يشرط جسدها بالمبضع ففعل ذلك بجميع جسمها وجعله كالوشم له، ثم أمر جميع الخدم بالانصراف واختلى بها وهي على تلك الحال خلوة الرجل بالمرأة ثم تركها بعد أن قضى منها غرضه وذهب مع غلمانه إلى حيث لا تعلم.

ومن عجيب أمر هذا المجرم أنه لم يخجل مرة من هذه القبائح أو ينكرها بل كان يتبجح بها ويدعو الناس إلى إتيانها والاقتداء به، وكان الرجل من أصحاب الأقلام والتصانيف فوضع عدة كتب وروايات يشرح فيها هذه الفظائع على سبيل القصة المحمودة وينشر تلك القبائح نشر الأفعال الممدوحة ويغالي فيها بما شاء من وصف مجالس الأنس وموائد اللهو التي تبتديء فيها المغازلة مع النساء بتجريح الخدود وإدماء النهود وجدع الأنوف وخلع الضروس ونزع الشعور وصلم الآذان ثم تنتهي

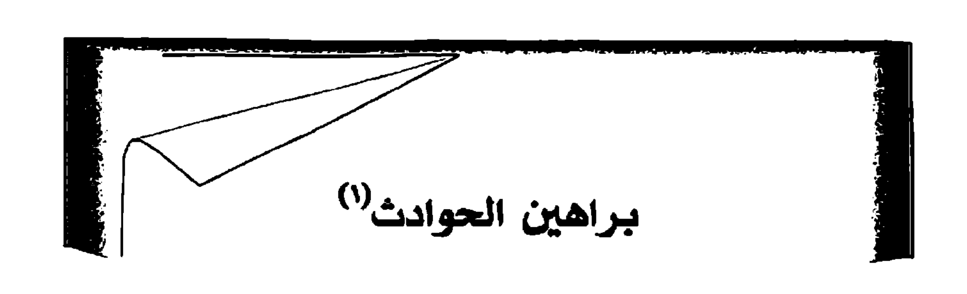
بشرب المدام في الجماجم وخضب المناديل بالدماء وتمزيق الثياب طرباً من أنين الجرحى وشهيق الموتى.

وقد قال الموسيو «جول جانين» أحد مشاهير الكتبة الناقدين لمن سأله عن أحد تصانيف هذا الماركيز: «إذا أردت أن تعرف مجمل ما في هذا الكتاب فتصور مكاناً تعرض فيه عليك جثث القتلى مضرجة بالدماء، وأعضاء الأطفال تمزق في حجور أمهاتهم، وثدي الكواعب تنزع عن صدورهن، ورسل العذاب يسكبون الدماء في الأقداح ممزوجة بالخمر، وآلات العذاب قائمة هناك مقام آلات الطرب من صنوف الجذوع والصلبان، والجلاد حولها يضرب الرقاب ويدق الأعناق ويمزق الأشلاء وينتزع الأحشاء فذلك هو كتاب الرجل».

ولما كان هذا المذهب في التلذذ يميل إليه بعض أصحاب الأذواق الفاسدة والشهوة الزائغة من أهل المدنية فقد عمد اليوم أهل بيوت الفاحشة في باريس إلى تمثيل بعض تلك الفظائع فيها وتخييل بعض تلك القبائح لمن يهواها من الوفود عليها والقصاد لها، فتجد هناك في بعض الحجرات ما شئت من العصي والسياط والحدائد لمباشرة تلك الشهوة السبعية فتأتي المرأة متجردة من ثيابها، فيأخذ المغرم بها سوطاً من السياط أو عصى من العصي فيضربها حتى تنتهي منها شهوته وقد يتلطف في الأمر في بعض تلك البيوت فتكون السياط والعصي مصنوعة بطريقة لا تؤلم الجسم وإن كان يصدر عن وقعها صوت الضرب كالتي يتخذها لذلك أهل اللعب والمصارعة في بعض الملاهي والملاعب فتسلم المرأة من الأذى ويتمتع الرجل بخيال الإيلام لها.

وقد انتهى هذا الكلام منقولاً عن ذلك الكتاب قاصدين به الاستدلال على ما نزال نكرر القول فيه وننبه النفوس إليه من أضرار

التغالي في هذه المدنية وما يرثه عنها أصحابها من الرذائل والنقائص التي تجل عنها الإنسانية وتأباها الحيوانية وليضاهي أهل الشرق ما يظهر من محاسن الأعمال فيها بما يبطن من المساوىء فينتهوا عن التقليد الأعمى وينتبهوا إلى التمسك بقديمهم الذي هو أفضل لهم وأسمى.



براهين الحوادث[1]

إذا وقع في بلاد الدولة العلية ما يكثر وقوعه في سائر البلاد من عزل والٍ أو سجن مجرم أو نفي مفسد أو إطفاء فتنة، رأينا الجرائد الأوروبية تبالغ في التشنيع عليها وتسيء التشهير بها وترميها بالوحشية والهمجية وتنادي عليها بأنها نقطة سوداء في صحيفة المدنية، ويقوم أهل السياسة والخطابة يؤيدون آراءهم وأفكارهم ويحكمون حكماً قاطعاً بأنه لا استقامة للمدنية بين دول أوروبا إلا بسلخ هذه الدولة عنها وإخراجها منها، وأن من أكبر العار على أهل المدنية الغربية تساهلهم في بقائها بينهم على هذه الحالة من الخلل والفساد، ويدفعون بالحكومات للتدخل في أمور الدولة العلية بما لا يسوغه لهم نظام عند وقوع أدنى شيء من تلك الحوادث بعلة حماية أهل الدين المسيحي من رعايا الدولة ورفع ما يزعمونه من التنكيل بهم وتحامل أهل الدين الإسلامي عليهم ويحتجون عند كل مداخلة بأنه لا دافع لهم فيها إلا الأخذ بناصر العدل وشدة الحنو والرحمة على النوع الإنساني، وهو كذب منهم محض وبهتان صرف ينكشف أمره للناظر يوماً بعد يوم، وآناً بعد آن بما تجري به الحوادث في داخلية الدول الأخرى، فإنا نرى فيها من سوء الوقائع ما لا يقع أقله في البلاد العثمانية، فلا تكتب الجرائد الأوروبية عنه كلمة انتقاد ولا يشير أهل السياسة عنده إشارة اعتراض، ولا نسمع نداء بالرأفة

(١) ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩٠٢م.

والشفقة ولا استصراخاً لأهل الحضارة والمدنية، والحقيقة أن ما يدفعهم للتشنيع على الدولة هو كامن الأحقاد والأضغان في الصدور والتهاب العداوات في القلوب على من خالفهم في الجنس والدين من الأمم الشرقية خصوصاً إذا كان لها معهم في التاريخ وقائع مشهورة وثارات مذكورة فهم لذلك يترقبون للنكاية بالدولة كل فرصة، ويدورون وراء كيد الإسلام والمسلمين بكل طريقة.

وطالما أردفنا الدليل بالدليل في هذا الباب، وأعقبنا الشاهد بالشاهد من الحوادث على بطلان دعوى الغربيين في انطلاق ألسنتهم بألفاظ الإصلاح والإنصاف وحذرنا أهل المشرق من الركون إلى أقوالهم والوقوع في حبائلهم، ومما تزيد به الحجة بياناً والحقيقة وضوحاً ما نراه اليوم من سكون الدول الغربية التي يتمشدق أهلها بألفاظ العدل والإنصاف، وخدمة الإنسانية عما عظم خطبه وانتشر شره من الفتن والثورات ووقائع الظلم والجور في داخلية بعض الممالك الغربية الملاصقة لها في الجوار.

فهذه دولة إسبانيا قد وقع فيها بالأمس ما وقع من الحروب الداخلية إذ قام الأهالي قيام اليائسين المستميتين من شدة ما بهم من الجوع والحرمان وكثرة ما يحيط بهم من الظلم والعدوان، فكان جوابهم من الحكومة إرسال الجنود عليهم تضع فيهم اليد بالسيف والرمح، وتقذفهم بنيران البنادق والمدافع حتى امتلأت الطرقات بجثث القتلى والجرحى من النساء والأطفال والكهول والشيوخ، وسالت الدماء في شوارع المدن تجري فيها كالأنهار مختلطة بما يجري من دموع اليتامى والأيامى وأهل الثكل والحزن، واستمر الأمر على ذلك أياماً طويلة والجرائد الغربية تذكر أخبار هذه الحوادث وتسطر أوصاف

هذه الفظائع وتمثلها للعيان بالرسم والتصوير، فإذا اطلع المطلع عليها جادت عينه بالدمع وضاق صدره من الهم ولم ير مع ذلك في هذه الجرائد والصحف كلمة حنان واسترحام، أو لفظة استنجاد واستعطاف ولم نسمع أن أحداً من أهل السياسة الدولية وكبار خطبائها قام يدعو الدول للمداخلة في أمور الدولة الإسبانية وهي من أضعف الدول جانباً وأدناها مكاناً وأقربها إلى قبول النصيحة في كف الأذى عن رعاياها بالتسليم والإذعان.

وهذه مملكة البلجيك لا تزال تسفك فيها دماء الأهالي بأيدي الجنود وأوامر حكامهم إلى اليوم، وانتشر من أخبار تلك الحرب الأهلية في إحصاء القتلى والجرحى ما ينتشر على العالم مثله من أخبار الوقائع الحربية بين دولة إنكلترة وجمهورية الترنسفال، ولم نجد أحداً من أهل السياسة الغربية كذلك يلتفت لفتة حنو وإشفاق إلى أولئك الضعفاء والمساكين الذين امتلأت الطرق بأشلائهم وضاقت المستشفيات عن معالجة جرحاهم مع صغر المملكة البلجيكية ودخولها تحت الكفالة الدولية.

وهذه الدولة الروسية لا تزال قائمة على قاعدة الاستبداد والاستعباد يتصرف أهل الحكومة في أهاليها تصرف الموالي في العبيد وأهل الغارات في السبايا، ونيران المظالم تستقر فيهم من كل جانب حتى امتلأت تلك المقاطعة مقاطعة التعذيب بالزمهرير بأهل الطبقات المختلفة في الأمة الروسية من أدناها إلى أعلاها، وتخربت بعض المدائن الروسية بما عمرت به أرض سيبريا، فلم يكتف أرباب الأقلام وأهل السياسة في الدول المتمدنة بالسكون والإغماض عن هذه الفظائع اليومية التي تجري على أعينهم وبمشهد منهم بل تراهم لا يجري لهم قلم، ولا ينطلق لهم

لسان إلا بتعظيم الدولة الروسية وتفخيم قدرها والسعي في التزلف إليها والتقرب منها وكثرة المبالغة في الثناء عليها والتمدح بأفعالها في قوة الحكم والسياسة، وهي في نفس الأمر من تعاظم الخلل في داخليتها وانتشار الفتن في أرجائها على حالة لا تلبث أن تنتهي بها إلى الضعف والوهن وتعقب لها الخراب والدمار، فإن نفوس الأهالي قد ضاقت عن احتمال الظلم والجور ويئسوا كل اليأس من الحياة وحلا لهم مر الحمام عما هم فيه من العيش الزؤام، وهموا إلى ميدان النزال مع حكومتهم وإشعال نار الفتن والمجاهرة بالخروج عليها والعصيان لها طلباً لإحدى الراحتين راحة الفناء أو راحة البقاء كما تراه واضحاً من خلال التلغراف الوارد بالأمس من شركة روتر حيث جاء فيه:

بطرسبورج في (٢٣) منه:

«إن ما يجيش الآن في صدور العمال يقلق البال فقد نهبت عصابات من الفلاحين عدة قصور في بلتاوى فمزقت الجنود شملها حالاً وجلدت كل من وقع في قبضتها بلا تحقيق ولا محاكمة، واستعفى الموسيو فرموسكي ناظر المعارف العمومية؛ لأن القيصر أبى أن يصادق على المشروع المتعلق بالإصلاح المدرسي، وهب العمال في ضواحي موسكو للخصومات والفتن، فلما اعترض لهم البوليس قهروه فجاءتهم العساكر فوقع القتال الشديد بينهم وبينها وقتل وجرح جماعة من الفريقين وفعل العمال مثل ذلك في «كيف» وفي أماكن أخرى، ويطلب المعتصبون في كل مكان زيادة أجرتهم وتقصير مدة عملهم وإعطاءهم الحقوق التي يتمتع بها عمال البلاد الأخرى، وسخط الأهالي في هلسنجفورس من إدخال نظام التجنيد الروسي إليها فجرت منازعات شديدة فيها وحمل عساكر القوازق عليهم يضربونهم بالكرابيج، فأضمروا لهم الحقد الشديد،

وقد نشرت إرادة قيصرية تتوعد «فنلندا» بحرمانها ما بقي لها من الاستقلال إذا عارضت في التجنيد بالقرعة»، انتهى.

ومن قبل هذا ما تعدد وقوعه من حوادث الفتك والاغتيال لأكابر الدولة ووزرائها وإلقاء العامة بأيديهم إلى التهلكة تشفياً وانتقاماً من ظلم الظلمة وتخلصاً من شر أهل الجور والاستبداد من حكامهم، فقتلوا كثيراً من الرؤساء وهم في وسط خدمهم وحرسهم، وفي أكناف مجالسهم ودواوينهم، ولم تكد الأرض تجف من دم ناظر المعارف حتى ألحقوا به بالأمس ناظر الداخلية.

ومهما اشتدت الحكومة في معاملتهم قسوة وعاقبتهم بأفظع العقاب وأشنع العذاب فلا يزال سوء العيش يدفع بهم ويثير ثائرة الغضب في نفوسهم، وقد بلغ ما أرسلته الحكومة إلى سيبريا في أثناء هذه الحركات ألفي مظلوم من الشبان والشيب والضعفاء من النساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً حيث يلاقون هناك من نكد العيش، وقلة القوت وبلاء الجو ما لا يعيش فيه حيوان، ويعاملون في منفاهم بأنواع التعذيب والإيلام بما يكون الموت فيه النعمة الكبرى والسعادة العظمى، ومما ترويه الجرائد الأوروبية الواردة في البريد الأخير عن آخر بعثة نفتها الحكومة إلى تلك الأصقاع قول جريدة «الرابيل» الباريسية ضمن رسالة واردة لها من «سان بطرسبورج»:

«فتح تجار موسكو اكتتاباً لمساعدة الطلبة الذين يسافرون قريباً إلى سيبريا؛ لأن الحكومة لا تعطي كل واحد منهم إلا ١٢ روبية في الشهر، ولا يكفي هذا المبلغ إلا لثمن الخبز وحده؛ لأن أسعار المأكولات مرتفعة جداً في تلك البلاد وليس من المنتظر أن يجد هؤلاء المساكين سبيلاً هناك يدفع عنهم الحاجة، وقد تمكن هؤلاء المحسنون من شراء

الملابس اللازمة لمائة وعشرين من المنفيين ويقدر ما جمع في هذا الاكتتاب إلى الآن بمبلغ ٤٤ ألف روبية ولكن هذا المبلغ قليل جداً بجانب عدد الشبان المساكين الذين حكم عليهم بالنفي، فقد بلغ عدد من في السجون منهم ٧٠٠ طالب وعدد الذين يسيرون الآن في الطريق نحو سيبريا الشرقية ٢٠٠ طالب»، انتهى.

فأنت ترى أن الأهالي يترامون على مرارة الموت ترامي الذباب على حلو الطعام لا يهابون عذاباً ولا يخشون عقاباً، ولا يتقون تهمة ولا يمتنعون عن مساعدة من حل بهم غضب الحكومة حتى كاد يتحد الجند بالأهالي في التضرر من هذا البلاء الواقع عليهم، والتعاون مع بعضهم على دفع شروره، ودونك ما نشرته جريدة التيمس في هذا الباب من رسالة وردت لها من فينا:

«نشرت جريدة «النوفري پرس» فصلاً طويلاً جاءها من مصدر روسي على ما نسميه «الحركة الأهلية» وقد حوى هذا الفصل كثيراً من التفصيلات المهمة استلفت فيه كاتبه أنظار القراء إلى استفحال أمر هذه الحركة في تلك البلاد ومما أورده من الشواهد على ذلك: أن رجال الحكومة أمروا فيلقاً من المشاة أن يطلق بنادقه على المتجمهرين في ميدان «قازان» بمدينة سان بطرسبورغ فلم يتحرك جندي لذلك النداء ولم تطلق رصاصة في الهواء، وقد كرر الضابط النداء ثلاث مرات ولكن الجنود بقوا على إبائهم الأول، فلما رأى الضابط ذلك أرجعهم إلى ثكنتهم ولم تجرأ الحكومة على عمل أي تحقيق عن هذا الحادث».

«وقد حدث في «موسكو» و«تولا» كثير من أمثال هذه الحوادث أبى فيها الجنود إطلاق الرصاص على المضربين من العمال وقد أمر ضابط في «تولا» بإعدام أحد الصف ضباط بالرصاص فأعدم في الحال، أما في

سان بطرسبورغ فقد ألقي القبض على كثير من الضباط بتهمة اشتراكهم مع الطلبة والعمال».

«وقد أوجبت أعمال الحكومة سخط الأهالي عموماً بما فيهم الأشراف والمخلصون للأسرة المالكة، فإن البعض منهم قام يعارض الحكومة إذا صح أن يقال بإمكان معارضة للحكومة الروسية»، انتهى.

هذا بعض ما ترويه الجرائد الأوروبية والشركات البرقية وهو كالقطرة من البحر أو الخردلة من الصخر بالنسبة لما تكتمه الحكومة الروسية وتمنع انتشاره وتدأب في المراقبة لإخفائه، وناهيك بقلم المراقبة في تلك البلاد، فإنه قد فاق في التدقيق والتشديد ما يرويه التاريخ عن حكومات الأزمان الغابرة، وما يبالغ فيه المبالغون في حكومات الأزمان الحاضرة، ودونك بعض ما ذكرته عنه جريدة «المآتن» الفرنسوية في بعض أعدادها الأخيرة:

«نعرض اليوم في إدارة الجريدة عدداً من أعداد إحدى الجرائد الروسية واسمها «بريد نيبروفسكي كراي» كدليل من أغرب الأدلة وأعجبها عن أخلاق الأمم وعاداتها، وهذه الجريدة كسائر الجرائد الأخرى خاضعة لما يسمونه المراقبة الجبرية، أي أنه من المحتم على رئيس تحريرها أن يرسل بالأعداد التي تطبع منها إلى مكتب المراقب ليقطع منها ما يريد قطعه ثم يضع مكان المقالات المقطوعة ورقاً أبيض».

«وإذا أراد القراء أن يطلعوا على ما في تلك الجرائد من القطع والحذف واستبدال النبذ بالورق الأبيض فليتفضلوا بالحضور إلى إدارة «المآتن» ليروا هذه الجريدة الروسية التي لم يبق في الصحيفة الثانية منها سوى عمودين ونصف من سبعة أعمدة».

«أما الأربعة أعمدة ونصف الباقية فقد استبدلت بالورق الأبيض ولم

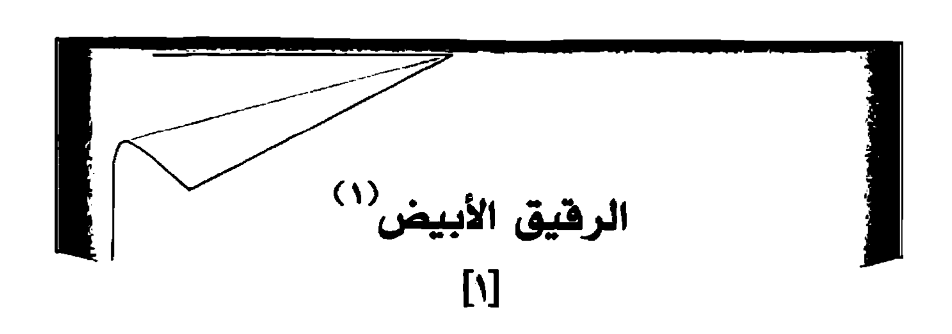
يقف المراقب عند هذا الحد بل حذف الرواية التي تصدر في ذيل الصحيفة وحذف ما يسمونه «خلاصة الجرائد» ولم يترك إلا الربع من الأخبار اليومية والسبع من أخبار البلدية كما أنه لم يترك شيئاً مما له علاقة بالوقائع والجنايات ولا بخلاصة ما حدث في مؤتمر عقد للبحث في ترقية الصناعة في ما يتعلق بشؤون الزراعة».

«ومن ألطف ما يذكر في هذا الباب: أن المراقب ترك عنوان بعض النبذ واسم كاتبيها، وإذا اشتبه في العنوان أتى عليه قطعاً كما أتى على النبذة ولا يبقى في الصحيفة سوى سطرين يدلان على مكان المقالة المقطوعة».

«ولا بد أن هذا مما يسوء محرري الصحف الروسية ولكن كدر القراء منه أكبر وأعظم»، انتهى.

فقد دلتنا الحوادث وكشفت لنا الوقائع بأن الدول الغربية لا ترمي في دعواها لخدمة الإنسانية عند حدوث بعض الحوادث في الدولة العلية إلا لأغراض وأهواء كامنة في النفوس وعداوة وبغضاء متمكنة في الصدور، وأن كثرة التشنيع والاعتراض من الجرائد على أعمال الدولة وشدة الافتراء والبطلان عند ذكر أمورها إنما يقصد به ترويج تلك الأغراض، وشفاء هاتيك الأضغان والأحقاد، إلا أنه مع هذا الوضوح وهذا الظهور لخفايا الأغراض الأوروبية نرى بعض أهل الغرور من العثمانيين يسعون في خروجهم عن رابطة الملة نحو تأييد كيد الأجانب فينا فيصيحون معهم بأن أمور الدولة مختلة وأن أحوالها الداخلية قائمة على الفساد وأن نفي فلان برهان على تمكن الظلم وفي حبس فلان دليل على وقوع الخراب، ومنهم من يستغيثون بالدول الموقعة على معاهدة برلين لمطالبة الدولة بإجراء ذلك الإصلاح المعلوم لتخرج الأمة العثمانية

بزعمهم من الظلمات إلى النور وفي هذه الدول التي يستنجدونها ويستصرخونها دولة روسية التي ذكرنا لك اليوم بعض الشيء عما هو واقع فيها من الظلم والعدوان مما لا يمكن لأهل الإفك والافتراء أن ينسبوا أقله إلى الدولة العلية وإن عظم افتراؤهم وكثر إفكهم.



الرقيق الأبيض[1]

[١]

ما عاب أهل الغرب أهل الشرق في جملة ما يرمونهم به من المعائب والنقائص وسوء انحطاطهم في الإنسانية والتصاقهم بالهمجية بمثل ما يعيبونهم به من بقاء الاسترقاق بينهم، وقد انتهوا في ذلك بعد كثرة التشنيع علينا إلى أن هذا الداء لا يحسم فينا ولا يفيد في شفائنا منه وانتقالنا عنه إلا القوة؛ قوة الحكم السياسي وقوة الحكم القضائي.

وقامت من بين الدول دولة طائرة الصيت بمحبة العدل والإنصاف، فأخذت على نفسها أن تقوم بهذه الخدمة الإنسانية فتمحو الرق من الشرق وسلمت لها بقية الدول في عقد المعاهدات وإجراء أحكامها مع الأمم الشرقية واعتبرتها من بينها؛ كأنها النائبة عن المدنية في إزالة ما بقي من آثار هذه الهمجية، ولقد كان من أنكر ما ينكره أعداء الدين الإسلامي وأكبر ما يكبرونه عليه أن يبيح الرق ويحله، وكم حاول دعاة الدين المسيحي أن يضعوا من قدر الدين الإسلامي بهذه النقيصة في زعمهم. فما ترك رؤساؤهم قولاً يقال خطابة وكتابة إلا ونشروه في أنحاء العالم للتبغيض في الدين الإسلامي والترويج للدين المسيحي حتى دعت الغيرة من بين المسلمين قوماً لوضع الكتب والتصانيف للتنصل من هذه التهمة

---

(١) ١٠ مايو (أيار) ١٩٠٢م.

والتبريء من تلك الوصمة ذهاباً بأنفسهم أن يلتصق بدينهم الذي ينتسبون إليه مثل تلك النقيصة الشنيعة عند الغربيين.

ولكن من لنا في الشرق بدولة كاملة العدة شاكية السلاح تأخذ على نفسها حماية بني الإنسان من شر الاسترقاق الذي نسمع اليوم بأخباره ووقائعه في البلاد الأوروبية، ومن لنا بمن يكتب منا ويخطب في الغربيين فيقول لهم: إن كنتم تعيبوننا بوجود الرق في عاداتنا وإباحة ديننا له لمجرد فظاعة اسمه، فإنما رسخت تلك الفظاعة في أذهانكم من أثر ما كان يجري بينكم من سوء الاسترقاق في الأزمان الماضية، وما اشتهر عنه من التعذيب والإيلام في الدولة الروسية إلى أوائل القرن الماضي، وإن كنتم تستبشعونه فينا لسوء معاملتنا لأهل الرق وانتقالهم من عيشة راضية إلى عيشة سيئة فليس الأمر بيننا على ما تزعمونه، فإن العبد أو الأَمَة إن كان من أهل السودان، فإن في انتقاله من تلك الأرض الجدباء ومن ذلك السعير المضطرم ومن حالة العرى والجوع والجزع والخوف إلى أرض الأمان حيث تتبدل معيشته الهمجية بمعيشة مدنية ينتفع به الناس فيها وينفع نفسه بها كما يؤخذ الوحش من الجبل، فيؤنس ويدجن فيصبح حيواناً نافعاً داجناً بعد أن كان حيواناً مفترساً ضارياً، وإن كان من أهل القوقاز فيا سعده ويا حظه في الانتقال من أدنى المعيشة إلى أرقى ما يصل إليه أهل النعيم في نعيمهم، فإن كان ذكراً فهو من أهل المناصب والمراتب في الممالك، وإن كانت أنثى فهي من أهل الخدور والقصور يكون الواحد منهم اليوم عبداً فينتفض سيداً لسيده، وتكون الواحدة منهن اليوم أَمَة فتصبح من أزواج الأمراء أو من أمهات الملوك. ولكن ماذا تقولون أيها الكتَّاب والخطباء من الغربيين في هذا الرق الذي شاع اليوم أمره بينكم وانتشر ذكره فيكم؟!، فقد قامت للحرائر بينكم سوق يُبْغَنَ فيه

بيع السلعة ويُشْتَرَيْن ويُنْتَقل بهنَّ من أرض الحضارة والعمران إلى أطراف الأقطار والبلدان، وينتزعن من نعيم أوطانهن إلى شقاء الغربة ونكد المعيشة، فيدور بهن جُلَّابهنَّ في الآفاق وراء الجيوش في فتوحاتها يعرضونهن عرض السبايا ويقطعون بهنَّ عرض البحار وبطن القفار تجارة في أيديهم لمن يريد اقتناءها للفسق والفجور وللفاحشة والزنا، وماذا تقولون في ما نقرأه اليوم في كتبكم وصحفكم مسطراً بأقلامكم ومرسوماً بأيديكم في شرح الوقائع التي كثر وقوعها بينكم من مثل هذا الذي نرويه للقراء منقولاً عن أشهر الجرائد الأوروبية بقلم أعظم المحررين من الفرنسويين شاهداً على أن الرق الأسود الذي كان عند الشرقيين هو أسعد حالة وأشرف درجة من الرق الأبيض عند الغربيين؟!. قال الكاتب في جريدة «المآتن» الفرنسوية الواردة في البريد الأخير:

«يتساءل الناس اليوم عما إذا كان في استطاعة المؤتمر الدولي الذي سينعقد في الشهر المقبل بباريس للنظر في مسألة الرقيق الأبيض في أوروبا أن يحل هذا الإشكال ويدفع ذلك الخطب الذي شغل علماء الأخلاق وجماعة الباحثين في إصلاح حال الجمعية البشرية، وما علينا إلا أن ندعو له بالنجاح على كل حال في هذا العمل العظيم حفظاً لشرف الدول الأوروبية والأمم الغربية التي عجزت شرائعها وقوانينها عن مقاومة هذا الفساد المنتشر بينها الآن، فإن القانون الفرنسوي لا يزال خالياً من نص صريح على معاقبة من يتخذ النساء بضاعة تُباع وتُشترى للفسق والفجور، ولا يوجد فيه سوى تلك العقوبة المنصوص عليها في المادة ٣٣٤ المختصة بإغراء من لم يبلغ سن الرشد على الفسق وتعريضه له مشروطاً فيه أن يؤخذ الجاني بجنايته وهو في حال ارتكابه لها، ولا تتوهمن أيها القارىء أن قوانين

بقية البلاد الأوروبية وشرائعها أوسع من الشريعة الفرنسوية مادة وأشفاها في هذا الباب عقاباً».

«ولقد نتج من وراء هذا الإغفال والإهمال أن تكونت بيننا جمعية عظيمة ذات شعب عديدة انتشرت في أنحاء البلاد لا عمل لأعضائها إلا أن يدفعوا بالألوف من النساء إلى مهواة الفحش والبغاء، ولا هم لهم إلا الاتجار بأعراض العذارى لا تأخذهم في أمرهن شفقة ولا رحمة ولا يمنعهم في حرفتهم مانع دين ولا حياء ولهم من وراء ذلك ربح عظيم من دونه ربح النخاسين في الأزمان الغابرة».

«ومما زاد هذا الأمر اتساعاً أن الجمهور بيننا قد غفل عنه ولم يكترث بما يقال فيه لاستبعاده وقوعه وعدم ميله إلى تصديق تلك الوقائع، فكان ينزلها عند اطلاعه عليها منزلة الأقاصيص والروايات الملفقة، لا منزلة الحقائق الثابتة حتى عظمت الحال واشتهرت الحقيقة في آخر الأمر فتشوّه بها وجه المدنية وشين بها شرف الجمعية الأوروبية».

«وما زال شأني في هذه المسألة شأن الجمهور أعتقد المبالغة في كل ما يُقال من هذا القبيل والغلو في كل ما يُحكى حتى ساقتني الأقدار للدخول إلى البحث فيه، فاضطرني ما رأيته من الحوادث وما وقفت عليه من الوقائع للاعتراف بصحة كل ما كان يقال عن هذا الامر وحقيقة كل ما كنت أقرأه وأسمعه فيه ودونك بعض ما رأيت»:

«دخلت ذات يوم إحدى الحانات في أطراف باريس أنتظر صديقاً ضرب لي موعداً هناك فلم أجده فجلست في انتظاره، وبينا أنا كذلك إذ رأيت جملة أشخاص يتعاقبون في دخول الحان فيجلس كل جماعة منهم في ناحية متجاهلين لبعضهم بعضاً، وإن كانوا يتبادلون في ما بينهم من الإشارات الخفية ما يدل على طول المعرفة والاختلاط، فأمعنت فيهم

فإذا هم يشابهون في هيئاتهم صغار الموظفين أو الممولين إلا ثلاثة منهم يدُلّك منظر أجسامهم على أنهم من أهل المصارعة في ميادين اللعب والرهان، ثم لم أشعر إلَّا وقد دخل الحان شخصان على حالة التنكر أحدهما الموسيو «ليبين» مأمور البوليس ومراقب المساكن والثاني مفتشه، فأخذ المفتش ينتقل في الحان من مائدة إلى مائدة ومن جماعة إلى جماعة ثم قام الحاضرون جميعاً يتبعون أثر المفتش والمأمور فخرجت وراءهم استقصاء لخبرهم بعد أن علمت أنهم جميعاً من أهل الشرطة الخفية، وقلت في نفسي لا بد أن يكون في الأمر سر عظيم يتعين عليّ استكشافه، فسرنا حتى انتهى بنا المسير إلى حان آخر فدخله المأمور ثم أبرز وسامه من جيبه وظهره في مظهر وظيفته وأمر الحاضرين هناك أن لا يبرحوا أماكنهم، فَعَلَتْ ضجة لهم في أرجاء الحان ورأيت رجلاً منهم غليظ الجسم قوي البدن قد وقف في وجه المأمور موقف المعارض المدافع فانبرى له من جماعة المأمور أحد أولئك الثلاثة الذين حسبتهم من أهل المصارعة في الحان الأول وأمره أن يجلس ساكناً في مكانه، فخضع وأطاع وأدرك أن ليس في قدرته الممانعة والمقاومة، وانتشر أهل الشرطة في أنحاء الحان على حراسة الحاضرين فيه ثم جلس المأمور على مائدة هناك وبجانبه كاتبه بأدوات الكتابة، وأشار بالخروج على كل من لم يكن له شبهة فيه من الحاضرين عن ذلك المكان مع النصيحة له بأن لا يعود إليه مرة ثانية، فلما وصل إليّ الدور توقفت عن الطاعة فألح عليَّ بالخروج، فلم أقبل منه وقلت له أنا جالس في محل عام وليس في سلطتك القانونية أن تخرجني منه مهما كانت مأموريتك سرية ما دمت لم أحدث فيه ما يخل بالنظام أو الآداب فأسكتّه بهذه الحجة، وجلست بالكره منه بحيث أسمع وأرى، فابتدأ المأمور بالتحقيق مع من أبقاهم من الحاضرين، وظهر لي من أجوبتهم ومن الأوراق التي أبرزوها في

التحقيق أنهم كلهم من المحترفين بحرفة السمسرة في البضائع، ومنهم من أبرز من المكاتبات كالمجلد واردة له من أطراف البلدان الشاسعة بطلب بضاعة «البن» بكميات عظيمة لو صح أمرها لما كانت المقادير الموجودة منها في البلاد الفرنسوية كلها كافية للطلب وافية بالمقصود، فأدركت أنهم اتخذوا أسماء هذه البضائع أسماء يرمزون بها إلى تلك التجارة التي يمارسونها من اصطياد النساء وإرسالهن إلى أنحاء الأقطار للعرض والبيع، وكان من بين الحاضرين امرأة أجابت المأمور في استفهامه عن صناعتها أنها كانت رئيسة ثانية في بيت من بيوت الفاحشة السرية، وأنها تسكن الآن في «أندرسي» مع بقية هؤلاء السماسرة، فأيقنت حينئذٍ أن البضاعة بضاعة نساء، وأن التجارة تجارة رقيق، وأن السمسرة سمسرة قيادة، وأن المخزن والمستودع في قرية «أندرسي» من ضواحي باريس وازددت يقيناً عند خروج المأمور بمن ألقي عليه القبض منهم وقوله لي هذه العبارة في انصرافه:

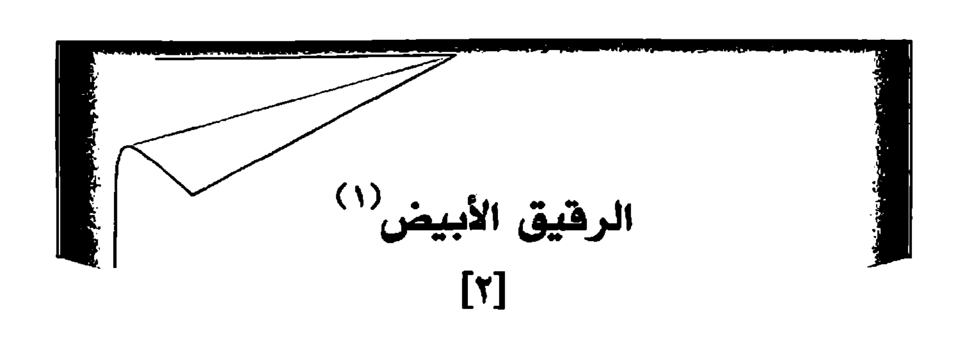
اعلم أن كل ما رأيته وسمعته اليوم في التقاطك للأخبار لا يذكر بجانب ما تجهله من أسرار تلك الوقائع الغريبة، وقد أجبته بقولي:

- لعلني أصبح على معرفة تامة بجلية الأمر إذا ذهبت إلى «أندرسي».

فسكت سكوت المحقق لظني وانصرف عني.

«وقد قصدت قرية «أندرسي» بعد ذلك بأيام للبحث والتنقيب عما يجري من أبواب الحيلة والاصطياد في هذه الناحية التي اختارها أولئك السماسرة مخزناً يرد إليه الرقيق الأبيض من أرجاء فرنسا ويُصدَّر منه إلى أنحاء العالم، وهذه القرية قائمة على شاطىء نهر «السين» الأيمن وأمامها جزيرة صغيرة آهلة بالمساكن الجميلة، ولم أكن أظن من قبل أن هذه

القصور المونقة والدور المزخرفة يرتكب في وسطها كل يوم جريمة من أكبر الجرائم وجناية من أشنع الجنايات، ومن كان يظن أن هذه الجزيرة الرائقة أصبحت سجناً لإكراه الفتيات على البغاء والمتاجرة بأجسامهن، فيرسل بهن ثلة إلى أطراف العالم لاسترقاقهن والتمتع بهن كما صارت جزيرة «ريه» سجناً لأرباب الجرائم الكبيرة يبعث بهم منها إلى جهات النفي والإبعاد في أطراف أمريكا والجزائر الأقيانوسية، واسمع أيها القارىء تفصيل ما أوقفني عليه البحث هناك من غرائب المدهشات»، ومحل ذلك في العدد الآتي.



الرقيق الأبيض[1]

[٢]

قال الكاتب الفرنسوي في جريدة «المآتن» عما شاهده وعاينه في قرية «أندرسي» التي اتخذها المشتغلون بالمتاجرة بالنساء مستودعاً لهم:

«قد تبين لي من جميع ما أوقفني البحث عليه هنا أن أولئك المتاجرين بأعراض النساء اتخذوا قرية «أندرسي» مستقراً لهم وأدخلوا في زمرتهم من فيها من أصحاب الفنادق والمطاعم وجعلوا الجزيرة بضواحيها تحت سلطتهم وتآمروا كلهم على الإخفاء والكتمان، فقامت هناك جميعة عظيمة محكمة التأليف تامة العدة ذات أطراف وشعب لممارسة تلك التجارة ومنهم جماعة يختصون باجتلاب النساء واصطيادهن بالاحتيال على عقولهن والإغراء لهن، ومنهم جماعة يختصون بالمراقبة والتفتيش، وجماعة يختصون بالقيام بأمور السفر والتصدير وبحساب الدخل والخرج، ولهذه الجمعية سماسرة ووكلاء في أطراف العالم وعلى الأخص في أمريكا فينتشر المكلفون بجلب البضائع في باريس على أبواب الحوانيت التجارية التي تستخدم فيها البنات للبيع والشراء، والأماكن التي تجتمع فيها النساء للخدمة والمستشفيات وكاتب البريد وما يماثلها من الأماكن التي تجتمع فيها النساء، فيبذلون ما في جهدهم لإغرائهن، لا فرق عندهم بين الفتاة في الخامسة عشرة من

---

(١) ١٧ مايو (أيار) ١٩٠٢م.

عمرها والنصف في الخامسة والأربعين من سنها ولا بين الشابة الطاهرة والمرأة العاهرة، ولا بين السليمة والسقيمة؛ لأن بينهم من الأطباء من يقومون بمعالجة الأمراض وتطهير «البضائع» فإذا وقع في أيديهم ما شاؤوا من الصيد وضعوا أولئك النساء في فنادق «أندرسي»».

ثم يبدأ المراقبون بترتيب النساء على حسب درجاتهن في الجمال ودرجاتهن في الأعمال ثم يقسمونهن إلى فرقتين، فرقة: اللواتي يعلمن بحقيقة الحال التي أعددن نفوسهن على قبولها، وفرقة: اللواتي وقعن في الشراك بالتمويه والإغراء على جهل بما ينتظرهن من الفضيحة والعار معتقدات أنهن سيجدن من الأعمال ما يخرجهن من ضيق المعيشة إلى اتساعها، فيوكلون بهن امرأة عندهم تلازمهن وتحادثهن بما يخفض من عفتهن عند إجراء «عملية تصدير» هذه البضائع إلى الخارج من «أندرسي» فإذا كان من بينهن من تبدو على وجهها علامات الارتياب ويخشى منها أن تدرك الحقيقة وخافوا منها العدول عن السفر نقلوها من «أندرسي» إلى وسط الجزيرة لتكون هناك بمعزل عن الناس، وعدم التمكن من الهروب إذ تكون تحت مراقبة المراقبين منهم، ثم يؤخذ ما يجتمع منهن هناك فينزلونهن في السفن التي تقصد مينا «بورتسموث» في إنكلترا سواء كان من طريق «الهافر» أو من طريق «شربورج» على حسب ما يرونه من أمان السفر وخلو الطريق من مراقبة الحكومة، فإذا رست السفن الواردة من فرنسا هنالك بحمولتها تلقاها عمال الشركة وخلطوا أولئك النساء بما اجتمع لديهم مما اجتلبوه من أمثالهن من إيرلندا وهولاندا والبلجيك ثم يبعثون بهن قطعاناً قطعاناً إلى جميع الجهات في أطراف العالم، ويقال: إن آخر بعثة سافرت من هذا القبيل إلى الترنسفال يبلغ عددها أربعين امرأة.

ومما وقفت عليه أيضاً في «أندرسي» أن أول عمل يأتيه أعضاء الجمعية مع المستجلبات من تلك النسوة أنهم يختبرون السلع بأنفسهم، فتكون ربات الجمال منهن من نصيب رؤساء الشركة في التجربة ولبقية أعضاء الشركة أن يختاروا بعد ذلك من شاؤوا منهن، وقد يحدث في بعض الأحيان أن بعض النساء إذا أدركن أنهن أخذن للتجارة بأعراضهن في أطراف البلاد احتلن للتخلص من أيدي أرباب الشركة، وقد علمت أن واحدة منهن تمكنت من الفرار قبل أن يمسها أحد منهم بسوء، وأن أخرى هددتهم بأنها ترفع أمرها إلى الحكومة إن لم يطلقوها فخافوا من شرها، فألقوها في نهر «السين» وتخلصوا بموتها من كشف سرهم.

وقد بقي هذا الأمر مكتوماً مضافاً إلى ما يقع من أمثاله كل يوم بإلقاء من يستعصي على الشركة أمرها غذاء لأسماك النهر، وبعد أن يتم لأعضاء الشركة ولرؤسائها اختبار البضائع وتجربتها يأمرون أولئك المساكين بخلع ثيابهن القديمة واستبدالها بملابس جديدة ذات قيمة يعدونها عندهم لتجهيز المسافرات بها ثم يأخذون الملابس القديمة ويقذفون بها في النهر بوضع الأحجار فيها، فتصبح المرأة منهن بعد لبس تلك الملابس ملكاً لأولئك الشياطين يتصرفون فيها كيف شاؤوا؛ لأنها صارت مدينة لهم بثمن تلك الملابس التي يقدرون قيمتها لها بعشرة أمثال الثمن الأصلي، ويأخذون عليها صكاً بالمبلغ مع الالتزام بتسديده من أجرة «العمل» الذي يعينونها لمزاولته، ومن المؤكد أن هذا الدين لا يسدد أبداً بل يزداد وينمو وينتقل مع صاحبته من بلدة إلى بلدة ومن بيت إلى بيت ولا تزال تنوء بحمله إلى أن تسامح فيه بداء يعتريها أو موت يريحها.

وإذا أردت أن تقف على رأي سكان هذه البقعة في أمر هذه

المتاجرة بالأعراض وفي أمر التدابير التي يتخذها شيخ البلدة لوضع حد لهذا العار وفي أمر المراقبة التي يجريها رجال الشرطة، فاعلم أن معظم السكان يجهلون ما يقع بينهم من تلك الفظائع والقبائح وأن شيخ البلدة لا يصدق ما ينقل له عنها، وأن رجال الشرطة رأوا راحتهم في ترك أعضاء الشركة يفعلون ما يشاؤون، ومن الغريب أنهم لم يقفوا عند هذا الحد من الإهمال والإغفال بل تعدوه إلى ما هو أنكى وأدهى، فقد أرسل الموسيو «ليبين» قوميسير البوليس رجلاً من رجاله إلى «أندرسي» ليعمل تحقيقاً عن أمر هذه الشركة هناك بعد الذي رآه في الحان في باريس، فلما بدأ به اعترضه رجال الشرطة في «أندرسي» ويقال: إنهم همُّوا بإلقاء القبض عليه وزجه في السجن لارتكابه جريمة التدخل في شؤون الغير ولولا أن تدخل مدير مقاطعة «السين» لكان المندوب المحقق سجيناً مع المجرمين إلى اليوم.

وما علم أعضاء الشركة بهذا الأمر إلَّا وقرروا في ما بينهم أن ينقطعوا عن العمل ريثما تنتهي الحكومة من الاهتمام بأمرهم وهذا هو السر في أني لم أر منهم واحداً منذ حضوري إلى «أندرسي» لأن سكانها منهم رأوا من الصواب أن ينعكفوا في منازلهم وأن لا يخرجوا منها.

وقد تأكدت أن الفساد شائع في هذه البقعة وأن الأمراض الخبيثة منتشرة بين أهلها، وأكد لي بعضهم أن لرجال هذه الشركة مستودعاً آخر في قرية «جونفيل لوبون» وأنهم حولوا بضائعهم عليه بعد مطاردة الحكومة لهم في «أندرسي».

ولم يكن غرضي من الذهاب إلى «أندرسي» قاصراً على مجرد استطلاع الأخبار بل كان جل همي موجهاً إلى مباغتة رجال هذه الشركة

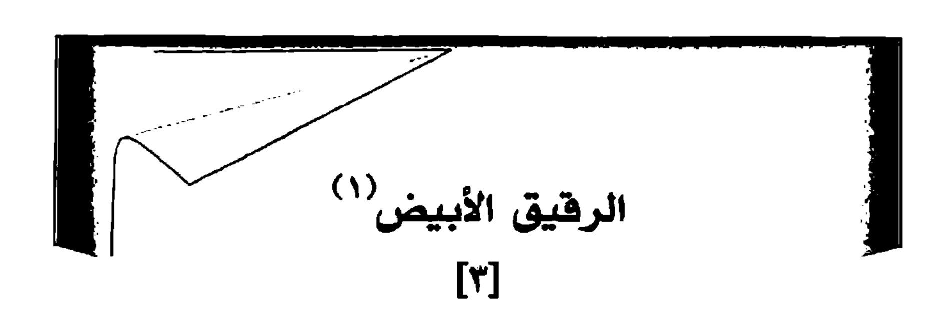
وهم يشتغلون بتجهيز سلعهم، ولما أيقنت أن لا سبيل للحصول على ذلك في قرية «أندرسي» عولت على البحث عنهم في الضواحي مثل «تريل» و«مولان» لعلي أظفر منهم بطلبتي ولكن قبل قيامي من «أندرسي» دخلت إلى نزل هناك بجوار محطة «فين دواز» فرأيت أربعة أشخاص تدل هيئتهم على أنهم من رجال هذه الشركة وقد جلسوا حول مائدة عليها بقية طعام وبجانبهم عدد كثير من زجاجات الخمر الفارغة وأمامهم أقداح مملوءة بالشراب وكانت الخمرة قد لعبت برؤوسهم ووصلت بهم إلى دور الإباحة بالسر والتحدث في شؤون الشركة ولكن دخولي عليهم بغتة أزعجهم فانتقلوا من حالة الجمود والخمود التي كانوا عليها إلى حالة التحمس والغضب والتفتوا إليّ، فلم أبد أقل اهتمام بما رأيت منهم ولم تبد على وجهي أدنى حركة تدل على التأثر أو الاضطراب، ثم طلبت طعاماً وجعلت آكله ببطء شديد وأنا أسمعهم يتحدثون في ما بينهم باللغة العامية المصطلح عليها بينهم ويحاولون أن يخفوا حديثهم عني ولكني علمت مما سمعت من أطراف حديثهم أنهم في حيرة وارتباك من تأخر ورود «الطرود».

وكانت الساعة إذ ذاك في الحادية عشرة ولست أعرف بريداً يسلم «طروداً» في مثل هذه الساعة فعزمت على الانتظار لأرى ما سيكون من أمرهم ثم رأيت أحدهم قد قام من مكانه يقول لأصحابه:

ـ لم يبق لنا من داع للانتظار؛ لأن «الطرود» لا بد أن تكون قد «حجزت» في الطريق فهيًا بنا إلى الراحة والنوم، وكان ميعاد آخِرِ قطار يقوم إلى باريس قد حل، فأسرعت بدفع الحساب وذهبت إلى المحطة، ولما سار بنا القطار نظرت إلى بعض نواحي الفندق فرأيت مركبة واقفة هناك وقد نزل منها ثلاث نسوة فعلمت أنهن «الطرود» المنتظرة التي كان

يخشى عليها أصحابنا من «الحجز» ووقوعها في يد البوليس فأسفت على ضياع هذه الفرصة مني ولكني وجدت خيراً منها في «جوانفيل».

وسيأتي الكلام عن ذلك بعد.



الرقيق الأبيض[1]

[٣]

قال الكاتب في جريدة «المآتن» في تتابع حديثه عن تجارة الرقيق الأبيض في فرنسا:

«ولما وصلت إلى جهة «جوانفيل لبون» التي عزمت على موالاة البحث فيها عن أعمال أولئك المشتغلين بتجارة النساء وجلت في نواحيها عند دخول الظلام استوقف بصري منظر فتاتين جالستين عند حانوت خمار، فقربت منهما وأمعنت فيهما فإذا غلظة أيديهما وأقدامهما تنبيء أنهما من نساء الخدمة في الأرياف، وإن كانت ثيابهما ثياباً قشيبة ناعمة من أحدث طرز وأحسن شكل وبجانبهما عيبتان جديدتان، ورأيت أمامهما رجلاً فظاً غليظاً قبيح الهيئة ثقيل الطلعة هو صاحب الحانوت وقد أخذ يلقي عليهما درساً في الهداية والإرشاد وخطبة في الموعظة والنصح فجلست ناحية بحيث أسمع وأرى، فإذا هو يقول لهما في ما يقول:

ـ انظرا في الأمر قليلاً وتدبرا هل تجدان فيه من وجه معيب؟. لا بل إنني أراه لكما شيئاً بسيطاً وحالاً مألوفة. أو لم يكن لكل واحدة منكما صاحب أو خليل ـ وهل تخلو من ذلك فتاة في عمرها؟.

فأجابته أحداهما: نعم. إن ذلك لواقع، فيقول لهما ذلك الشيطان:

---

(١) ٢٤ مايو (أيار) ١٩٠٢م.

إذاً فما يضر كما لو كان بدل الصاحب ثلاثة وبدل الثلاثة أصحاب عشرة وبدل العشرة مائة صاحب، وما هو الفرق في ذلك وما وجه الرزية في اختلاف العدد قلّ أو كثر ما دامت النتيجة واحدة. لا أرى لكما فيه ضرراً ألبتَّة، وأنت يا فلانة على الأخص ألم تعلمي أن وراءك طفلاً في يد المرضع تتكفل بتربيته وليس في يدك اليوم ما يقوم بإيفاء أجرتها في احتضانه وأنك صائرة إلى معيشة جديدة يسيل الذهب فيها من بين يديك سيلاً فلا تحتاجين من بعدها لما يعول الطفل ويفي بحق المرضيع؟. وأما أنت يا فلانة فإن لم يكن لك طفل تحتاجين للإنفاق عليه في تربيته، فإن من ورائك أباً شيخاً غير قادر على العمل والكسب وليس يكفي للقيام بأوده هذه الدريهمات التي تحصلين عليها بعد الكد والتعب من خدمتك في بيوت الأرياف. أليس الأمر كذلك؟.

فتجيبه: نعم، صدقت.

ثم يأخذ بيديهما قائلاً: ـ فقد وجب حينئذٍ أن تسلما للأمر وتقابلا ما رأيته لكما من المصلحة بحسن الرضى والقبول وهلمَّ بنا نشرب قدحاً على تمام الاقتناع والاتفاق وذاب الخوف والحذر حتى تأتي ساعة السفر.

ثم يأخذهما الخبيث بعد ذلك إلى داخل المكان فيسكب لهما خمراً ويتجه بهما نحو مرآة هناك ويقول لهما:

ـ انظرا إلى جمال هيئتكما وحسن ملابسكما واحكما بعد ذلك بأنكما انتقلتما من حالة الخدمة إلى حالة السيادة ومن هيئة عامة النساء إلى هيئة ذوي الإمارة منهن، هذا غير ما سيكون لكما من الأساور والخواتم والقلائد وصنوف الجواهر والحلي مما تفوقان فيه جميع من تشاهدان من أهل الغنى واليسار بيننا.

فحينئذٍ يضيء التبسم ما أظلم على وجهيهما من الحزن فيختم الرجل المحاورة بقوله بعد أن أحس باستهواء الطمع لهما.

ـ ومع هذا كله فإن ما قلته لكما هو لمجرد محبة الخير وحسن السعي في منفعتكما ولا يزال عندكما الوقت متسعاً لإظهار الرفض والامتناع، ولكن يجب عند ذلك أن تردًا عليّ هذه الملابس وتخلعا عنكما هذه الثياب مع مبلغ الخمسين فرنكاً الذي قدمته لكما.

فتقول له إحداهما: لسنا ممن يرجع في قوله ويتأخر عن تنفيذ كلمته ولكن نحب أن لا يشاع أمرنا بل يؤخذ فيه بالكتمان بين أهلنا وجيراننا.

فيقول لهما الرجل: لكما ذلك وإن شئتما الذهاب إلى أميركا وأعجبكما الرحيل إليها فما عليكما إلا أن تشيرا إشارة واحدة وهذه خمسمائة فرنك هدية في يد كل واحدة منكما.

فتنظران إليه نظر الطامع في المبلغ المتخوف من بعد الشقة ويغلب الخوف على الطمع فيأبيان قبول هذا السفر الطويل.

قال الكاتب: وعند ذلك سمعت دوي مركبة وقفت عند باب الحانوت ونزل منها رجلان تظهر عليهما سيما الخيانة والغدر من خلال حسن الهيئة وجمال الملبس وقالا لصاحب الحانوت:

ـ إن كان قد تمّ الأمر فهلمَّ إلى المركبة.

فدفع الخمَّار بالفتاتين مع العيبتين إلى داخل المركبة في أسرع من لمح البصر وركب أحد الرجلين بجانبهما وركب الآخر بجانب السائق، وأسرعت الخيل في مسيرها تقتحم بهم ظلام الليل الدامس.

هذا وقد كنت أعددت نفسي من قبل على متابعة أثر هؤلاء المسافرين بتلك البضائع إذ علمت أنهم اتخذوا هذا الحانوت مكمناً

تصدر منه هذه البضاعة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع إلى بيت من بيوت الفاحشة في جهة «بيكبوس» فركبت مركبتي وسبقت بها مركبة الفتاتين قاصداً تلك الناحية فوصلت قبلها ببضع دقائق، ونزلت هناك في حان عند مدخل ذلك البيت حيث وجدت فيه عدة نساء للقيام بخدمة الوافدين إليه فما جلست حتى وقفت المركبة التي تحمل الفتاتين واجتاز الرجلان بهما باب الحان إلى باب البيت وقد تقرحت عيونهما من أثر البكاء واصفرّ لونهما من أثر الحزن والوجل، فسألت إحدى اللواتي تقدمن لتقديم المشروب لي في الحان سؤال المتجاهل عن أمر هاتين الفتاتين فقيل لي: هذه بضاعة واردة وبعثة جديدة وسيذهب صاحب الحان في الحال ليباشر فحصها وتطهيرها إن كانت ثمت ما يستدعي ذلك فقلت لها:

ـ وما معنى هذا التطهير مستغربة فأجابتني ضاحكة:

ـ ما رأيت منذ اليوم أجهل منك ألم تعلم بأننا نقيم هنا للشغل ولا يمكن للواحدة منا أن تؤدي واجب العمل حق أدائه إن كان بجسمها علة أو مرض.

فسألتها: وهل يبلغ عددكن هنا كثيراً؟

فأجابتني: يوجد منا هنا خمس أو ست على الدوام، وكلما وردت إلى المكان طائفة صدرت منه طائفة مثلها.

فقلت لها: وإلى أين يكون هذا «التصدير»؟

فأجابتني: إلى جهات شى مثل أوستراليا وغيرها، ولكن لا بد من الإقامة هنا أولاً زمناً قليلاً للتمرين والترويض.

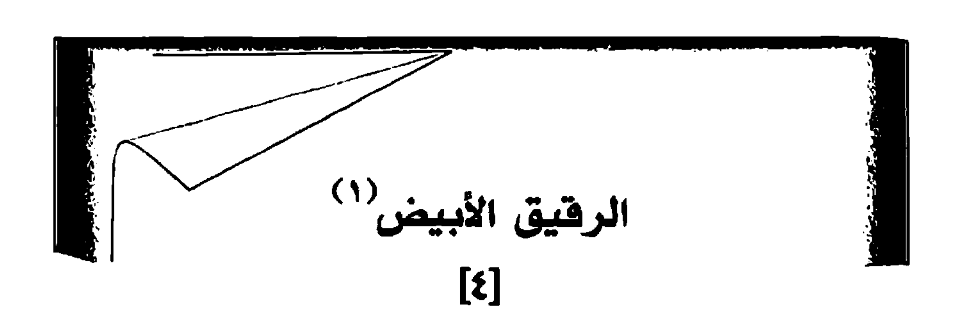
قال الكاتب: وهنا وقعت في أشد ما يكون من الحيرة؛ لا في قدرتي أن أعمل عملاً أنقذ به هاتين الفتاتين مما وقعتا فيه من البلاء

بطريق التحايل والإغراء، ولا ترضى لي نفسي أن أتركهما وأنصرف على هذه الحال ولا تغني الاستعانة برجال الشرطة في هذه الملمة شيئاً، فإن القانون عاجز عن معاقبة مثل هؤلاء المجرمين ولا تتناول مواده إلا من يغري القاصرات من البنات دون من بلغن سن الرشد كما أشرت إلى ذلك في مبدأ القول، فلم يكن في استطاعتي إلا السكوت والصبر واستعمال ما تيسر من الحيلة فدبرت ما دبرته لإنقاذ إحدى الفتاتين إذ وكلت بها في اليوم الثاني من كشف لها عن حقيقة الحال التي ستصير إليها وما ستلاقيه فيها من العار والفضيحة ومذلة الأسر والرق وسهلت لها طريق الفرار، فلجأت إليه، ثم توسطت لها في خدمة تقوم بأود معيشتها مع العفة والصيانة، ولا تتخيلن أيها القارىء أنني أدخل في ما أحكيه لك شيئاً من المبالغة أو المخالفة للواقع، وإن كانت هذه الحوادث تجري مجرى الروايات والأقاصيص في غرابتها والتوائها إلا أن جميع ما ذكرته لك هو الحقيقة بعينها لم أقف عليها من طريق الرواية والنقل ولكن من طريق المشاهدة والعيان، وقد رأيت بعيني وزرت بنفسي أكثر من عشرين مكمناً على شاطىء نهر «المارن» من مثل الذي قصصت عليك خبره في «جوانفيل لبون» وفي جهة «بيكبوس».

وقد شاهدت في «توجان» مرقصاً حافلاً يقام في كل يوم إثنين من كل أسبوع يجتمع فيه فوق الثلاثمائة ما بين رجل وامرأة ليس فيهم عشرة أو عشرون ممن يطلق عليهم لفظ الشرف والاستقامة، وبقية الجمع يتكون من مثل أولئك السماسرة المجرمين ومن جماعة القوادين، والنساء فيه على قسمين: قسم مُرِّن على الفحش والبغاء، وقسم تدبّ فيه عدوى الفساد ليلتحق بأخيه. كما أنني رأيت شاباً جميل الهيئة لطيف المنظر بديع الشكل رفيع المنزلة والقدر يمتلك هناك قصراً جميلاً وله من

المقتنيات الفاخرة والمركبات والخيول ما له قيمة عالية ومعه صاحبة له في عشرته على مثل حالته من البهاء والرواء تشاركه في عمله، ووظيفتها أنها تكثر من الترداد على بيوت التجارة الكبيرة الخاصة بالملابس والأزياء والخياطة والتطريز حيث يكثر فيها عدد الفتيات الممارسات لهذه الصناعات فتتداخل معهن وتستجلب إليها ثقتهن ثم تنصحهن باستبدال حالتهن بحالة أخرى يكون من ورائها ادخار ثروة تنفعهن في مستقبل الأيام وتضمن لهن الحصول على ذلك في أقرب وقت إذا بادرن بالسفر إلى جهات أميركا للاشتغال بصناعتهن في بيوت نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وغيرها من تلك البلدان التي تحتاج إلى أمثالهن فينلن فيها من الأجور العالية ما يبلغهن الغنى والثروة في أقرب زمن.

ومن البديهي أن هذه «البضاعة» التي تتصيدها هذه المرأة بمكرها من فتيات تلك البيوت العالية في التجارة يكون لها من العناية ما ليس لسواها فيتوكل بكل واحدة منهن شاب مهذب مؤدب يصاحبها، ويسافر بها في الدرجة الأولى براً وبحراً في إحدى تلك المدن بأمريكا ويقوم لها بكل ما يسهل لها مشقة السفر حتى يدخلها في بيت كبير للتجارة حقيقية، ولكنه يخالف بقية البيوت التجارية في أنه مغلق الأبواب، محكم الأقفال، ولا تستغرب أيها القارىء إذا قلت لك: إن أصحاب هذه التجارة بالرقيق الأبيض يستخرجون من كل باب، وكل وجهة، ما ينتفعون به في انتشار تجارتهم حتى من باب المحالفة الروسية الفرنسوية وعن قريب أقصُّ عليك شيئاً من هذا القبيل.



الرقيق الأبيض[1]

[٤]

قال الكاتب في جريدة «المآتن» في تتابع حديثه عن الرقيق الأبيض في فرنسا:

«بلغني بعد عودتي من «جوانفيل» إلى باريس أن جماعة من المتاجرين بالرقيق الأبيض يستعدون لإرسال عدد عظيم من النساء قد توفر لديهم إلى إنكلترا ليرسلوهن من هناك إلى مستعمرة «الكاب» حيث التجارة رائجة بين الجنود الإنكليزية المحاربة في ساحات الترنسفال، ولم يخبرني الراوي عن ساعة السفر ولا عن المحطة التي يسافرون منها في باريس، ولكنه أعلمني بأنهم سيقضون عشية سفرهم في نزل بشارع «كليشي» ثم أكد لي أن هؤلاء النسوة يجهلن ما سيكون لهن من الفضيحة والعار وسوء المعيشة بالفحش والبغاء.

فعولت على زيارة ذلك النزل والسعي في كشف الأمر لهن لإنقاذهن من أيدي أولئك الشياطين، فقصدت النزل وأخذت حجرة لقضاء ليلتي فيها.

وبينا أنا أترقب الوقوف على خبرهن إذ سمعت حركة غريبة في الساعة الخامسة صباحاً فأسرعت نحو الباب ففتحته فرأيت الموسيو «ليبين» قومسير البوليس ومن ورائه المفتش فاندهشت غاية الاندهاش من

---

(١) ٣ مايو (أيار) ١٩٠٢م.

رؤيته هناك في مثل هذه الساعة، ولما رآني لم يكن اندهاشه من وجودي بأقل من اندهاشي ثم قال لي: «لا وجه لكم إذاً معشر الكتَّاب في الجرائد أن تتهموا رجال الحكومة بالإهمال والإغفال وقلة الاكتراث بأقوال الجرائد فقد جئت هنا بعد قراءة ما كتبته في جريدة «المآتن» من أخبار بحثك وتنقيبك عن المتاجرين بالرقيق الأبيض إذ علمت بوجود شيء من هذه البضاعة هنا فجئت لإنقاذ تلك الفتيات من أيدي أولئك الوحوش».

«ثم سار الموسيو «ليبين» يتفقد النزل حجرة حجرة وأنا من ورائه حتى وقف أمام حجرة وطرق الباب، فأجابه صوت من الداخل: «من الطارق»، فقال له: «قد حان وقت السفر»، فقيل له: «لا تدخل في الحال بل انتظر ريثما ارتدّ إلى السرير».

ثم فتحنا الباب ودخلنا الحجرة، فرأينا في أنحائها شيئاً كثيراً من الأمتعة والملابس ووجدنا امرأتين نائمتين في السرير وقد شاهدنا على وجهيهما علامة الرعب والاضطراب، فأخذ الموسيو «ليبين» يخفف من حالتهما بلين القول ويقول لهما: «لا تخافا شيئاً فإني من مأموري البوليس وقد أتيت لإنقاذكما من الشر الذي وقعتما فيه».

فما ازدادتا إلا رعباً وفزعاً وبكاء وعويلاً، وأخذتا في الاستعطاف والاستشفاع، وأنهما لم ترتكبا ذنباً ولم تقترفا إثماً، فخفض الموسيو «ليبين» ما أمكنه من روعهما وسأل كل واحدة منهما عن اسمها وعن مقدار عمرها، فأجابته إحداهما: «اسمي لويز، وعمري تسعة عشر عاماً»، وقالت الأخرى: «اسمي إما، وعمري سبعة عشر عاماً».

ثم سألهما: «ما الذي جاء بكما إلى هنا؟» فقالتا: «جئنا هنا لننتظر ساعة السفر إلى «ساوزمبتون» لنرحل من هناك إلى مدينة «الكاب» حيث

ندخل في عداد الراقصات في بعض الملاهي»، فسألهما المأمور: «وهل كان الرقص من صناعتكما» فقالت له لويز: «أما أنا فصناعتي خياطة الملابس» وقالت الثانية: «وإما أنا فصناعتي التطريز» فقال لهما المأمور: «وكيف قبلتما الدخول في حرفة لا علم لكما بها؟»، فأجابت إحداهما: «إن الذين وقعوا معنا على الشروط قالوا: إنهم سيتكفلون بتعليمنا هذا الفن عند وصولنا إلى مدينة الكاب». فقال لهما المأمور: «اعلما يقيناً أنهم لا يعدونكما للرقص ولكن لشيء آخر».

ثم أخذ يشرح للفتاتين حقيقة الأمر وما دبروه لهما من أبواب الحيل، فاعتراهما عند ذلك من الفزع ما لا يوصف. ثم أمرهما بأن يلبسا ثيابهما فقالتا: «ليس عندنا ما نلبسه» فسألهما متعجباً: «وما هذه الملابس التي أراها أمامكما؟!» فقالتا: «إنها ليست ملكاً لنا ولكنها ملابس استحضرها لنا مدير الملهى لنلبسها عند السفر» فقال لهما: «لا مانع يمنعكما من لبسها وهلم معي».

وبعد ذلك انتقلنا من هذه الحجرة إلى أخرى وطرقنا الباب، فأجابتنا امرأة من الداخل بأنه لا يمكنها أن تفتح لنا؛ لأن الموسيو «جورج» قد أغلق القفل وأخذ المفتاح، فذهبنا إلى حجرة الموسيو «جورج» فتوقف عن فتح باب غرفته حتى قال له المأمور: «إني قومسير البوليس فافتح الباب» فخرج إليه، فإذا هو رجل غليظ الجسم قوي البنية، وإذا الحجرة مملوءة بالصناديق وإذا امرأة نائمة في السرير، فسألنا عما نريده، فطلب منه المأمور أن يعطيه مفتاح الحجرة التي تسكنها تلك المرأة وأن يتبعه مع المرأة النائمة في السرير بعد لبس ثيابهما، فأحاله على شريك له في غرفة أخرى اسمه «ده بوكور» فذهبنا إليه فخرج علينا متهوراً متهدداً وزعم أنه صديق الموسيو «كوشفير» مدير النظام وأنه كان

عنده بالأمس وأهداه بمجموعة من طوابع البريد النادرة مما أحضره من الترنسفال، وأنه مدير أحد الملاهي الكبيرة في مدينة «الكاب» ولم يتعرض لأخذ هؤلاء الفتيات إلا بعد أن عقد معهن اتفاقاً قانونياً وأن لا وجه لمأمور البوليس في التهجم على حجرته، وأنه لا بد أن يرفع الشكوى عليه في المحاكم.

فقال له المأمور: «إنك حر في فعل ما تريد ولكن أعطني أولاً مفتاح تلك الحجرة واتبعني مع المرأة النائمة في سريرك» وكانت في السرير فتاة لا تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها قد تولاها الرعب، وتملكها الفزع.

ومن هناك رجعنا إلى الحجرة المغلقة ففتحناها فوجدنا فيها امرأة منفردة وسألناها عن اسمها وعمرها وصناعتها فقالت: إن اسمها «هنريت» وعمرها ثمانية عشر عاماً وصناعتها تجارة الأزياء. ووجدناها هي أيضاً لا تعلم بحقيقة الحال التي ستصير إليها بل قالت لنا مثل أخواتها: إنها متوجهة إلى جهة «الكاب» للدخول في أحد الملاهي بناء على ما اطلعت عليه في الإعلان المنشور في الجرائد وقدمته لنا، فإذا هو بهذا النص: «مستعجل جداً يطلب فتيات للرقص في الملاهي. المخاطبة مع مكتب توكيل قهاوى الغناء نمرة» «شارع سان مرتين من الساعة العاشرة إلى الظهر».

وقالت: إنها توجهت إلى ذلك المكان المذكور في الإعلان فتقابلت مع الموسيو «جورج» والموسيو «ده بوكور» فأخذاها إلى هذا النزل وأمراها بخلع ثيابها أمامهما للبحث في جسمها إن كان خالياً من الأمراض والعاهات حتى تصلح للرقص ثم بعثا بها إلى طبيب في شارع «بريدا» فكشف عليها وأعطاها شهادة هذا نصها: «أشهد أنا الموقع على

هذا أن مدموزيل هنريت سليمة من الأمراض المعدية من كل أجزاء بدنها».

فقال لها المأمور: «كيف سلمت بالكشف عن جميع أجزاء جسمك ولم يأخذك الشك في سوء نية المتعاقدين معك؟!» فقالت: «إن الموسيو «جورج» أخبرني بأنه لا بد من الكشف بهذه الطريقة على كل من تريد السفر على البواخر الإنكليزية اتقاء لعدوى الحمى التيفودية».

قال الكاتب وانتهى الأمر بجمع تلك النساء الموجودات في النزل وأخذهن مع الرجلين إلى دائرة البوليس وهناك كتب المأمور المحضر وأحالهم على قاضي التحقيق المكلف بالنظر في القضايا المتعلقة بالرقيق الأبيض، فأمر بسجن الموسيو «جورج» والموسيو «ده بوكور».

«وقد ظهر من البحث أنه لا أثر لذلك الملهى الموهوم في «الكاب» وأن «بوكور» اتخذ ذلك شراكاً يتصيد به النساء بدعوى استئجارهن للرقص، وإنما يوجد للشركة هناك بيت كبير من بيوت الفاحشة تديره زوجة «جورج» ولما ظهر لقاضي التحقيق أن تلك الفتيات لم يبلغن سن الرشد، فإن أكبرهن لا تبلغ من العمر إلّا تسعة عشر عاماً كتبت إدارة البوليس إلى أهلهن تستدعيهم لتسليمهن إليهم بعد أن ثبت أنهن لا يعلمن من حقيقة الأمر شيئاً، وإنما وقعن في أيدي أولئك الأشرار بطريقة الإعلانات».

ولما هممت بالخروج من مكتب الموسيو «ليبين» إذا برجل شيخ كبير في السن وهو والد أصغر تلك الفتيات قد حضر عندما علم بالأمر فكاد يقضى عليه لساعته من الغم والهم لشناعة الفضيحة التي أصابت ابنته وتناولت شرفه العسكري، فإنه من رجال الجيش الذين خدموا فيه مدة طويلة حتى أحيل على المعاش. وصار الموسيو «ليبين» يهون عليه

من أمره ويخفف من وطأة غضبه وغيظه وحدته في محاولة التنكيل بابنته فلم يسكن غضبه إلا بعد أن تعهدت له الفتاة بأنها لا تترك بيت أبيها بعد اليوم إلا بإذن منه.

«وقد أثر فينا هذا المنظر أشد تأثير حتى غلب البكاء علينا جميعاً وحاولت الكلام مع ذلك الشيخ، فلم أقدر لاختناقي بالبكاء فمددت إليه يدي لأصافحه فقال له الموسيو «ليبين» في جوابه له على عبارات الشكر التي كان يبديها لمداركة فتاته وإنقاذها من العار بقوله: «ويمكنك أيضاً أن تشكر هذا الكاتب فإن الفضل في ما اهتديت إليه اليوم من هذه الفظائع التي ترتكب بمسمع ومرأى منا راجع إلى المقالات التي نشرها حديثاً في جريدة «المآتن»».

«وأغرب من ذلك كله ما وقع عليه نظري عند انصرافي من دائرة البوليس إذ وجدت تلك الفتيات اللواتي تخلصن من العار والفضيحة لا يزلن واقفات مكانهن ينظرن إلى صناديق الثياب والأمتعة التي كانت معدة لهن نظرة الحسرة والندم والرغبة والتشوف حتى ألهاهن منظر الثياب عن منظر آبائهن وأمهاتهن وهم في حالة الحزن الشديد مما وقع لبناتهم من الفضيحة والعار، وكنت ترى الواحدة منهن تقلب بيدها ثياب الحرير قطعة قطعة، وقد بدا على وجهها من شدة الحرص والرغبة ما تكاد تحكم معه أنها ترضى بالرجوع إلى ما كانت عليه طمعاً في الحصول عليها وقلت في نفسي: «لقد علم هؤلاء الأشرار تجار الرقيق من أين تؤخذ النساء وبأي طريقة يسهل خداعهن واجتذاب قلوبهن والتصرف فيهن بمثل هذه الأمتعة الواهية التي لها أعظم قدرة على نفوسهن».

«وقد قابلت بالأمس رجلاً من فضلاء الفرنسويين ولا بد لي من أن أخفي اسمه خشية أن ينتقم منه أولئك التجار فقص عليّ ما شاهده بعينه

ورآه من أعمالهم في جنوب أفريقيا في مدة رواحه وغدوه إليها مما لا مناص لي من ذكره وإن كان يكدر خواطر القراء لما فيه من أسباب العار على أمتنا قال:

«يستغرب القادم على مدينة «الكاب» من كثرة عدد النساء الفرنسويات فيها إذا علم أن العائلات الفرنسوية المستوطنة لها أقل من القليل، ولكنه يذهب استغرابه إذا علم أن جميع أولئك النساء هن من الرقيق الأبيض الذي يجلبه «جورج» و«بوكور» وأمثالهما للفحش والفجور طائفة بعد طائفة حتى ضاقت بهن الطرق والمسالك، وقد تسبب عن كثرتهن بهذه الصفة أن أهل مستعمرة الكاب صاروا لا يسمون المومسة مومسة أو عاهرة بل يطلقون عليها لفظة امرأة فرنسوية، أو بنت فرنسوية وقد أكد لي بعض نساء التجار من الفرنسويين المقيمين في مدينة «الكاب» أنهن إذا مشين في الشوارع لا يتكلمن في ما بينهن إلا باللغة الإنكليزية خشية أن يشتبه أمرهن على المارة فيعتبروهن من العاهرات إذا كان الكلام بينهن جارياً باللغة الفرنسوية، ولا تظن أن الأمر قاصر على مدينة «الكاب» وحدها بل إن هذه الحالة المهينة للأمة الفرنسوية عامة في جميع المدن مثل «بورت أليزابيت» و«إيست لندن» و«دوربان» وغيرها»».

«وقد ازداد عدد هؤلاء النساء منذ الحرب زيادة عظيمة، وإذا كان يوجد في مدينة الكاب ثمانمائة رجل فرنسوي تقيدت أسماؤهم في دفاتر القونصلاتو فإنه يوجد مثل هذه العدد غير مقيد فيها يشتغلون كلهم بالمتاجرة بالنساء».

«وقد صار شارع «أدرلي» ميداناً لعرض النساء الفرنسويات فيه حتى كثرت الشكاوى فاضطر البوليس إلى مطاردتهن من مكان إلى آخر فالتجأن إلى تلك البيوت التي يديرها أمثال زوجة «جورج» ويعلم شأنها من لوحة

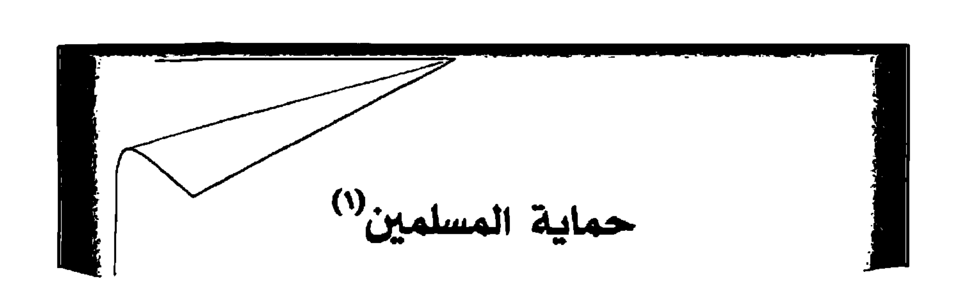
تعلق على الباب مكتوب فيها «مدام فلان متاجرة بالفرنسويات». أما الذين يشتغلون بتوريد البضائع لهذه المنازل فهم جماعة من الفرنسويين قد خصصوا أنفسهم للرواح والغدو بين «الكاب» وأوروبا لاستجلاب ما يسمونه «الماشية» ويتناول كل واحد ألفي فرنك مكافأة على كل امرأة يأتي بها إلى «الكاب»».

«وكم من مرة سافرت إلى جنوب أفريقيا في سفن تحمل مثل هذه الإرساليات من الفرنسويات فيسافرون بهن في الدرجة الثالثة، فإذا كانت السفينة في «ساوزمبتون» أو «بورتسموث» أنزلوهن في أخريات الليل في داخل الغرف من السفينة حتى تقلع وتبعد عن الشاطىء لئلا يشتكين أو يسمع صوتهن، وكثيراً ما كنت اجتهد في إنقاذ من تمكنني الفرصة لإنقاذه منهن وقد استعنت برجال البوليس البورتغالي مرة من المرات لإنقاذ بعضهن في جزيرة «مادير»».

ثم سألت صاحبي هذا: «هل تظن أن الأمة الفرنسوية هي المنفردة وحدها في تصدير هذا الصنف من البضائع دون بقية الأمم؟» فأجابني بأن البلجيك وروسيا وألمانيا تشاركها في ذلك ولكن البضاعة الفرنسوية هي الرائجة هناك لكثرة الرغبة فيها فسألته: «أحقيق ما يقال من أن رجوع الرقيق الأبيض إلى الانتشار في أفريقيا هو بتصريح رسمي من اللورد روبرتس؟» فأجابني: «ما أظن أنه يقبل على التصريح بذلك رسمياً بعد تلك الفضيحة التي أحدثها المنشور الذي أصدره رئيس أركان حربه المايجور شايمن في سنة (٨٦) بإباحة وجود أولئك النساء في ثكنات الجنود الإنكليزية على نفقات الحربية، ولكن ربما كان التصريح بذلك بالسكوت والإغفال».

على أننا لا بد لنا من أن نقر بالفضل لأهله فنقول: إن تأليف

المؤتمر الذي أقيم في لونده قبل الآن للنظر في مسألة الرقيق الأبيض هو من فكرة أهل الخير والإنسانية من الإنكليز وهو الذي أرشدنا إلى إقامة هذا المؤتمر الرسمي في باريس الذي اشتركت فيه كل الدول وسيكون افتتاحه في أوائل الشهر المقبل.



حماية المسلمين[1]

ما وجد أهل السياسة الأوروبية إلى اليوم باباً من أبواب ترويج الأغراض وقضاء المآرب والظفر بالرغائب وشفاء ما في الصدور هو أوسع ولا أرحب من باب حماية المسيحيين في بلاد الدولة العلية والأقطار الإسلامية يسلكون منه في كل حين للتداخل في أمورنا الداخلية بمسوغ شرعي وحجة قائمة ويعتبرونه حقاً من حقوقهم لا يقبل المعارضة ولا يحتمل الرد، وفي الدول الغربية من احتكرت هذا الحق وخصت به نفسها بصفة رسمية مثل الدولة الفرنسوية التي تتلقب بحامية المسيحيين في الشرق، وطالما استعملوا هذا السلاح لمكافحة الدولة العلية وإيقاع الأضرار بها وخروج رعيتها عليها ويكفي إلى اليوم أن يتوصل بعض الأروام أو بعض الأرامنة أو غيرهم من المسيحيين ـ ممن يتطلعون إلى الاستقلال ويرغبون في التخلص من الانتساب لحكومة إسلامية ـ إلى الجرائد الأوروبية فيبتدعوا المفتريات ويخترعوا الأباطيل في تفصيل الظلم الواقع على إخوانهم من حكام الدولة واضطهاد المسلمين لهم فتصيح الجرائد على أهل السياسة ليقوموا بنصرتهم ويطالبوا بإصلاح أحوالهم ثم تجري المخابرات السياسية فيقوم القناصل وينهض السفراء للتشديد والإلحاح على رجال الدولة بالإسراع في مداركة الخَطْب ودفع الملم كما نراه ونسمعه في كل يوم.

---

(١) ١٦ أغسطس (آب) ١٩٠٢م.

ولا شك ولا ريب أن للدولة العلية مثل هذا الحق على الدولة الغربية بل شأنها فيه أعظم وأبلغ؛ لأنها لا تنتحله مثلهن انتحالاً بل هو حق ثابت تخوله لها صفة الخلافة الإسلامية والرئاسة الدينية التي لا ينازعها منهن منازع ولا يعارضها فيها معارض، فإذا هي قامت تطالب به لرفع مظلمة مما يقع على المسلمين في أنحاء المستعمرات الأوروبية لم نخل أن أحداً من أهل السياسة الغربية ينكر عليها مثل هذا الطلب، فإن قلت: نعم إن للدولة مثل هذا الحق ولكن لا يمكن لها أن تستعمله وتطالب به كما يطالبها الدول بالإصلاح في أحوال المسيحيين؛ لأنه ليس لها من القوة مثل ما لهن مما تعتمد عليه في إجابة طلبها وليس من حسن السياسة أن تتعرض للمطالبة بحق لا تقوى على إلزام الدول به.

قلنا لك: إننا شاهدنا بالخبرة والعيان أن الدول الغربية لا تطالب الدولة العلية بمثل هذه المطالب وتبالغ في الإلحاح من أجلها وهي تنوي استعمال القوة معها إن لم تجب الطلب في الحال ولو كان الأمر على غير هذا الوجه لسمعنا بإعلان الحرب على الدولة العلية عقب كل مخابرة بينها وبينهن من هذا القبيل والدليل على ذلك بقاء الشكوى ودوام المطالبة إلى اليوم، فالأمر حينئذٍ قاصر على المخابرات والمكاتبات ولا بأس على الدولة من سلوك سبيله مع الدول ولو لم يجب لها طلب أو يسمع لها قول، فإن لها من ورائه فائدتين: الأولى: أنه ينفتح لها باب جديد من أبواب تسديد المخابرات، فإذا جاءهما السفير الفرنسوي مثلاً يخابرها في إصلاح أحوال المسيحيين من أهل أرمينية قيل له: ونحن نطلب منك الإصلاح كذلك في أحوال المسلمين من أهل الجزائر وإذا جاءها السفير الروسي يطالبها بالإصلاح في أحوال المسيحيين من أهل مقدونيه قيل له: ونحن نطالبك بالإصلاح أيضاً في أحوال المسلمين من

أهل ققفاسية وهلمّ جرّا، والثانية: أنه يتولد من مخابرتها للدول في هذه الشؤون كلما دعتها الحوادث الطارئة إلى ذلك قوة أدبية في نفوس المسلمين في سائر أقطار الأرض ومن بينهم أولئك الضعفاء الذين قضى عليهم الدهر باحتمال المظالم من الحكام الأوروبيين في المستعمرات وهم في سكون واصطبار دائم، فإذا علموا أن من ورائهم من يرفعون إليه شكواهم فيخابر في شأنها الدول ويطالبها برفع أسبابها قويت نفوسهم واشتدت عزائمهم وأنسوا إلى المطالبة بحقوقهم مما لا بد أن ينتفعوا به يوماً من الأيام وربما اضطر الأجانب من كثرة المطالبة وتواتر المخابرة واتقاء سوء السمعة والشهرة فخففوا شيئاً من تلك الأثقال والأحمال التي تئن تحتها كواهل المسلمين.

فقد وجب على الدولة إذاً أن تعمد إلى سلوك هذا الطريق وتفتتح هذا الباب خصوصاً بعد الذي نراه ونسمعه في هذه الأيام من شكوى المسلمين وتفنن الغربيين المتسلطين عليهم في وجوه الاستبداد بهم، وبعد الذي نشرناه لذلك السياسي الفرنسوي في دعوة قومه لمعاملة المسلمين في المستعمرات بقانون خاص بهم يليق لهم وينطبق على انحطاط أخلاقهم وعاداتهم وأصول دينهم، وبعد هذا الذي نسمعه اليوم من حال المسلمين في المستعمرات الهولاندية وشدة الاستبداد بهم في الحكم دون بقية الرعايا من أهل الأديان الأخرى مما يجمد له الدمع حزناً ويذوب القلب أسفاً. كتب إلينا أحد كبار المسلمين من جهة «الجاوه» رسالة طويلة أرسلها إلينا في هذا البريد عن أحوال المسلمين نذكر منها ما يأتي لإطلاع رجال الدولة عليه والعمل على المطالبة بإصلاحها ومكاتبة قناصلها في تلك الجهات للمراقبة عليها والمخابرة بشأنها. قال:

«وإني أذكر لكم بعض الشيء مما يقاسيه المسلمون هنا من سوء

الأحكام الواقعة عليهم من الحكومة الهولاندية على طريق المثال؛ ليعلم أهل الإسلام في بقاع الأرض ما يكنه أهل أوروبا لهم من الأضغان والأحقاد، وأنهم يتربصون الفرص لإطلاق اليد فيهم بالتشفي والانتقام فيأخذونهم دون بقية الرعايا من الأديان المختلفة بأنواع العسف والجور وفنون الظلم والعدوان، فمن ذلك عدم المساواة في الأحكام بين المسلمين وغيرهم من سائر الأجناس وحرمانهم دونهم من التمتع بالقانون العام في البلاد واستثنائهم للإهانة والتحقير بقانون خاص بهم يقال له: «دخلمين»، وهو إن أطلق عليه اسم القانون فليس هو إلا عبارة عن سلطة متسعة في يد الحاكم يتصرف فيها على حسب ما يريده من طرق الاستبداد والظلم وتضييع الحقوق وهدر الدماء، وقد جعلوا فيه للمسلمين من أصناف العقوبات المهينة ما لا يكون الحامل عليه إلا حب النكاية والتنكيل لا حب التأديب والتثقيف، ولا يوجد في أحكامه أدنى تناسب مطلقاً بين الذنب والعقوبة فترى الحاكم يحكم على المسلم بالأشغال الشاقة وجر الأثقال وحمل الأقذار والقمامات في الشوارع ونقلها طول النهار من مكان إلى مكان إذا ارتكب أقل هفوة لا تستوجب إلا أدنى التعزير، وما أفظعه من منظر تنفطر له القلوب وتنهمر الدموع عندما ترى المسلم مسلسلاً يقاد في أنحاء الطرقات والأسواق وهو يحمل الأوساخ فوق رأسه للتمثيل به والتشهير أمام أدنى الطبقات من أدنى الملل والنحل.

ولكن مهما تعدى الأوروبي على المسلم فلا سبيل له عليه ولا قود له منه ولا إنصاف يرتجيه إذا هو طرق أبواب الحكومة للتظلم من سوء أفعاله به. أما إذا راق للأوروبي أن يسحب المسلم إلى المحاكمة على ما يرمي إليه هواه ويحلو له اتهامه به، فإنه يكتفي بإرسال ورقة صغيرة

إلى رئيس المحكمة الخاصة بمحاكمة المسلمين وهي تسمى عندهم «فليس رول» فيساق المسلم في الحال إليها، ومن غريب تفنن الحكام في السخرية والاستهزاء بالمسلمين أنهم يُحتِّمون على الداخل منهم إلى المحكمة أن يخلع نعليه عند دخوله ويجلس على الأرض جاثياً على ركبتيه ليشابه بهيئته في المحكمة هيئته في المسجد وهو على كل حال موثوق اليدين وفوق رأسه حارس غليظ شديد، فإذا رفع المسكين صوته ليدافع عن نفسه ويظهر براءته من التهمة المأفوكة عليه لطمه الحارس بيده وضربه برجله فيخرس عند ذلك وتنتصر عليه حجة الأوروبي، ويأخذ الحاكم بما جاء في الورقة التي أرسلها إليه، ويحكم على هذا البريء المظلوم بما يرضى به ذاك المتعدي الكاذب، وبالجملة فالمسلم حقه مهضوم ودمه مهدور.

«هذا من جهة معاملة الحكومة الهولاندية للمسلمين في الإدارة والقضاء، وأما من جهة معاملتها لهم في الأمور الدينية فذلك أعظم وأبلغ في باب الشدة والعنف وسوء التقييد والتضييق، فقد حظرت على أبناء المسلمين أن يتلقنوا شيئاً من أصول دينهم في مدارسهم ومكاتبهم خصوصاً في البلاد البعيدة مثل «لانفونغ» و«برياغن» وغيرهما من جهات الأرياف، ثم قضت بدخولهم في مدارسها التي يديرها جماعة المبشرين المسيحيين ليتلقنوا فيها التعاليم المسيحية وينسلخوا بها عن الدين الإسلامي، هذا غير ما تبذله من الوسائل والطرق المختلفة بالترغيب تارة والترهيب أخرى لترويج الدعوة المسيحية في أطراف البلاد واستبدال الدين الإسلامي بالدين المسيحي، وقد منعت العرب منعاً باتاً من الدخول في بعض البلدان؛ لئلا يرفعوا بوعظهم وإرشادهم لإخوانهم المسلمين الجاويين أثر المساعي المسيحية بينهم ويكشفوا لهم ما يخفى

عليهم من الحيل وطرق الاستدراج وما نصب لهم من أنواع الحبائل والأشراك فينتبهوا إلى شدة التمسك بدينهم ونبذ ما سواه ورفض ما يستهوونهم إليه، وهناك أمور عديدة تضعها الحكومة عقبات في سبيل من يرغب في الدين الإسلامي من أهل الأديان الأخرى مثل التحكم عليهم بأن لا يغيروا شيئاً من عاداتهم وأزيائهم وملابسهم التي كانوا عليها ومن خالف ذلك منهم، فإنها تعاقبه أشد العقاب، ثم هي تبيح لمن يدخل في النصرانية أن يفعل ما يشتهي في تغيير الزي والملبس وانسلاخه عن كل ما كان يتعلق به في دينه القديم فيتشكل بالشكل الأوروبي ويصبح متساوياً بالأوروبيين ممتازاً مثل امتيازهم على بقية الرعية من المسلمين والوثنيين ويدخل بذلك في طبقة الحكام بعد أن كان من طبقة المحكومين.

«وفوق هذا كله فإن الحكومة الهولاندية لا تزال ترمي المسلمين بالتعصب الديني وتفتري عليهم المفتريات في سبيل ذلك لتبلغ عذراً أمام الأوروبيين في دوام اضطهادهم وسوء الإيقاع بهم.

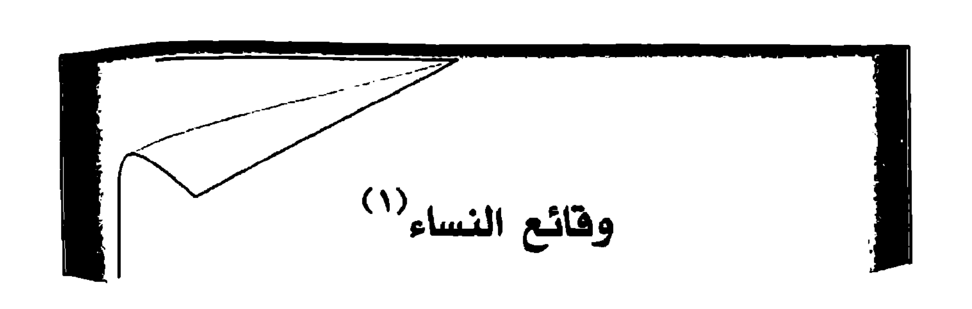
وأما معاملتها للعرب خاصة فهي من أقبح المعاملات، فإنه فضلاً عما يجري عليهم من الظلم الذي يجرى على إخوانهم المسلمين قد اختصتهم بأنواع كثيرة من التضييق والاستبداد فلا يجوز لهم أن يسكنوا في غير أحيائهم ولا أن ينتقلوا من مساكنهم ومن بات منهم ليلة واحدة في غير محلته وقع تحت طائلة العقاب، وحكمت عليه الحكومة بدفع غرامة من خمسة وعشرين إلى خمسين روبية، أو بالحبس من ثمانية أيام إلى شهر، وليتها تكتفي بوضعه في السجن على ضيقه بل تسخره في أدنى الأشغال وأسفل الأعمال مثل كنس الشوارع ودق الأحجار ورصف الحصى، والسفر في داخل البلاد مباح لكل أحد إلا للعربي، فإنه لا ينتقل من بلد إلى بلد أو من قرية إلى قرية إلا بجواز للسفر «باسبور» ولو

كانت المسافة لا تزيد عن ميل أو ميلين ولهذا الجواز شروط وأحكام طويلة عريضة يقضي الرجل في استيفائها أياماً حتى يحصل عليه، فإن فقده أو أهمل الحصول عليه قبض عليه أهل الشرطة وأرجعوه من حيث أتى بعد طول الإهانة والتحقير ثم يحكم عليه بدفع الغرامة أو الحبس.

وأما الضرائب التي تفرضها عليهم الحكومة فهي تمتاز عن بقية الضرائب بثقلها وكيفية تحصيلها، فإذا تأخر أحد منهم عن دفعها في مواقيتها زادوا عليه ستة في المائة غرامة ثم باع الجباة في الحال جميع ما يمتلكه حتى الفرش الذي ينام عليه والقدر التي يطبخ فيها والآنية التي يتناول طعامه منها».

«وأما المصيبة الكبرى والفضيحة العظمى فهي معاملة الأوروبيين لنساء المسلمين وتعرضهم لهن بأنواع الأذى في أعراضهن والمجاهرة بما يخل بالآداب في شأنهن، حتى امتنعت النساء عن الخروج إلى الأسواق لقضاء حوائجهن واعتكفن في بيوتهن في حماية رجالهن، ومع ذلك لم يمتنع وقوع الأذى والتهجم عليهن، فإنهم يغيرون على بيوت المسلمين بالقوة ويباغتون النساء، فيأخذون البنت وهي بجانب أبيها وأمها والزوج وهي بين زوجها وأولادها، فإذا قام من يعارضهم أو يمانعهم أثخنوه ضرباً حتى لا يكون به حراك، فإذا ذهب المسكين إلى رجال الحكومة ورفع أمره إليهم بالشكوى وطلب منهم أن يردوا إليه بنته أو امرأته لم يسمعوا له ولم ينظروا في شكواه وطردوه من أمامهم بقولهم: إن الأوروبي لم يأخذها إلا برغبتها ورضاها ولم تسر معه ولم تقم في بيته إلَّا وهي راغبة في ذلك غير مقهورة عليه وما دام الأمر كذلك فلا وجه لتداخل الحكومة في شيء، فخرج من المحكمة التي يطلب منها العدل والإنصاف مقهوراً مدحوراً يسخط على الحياة ويتمنى الموت».

«كل هذا يجري ويقع في كل يوم ولم نسمع أن قناصل الدولة العلية قاموا مرة لمعارضة الحكومة الهولاندية ومخابرة رجالها في وجوب الكف عن هذه الفظائع والفضائح إلا حضرة محمد كامل وحده، فإنه لما شاهد هذه الأمور وعاينها لم يطق عليها صبراً فقام لها وقعد وخابر في شأنها وكتب إلّا أنه لم يلبث أن انتقل من وظيفته قبل أن يظهر لمداخلته أثر. فلو كان بقية القناصل يحذون حذوه لرجونا أن تأتي النتيجة بما يخفف بعض هذه البلايا والرزايا عن جماعة المسلمين المرتبطين بحبل الخلافة العظمى والإمامة الكبرى، ورجاؤنا عظيم في أن نشر رسالتنا هذه في جريدتكم يأتي من ورائها نفع جليل، فإنه إذا طلع عليها بعض رجال الدولة بادروا من غير شك إلى التنبيه على قناصل الدولة في هذه الجهات بمراقبة الأحوال ومخابرة الحكومة الهولاندية في تخفيف هذه الأهوال»، انتهى.



وقائع النساء[1]

لو كان هؤلاء الذين ابتلى الله بهم الإسلام من أبنائه بسوء اغترارهم وقبح انخداعهم في اعتقاد الفضل والكمال للمدنية الغربية وأهلها، وأن لا صلاح لنا في زعمهم إلا بالعمل على شاكلتهم، والأخذ بمثالهم ينصفون أنفسهم وينصفون الناس يوماً من الأيام بالإغضاء عن تلك الزخارف الصناعية، والنظر قليلاً إلى شدة تغلب الرذائل على الفضائل في هذه المدنية الباطلة وما أنتجته في بنيها من فساد الأخلاق وسوء الطباع والإغراق في إتيان المنكرات، لأقلعوا قليلاً عن غيهم، ولو أنهم أفاقوا برهة من نشوة الاندهاش والابتهاج بمناظر تلك الآلات والأدوات المادية والتفتوا إلى مطالعة الحوادث والوقائع التي تكشف لهم عن الأخلاق والطباع، لاجتمع لديهم من الأدلة والبراهين في كل يوم ما يبين لهم خطأهم في اعتقادهم ويكشف ظلمة الاغترار عن أبصارهم ولخجلوا من أنفسهم وكفوا عن نشر الدعوة بيننا في وجوب التشبه والتخلق بأخلاق الغربيين في معيشتهم والعمل بسنتهم نساء ورجالاً أطفالاً وشباناً سواء كان ذلك مخالفاً للدين أو منافياً للعادة أو منافراً للطبيعة أو مغايراً للبقعة، أو كان فيه من الفساد ما يربو على ما نحن فيه.

ولو أن الجرائد الإسلامية كانت تتسع لذكر المساوىء والقبائح التي ترويها الجرائد الغربية عن أهل بلادها في كل يوم كما تتسع لذكر نوادر

---

(١) ٢٣ أغسطس (آب) ١٩٠٢م.

المبتدعات وبدائع المخترعات التي ترفع بها الغربيين إلى أعلى عليين وتحط الشرقيين بجانبها إلى أسفل سافلين، لغطت السيئات على الحسنات ولغلب الشر فيها على الخير ولاستنارت البصائر واهتدت الأفكار واتجهت العزائم فينا نحو التمسك بالقديم الصالح من العادات الحميدة والتربية المفيدة، مع الاجتهاد في تطهيرها من شوائب الأدران التي خلفت فينا من تخالف الأحكام وتغاير الأزمان وتناوب الدول على الإسلام وأهله.

فمن الذي يفتتح جريدة من الجرائد الغربية في كل يوم ولا يجد فيها ما تشيب له الولدان من غرائب الوقائع وعجائب الحوادث في ارتكاب المآثم والجرائم التي تنافي كل علم وأدب وتخالف كل تثقيف وتهذيب، وتترك الباحث في أخلاق الأمم حائراً في أمره، ضالاً في حكمه إذا هو قابل بينها وبين وقائع أهل البداوة والتوحش فرآها دونها في الفظاعة والشناعة، وكاد يترجح عنده أن حالة الوحشية والهمجية أقل على بني الإنسان بلاء وأخف ويلاً من هذه الحضارة الزاهرة والمدنية الباهرة.

وقد مر لنا أن ذكرنا مرة بعد أخرى شيئاً مما جاء في هذه الوقائع من النوادر العجيبة التي لم تحدث في زمن من الأزمان ولم يسمع بمثلها من قبل في بلد من البلدان على نحو المثال لما لا يحصى من أعمال أولئك الرجال الذين أنزلناهم منزلة البررة الصالحين والأتقياء الطاهرين ليتبين القراء من خلالها حقيقة الحال في أمر مدنيتهم فيتوقفوا عن أخذهم بظاهر القول في شأنها.

ولكن من غريب أمر المغرورين فينا أنه لما كاد يبطل قولهم وتسقط حجتهم بيننا في وجوب التقليد المطلق لتربية أبناء المسلمين على النمط

الغربي، وظهر للعيان من سوء النتيجة وفساد الحال بين شباننا ما ظهر انتقلوا إلى طريق آخر، وهو وجوب تربية نسائنا أول كل شيء بمثل تربية نساء الغرب ليتيسر بهن تربية الرجال وتقويم أخلاقهم بقطع النظر عما يكون في ذلك من مخالفة الدين ومناقضة العادة؛ كأن نساء الغرب بلغن منتهى الكمال ووصلن إلى أقصى غايات الفضائل وفضلن فيها الرجال درجات فلا يصدر عنهن إلا صالح الأعمال ولا يأتين إلا طاهر الأفعال، مع أن الناظر في ما تسطره الجرائد الغربية من أخبار الجرائم والمآثم التي تقع يومياً في أعظم المدن البالغة حد المدنية يرى أن للنساء فيها النصيب الأعظم والقسم الأكبر، فما شئت مما لا يعد من حوادثهن في الزنا والفجور ووقائع السرقة والاحتيال والتزوير والقتل والاغتيال، وما عليك لمعرفة ذلك بالشرح والتفصيل إلا أن تلقي نظرك في باب «الحوادث المختلفة» من أي جريدة وقعت في يدك من جرائدهم في أي يوم كان فتجد منهن هناك القاتلة لأبيها، والفاتكة ببنيها، والمغتالة لزوجها، والضاربة لعشيقها ويتجلى لك فيهن من النابغات في هذه الأبواب ما لم يصل إلى درجاتهن فيه نوابغ الرجال وترى من النوادر في ذلك ما لا يشق لهن فيه غبار.

وهل سمع أحد ناشدتك الله في زمن من الأزمان عن امرأة من النساء بمثل ما نسمعه في هذه الأيام عن مدام «هومبير» الفرنسوية وقد أقامت عشرين عاماً تلعب وتعبث بلحى الأكابر من القضاة والمحامين ووكلاء الأشغال والنواب والوزراء والصيارفة والتجار، بله القانون والحكومة، حتى بلغ ما وصل إلى يدها من طرق الغش والاحتيال ما يقرب من الثلاثة ملايين من الجنيهات بدعوى ميراث لها مخزون في خزانة عندها يفوق الأربعة ملايين ولما فتحوها لم يجدوا في جوفها غير

قطعة نحاس من الدراهم وظرف جواب ونسخة قديمة من جريدة «الأنترانسيجان»؟!.

وهل وقع في دهر من الدهور من إحدى النساء مثل حادثة هذه المرأة التي جاءتنا الجرائد الأخيرة بذكرها في هذا الأسبوع؟! وهي بإجمالها: أن فتاة من أهل أميركا صناعتها خدمة المرضى في المستشفيات «واسمها جان توبان» قد ظهر من أمرها بعد طول الزمن، أنه كان من دأبها أن تقضي فيها على حياة كل من وقع تحت يدها من المرضى بالسم وتستعمل في ذلك لهم «المورفين» و«الأتروبين» وما شابههما من السموم التي تضعف حركة القلب ولا يظهر من آثارها ما يدل على ارتكاب الجناية بها، ولما كثر عدد الموتى في بعض المستشفيات التي خدمت فيها هذه الفتاة، ولم يمكن للأطباء والكيماويين الوقوف على أسباب ذلك اشتبه أحدهم في أمرها، لكن من غير أن يقدر على التوصل إلى أي وجه من وجوه الإثبات التي تلحق بها التهمة فاقتصر الأمر على إخراجها من المستشفى، فلم ترجع مع ذلك عن غيِّها ولم تنته عن سوء فعلها بل عمدت في شفاء غلتها ونيل غايتها إلى استعمال طريقتها في بيوت أهل الغنى واليسار، وليس يعلم إلا الله عدد الذين عجلت بانتقالهم من دار الفناء إلى دار البقاء بمناولتهم السم في أثناء قيامها بخدمتهم.

وآخر ما كان من أمرها أنها اتصلت بعقيلة بيت اسمها «الدن دافس» فاقترضت منها مبلغاً من المال ثم عز عليها بعد ذلك رده إليها فقررت موتها في نفسها وناولتها «المورفين» في الماء المعروف بماء «هونيادي» فقضت عليها، ولما حضر الزوج من سفره أرادت هذه الممرضة أن تتخلص من وفاء ما عليها من الدين بإعدام الورثة كلهم

فجاء في خاطرها أن تحرق عليهم البيت، فلم تفلح فعادت إلى عادتها الأولى فناولت السم للزوج أولاً، ثم للبنت ثانياً ولما حصل التحقيق عن أسباب وفاتهما واستدعي الدكتور «وود» وهو من أكبر الأطباء المتخرجين من كلية «هروارد» للكشف عليهما لم يظهر له فيهما أثر شبهة للجريمة وقرر أنهما ماتا موتاً طبيعياً، فازدادت «جان توبان» هذه في متابعة سيرتها جرأة وإقداماً ودخلت للخدمة في بيت آخر فما زالت تأتي بالسم على حياة أهله واحداً في أثر واحد حتى أفنتهم جميعاً، ولم ينكشف أمرها إلا عند الكشف على آخر واحد منهم وهو المستر «بريجام» فوقعت حينئذٍ في قبضة المحاكم، وهناك أقرت بجميع ما ارتكبته من الجرائم بكل وقاحة وجمود مع الإسهاب في الشرح والتفصيل، وذكرت ما كانت تجده من اللذة في مباشرة عملها خصوصاً عندما كانت تغمض بيدها أجفان قتلاها، وأنها كانت تندفع إلى اقتراف هذه الفظائع أحياناً للتلذذ بمجرد إتيانها وأحياناً لاختلاس شيء من المال بواسطتها، وأحياناً للتمتع بمواصلة من تهواه من الرجال بعد مفارقتهم من أزواجهم، ثم ختمت أقوالها في التحقيق بقولها: «إنني كنت أباشر طريقتي في مناولة السم لمن ماتوا على يدي كما يباشر كبار الأطباء والعلماء تجاربهم العلمية ليتحققوا من نجاحها في اكتشافاتهم واختراعاتهم وأجد فيها من اللذة تماماً مثل ما يجدونه، ولست أعلم أسماء الذين سقيتهم كأس الحمام جميعاً، فإنه لم يكن لي في الغالب أدنى اهتمام بأشخاصهم ولا أقدر أن أحصي عدد الذين أفنيتهم من المرضى في مستشفى «كمبرديج هوسبيتال» وحده ولو بوجه التقريب».

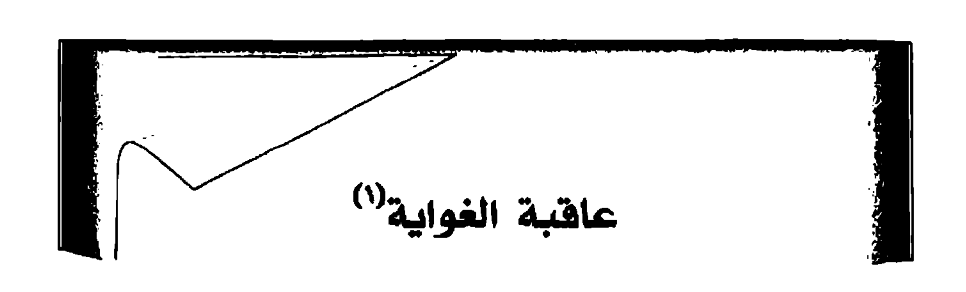
فهذه نادرة من نوادر النساء في بلاد أميركا تؤخذ كالمثال على ما يشابهها مما امتلأت به الصحف والكتب في تلك البلاد التي بلغت أقصى

غاية في المدنية، ولقد وضع أحد أكابر المؤلفين هناك واسمه «كوينسى» كتاباً له في هذا الباب سماه «القتل من حيث هو فن من الفنون الجميلة» يعني مثل الشعر والتصوير والموسيقى.

هذا وكأن الجرائد الفرنسوية لما تناقلت رواية هذه الحادثة وما جاءت به «جان توبان» الأميركانية من بدائع الفظائع لم ترض لنساء فرنسا أن يسبقهن نساء أميركا في مضمار أو ينفردن دونهن بغريبة، فتذكرت في الحال وقوع حادثة من هذا القبيل وقعت من امرأة اسمها «ألين چوجاردو» كانت طاهية في مدينة «رين» من أعمال فرنسا لا تنقص في الفضل عن حادثة أختها «جان توبان» وإن كان الفرق بينهما أن الأمريكانية كانت تجد لذتها في أن تغمض جفون قتلاها بيدها أما الفرنسوية، فإنها كانت تجد لذتها في مشاهدة دبيب الفناء في الأجسام، وسريان الداء في الأحشاء، وحل السقم لتركيب الأعضاء، فكانت تنتخب من أجل هذا من كان ذا قوة في البنية وبسطة في الجسم من أهل البيت الذي تخدم فيه، فتتحفه كل يوم بجزء مقدر عندها من الزرنيخ تدسه له في ما تقدمه من ألوان الطعام، ثم لا تزال تراقبه مراقبة العاشق لمعشوقه متمتعة بمنظر ذلك الجسم وهو يتفانى شيئاً فشيئاً مبتهجة بمرأى هذا البناء وهو يتهدم لبنة بعد لبنة، وهكذا استمرت في طريقتها هذه تنتقل من بيت إلى بيت، لم ينكشف لها ستر ولم ينفضح لها سر مدة عظيمة من الزمن، بل كانت تشيع من أهله بجزيل الثناء وجميل الذكر لحسن خدمتها ولطف عشرتها وأنه لا عيب فيها سوى شؤم طالعها الذي قضى عليها بدخول الثكل معها إلى كل بيت تحل فيه، ثم انتهى الحال بظهور الحقيقة ووقعت في المحاكمة وحكم عليها بالإعدام.

فهذا بعض ما يحدث من نوادر الوقائع الفظيعة على أيدي نساء

المدنية الغربية اللائي بلغن أقصى درجات التهذيب والتربية، يتخذ مثالاً على ما يقع منهن كل يوم مما ضاقت به الصحف والطروس، ونحن لا نزال نسمع عندنا مع ذلك في كل يوم أنه لا عيش لنا ولا صلاح لأمورنا ولا استقامة لأحوال دنيانا إلا إذا شاهدنا النساء المسلمات مثل هذه النساء الغربيات يجرين على جميع أعمالهن ويأخذن بسنيِّهن في كل أفعالهن، وما نظن أن يستريح لأصحاب هذه الدعوة بيننا بال ويطمئن لهم خاطر إلا إذا متعوا أنظارهم هم أيضاً وأطربوا أسماعهم بوقوع أمثال هذه الحوادث صادرة عن نسائنا بعد ارتقائهن على ما يشتهونه لهن في التربية الغربية مقاماً علياً، كما تصدر اليوم عن أهل السبق عليهن من نساء الغرب. كما أنه لا يطيب لهم عيش أو يلذ لهم رقاد إلا إذا خرج من بين المؤمنات القانتات الغافلات مثل البرنسيس «شيمي» في حب الفسق والفجور ومثل «جان توبان» «وألين جوجاردو» في حب القتل والفتك.



عاقبة الغواية[1]

ما أضاع الممالك وذهب بالبلاد وحكم الأجانب في الشرقيين وسلط الغرب على الشرق مثل انقياد ملوكه وأمرائه إلى تعظيم شأن الغربيين وإجلال مقامهم وتهافتهم على التمسك بحبالهم والتعلق بأذيالهم.

ومن أعظم ما يحتال به أهل الممالك الغربية على حكام الشرق استهواؤهم بزخارف المدنية وفضول المقتنيات وأسباب الملاهي حتى ينغمسوا في شهواتهم وتكثر احتياجاتهم إلى تلك الفضول وتزيد نفقاتها عما في وسعهم فينتهي الأمر بهم إلى العسر والضيق فيمدوا أيديهم إلى أولئك المحتالين يستقرضونهم من الذهب ما يستردونه منهم أضعافاً مضاعفة، فإذا أوشك هؤلاء الأمراء الغافلون على السقوط في مهواة الضيق والإفلاس دخل الغربيون في بلادهم رقباء على خزائنهم وجباياتهم ومسيطرين على سلطتهم وأحكامهم ثم ينتهي الحال بملك البلاد بما عليها فيتصرفون فيها تصرف الفاتح الفاتك، ومن جهل أمراء الشرق أن ظنوا أنهم كلما عملوا على شاكلة الغربيين وأخذوا بسنّتهم وتلبسوا بلباس مدنيتهم، كبروا في أعينهم وعظم مقدارهم في صدورهم وعطفوا عليهم عطف المرضع على الفطيم واعتقدوا أن تقليد الإنسان للآخر في بعض أحواله وأطواره مما يحببه فيه ويدنيه من قلبه.

---

(١) ٢٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٢م.

ولكن الأمر دائر على خلاف ظنهم وعكس معتقدهم، فإن الغربيين إذا رأوهم قد انسلخوا عن عادات قومهم وبلادهم وخرجوا عن سنة آبائهم وأجدادهم وخلعوا عنهم ثوب التقية منهم، تبدى لهم عوارهم وانفضح لديهم سترهم وانكشف فضل التشبه بهم عن هوان أمرهم عليهم واطمأنوا على عجزهم بما نبذوه وراءهم ظهرياً من قوة الملك والدين والعادات التي ورثها الشرقيون عن أسلافهم ولا يزال الغربيون يهابونها فيهم ويخشونها بينهم منذ الأجيال الغابرة، فإذا خلص الأمير الشرقي في أيديهم نابذاً لعادات أهله وقومه آخذاً من المدنية الغربية بما يخالف تلك العادات وينافرها أصبح محلاً للسخط والغضب الذي يستحقه من قومه بسوء حكمه ورأيه وقبح سيرته في مطاوعته لمن يبغي الهلاك لهم وينوي التغلب على ديارهم، وصار عرضة للافتراس والانتهاش بين أولئك الذين اعتمد عليهم من الغربيين وسار بقدوتهم وأخذ بإرشادهم.

كما وقع ذلك بعينه لحكام تونس وأمراء مصر فيما مضى فكانت عاقبة الأمر في القطرين واحدة؛ إذ احتلتهما الجنود الغربية وانتهت السلطة فيهما للأجانب، ولولا أن قيض الله للدولة العلية هذا السلطان الخليفة الذي مال بنفسه الكريمة إلى جانب العفاف والتقوى وصرفها عن الشهوات وأدرك ما وراء الاغترار بمظاهر المدنية الغربية من سوء المصير، فلم يجد الغربيون لهم عليه سبيلاً لنفاذ كيدهم ونجاح حيلهم - لذهب ما بقي من عز الدولة وانهدم ما هو قائم اليوم من بنيانها - ولولا أن ثبته الله على طول الاشتغال بمهام الأمور وإطراح سفاسف اللذات والشهوات وانصراف عزيمته إلى اجتناء لذة المجد والحمد في سبيل الدفاع عن حوزة الدولة، والذب عن بيضة الإسلام والمسلمين والوقوف لأهل السياسة الغربية موقف التيقظ والاحتراس، والظهور أمامهم بمظهر

الزهد في زخارف مدنيتهم والامتناع عن الأخذ فيها بمذهب سواه من الملوك والأمراء ـ لما أصبح للمملكة العثمانية اسم ولا رسم.

وقد كنا كتبنا في العام الماضي شيئاً من هذا القبيل لتحذير حاكم مراكش من عاقبة الطريقة التي سار عليها في تقليد الغربيين وسوء الاغترار بزخارف مدنيتهم وقبح التولع بها وسوء التهافت على أسباب اللهو واللعب وبذل ما في يده من المال لاقتناء آلاتها وأدواتها، وأثبتنا له في مقال إثر مقال أن هذه السيرة التي أودت من قبله بالملوك وأوهت عرى الممالك لا تلبث أن يتصل به أذى عواقبها وتثير عليه سخط قومه، كما أننا نبهنا أهل الرأي والتدبير من شيوخ أمته إلى الأخذ بوجوه التيقظ والانتباه لدرء الخلل ودفع الملم، وذكرنا لهم شيئاً مما يجري على أقلام الغربيين ويدور في صحفهم من سيرة ذلك الحاكم ووضعه بينهم موضع السخرية والاستهزاء جزاء له على شدة تولعه بالانطواء إلى مظاهر مدنيتهم والانطباع على أسلوب معيشتهم ومطابقة لهواه على هواهم، وختمنا القول في هذا الصدد بهذه الخاتمة:

«إن رضي الأمير بهذا كله وقذف بمملكته في مهواة المدنية الغربية فتحطم بنيانها وتهدمت أركانها، فهل يرضى به أولئك الفحول من المراكشيين أهل الثبات في الدين والصدق في اليقين وأصحاب العزة والإباء وأرباب الشهامة والشجاعة الذين يفتخر بهم الإسلام وليس بينهم إلّا كل من ينطبق عليه بيت المتنبي في المطالبة بالحقوق:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ

«وهل يرضى هؤلاء المشايخ أعلام الدين وأحلاس الخيل وفوارس الحرب الذين حفظوا هذه المملكة بخشونة المركب وتقشف العيش والتحلي بعزة البداوة وفضائل الفطرة، والذين تولد أطفالهم في الهيجاء

وتفطم في الميدان وتشب على الطعان وتلعب بالأسنة والعوالي، أن يروا صورة حاكمهم في الجرائد الفرنسوية اليوم واقفاً بطيلسانه الأبيض وحذائه الأصفر مستنداً على الدراجة «البيسكليت» ومقبض زمارتها في يده كمقبض السيف في أيدي فتيانهم ساعة الطعن والضرب؟!، وهل يكتفي هؤلاء الرجال أن يذرفوا دموع النساء على مملكة يسير بها صاحبها إلى الضياع والتلاف لاهياً بين دراجة أو فونوغراف» انتهى ما كتبناه في العام الماضي.

وقد صدق والحمد لله ظننا وجاءت الحوادث اليوم مطابقة لرأينا ونهض أهل الحمية والدين وذوو الحزم والبأس من أهالي مراكش، فأظهروا للحاكم كراهتهم لسيرته وبغضهم لتقرير ما يميل إلى وضعه في البلاد من البدع الحديثة، وأنكروا عليه تقليده للغربيين في معيشته والتطور بأطوراهم وأخلاقهم وجاهروا به وقاموا لصده عن ذلك ورده. وهذا بعض ما ورد من أخبار مراكش مروياً عن جرائد البلاد التونسية في ذكر ما وصلت إليه الحال من اضطراب الأمور وثورة النفوس:

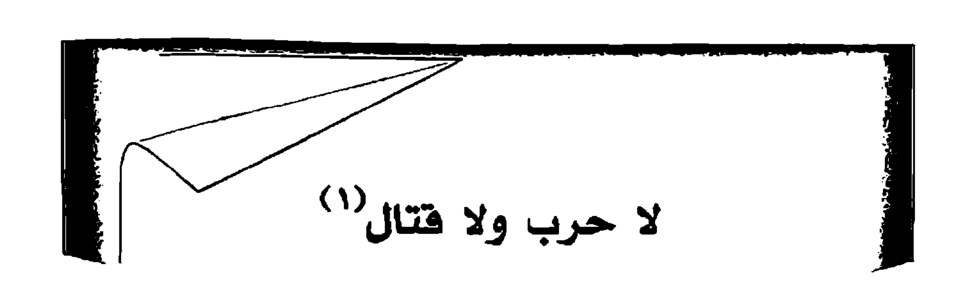
«أنكر بعض العلماء وأهالي فاس على السلطان مولاي عبد العزيز اعتماده على الأوروبيين في المشورة في مصالح البلاد، كما أنكروا عليه مبالغته في الترف وتقليد الأوروبيين في بعض عوائدهم كركوب البسكلت (الدراجة) والتغالي في معدات التمدن، فقد قيل إن مولاي عبد العزيز استغرق في هذا الباب ثروة الوزير أبي أحمد الطائلة التي أخذها من تركته وأنه إذا تمادى السلطان على هذه السيرة، فإنه ربما اضطر إلى القرض وهناك يسوغ للمتداخلين وأرباب المطامع ما لا يسوغ لهم والحالة هذه».

«وجاء في بعض الأخبار: أنه بناء على ظهور ما يشعر بعدم رضاء

خاصة أهالي فاس عن بعض تصرفات الحضرة الشريفة، فقد رأى مولاي عبد العزيز من الوسائل المستميلة لقلوب رعاياه أن يخالف العادة القاضية بأداء الصلوات الخمس بجامع فاس الجديد فتجلَّى لقومه واجتمع بهم بجامع «القيروانيين» وهو الجامع الأعظم حيث صلى صلاة الجمعة بين أفراد رعيته وسيخرج مولاي عبد العزيز بذاته رئيساً على الحملة التي ستتوجه لتأديب قبائل الزمور والزاير».

وقد ورد في الجرائد الأوروبية الأخيرة أخبار شتى عن ثورة القبائل واضطرام نار الفتنة وهيجان الأهالي لما أحدثته سيرة الحاكم من الانقلاب في العادات والمألوفات في نظام الحكومة، وترتيب الجبايات وإن السواد الأعظم يسعون في رفع هذا الحاكم وتولية أخيه الأكبر الذي هو أحق بالملك منه وإن الحاكم قام لإخضاع القبائل الثائرة وإقامة الحرب على الأهالي.

والنصيحة له الآن أن يرجع عن هذا العزم ويتقي الله في بلاده ورعيته وفي الإسلام والمسلمين، ويقلع عن سيرته التي أغضبت منه النفوس وأوغرت الصدور وأن يعود إلى ما كان عليه آباؤه وأجداده من الابتعاد عن الوقوع في حبائل الغربيين والمحافظة على ما في يده من وديعة الملك، وأن لا يكون عوناً للأجانب على أهل بلاده لنيل أغراضهم وأوطارهم فتهدأ الأفكار وتنطفىء الأحقاد ويمتثل الثائرون من رعيته لحكمه وطاعته وذلك وحده هو الذي يضمن له بقاء ملكه ويحفظ عليه سلطانه.



لا حرب ولا قتال[1]

يكاد يطير القلب شعاعاً ويضطرب اللب هلعاً وتهال النفوس جزعاً كلما سمعنا بذكر ما تعده دول الغرب من قوى الحرب وما توفر لديها اليوم من حسن العدد وكثرة العدد، وما امتاز به أهل الصناعات بين أهلها من إتقان السلاح وإحكام الآلة ودوام التفنن والاختراع بينهم؛ للوصول إلى غرضهم الجليل وقصدهم النبيل في تخريب العمران وتدمير البلدان وإفشاء القتل وإفناء النفوس حتى لم يبق حيز في الفضاء يلجأ إليه من نار حربهم وجذوة ضرامهم إلّا تناولوه بآلاتهم ووصلوه بأطرافهم من قرار الماء إلى جو السماء، ومن أسفل الوهاد إلى أعلى النجاد فنفزع إلى الاعتقاد بأن الأرض أصبحت لأهل أوروبا ميراثاً يتصرفون فيه على هواهم ونقضي بالويل والثبور على من يتعرض لمعارضتهم أو يتصدى لمقاومتهم من بقية الأمم والشعوب التي غدت لهم بحكم هذه القوة خولاً وعبيداً، وأمست وقفاً لهم على خدمة منافعهم وقوام مصالحهم، وأنه لا مناص لأهل الشرق كافة من الامتثال لسلطتهم والإذعان لحكمهم إن هم رغبوا في العيش وحرصوا على طول البقاء، أو أننا نهب فنأخذ بمثل طريقتهم ونتفرغ للعمل على أسلوبهم، ونتبع آثارهم في جميع الأسباب التي أوصلتهم إلى هذه القوة والمنعة وحلّقت بهم في أفق العزة والبأس، ولا سبيل لنا إلى الحصول على هذا الغرض إلا بأن ننطبع على مثالهم

---

(١) ٧ فبراير (شباط) ١٩٠٢م.

ونتخلّق بأخلاقهم ونتطبع بطبائعهم ونتصور بصورهم فنرفع عنا أحكام الغريزة، ونخرج عن مقتضى طبيعة الإقليم وفطرة التركيب وننسلخ عن محكم العادات ونتجرد عن حكم العرف ونترك كل قديم وننسى كل تاريخ ونحيد عن الشرع وننحرف عن الدين وننشىء أنفسنا خلقاً جديداً؛ ليجري نظام أمورنا على نظام أمورهم، وتنطبق مصادر أعمالنا على مصادر أعمالهم فنصيب مثل حظهم ونسعد بمثل نصيبهم وندفع عنا الغوائل ويطيب لنا عيش الحياة، ونعيش مثلهم في صف الأعزاء الأقوياء أهل السعادة والهناء.

ولكننا إذا تدبرنا قليلاً بالنظر الصادق والفكر الصائب في ما تجري عليه أمور الأمم الغربية وما تقضي به الحال للمحافظة على قواها الحربية ودوام الأهبة والاستعداد وما يتكلف عليها من الكلف ويتعين عليها من المؤن علمنا وتحقق لنا أن هذه القوة هي لديها أس الشقاء ورأس البلاء، وأنها إن استفادت منها اليوم بعض الفائدة، فإن العاقبة خراب في خراب ودمار في دمار لا هي في إمكانها أن تنتفع بتلك القوة في الاستعمال ولا هي تقوى على احتمال البقاء عليها ولا يمكنها التخلص من أثقالها، والفقر والبؤس والضنك يفترس الأهالي بمخالبه ويعضهم بأنيابه، وهمّ رجال السياسة في تدبيرهم اليوم أن يحذروا كل الحذر ويتقوا كل التقية من الاشتباك في أمور ربما حدثت منها الحرب يوماً من الأيام فتتعطل المعايش، وتنضب الموارد وينتهي بها العمران إلى الخراب.

وانظر في أمور هذه الأمة الفرنسوية التي أقلقت العالم بحروبها وشغلت أوروبا بوقائعها، وأقامت منذ حربها الأخيرة تتغالى في استجماع القوة وتتفنن في أبواب الاستعداد للحرب لتتمكن من أخذ ثأرها واسترداد ما انسلخ عنها من بلادها تجدها أصبحت الآن في موقف أضعف

الضعفاء مهابة للحرب، وأجبن الجبناء اتقاء للنزال، ومن كان يصدق قبل اليوم بعدما مضى على خطبائها وشعرائها وكتّابها ثلاثون عاماً وهم يحرضون ويهيجون وينادون على الملأ بسرعة الاستعداد لليوم الذي يشعلون فيه نار الحرب ويضرمون لهيب القتال، أننا نسمع بأن أعظم الخطباء فيها قدراً وأجلهم شأناً يقوم في الأسبوع الماضي فيخطب في مجلس النواب، وهو المسيو «جوريس» نائب الرئاسة لذلك المجلس، فينادي على منبر الخطابة بوجوب السعي في نزع السلاح والتوقف عن الاستعداد للحرب، ويحمد دول الاتحاد الثلاثي ألمانيا والنمسا وإيتاليا؛ لأن نتيجة المحالفة بينهن كان لها الفضل في حفظ السلم وامتناع فرنسا عن الاندفاع إلى الحرب للأخذ بالثأر، وأن دوام السعي عنده لاسترداد الولايتين المنهوبتين «الإلزاس واللورين» هو جنون محض يؤدي إلى الخراب والدمار ويفضي بالأمة الفرنسوية إلى التلف والاضمحلال وأن في السلم وحده ودوام الرضا بهذه الحالة الحاضرة أقصر السلامة لدولة فرنسا ومنتهى الأمنية.

ولم ينزل الخطيب عن المنبر بعد هذا كله إلا وقد تلقاه أعضاء المجلس بضروب التصفيق والاستحسان على ما أجاد من القول وأفاد به من الرأي بدل ما كان يلاقيه من يجرأ على نطق أي حرف في هذا الباب منذ أعوام من أنواع الإهانة والتحقير، وما يلحقه من اتهامه بالخيانة والغدر والانسلاخ عن الوطنية والجنسية والاتحاد مع العدو والخصم على الأمة والدولة، ولكن الأمور تبدلت والأحوال تحولت وحكم المعايش والمحافظة على كيان الأمة وما يقاسيه أفراد الرعية من سوء العيش وضنك الحياة بسبب الإنفاق على الاستعدادات الحربية هو الذي مهد النفوس، وهيأ الأفكار لقبول مثل هذا الرأي اليوم بالرضا ودفع بها إلى استحسان ما لم يكن لديها بمستحسن ولا مقبول من قبل.

ومما يشهد بصحة هذا الرأي وينصرف إلى تأييد القول: بأن القوة الحربية في أوروبا أمست أعظم حمل ثقيل على كاهل الدول والأمم لا تلبث أن تنهد قواها من تحته وأن حذر أهل المدنية الغربية من اضطرام نار الحرب هو عام منتشر بينهم وأن خوف العواقب لديهم هو الذي أمسك بأيديهم وجعلهم في احتراس دائم للتفادي من المشاكل وحل الأمور بسلام، ما كتبه المسيو «هاردوين» في جريدة «المآتن» الأخيرة وهو من أعظم الكتاب الفرنسويين اليوم قدراً، وأبلغهم فيهم حجة حيث يقول في مناسبة الكلام عن خطبة ذلك الخطيب[1]:

«إن السبب الوحيد في دوام السلم قائماً بين الدول الأوروبية هو حب المحافظة على الحياة ورغبة النفوس في البقاء، وما انغرس ونبت في قلوب الحكام وانبث في أفكار الرعية من أن اتّقاد أصغر شرارة للحرب في أوروبا لا تلبث أن يمتد لهيبها وينتشر انتشاراً لم يسمع بمثله من قبل في تاريخ البشر وسيرة الدنيا، وناهيك بما يكون من الأهوال والخطوب إذا التقت هذه الجيوش التي تعد بالملايين في ساحة القتال واستعرت بينهم تلك النيران المهلكة في ميدان الطعن والنزال، وتصور معي برهة ما تكون عليه حالة البلاد وتصير إليه معيشة السكان لدى الشروع في حشد الجنود للحرب، فإنك تجد جميع الأشغال والأعمال

(١) هذا الكلام كله يعد مقدمة للحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) فقد كانت الدول الأوروبية تصنع السلاح وتخزنه، وكانت النار تحت الرماد، وعندما قتل واحد من الصرب ولي عهد النمسا اشتعلت الحرب الكبرى، وهو سبب بمفرده غير كاف لإشعال حرب عالمية. ولكن لأن الدول الأوروبية كانت مهيأة للحرب فقد وقعت.

بين الناس قد تعطلت في الحال وحركة الحياة قد توقفت في جسم الأمة بأسرها، فتغلق المعامل وتقفل المصانع وتسد أبواب الأرزاق ووجوه المرافق وتقتصر أسباب المواصلات من سكك الحديد وجميع وسائل النقل على خدمة الجيوش وتعبئة الجنود، وقد حسب الحاسبون بأنه يلزم لفرنسا وحدها أن تنفق أكثر من أربعة مليارات فرنك عند مجرد الشروع في القتال، فإذا مضى عليها وهي في الحرب عشرة أشهر بلغ مقدار ما تنفقه فوق ذلك ثمانية مليارات، ولا يغيب عنك أن دين فرنسا اليوم يفوق الثلاثين ملياراً من الفرنكات».

«وليس يقف البلاء عند هذا الحد بل هناك أمر هو أدهى وأمر؛ وذلك أن أولئك الملايين من الرجال الزاحفين إلى ساحة الحرب قد خلفوا وراءهم جيشاً من النساء والأطفال والشيوخ فمن الذي يعولهم في غيابهم؟ وبأية طريقة يحصلون على أقواتهم؟ ومن أي الأبواب تصل إليهم أرزاقهم وتسد أرماقهم؟، فإن كانت الحكومة هي التي يتعين عليها التكفل بهم وإجراء الأرزاق عليهم فمن أين تجد الموارد التي تفي لها بهذا الغرض؟ وكيف يتيسر لها القيام بذلك والأعمال معطلة والصناعات متوقفة والزراعات مهملة والضرائب مؤخرة؟، وليس هذا حال فرنسا وحدها بل كذلك تكون الحال في ألمانيا وفي إيتاليا وفي النمسا وفي روسيا ويعمها كلها مثل هذا الخراب إذا لم تكن الحرب منحصرة الأطراف، وكيف تنحصر أطرافها بين دول أوروبا وهذه الدول تنقسم في الاتحاد إلى قسمين؟، كل قسم منها يتظاهر على القسم الآخر ويبغي أن تدور الدائرة عليه، فلذلك تجد أن كل الأمم الأوروبية وجميع رؤسائها قد أدركوا وتحققوا أن الذي يقدم على إشعال نار الحرب، فكأنما أقدم

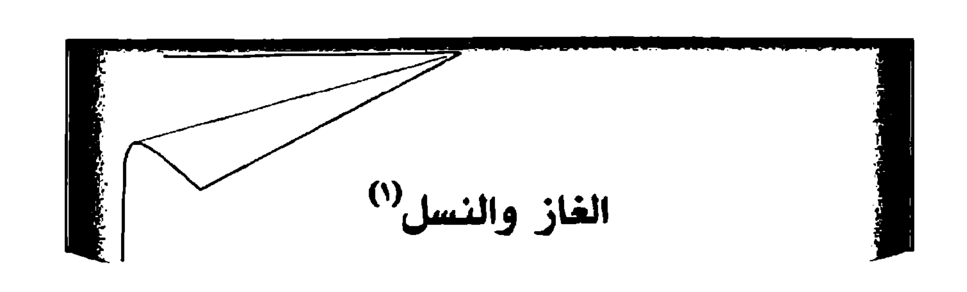
بنفسه على الانتحار ولا يقدم الإنسان على الانتحار إلا إذا كان مكرهاً مقسوراً وفاقداً للشعور غير ممتلك لرشده ولا مدرك لصوابه، ومن أجل هذا ترى دول أوروبا التي مكثت تستعد للحرب منذ ثلاثين عاماً إلى اليوم وتكلفت لذلك من النفقات ما يفضي بها إلى الخراب والدمار قد تمكن منها الوجل والهلع تمكن الغريزة في النفوس عند ذكر الحرب والقتال، فهي لا تقدم عليه أبداً بل تبذل كل مجهودها وغاية ما في وسعها لاجتناب وقوعها واتقاء شرورها».

«فهذا الخوف وهذا الحذر الذي تلبَّس بالنفوس وتأصَّل في الطباع للتفادي من الوقوع في ذلك الخطر العظيم هو السبب الوحيد لامتناع الحرب وبقاء السلم، لا أن مجرد حب السلام في ذاته أو أن تثقيف النفوس بالتربية والتهذيب هو الذي ينفرها من الحرب أو أن الإحساسات الشريفة من الشفقة والرأفة والعدالة والحنو وخدمة النوع الإنساني هي التي تبعدها عن سفك الدماء وتخريب العمران».

«والحقيقة أن أوروبا أصبحت ترتجف وتضطرب أمام ما صنعته بنفسها وأعدته بيدها من وجوه الاستعداد للحرب وهي شديدة الإحجام. دائمة الذعر والخوف من حدوث النتيجة التي هيأتها ومهدتها، وهذا الخوف وهذا الذعر هو لديها الآن أول مراتب العقل والبصيرة، وأفضل أبواب الرشد والصواب»، انتهى.

ولا يتوهمن أهل الشرق أن خوف الدول الأوروبية من الحرب يقتصر على وقوعها فيما بينهن، بل الخوف لديهن أعظم وأعظم من اشتباكهن بها في الخارج، وكل ما نسمعه من التهديد والوعيد والإرهاب والتخويف فهو كلام يقال لا يعقبه فعل، ووهم باطل لا يتبعه عمل، وهذه المداخلات والمخابرات، والمطالبات بإصلاح الدولة العلية، وحل

المسألة المقدونية لا تتعدى دائرة المحابر والأقلام، ولا تتجاوز حد القول والكلام، فليس في استطاعة دولة من الدول أن تتداخل في الأمر على الانفراد، وليس في وسعها أن تتداخل بالاتحاد، وشرح الحال على ما علمت، وباطن الأمر على ما شاهدت ولو أطلعوك كل صباح ومساء على ما يشتهون من الكتب الصفراء والزرقاء.



الغاز والنسل[1]

كلما دقق الباحث في هذا الغلو الذي اتسم به الغربيون للتقدم في أسباب الحضارة والعمران وانصرف بنظره عن بطلان الظواهر إلى حقائق البواطن تجلى له واتضح ما يؤيد اعتقاده بأن عاقبة هذه المدنية على أهلها الوبال والدمار، ونتيجتها الخراب والبوار وأنه لا بد أن يلحقهم يوماً ما لحق سواهم من قبل في تاريخ الأمم الماضية التي قطعت في المدنية شوطاً بعيداً وبلغت في أسباب الحضارة شأواً بليغاً من فارسية ويونانية ورومانية، إذ انتهى الأمر بالجميع إلى الضعف والانحلال من أثر ما ولدته المدنية في تلك الأمم من الترف والنعيم وكثرة الانهماك في الشهوات وسوء التهالك على اقتناء الكماليات، وما يتبع ذلك من ضعف الأبدان وفساد الأرواح وضيق المعايش لكثرة الاحتياجات، وهذه الأمم الغربية تجري اليوم على هذا السنن وتسير في مثل ذلك الطريق لا اختلاف بين الحاضر والماضي إلا في سرعة تقدم الحاضرين على الغابرين، ولذلك فقد عظمت آفات المدنية الغربية على أهلها، وانتشرت مصائبها بينهم من استحكام الضيق في المعايش وعسر الارتزاق وشدة الحاجة إلى كثرة النفقات، وانتشار الفقر بين العامة وحرمان القوت وشح الأغنياء بالأموال وسوء الحرص في أبواب الحياة حتى فسدت الأخلاق وتحولت الطباع وغلظت الأكباد وتنافرت القلوب وزالت مكارم السجايا

---

(١) ٢١ مارس (آذار) ١٩٠٣م.

وانقرضت محاسن الشيم وانحلت عرى الروابط النفسانية، فاستبيحت المحارم واستحلت المناكير وارتفعت المحاذير، وصار الدينار بينهم هو المعبود الأكبر والرب الأعلى، وأصبح السعي للحصول عليه بجميع الطرق وصنوف الحيل من جماع مكارم الأخلاق وجملة فضائل النفس، وصارت الإباحة بينهم مذهباً معروفاً والاشتراكية شرعاً مألوفاً، والفوضوية حكماً مقبولاً، والسعي في إيقاد الفتنة وإثارة العصيان سعياً مشكوراً، وغدا الغني خائفاً يترقب والفقير ضارياً يتوثب، ولم يبق في أدب النفوس زاجر منها ولا في سلطة القانون رادع لها، فعظمت الجرائم وعمت المآثم وسهل على النفوس ارتكاب الجنايات التي لا حصر لها بين العامة، فالأب يقتل ابنه والابن أباه والأم تَئِدُ بنتها والغلام يفتك بوالدته، والزوج يرمي بزوجته والزوجة ترمي بنفسها في مهاوي الخبائث والنقائص والأقارب في حرب دائم، والأباعد في قتال مستمر، وفاضت قبائح الرذائل في المعاملات وارتفعت الفضائل من الصدور ففسدت النفوس وسفلت الأرواح، وما على الذي يعتريه الشك في صدق ما نجمل في بيانه إلا أن يأخذ نفسه بمطالعة الجرائد الغربية وما يسطره أرباب الأقلام هناك في صحفهم وكتبهم مدة من الزمان فيرى من مجرى الأحوال وتصرف المعاملات ما يدهش له ويعجب منه، وينتهي به إلى تصديق هذا القول بالفعل ويؤيد له الدعوى بالبرهان، ولا يقولن قائل كيف يكون ذلك والعلم منتشر بين الغربيين قائم على ساق والعلم كافل لهم بتهذيب النفوس وتثقيف الطباع وتأصل الفضائل ورسوخ المكارم في السجايا؟!، فإن هذه العلوم الصناعية التي تدهشنا آثارها وتلعب بعقولنا أخبارها لا تفيد في تربية النفوس شيئاً بل هي على النقيض تزيد الفساد فساداً وتضاعف الشر شروراً في هذه الحال وتقوي في نباهة الأفكار إلى الاتجاه نحو السيئة لا الحسنة، والتفنن في طرق التحايل لإتيان المنكر

دون المعروف، وأكبر الشواهد على ذلك أن أكثر ما يقع من الجرائم والجنايات يصدر عن المتعلمين المتنورين بين العامة والخاصة ويفوق فيها أهل المدن على أهل الأرياف.

هذا ومن أكبر آفات المدنية الغربية مع خلل النفوس وفساد الأرواح ضعف الأجسام وسقم الأبدان، فإن انغماس جانب منهم في الترف والنعيم وانهماكهم في اللذات والشهوات وسوء تطرفهم في الخروج عن الحد الغريزي والطور الفطري، واضطرار الجانب الآخر إلى احتمال المشاق والمتاعب في سبيل الحصول على أرزاق المعيشة، وكثرة ما هم فيه من الحرمان وطول الافتقار إلى الحاجات الضرورية وتعدد أخطار الصناعات وتسمم العمال في تركيب المركبات وتجهيز المعادن وتولد الأمراض التي لم يبق لأسمائها حصر ولا عد.

كل ذلك قد أنهك قوى الأجسام وأوهن تركيب البنى وأضعف نظام الأبدان، فالصبي يبلغ بفكره في العاشرة والفتى يشيب في العشرين والرجل يهرم في الأربعين، وقد نشأ عن هذا الضعف بينهم آفة عظمى وبلية كبرى وهي قلة الذرية وضعف النسل. ولما كان ذلك من الأمور المحسوسة التي لا تقبل الخلاف انتبه إليها واشتغل بها جماعة العلماء، وأهل البحث من الفرنسويين لملاقاة الخطب ومداركة العاقبة التي لا تلبث أن تأتي على الأمة بالعجز والانحطاط ثم بالتلاشي والانقراض، فهم لا همّ لهم اليوم إلا البحث والتدقيق في بيان أسباب الداء واستيضاح وجوه الدواء، وقد انتشر تأليف اللجان في مجامع العلوم ومجالس النيابات لهذا الغرض وتفرعت بهم المباحث وتعددت الآراء فبعضهم يرى سبب ذلك فوق ما بيّناه من أحوال المعيشة هو الإدمان على الخمور، وبعضهم يراه في قلة الزواج وكثرة السفاح، وبعضهم يراه في غش أنواع

الغذاء، وبعضهم يراه في تخوف الرجال من كلفة العيال، وبعضهم يراه في خشية النساء من العطلة بالحمل والوضع عن الاشتغال بصناعاتهن التي اضطرهن إلى العمل فيها مساعدة الرجال على طلب الرزق، وبعضهم يراه في سوء تقسيم المواريث بحكم قوانينهم، وبعضهم يراه في كثرة اشتغال الرؤوس بالأفكار وطول التعمق في العلوم والمعارف، وبعضهم يراه في فساد المساكن وقذارة الهواء إلى ما يطول شرحه من الأسباب والعلل مع العجز الظاهر عن اكتشاف الدواء والتماس العلاج، فإنه لا علاج لمن خرج بهذه المدنية عن حد الطبيعة إلا بالرجوع إلى أحكامها ولا شفاء لمن ناقض ناموس الغريزة إلا بالالتجاء إليه.

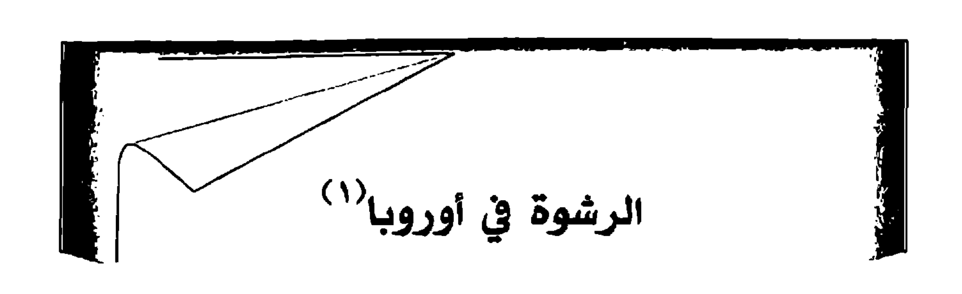
ولا بأس أن نختم هذا الكلام بالتفكه بترجمة نبذة من كلام ذلك الكاتب الجليل في جريدة «المآتن» الشهيربين جماعة الكتّاب الفرنسويين بحسن التفنن في الكتابة ولطف البراعة في الإنشاء وهو المسيو «هاردوين» كتبها في هذا الموضوع الذي نحن بصدده يبين بها اشتغال الأفكار بهذه الآفة الكبرى، وشدة تهافت الناس على معرفة الأسباب التي أضعفت التناسل وقلّلت الذرية. قال:

«لا أزال أتذكر أنه يوجد بيننا منذ مدة عظيمة لجنة تألفت للبحث والنظر في الأسباب التي أوجبت قلة النسل والذرية بين سكان المملكة الفرنسوية، وأنا أعدّ اليوم نفسي من أفضل الوطنيين وأنفعهم إذا عرضت عليها أنه قد تبين وظهر مما دار في جمعية العلوم «الأكاديمي» وانتشر في جريدة المستشفيات بأن دخان الزيت المعدني «البترول» له تأثير متنوع على الأجسام البشرية وبالأخص على قوة التناسل فيضعفها ويحدث بها فتوراً عجيباً. هذا ولا يخفى أن غاز الزيت المعدني يستخدم الآن في تحريك مركبات «الأتوموبيل» فقد انكشف لنا سر جديد إذ كنا نظن قبل

اليوم أن تلك المركبات تقتصر على أن تخلف وراءها في أنوف السائرين رائحة أقل عطراً وطيباً من الورد بدرجات غير قليلة ولكن من كان يتصور إن لهذه الرائحة تأثيراً على قوى التناسل وتولد الذرية بين الأمة الفرنسوية، وهو ضرر من أبلغ الأضرار المتعددة التي تصدر عن تلك المركبات، فإنها لم تكتف بمضاعفة عدد الوفيات بمرورها على بطون المارين في الطريق بل أنقصت عدد المواليد بنشرها في الجو سحباً من المادة المؤثرة بالعجز والضعف على قوة التناسل، ومن أنكر النكر وأكبر الدواهي أن راكب المركبة نفسه لا يستنشق ما يثور من مركبته من غاز الزيت المعدني بل يخلفه وراءه ليستنشقه ويبتلعه من حرمه سوء البخت من اقتناء تلك المركبات والتلذذ بركوبها، فتكون النتيجة أن صاحب المركبة إذا انتهى من سيره ودخل إلى بيته دخله وهو ناشط الجسم منتعش البدن مستعد للدخول في أي باب من أبواب الصراع وأي نوع من أنواع النزال، ويدخل الرجل المار في الطريق إلى بيته على خلاف ذلك فيقعد أمام زوجته التي تفرغ جهدها في التحبب إليه والتزين له وتصرف كل همها في حسن التفنن والتأنق لاسترضائه واستجلابه، فإذا هو قد استولى عليه من الذبول والفتور ما يعظم عنده أثره ويكبر لديه وقعه فتندهش المرأة في أول الأمر اندهاشاً شديداً ثم يعتريها ما لا يوصف من الحزن لفتور زوجها وانصراف وجهه عنها، ثم يتولد في ذهنها ما يتولد من وجوه الشك والريب في تغير حاله معها واختلاف سيرته ونقض عادته، ولا ينصرف فكر المسكينة في ذلك أبداً إلى تأثير غاز الزيت المعدني، بل يتجه إلى وجوه أخرى فتتهم زوجها بالاشتغال عنها بسواها وتعتقد سلوّه عنها بغيرها، وأنكى ما في المسألة وأمرّ ما في الأمر أن الزوج الذي يطلع على هذه «النبذة» ويهتدي إلى هذا السر إذا حاول أن يقنع زوجته في المستقبل بأن أسباب الفتور والذبول ناتجة عن استنشاق غاز

الزيت المعدني قابلته بالتكذيب والإنكار؛ لأن النساء لا يصدقن بالنتائج العلمية ولا يألفن مثل هذه المباحث بل يقين على سوء ظنهن بالأزواج، وأنا أسمعهن من مكاني يجاوبن أزواجهن عند اعتذارهم عن تقصيرهم وإهمالهم وما ألمَّ بهم من الضعف والخمود بمثل هذا الجواب فتقول الواحدة منهن لزوجها:

«ماذا تذكر لي من غاز الزيت، ورائحة الدخان؟! فدعني وشأني فإني أدرى وأخبر برائحة الغاز التي لها وجه أشقر وشعر أصفر، ورداء أبيض وعصابة حمراء»»، انتهى بنصه.



الرشوة في أوروبا[1]

داء الرشوة داء قديم في العالم يتصل عهده بعهد تكوين الحكومة بين جنس البشر قل أن يخلو منه مكان أو يعتصم منه زمان، وهو على العموم أمر منكر قبيح بين جميع الأجناس وفي سائر الأقطار، تنهى عنه الفضيلة وتحرِّمه الديانات وهو في ذاته أفظع ما يجري في باب الرذائل وأشنع ما يدور في دائرة النقائص، فالرشوة هي الواسطة الفعالة في اقتراف أعظم المعاصي والمآثم بإيقاع الضرر بالغير وإيصال الأذى إلى الناس لحمتها الظلم والعسف وسداها الجنف[2] والجور، وناهيك بسلاح يحول الحق باطلاً ويقلب الصدق كذباً ويجعل الخصم حكماً ويرد الحاكم خصماً، ويخرج القاتل به وهو مختضب اليدين بدم قتيله نقي الجيب بريئاً من كل عيب وينصرف معه الغاصب لأموال الناس والسالب لأرزاقهم والهاتك لأعراضهم نبيل القصد شريف السيرة حميد المنقلب يعيش بين جهال الناس بفضل ما جمعه وادخره معززاً مكرماً ويموت موفراً معظماً.

ولا تظنن أيها القارىء اللبيب أن هذا الداء أكثر ما يكون انتشاره في الممالك المعروفة بالظلم والاستبداد وفي البلدان المنسوبة إلى الخلل والفساد، وفي الأمم الموسومة بالتأخر والانحطاط، بل قد تبين لأهل

---

(١) ٢ مايو (أيار) ١٩٠٢م.

(٢) الجنف: الميل عن الحق وهو الجَوْر.

النظر وتجلى لذوي الاطلاع أن انتشاره أعظم ما يكون، وأبلغه في الممالك والبلدان التي تعتزي إلى الحرية والعدل وتعرف بسمو الدرجة في المدنية والعمران؛ لأنه حيثما زادت الحاجات وتعددت الرغبات وتنوعت فضول المعيشة بين الناس عزّ قدر المال وعظم شأن الدرهم والدينار، فانصرف هم الناس إلى تحصيله من كل الوجوه وبكل الطرق وتهالكت النفوس وانحصرت قوى الأفكار في الاحتيال له وبذل أفانين الجهد لاقتناصه واقتنائه وصار ادّخاره في أيدي الناس يقوم لديهم مقام كل فضيلة وتنتهي مزية اكتنازه إلى كل مزية فتحسن عندهم النقيصة ويكون في أثرها أثر من المال بقدر ما تقبح الفضيلة في أعينهم يكون من ورائها أثر الحرمان، وتذهل النفوس عن استقباح القبائح واستنكار المنكرات، ولا تحسبن الشرق قد ابتلي وحده بهذا الداء دون الغرب كما يزعم الزاعمون.

كلا فإن ما نراه مبسوطاً أمامنا في كل حين من حوادث أهل الممالك الغربية وما لا يستطيعون له كتماناً من وقائعهم وفضائحهم يشهد لك بأجلى بيان وأعظم برهان أنهم قوم قد برعوا على أهل الشرق في هذا الباب براعتهم في الكشف والاختراع وارتقوا عليهم فيه ارتقاءهم في إحكام الصنعة وإتقان الآلة وعلى الأخص منهم أهل البلاد التي اتسع نصيبها من العمران وعظم حظها من تلك الحضارة ودارت فيها أمور الحكومة على نظام الحرية والمساواة، وانبسط الحكم والسلطان عندها في أيدي طبقات الأهالي عامة يتداولونه فيما بينهم ويتلقفونه تلقف الكرة يوماً بعد يوم وهم الذين بلغوا الغاية في السير على أساس «الانتخاب العام» فإذا نظرت إلى أحوال فرنسا مثلاً وهي أم المدنية ومهد الحضارة بين سائر الأمم الغربية وجدت داء الرشوة منتشراً فيها انتشاراً يفوق الوصف ويعز على أي بلاد شرقية أن تنازعها فيه السبق أو تبلغ فيه خطواتها.

فأول مراتب الرشوة تبتديء هناك في أثناء الانتخاب بين الأهالي للاستعطاف والاسترضاء حتى ينوب بعضهم عن بعض في المجالس النيابية التي تتوزع فيها سلطة الحكم وتصدر عنها الشرائع والأحكام، فإذا أنفق النائب منهم في هذا السبيل مائة ألف أو مائتين لم ينفقها إلا وهو على الأمل المؤكد والعزم الثابت بأنه لا بد أن يستردها أضعافاً مضاعفة من فنون المطالب ووجوه المساعي التي تتفتح أمامه وهو فوق كرسي النيابة بفضل مشاركته في الرأي واستطالة يده في أبواب الحل والعقد، وتأثير كلمته في الفصل والحكم، ولا يزال يجري على سننه هذا طامحاً لا يلوي على شيء ولا يسكن إلى رشد حتى يغمس يده في مسألة من المسائل العامة يكون له منها نصيب من المال يعوض به على نفسه ما أنفقه من ماله في الانتخاب أو ما اقترضه لذلك من أموال الناس، وهو تارة يكون منفرداً في سعيه بنفسه وتارة يكون متحد المسعى مع بقية حزبه.

وعلى كل حال فهو لا يتأخر أبداً عن المتاجرة بالمصالح العامة واستجلاب الربح من ثنايا المشاكل السياسية واضطراب الأمور الإدارية، لا مبالاة بما يتولد عن ذلك من الشغب والفتنة داخل البلاد ولا بما ينتج لها من الضرر والخذلان في الخارج، ومن أجل هذا ترى أنه لا يكاد يمضي عام واحد على البلاد الفرنسوية إلّا ويكون لها فيه مشكلة قائمة ومسألة متشعبة من هذا القبيل تضطرب لها الخواطر وتضطرم بها الأفكار وتحفى من تسطيرها الأقلام ويسود بها بياض الصحف، ولو شئت أن نعد لك شيئاً مما اشتهر ذكره وذاع سره وجاوز طي الخفاء إلى وضح الظهور عددنا لك منها: مسألة المتاجرة بالنياشين وما كان من افتضاح أمر المسيو «ويلسون» أحد أصحاب الكلمة كان بين أعضاء مجلس النواب وصهر رئيس الجمهورية حتى آل الأمر به إلى المحاكمة وبالرئيس

إلى الاعتزال، ومن بعدها مسألة «ولانجه» وقد تداولت الأيدي فيها المئات من الملايين بين الأحزاب المتناقضة لترويج المساعي في انقلاب الحكومة الجمهورية ورد الحكم إلى قبضة المطالبين بسرير الملك حتى انتهى الحال بانتحار الجنرال القائم تخلصاً من الفضيحة والعار.

ثم مسألة بناما وقد تناول الرشوة فيها الجانب الأعظم من أرباب الجرائد الكبيرة مع مائة وأربعين عضواً من أشهر أعضاء مجلس النواب وانقضى خبرها بانتحار «ريناك» وهو من كبراء أرباب البيوت المالية وبمحاكمة «دواسبس» وهو عندهم في مقام الملوك الفاتحين وبسجن «بايهو» وهو ناظر الأشغال في ذلك العهد مدة خمس سنين.

ثم مسألة دريفوس وما أنفق فيها من خزائن اليهود لحفظ سطوتهم على الأمة الفرنسوية وإعلاء كلمتهم فيها وما جرته من حط مقادير القوادر ورؤساء العسكر ومجاهرة الجند بالسخط والغضب والأهالي بالتمرد والعصيان وكادت تقع من أجلها الحرب بين فرنسا وألمانيا وذهب بجريرتها العدد الأعظم من كبراء القواد المذكورين بوقائعهم الحربية فريسة للموت بالكمد والحزن وانكمش الباقون في بيوتهم معتزلين لمناصبهم، وهي إلى هذا اليوم لم ينته لها خبر ولم ينقض لها ذكر بل تراها على وشك الالتهاب والاشتعال تارة أخرى.

ثم مسألة مادام «همبير» وقد أقامت هذه المحتالة مع زوجها وهو من أعضاء مجلس النواب وابن أحد وزراء الحقانية تنهب الأموال بيد وتهبها بأخرى بين كبراء أهل الحل والعقد وفحول القضاة والمحامين ومكثت مدة عشرين عاماً بفضل حمايتهم ومشاركتهم لها في الانتفاع تتلاعب بالمحاكم والقوانين وتهزأ إلى اليوم في سجنها بالحكومة وأربابها والجمهورية وأصحابها، والمنتظر أن لا تتم محاكمتها إلا مع فضيحة

أسرار كامنة وظهور أسماء جديدة لمن شاركوها في عملها وعاونوها في احتيالها من كبراء الرجال وعظماء الحكام.

ثم مسألة معاهدة سيام إذ تمكن مندوب حكومة سيام في باريس من عقد المعاهدة في مصلحة مملكته ومضرة الحكومة الفرنسوية بما توصل إليه من استمالة بعض رجال السياسة الفرنسوية إليه بقوة المال، ولما عاد فائزاً بالمعاهدة إلى بلاده وقدم جريدة الحساب الرسمية لحكومته بما أنفقه في رحلته طارت الأخبار التلغرافية إلى باريس بأنها تضمنت مبلغ مائتين وسبعين ألف فرنك يزعم المندوب أنه أعطاها رشوة لجماعة من أهل السياسة وأرباب الجرائد الفرنسوية الذين انتفع بسعيهم في عقد المعاهدة على حسب ما تقضي به مصلحة حكومته دون الحكومة الفرنسوية، فاشتغل بعض الجرائد وبعض النواب من حزب الاستعمار في الكلام بهذا الأمر فبادرت نظارة الخارجية الفرنسوية في الحال إلى توقيف العمل بالمعاهدة وبذل المساعي لأجل تحويرها وتنقيحها بما يدفع عنها شرها وضيرها.

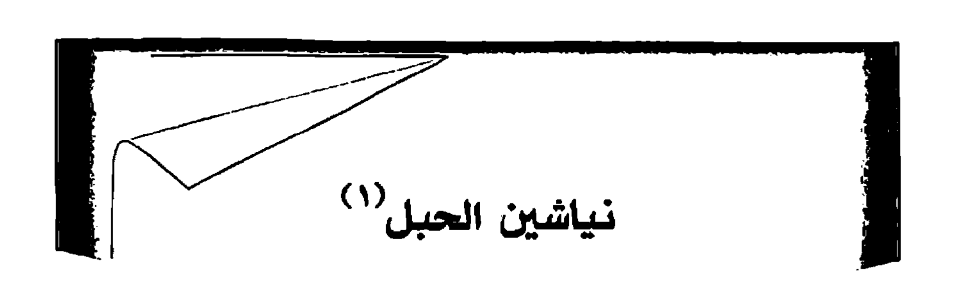
ثم مسألة «توبيني لورندو» القائمة اليوم أمام المحاكم بباريس وهي قضية رفعها أحد الرجال المعروفين بين الفرنسويين على ورثة المداينين أمام المحاكم في باريس يطالبهم بتنفيذ الاتفاق الذي تم بينه وبينهم عند افتتاح المخابرة بين فرنسا والدولة العلية بخصوص هذا الدين، وذلك أنه تعهد لهم بأن ينفق مبلغاً من المال رشوة لبعض رجال السياسة وأرباب الجرائد ليدفعوا الحكومة الفرنسوية إلى التشديد في المطالبة بالدَّيْن وتسيير أساطيلها إلى بلاد الدولة العلِّية وأنه يختص في نظير ذلك بخمسة عشر في المائة عند استلام مبلغ الدَّيْن، فلم يوف الورثة للرجل بالعهد فاضطر إلى تقديم تلك القضية يطالبهم رسمياً بقيمة هذه السمسرة الغريبة

أمام محاكم الدولة الفرنسوية جزاء سعيه مع بعض رجال السياسة الفرنسوية لمساعدة أولئك المرابين السالبين مساعدة كادت تقضي إلى اشتباك الدولة الفرنسوية في حرب مع الدولة العلّية.

وآخر الأخبار في هذا الأسبوع عن «مسائل» فرنسا التي لا تستريح من ظهورها لحظة واحدة من الزمن، مسألة «مليون الشارترو» وملخص خبرها الذي امتلأت الجرائد الفرنسوية بشرحه وتفصيله: أن بعض سماسرة السياسة قصد إحدى جمعيات الرهبان المقيمة في إحدى جهات فرنسا لتعليم الدين المسيحي من جهة ولاستخراج الخمر المعروفة «بالشارتروز» والمتاجرة بها من جهة أخرى، وتعهد له أنه يسعى مع بعض ذوي النفوذ من أرباب الحكومة وأعضاء مجلس النواب ليخرجها من زمرة الجمعيات التي حكم بحلها وإبعادها عن الأراضي الفرنسوية في مقابلة أن تدفع إليه ثلثمائة ألف فرنك مقدماً ومليوناً من الفرنكات مؤخراً ليوزعها على بعض الرؤساء وكبار النواب، فلم تقبل الجمعية منه بهذه الشروط وباحت بالسر فأعلنته بعض رجال الجرائد وقام رجال آخرون من حزب الأغلبية الجمهورية نفسها في مجلس النواب يؤيدون أقوال أرباب الجمعية ويشهدون بأنهم علموا بمثل هذه المساعي وأنهم مستعدون للتحقيق والإثبات، وتناولت التهمة في أول من تناولتهم المسيو «أدجار كومب» ابن رئيس الوزارة الفرنسوية ووكيل وزارة الداخلية والمسيو «سان» وزير التجارة ورئيس أقلام وزارة التجارة وغيرهما من كبار أهل الحكم والنفوذ، وانتهى الأمر في ذلك بالتحقيق القضائي وتعددت وجوه القضايا في هذا الباب وتقدم للشهادة كثير من أصحاب الجرائد الكبيرة مثل جريدة «الفيجارو» و«الغلوا» و«الليبر بارول» وغيرها، وأصبحت الأمة الفرنسوية بوزارتها ومجالسها وجرائدها قائمة قاعدة اليوم بسبب هذه المسألة الجديدة في الرشوة.

هذه هي الحال كما ترى في أعظم الأمم الغربية مدنية وعمراناً وأجلّ الحكومات الأوروبية شكلاً ونظاماً، وما اخترناها من بينهن مثالاً إلا لأن الفرنسويين قوم جبلوا على حرية القول وإباحة الكلام لا طاقة لهم على الصبر ولا على التستر والكتمان، فينتشر علينا من أخبار مسائلهم في كل حين ما ينتشر بخلاف بقية الأمم التي جعلت المحافظة على الظواهر والتستر على البواطن من أوليات الفضائل ومن أحكم الطرق في نظام الأمور لديها.

وبعد هذا كله فلا محل لقول من يقول: إن السبب في بقاء الرشوة بمصر ناتج عن استهانة الرأي العام بأمرها واعتبارها من الأمور البسيطة التي لا تعيب ولا تشين، وإلّا لو وجد المرتشون من الرأي العام استقباحاً لأفعالهم واستنكاراً يكون لهم كالعقاب الأدبي فوق العقاب المادي لخف أثر الرشوة وزال أثرها، وماذا يقول صاحب هذا الرأي في قوة الرأي العام الفرنسوي وتغاليه في إنكار المنكر واشتداده في استقباح القبائح وهذه مسائل الرشوة مبسوطة بين يديه يوماً بعد يوم، فما شاهدنا لعقابه فيها أثراً ولا لاستنكاره لها تخفيفاً بل رأينا الجرائد التي هي الداعية إلى الفضائل عندهم والناهية عن الرذائل فيهم تكون من أول المشتركين في الانتفاع بمسائل الرشوة ويكون لها في كل مسألة منها النصيب الأوفر والقدح المعلى، وكيفما قلبت الأمور بين أهل هذه المدنية الغربية وجدت حظ الشرقيين من الفضائل أعظم وقسمتهم من المكارم أفضل.



نياشين الحبل[1]

كثر المقال وطال الكلام واتسع الجدال بين أهل البحث والنظر من علماء الغربيين في نازلة النوازل وداهية الدواهي التي مني بها الغرب وأهله وهي قلة النسل وضعف الذرية، فإنه لا شيء على الأمم في باب الضرر والشر أشد ولا أمضى من هذا الداء الذي ينتهي بها دون شك إلى الخراب والدمار ويصرفها إلى الانقراض والانحلال. فهم لعلمهم بجسامة الخطب وسوء العقبى لا همَّ لهم اليوم إلا التدقيق في البحث والتحقيق، في النظر للوقوف على العلل والأسباب والاهتداء إلى أنواع العلاج الذي يمكنهم من تسكين حركة الداء وتخفيف البلاء، لا ينامون من أجل ذلك ليلهم ولا يستريحون نهارهم ولا يقع بصرك على صفحات جرائدهم وصحفهم إلَّا وترى فيها من هذه المباحث الشيء الطويل العريض، والمتعقب لأقوالهم في هذا الباب ينتهي منها على أن أقوى سبب وأعظم علة من بين الأسباب المتعددة والعلل المتنوعة عندهم كثرة الفناء في الأطفال وقلة الرغبة عند النساء في الحبل.

أما الفناء في الأطفال فهو شيء عظيم جداً؛ لأن الإحصاء قد دلهم على أن من يموت من الأطفال قبل بلوغ العام يبلغ نصف عددهم وأن الأمل في أن يعيش الشيخ الهرم صاحب الثمانين إلى تمام العام أعظم من الأمل في المولود أن يعيش حولاً كاملاً، وهم ينسبون ذلك إلى

---

(١) ٣١ مايو (أيار) ١٩٠٣م.

إهمال الأمهات وسوء الغذاء، فإن الأمهات إن كن من أهل الرخاء واليسار أرسلن بأطفالهن إلى المراضع في الأرياف للتفرغ لشؤون الزينة والجمال، ولا تقوم الآجِرة مقام الحنو الطبيعي وليست المرضع كالأم فيصيب الطفل من قلة العناية وسوء الإهمال ما يودي به، وإن كن من أهل الفقر والحاجة اشتغلن عن أطفالهن بالسعي في طلب الرزق وتركهم على أقبح حالات الترك والإغفال يرضعون رضاعاً صناعياً ويفطمون قبل الأوان.

وقد تبين واتضح من أبحاث الأطباء والكيماويين أن اللبن الذي يتغذى به الأطفال لبن صناعي مؤلف من أجزاء مختلفة يتفنن أهل الصناعة في تركيبها، وقد دلهم الامتحان على أنها سم فعال ينهك البدن ويبلي الجسد وأعيتهم الحيل في الوجوه التي يدفعون بها هذا الضرر فألفوا له الجمعيات وأقاموا المراقبين لكشف الغش وكف الأذى، فلم يبلغوا الغرض ولم يفلحوا في السعي.

ومن أغرب ما يروى في تاريخ البشر: أن جماعة من الأطباء هالهم كثرة الموت في الأطفال بالجهات الشمالية من البلاد الفرنسوية، فذهبوا إليها للبحث والكشف فوجدوا أن هناك جمعيات للتأمين على الأجنة والأطفال تأخذ من نساء الفقراء والعمال مقدار القرش الواحد في الشهر، فإذا أسقطت الحامل حملها أو مات الولد عقب الوضع أو انتهى أجله قبل بلوغ العام كان لها الحق في مطالبة جمعية التأمين بمقدار خمسة جنيهات أو ستة، فيرغب النساء والرجال لشدة الفقر والجوع بينهم بتلك البلاد في الحصول على مبلغ التأمين ويقدمون على الفتك بأطفالهم بسلاح الترك والإهمال وما يماثلهما من الآفات التي تقضي على حياة الطفل وتعجل بموته ليستخلصوا من ورائه ذلك القدر الدنيء من المال،

فيسدوا به جوعهم ويقضوا حاجتهم ويعيش الأمهات والآباء بفناء الأولاد والأبناء.

وقد ذهب جماعة من محرري الجرائد إلى تلك الجهات وشاهدوا بأنفسهم فظاعة الحال وشهدوا في جرائدهم بأن هذا الأمر الذي لا يكاد يدخل تحت التصور هو أمر واقعي، وأخذوا على عادتهم في استنهاض الهمم وتحريض العزائم لدفع الخطر ومداركة الخطب وهم إلى اليوم لم يهتدوا إلى الطرق التي ترفع عن الأمة هذا البلاء وأمثاله مما يطول شرحه ولا ينتهي تعداده، فإن الداء شديد والدواء عزيز.

وأما زهد النساء في الحبل بين الغربيين فهو أمر عام منتشر، خلفته فيهن وأوجبته مقتضيات المعيشة في المدنية الحاضرة، فإن المرأة إن كانت من طبقة الفقراء المحتاجين كرهت الحبل وعافته خشية أن يعطلها عن مزاولة العمل في المعامل والمصانع وأن يقوم لديها حائلاً دون الكد والسعي في طلب الرزق واستدبار القوت، وإن كانت المرأة من طبقة الأغنياء والموسرين كان الحمل معطلاً لها من كثرة الحركة والانتقال في الغدو والرواح إلى المجالس والمحافل والملاهي والملاعب، فتضطر إلى ملازمة بيتها وذلك ما لا يمكن أن يكون ولا تطيق الصبر عليه. ثم إنها تعتبر أن هيئة الحمل تغض من جمالها وتفسد من شكلها وقوامها وتضر بمنظر الحسن والاعتدال وتخالف المتفق عليه بينهن في محاسن الأشكال والأزياء حتى صار ظهور المرأة في المحافل بين الرجال في مدة الحبل، من الشين والعار أو ما يشبه الشين والعار.

وقد روت لنا الجرائد الأخيرة الفرنسوية: أن المسيو «بيو» أحد أعضاء مجلس الشيوخ المشتغلين بمسألة قلة النسل التفت إلى هذا الأمر الأخير وبحث فيه فرأى أن أحسن طريقة لرفع الأوهام عن النساء وإزالة

ما يعلق بأفكارهن من استنكار منظر الحامل في العيون، هي أن تبادر الحكومة بإنشاء علامات للشرف يضعها الحوامل على بطونهن فتدفعهن الرغبة في الافتخار بحملها إلى الرضا بالظهور في ذلك المظهر وطلب منها أن تضيف إلى نياشينها المتعددة نيشاناً تسمية «نيشان الأمهات» تهديه لكل حامل ولود.

وقد أرسل هذا العالم الكبير بتفصيل مشروعه هذا إلى رئيس الوزارة الفرنسوية مع خطاب لا بأس من تعريبه هنا بنصه، قال:

«إن المرض الساري الآن في جسم الأمة من قلة النسل وضعف الذرية هو أعظم الأمراض والأدواء العامة التي تنزل بالأمم فتحل تكوينها وتعجل بانقراضها.

وأرى من الواجب عليّ أن لا أبرح أبداً عن تكرار التنبيه إلى أهوال هذا الخطر الجسيم واستنهاض رجال العلم والسياسة نحو التفرغ إلى دفعه وصده، ولست أمل نداءً لأعضاء مجلس النواب الذين عليهم المعوّل وفي يدهم السلطان للحل والعقد في مصالح الأمة حتى ينصرفوا بكل أفكارهم إلى مداومة البحث والنظر في هذا الباب.

كما أنني أرى من الواجب المتعين على رجال الحكومة أن يبذلوا ما في وسعهم وينصرفوا بقوة سلطتهم إلى المساعدة على دفع الخطر، سواء كان ذلك بالوسائل المادية والوسائل المعنوية.

وقد كنت أرسلت فيما سبق خطاباً إلى وزير المالية شرحت له فيه الوجوه التي يجب أن يبادر إلى اتخاذها لمساعدة الآباء من الجهة المادية حتى ينشطوا إلى طلب الازدياد من الذرية ويرغبوا في كثرة النسل.

وما زلت في بحثي وتنقيبي كلما وجدت طريقة نافعة ووسيلة ناجحة من هذا القبيل عمدت إلى عرضها على أعضاء مجلس الشيوخ، وعلى

أعضاء اللجنة العالية في مجلس النواب المؤلفة للنظر في اضمحلال عدد السكان وقلة الذرية.

وقد عولت اليوم على مخاطبتك أيها الوزير لتهب إلى المساعدة والمعاونة المفروضة على رجال هذه الحكومة الأهلية للأزواج والأمهات من الجانب المعنوي.

وليس يليق بالحكومة التي وضعت طبقة من علامات الشرف والنياشين خاصة بمكافأة العامل والصانع والأجير الذي يقوم بالواجب عليه في صناعته ويقضي فرضه المفروض عليه للجمعية البشرية ويصرف في سبيل ذلك الأعوام الطوال من حياته أن تهمل في وضع مكافأة للأم التي تكون قد قامت للجمعية الإنسانية بالمطلوب منها وقاست من أجل ذلك ما قاسته من المشاق والمتاعب في الحمل والوضع.

أفلست ترى معي بأنه قد حان الوقت للقيام بتأدية هذا الجزاء المفروض علينا للأمهات؟! وأنه يتعين عليك أن تجيب طلبي الذي أطالبك به اليوم وهو أن تضع الحكومة طبقة جديدة من النياشين لمكافأة الأمهات كما وضعت أنواعاً من النياشين لمكافأة أهل الصنائع والفنون وذوي المهن والحِرَف، وأنت تعلم أن ما يرجى منهن في باب النفع العام هو أبلغ وأجل مما يرجى من بقية الطبقات في الأمة» انتهى.

هذه هي عواقب التقدم والارتقاء في المدنية الغربية التي يتهالك الشرقيون اليوم على الاعتماد عليها ويرون السعادة والشرف في كمال الانصباغ بصيغتها من غير تدبر ولا تبصر، ولو نظرت نظرة يسيرة في ما عليه أهل الإسلام إلى اليوم من الرغبة في كثرة الذرية وازدياد عدد النسل واعتبارهم ذلك بينهم مفخرة من أسنى المفاخر، ومحمدة من أجلّ المحامد تندبهم إليها أوامر الدِّين والسُّنَّة وتحرضهم عليها آداب العرف

والعادة لرأيت الفرق بيننا وبين الغربيين عظيماً والحال عندنا دون الأوروبيين أحسن تقويماً.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**شوهاء ولود خير من حسناء عقيم**»، وقال: «**أنا مكاثر بكم الأمم**»، وكانت العرب تفخر بكثرة الولد وتمدح الفحل القبيس وتذم العاقر والعقيم وكانت المرأة تفخر بأنها أم عشرة وأخت عشرة.

وقال عامر بن الطفيل يعني نفسه:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً ... جباناً فما عذري لدى كل محضر

وقال علقمة بن علاقة يفخر على عامر:

«أمنت وكفر، ووفيت وغدر، وولدت وعقر». وقال الزبرقان:

فاسأل بني سعد وغيرهم ... يوم الفخار فعندهم خبري
أي أمرء أنا حين يحضرني ... رفد العطاء وطالب النصر
وإذا هلكت تركت وسطهم ... ولدى الكرام ونابه الذكر

وقال طرفة بن العبد:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وعادني ... بنون كرام سادة المسود

وعيّر الفرزدق زماناً لا يولد له، فعيّرته امرأته فقال:

قالت: أراه واحداً لا أخاله ... يؤمله في الوارثين الأباعد
لعلك يوماً أن تريني كأنما ... بنّي حواليّ الأسود اللوابد[1]
فإن تميماً قبل أن يلد الحصا ... أقام زماناً وهو في الناس واحد

---

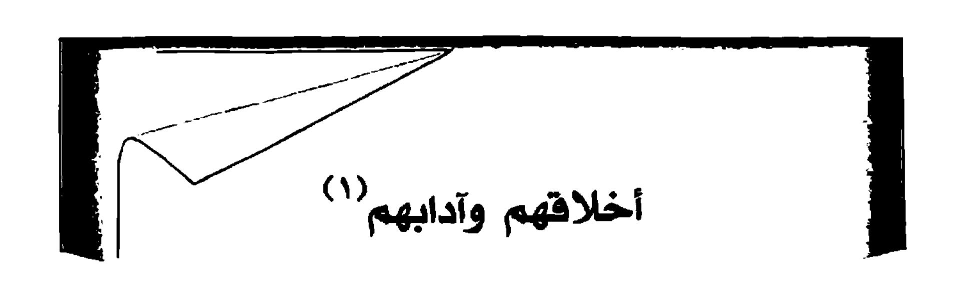
(١) الأسود اللوابد هي: اللاتي اجتمع شعر كثيف بين أكتافها.

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة:

ولست بالأكثر منهم حصا   وإنما العزة للكاثر

وقد ولد رجال من العرب كل منهم يلد لصلبه أكثر من مائة فصاروا بذلك مفخراً، منهم عبد الله بن عمير الليثي، وأنس بن مالك الأنصاري، وخليفة بن السعودي، ومات جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين أنثى كلهم لصلبه.

وهذه هي بعض فضائل المدنية الإسلامية، فقل لي بعد ذلك أي الفريقين أرشد وأهدى، وأي الطريقين أنفع وأجدى، وأيهما الأَوْلى بأن يُتَّبع ويُصْطَحب والأجدر بأن يُنْبذ ويُجْتَنَب.



أخلاقهم وآدابهم[1]

يسلك بعض أهل الطبقة العالية والدرجة السامية من كتّاب الغربيين وأرباب التحرير والتحبير في الصحف والجرائد من بين الأساليب المختلفة والطرق المتنوعة طريقاً حديثاً، وأسلوباً بديعاً يخف على النفس ويسهل على الذهن، وهو أن يصوغ الكاتب حكاية صغيرة ويضع قصة قصيرة يصور لك فيها خلقاً من الأخلاق السائرة بين الأمة ويجلي بها صفة من الصفات الغالبة بين الناس، ويحكي لك فيها ما يجري في ثنايا الطبقات من الحوادث المتداولة والوقائع المألوفة حتى كأنك شاهد لديهم حاضر وإن كان لا يبالي في ذلك بنشر القبائح وذكر الفضائح ولا يتحاشى في تعبيره بما يخالف أدب العادة وينافر ما تقضي به فروض الحشمة والحياء، بل همه همّ المصور الحاكي يرسم ما يجده أمامه على حقيقة شكله والمحدث الصادق ينقل الحديث على وجهه وأصله ويروي الرواية بنصها ولفظها لا يزيد كلمة ولا ينقص حرفاً، ولهذه القصص في الجرائد سياسية كانت أو أدبية المقام الأول والشأن الأعلى بين المقالات والأخبار، فلا تكاد تخلو اليوم منها جريدة من الجرائد الكبرى الفرنسوية «كالمآتن» و«الفيجاور» و«الجرنال» يخصص لها صدر الصحيفة، ويتقدم مكانها فيها على كل مكان، ويعلو شأنها كل شأن فهناك ترى ما يدهش من بلاغة الوصف وتنسيق الكلام في ذكر ما يجري بين الأقارب

---

(١) ١٣ يونيه (حزيران) ١٩٠٣م.

والأجانب، وما يدور بين الأهل والولد، وما يكون بين الإخوان والأصدقاء، وما يقع بين المرء وزوجه، وما يحدث بين الخليل وخليلته، وما تتنوع به المعاملات بين الناس وتتفرع عليه الوقائع في المخالطة والمعاشرة.

والمطلع على هذه المقالات يعلم منها في غالب الأحيان مقدار ما وصلت إليه الأخلاق من الخسة والسفالة، وما استقرت عليه الطباع من السوء والفساد في هذه المدنية التي يتفاخرون بها على سائر القرون، ويزعمون أنها الغرة المتبلجة في جبين العصور ويحلفون جهد أيمانهم بأنه لم يتفق لأمة من الأمم منذ الخليقة إلى اليوم ما اتفق لهم من الامتياز بالعلوم والمعارف والاستئثار بالفضائل والمكارم، والاختصاص بالآداب العالية والكمالات النفسانية، ويتبين له كيف انسلخت النفوس فيها عن جملة الآداب فارتفع الحياء وغاض الوفاء وابتذلت الأمانة، واخترقت الصيانة وهتكت الحرمة وفقدت العفة واصطلح الناس فيها على إباحة القول وإباحة العمل لا ينكرون منكراً ولا يعرفون معروفاً، ولا يقتصر الأمر فيهم على الانسلاخ من الفضائل المكتسبة بالعلم والأدب ومحاسن الصفات المستفادة بالتهذيب والتثقيف ومكارم الأخلاق المجتناة من ثمار الرياضة والتمرين بل تراهم قد انسلخوا عن كثير من الفضائل الغريزية والصفات الطبيعية التي يشترك فيها الحيوان مع الإنسان.

ونحن نبسط اليوم للقراء مقالة من تلك المقالات بياناً لما قدمناه مما وقعت عليه العين في صدر جريدة «المآتن» وهي الجريدة الكبيرة التي تحاكي في فرنسا جريدة «التيمس» في إنكلتره، فتنطق بلسان الرأي العام تارة وتعبر عن رأي الحكومة طوراً وتتبارى فيها أقلام أهل التقدم في فروع العلوم وأصول الآداب، وإنا نعربها مع الاجتهاد في المحافظة على

المعنى واللفظ والمطابقة للأصل والنص بالشكل الذي يسيرون عليه والوضع الذي ينتحونه في هذا الباب.

قال المسيو: «پول جنستي» الكاتب الطائر الصيت تحت عنوان «محادثة» ما تراه:

«بينا كان البارون «لومون» يروح ويغدو متمشياً في دهليز مظلل بالأشجار الملتفة والأغصان المشتبكة عند باب داره التي يطلق عليها أهل الأرياف لفظ: القصر، من باب التساهل والمجاملة وهو يصفر بملء فَيْهِ كدأبه وعادته، وتظهر عليه إمارات القلق والبلبال إذ بصر بحامل البريد الذي كان ينتظره آتياً من بعد يتدفق في مشيته ويتصبب عرقاً تحت ثقله فهرول نحوه وسأله عما يحمله إليه في يومه، فأجابه:

حامل البريد: ليس لك اليوم عندي سوى الجريدة يا حضرة البارون.

البارون ـ متضجراً ـ إن هذا شيء غريب.

حامل البريد ـ وهو ذاهب ـ أسأل الله لك سعود أوقاتك.

وما ذهب حامل البريد غير بعيد حتى استدعاه البارون وقال له:

البارون: قل لي يا صاحبي هل مررت في طريقك اليوم على حسب عادتك من جهة «الجونسيير»؟.

حامل البريد: نعم وإنه لطريق وعر وكثيراً ما جزته وتحملت صعوبته لتوصيل ورقة مطبوعة أو جريدة منحوسة.

البارون: هل وجدت المسيو «دوبريو» غائباً عن مكانه؟.

حامل البريد: لا. لم أجده غائباً.

البارون: هل سمعت بأنه مريض؟.

حامل البريد: ليس هو بمريض فيما أعلم.

البارون: جزاك الله خيراً.

وبقي البارون «لومون» متفكراً حائراً في مكانه برهة من الزمن ثم استقر به رأيه فجأة فتوجه نحو القصر ووقف على رأس خادم هرم يمسح هناك عن سرج لا تكاد تتماسك أجزاؤه من البلى والقِدَم فقال له: اسرج «بوليت» يعني: فرسه، وقد كان يمكن له في الحقيقة أن يريح نفسه من تعيين الفرس بالاسم، فإنه ليس في اسطبله غير ذلك الفرس المسن الذي يمتطي ظهره تارة ويقود زمامه في جر العجلة تارة أخرى، ولما قدمه إليه الخادم امتطاه متكلفاً؛ لأنه كان ممن أثقلت ظهره السنون التي بلغت به حد الخامسة والأربعين ثم سار به ما بين إحضار وتقريب قاصداً قصر «الجونسيير» وهو قصر يشابه قصره وإن كان أكبر منه اتساعاً إلا أنه مثله في التخرب والتثلم يشهد لك منظره بعسر الحال وضيق العيش وتعرف منه أنه بقية الميراث القديم المخلف عن الآباء والأجداد الذي لا بد لصاحبه في سكناه من طول الإغضاء ودوام التغافل عن النظر في جدرانه والتأمل في مبانيه لما أحدثه به الزمن وفعله فيه القدم، ولما حط البارون «لومون» ركابه باب القصر سأل غلاماً واقفاً هناك يقوم في خدمة المسيو «دوبريو» بأنواع المهن كلها بمفرده:

البارون: أين مولاك أيها الغلام؟.

الغلام: هو في حجرته على ما أظن.

فصعد البارون سلم القصر ودق باب الحجرة ثم دخل فوجده مضجعاً على فراشه يدخن في شوبكه، ولما وقع عليه بصره قال له من غير أن يهتز من مكانه.

دوبريو: أأنت الطارق؟. أهلاً بك.

البارون: نعم إني أنا الطارق أيها الجاحد الكنود، فقل لي ماذا جرى وما الذي حدث حتى امتنعت عن المقابلة والزيارة وانقطعت أخبارك عني فجأة مع علمي بأنك مقيم على الدوام في هذا القصر لم تبرحه؟!، فأخبرني الآن عن السبب واكشف لي عن جلية الأمر.

دوبريو ـ متحيراً ـ ليس هناك شيء ولم يحدث حادث وإنما أخرني الاشتغال بمراقبة الإصلاح في بعض بناء القصر.

البارون: وهل تكون المراقبة بمثل ما أراك عليه من الاعتزال والانكماش في حجرتك؟!، فأخبرني هل نزل بك مرض أو ألمّ بك ألم؟ ولماذا لم تخبرنا به من فورك كما تقضي به آداب العشرة والخلطة؟.

دوبريو: لم ينزل بي مرض والحمد لله.

البارون: فما بالك إذاً؟!.

دوبريو ـ بعد مراجعة نفسه ـ أنك لتلجئني بكثرة سؤالك وبشدة إلحاحك إلى الاعتراف لك بالحقيقة وواقع الأمر، فاعلم أنني أهوى زوجتك وأعشقها وليس لزوجتك رغبة فيّ فلم يبق لي من حاجة للاجتماع بك والتردد على منزلك.

البارون ـ مضطرباً ـ أجدٌّ ما تقول أم هزل؟!.

دوبريو: لا هزل ولا مزاح وإنما هو الجد بعينه واقع الحال كشفته لك.

البارون: أراك قد أبدعت في المجانة والوقاحة.

دوبريو: لا عتب عليّ فأنت الذي ألجأتني إلى الاعتراف بالحقيقة.

البارون: تولاني الشيطان إن كنت انتظرت منك مثل هذا الاعتراف.

واشتدت بالبارون حال الدهش والاضطراب فاحمر وجهه وانتفخت أوداجه وأخذ يمسح العرق عن جبينه ثم عاد لخطاب صاحبه.

البارون: هل أنت واثق في نفسك متأكد لما تقول؟!.

دوبريو: نعم إني متحقق منه غاية التحقق.

البارون: إنه لأمر يعلم الله جم البلابل والارتباك ولقد مضى عليك عشر سنوات وأنت تعرف زوجتي وتخالطها فكيف علق بك هواها وحل بك الغرام في آخر هذا الزمن.

دوبريو: نعم إنني لم أتعلق بحبها إلا منذ أشهر قليلة.

البارون ـ حائراً ـ ولكن لك الويل ألم تعلم بأننا غادرنا جميعاً مدة الشباب وجاوزنا زمن الصبا، وكان ينبغي أن يكفك ما نحن فيه من كثرة الخلطة ورفع الكلفة عن الانقياد لمثل هذا الشغف والكلف؟!. لماذا وقع اختيارك على زوجتي دون سواها؟!.

دوبريو: أنا لست أنكر عليك أنه أمر مكدر غير لائق، ولكنه لا يقبل التدبر والتبصر ولا ينفع فيه التفكر والتعقل.

البارون: أفلا تبين لي ما الذي استهواك منها؟!. نعم إنها امرأة نفيسة الفطرة ولكن ما هو الامتياز الذي تمتاز به عن سواها وتفضل فيه غيرها؟!.

دوبريو: إنها لتعجبني وتحلو لي على كل حال.

البارون: إنها لتعجبك؟!.. نعم لست أراني ممن يقصر في التمدح بمحاسن زوجته ولكنك لو كنت تزوجت بها مكاني وعاشرتها مثلي مدة عشر سنوات لخففت عن نفسك شيئاً كثيراً، فإنها ليست على استواء في أخلاقها. وأنا أريد أن أعلم منك وجه المزية التي استبتك بها.

دوبريو: إن كل ما تكرره وتعيده من هذا القبيل لا يهمني ولا يغير مني.

البارون ـ بعد التوقف ـ وهل كاشفتك زوجتي بالكراهة والبغض؟!.

دوبريو: لم أر منها ذلك.

البارون: هل تراك تثقل عليها ويعتورها الملل منك؟!.

دوبريو: ولا هذا أيضاً فيما أعتقد، غاية الأمر أنها لا تريد أن أسلك معها سبيل المغازلة.

ومن الأخلاق الغالبة على هذا البارون لين الجانب وسعة الصدر فكان يتلقى أقوال صاحبه ومكاشفته له بالأسف والأسى دون السخط، والغضب وقد استشعر من هذا الحادث بما يعقبه لديه من كدر الحياة وزوال رونق المعيشة، فأخذ يفكر طويلاً ثم نهض وأقبل نحو صاحبه ليشعل سيجارته من موقد دخانه فقدمه إليه كما جرت به عادة الخلطة والصحبة بينهما، وفي الواقع فإن الحادث لم يكن لينتقل بهما ويدفعهما إلى بوادر التهور وسوء انفعال النفس بل كان نظرهما فيه نظر من يشاهد واقعة مرتبكة وحادثة مشوشة، وبعد هنيهة قال البارون لصاحبه:

البارون: هلمّ فأخبرني لم لا تحاول الأخذ في طريق التناسي لهواك وتعمد إلى استعمال ما يتيسر من دواعي السلوان؟.

دربريو: لقد عالجت نفسي كثيراً ولكن لم تنجع فيها الوسائل.

البارون: وهل عزمت حقيقة على الامتناع عن زيارتنا؟.

دوبريو: نعم.

البارون: ولكن قل لي ما هو ذنبي وما الذي أُلام عليه؟.

دوبريو: لا شيء إلا كونك زوج امرأتك وهذا كل ما عندي لك.

البارون: أفلا تطلب موتي؟.

دوبريو: أنا لا أرغب في ذلك أبداً وإنه ليعز عليّ وقوعه.

البارون: إني أشكرك على كل حال، ولكن ماذا تصير إليه حالنا في هذه البلاد التي اخترناها للعزلة والانفراد لضعف ثروتنا وبعد أن اتفقنا واعتمدنا على حسن التظاهر أمام الناس وجميل المحافظة على مراكزنا وأقدارنا بينهم وطول اجتهادنا لإخفاء حقيقة أحوالنا التي توجب الشفقة والرحمة لا الحسد والغبطة وقد كان في اختلاطنا وامتزاجنا ما يضمن لنا بقاء أمورنا على الاستقامة وما يخفف علينا مؤنة الكلفة في معيشتنا ويسلينا هموم الحياة بلطف المعاشرة وأنس المسامرة؟.

دوبريو: إنني إلى اليوم لم أقصد الإخلال بشيء من جميع ما ذكرت.

البارون: ربما كان ذلك وإنما يجب أن تمعن النظر في عاقبة افتراقنا بعد طول اتفاقنا، فإنه لن يطيب لأحدنا عيش بدون الآخر ولطالما تمتعنا بلذة العيش في غدونا ورواحنا للصيد والقنص وجلوسنا للحديث والسمر وقعودنا للهو واللعب، فكيف يسهل علينا الافتراق ويمكن الصبر على البعاد؟!. واعلم يقيناً أنه لا غنى لي عنك وليس بي من قدرة على مقاطعتك وقد قضيت هذه الأيام التي انقطعت فيها عني على مثل جمر الغضا من شدة الهم والكدر، وأحست نفسي بألم العزلة والانفراد في غيابك، وكيف أقضي ليلي وأمضي نهاري بدون مصاحبتك ومرافقتك؟!؛ لأن اتحادنا في الفكر والرأي وتشابه حالتينا في المعيشة قاض بدوام الصحبة بيننا قاطع باستمرار المودة في قلوبنا فما هذه الفكرة السخيفة التي زينت لك وجوب انفصالنا وأنت تعلم أن لهيب الشهوات سريع الانطفاء؟!، وما حدث لك من الغرام والهيام لا يلبث أن يزول عنك.

دوبريو: أنا أعلم أن الشهوات لا تخمد ولا تشفى إلا بالتملك والاستمتاع وأظن أنك لا تستطيع أن تنيلني مثل هذا الغرض.

البارون: لا أستطيع ذلك على التحقيق.

دوبريو: فما العمل حينئذٍ.

وهنا أخذ البارون يتصور في نفسه سوء الحالة التي سيكون عليها في عزلته وانفراده محروماً من صاحبه لا يرى منه بديلاً ولا يجد سواه خليلاً.

ثم التفت إليه وقال له:

البارون: تبصر في الأمر جيداً أيها الصاحب الودود وجرد عزمك واستعن بقوة نفسك على نفسك واعمل كل ما في طاقتك ووسعك للتخلص من أسر هذا الهوى الذي لا وجه لطول بقائه وأنا لا أشك أنك تغلب على أمرك.

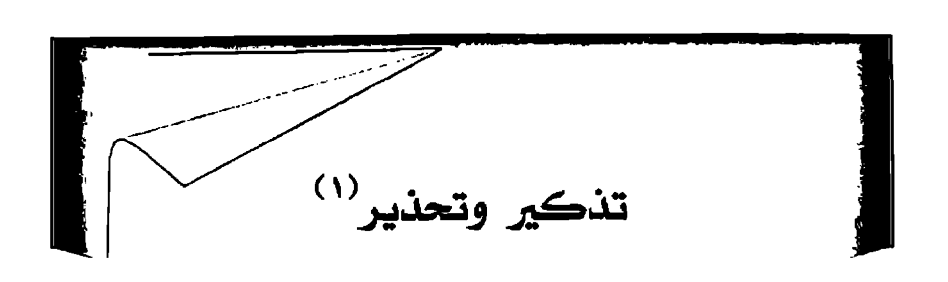
دوبريو: لا تعتقد ذلك ولا تعلل نفسك به، فإنه لا حيلة لي في هذه الحال.

نعم إن فكر البارون لم يكن ليخلو من محاسبة نفسه بوجوب التمسك بما يقضي به أدب العادة وتفرضه حرمة الأهل ولكنه ما كان يحس في قلبه بأدنى إحساس للغيرة، ومع ذلك فإنه كان مطمئن الخاطر بما ذكره له صاحبه من فتور زوجته عن التعلق بهوى الرجل، وإنما الذي يؤلمه ويسوءه في كل حال من هذه الحادثة أن العشق والغرام يتغلب على الصداقة والصحبة ويكون له المقام الأول ولها من بعده المقام الثاني، وإنه ليجد أن كل أمر قد أصبح يسهل عليه وقوعه ويرضيه حصوله ما عدا وقوع الفراق بينه وبين صاحبه، ولذلك فإنه التفت في آخر الأمر إليه وقال له وهو يتكلف التبسم حتى لا تظهر عليه أمارات المعرة، وإن كان في

باطن الأمر مضطرب الفكر خشية أن تقابل دعوته بالرد والتماسه بالرفض:

البارون: اسمع لخاتمة قولي وتحقق بأن نجاح غرضك ونيل طلبتك لا يكون بمثل ما أتيته من التباعد والهجران بل ينبغي لك أن تظهر بمظهر التلطف والتجمل وتبرز في صورة المستعطف المتذلل وعليك بالتأنق والتعمق في باب المغازلة وكن هناك بليغاً في القول قوياً في وجوه الإقناع، فإن النساء على ما تعهد يغلب عليهن التردد في الرأي وقلة الثبات في الفكر وعلى الأخص لا تتأخر عن الحضور للعشاء معنا في هذه الليلة»، انتهى.

هذه هي القصة تنبئك بنفسها من غير شرح ولا تأويل عن خمود الأخلاق الكريمة وتهاون النفوس بأعظم خلق فطري وأشرف سجية غريزية ولم نجد إلى اليوم حيواناً من أدنى الحيوانات لا تأخذه الغيرة على أنثاه ووجدنا في قواعد هذه المدنية العالية أن يروى عن الإنسان خلوه من الغيرة على امرأته.



تذكير وتحذير[1]

قد أصبح أهل الغرب ونسأل الله النجاة لا يكتفون في كيدهم لأهل الشرق وعدوانهم على أهل الإسلام وطمعهم في البلاد ومداهمتهم للأقطار بما يدأب عليه أرباب سياستهم وحكام دولهم من التفنن في ضروب المكر والدهاء، وفنون الغش والخداع وصنوف الغدر والختل، وما يلجأون إليه بعد ذلك من تسيير الجيوش وتوجيه الأساطيل وإشعال جذوة الحرب، وإلهاب جمرة القتال وافتتاح المدن بتخريب الديار وسفك الدماء واحتلال البلدان بتدمير المعاقل والحصون وضرب الأعناق والرؤوس.

ولا يكتفون في إضعاف النفوس وتذليل الرقاب بما يغرسونه بيننا من بذور مدنيتهم وينشرونه فينا من فضول حضارتهم وزخرف آلتهم وباطل زينتهم يفسدون بها الصحيح وينقضون المبرم ويحلون المنعقد ويبدلوننا بالنافع ضاراً ويعوضوننا من الصلاح طلاحاً ومن الخير شراً ويقلبون علينا نظام المعايش، ويخلون بأحكام العادات وينسخون محاسن الصفات ويكدرون صفاء الطباع ويهدمون بناء الطبقات ويسوون الأنوف بالأذناب والرؤوس بالأقدام.

ولا يكتفون في استلاب الأموال واستنزاف الأرزاق بما تمتد إليه مناسر الشركات ومخالب الجمعيات من وجوه الاحتكار والاستجماع،

(١) ١٨ يوليو (تموز) ١٩٠٣م.

يعطلون بها الصنائع ويسدون الموارد ويضعفون أسباب العمل ويغلقون أبواب الربح ويضيقون على الناس سبل المساعي وينزعون ما في أيديهم من ضروب المنافع والمرافق ويسخرون أهل الأرض في أرضهم ليستخرجوا لهم من خيراتها ما ظهر منها وما بطن ويصبح أهل الوطن في أوطانهم غرباء، وأصحاب الدار في ديارهم أُجَرَاء.

ولا يكتفون في انتشار سلطانهم وانبساط غلبتهم بما يدفعونه عن بلادهم إلى بلادنا من جموع غوغائهم وأوباشهم أهل المفاسد والشرور وأرباب الجرائم والذنوب، وذوي المعاصي والفجور وأولي السفالة والدناءة يصولون علينا بأس دولهم ويتحكمون في الأموال والأرواح لمجرد انتسابهم إلى حكوماتهم ويبسطون أيديهم بالفتك والسلب في أطراف المدن وأنحاء القرى، ويعتدون أنواع العداء على جميع أهل الطبقات صغيرهم وكبيرهم ضعيفهم وقويهم صعلوكهم وأميرهم ويسرحون ويمرحون تحت أفياء الامتيازات لا يخشون عقاباً ولا يرهبون قصاصاً ويغدون ويروحون في ظلال الحمايات ناهبين سالبين قاتلين فاتكين لا تنفع معهم تقية ولا يفيد حذر ولا يجوز أن يطالبهم أحد بعقل يوماً أو قود.

ولا يكتفون في توليد الأحقاد وتأريث الأضغان بما يجري عليه طوائف المبشرين والمرسلين في كل أرض وواد من الاحتيال على الناس بالترغيب تارة والترهيب أخرى، لتغيير أديانهم وتبديل إيمانهم وتقويض رابطتهم وحل عقدة ائتلافهم وإيقاع العداوة والبغضاء بين المرء وقومه والرجل وعشيرته والولد وأهله.

نعم، لا يكتفي أهل الغرب بهذا كله بل نراهم اليوم إذا مل ذو الغنى منهم غناه وسئم صاحب النعيم فيهم نعيمه وفرغت من فضول

المدنية حاجته ونضبت من عيش الترف لذته وضاقت عليه ببلاده وسائل انتشار الصيت وإذاعة الذكر، لعبت برأسه الخيالات وطمحت عينه إلى الأقطار الشرقية لعله يجد فيها ما يشغل به فراغ قلبه ويحيي بين قومه ميت ذكره ويجعل له شيئاً في يده من قدرة الحكم والسلطان ولذة الأمر والنهي، فينفق أمواله في تأليف قوة من الرجال واستجماع كمية من العدة والسلاح ويقصد بها بعض ما يتخيره من البلاد التي يراها محلاً لقضاء إربته وشفاء غلته وينقض عليها بحملته انقضاض الصقور والبواشق ويغير عليها إغارة اللصوص والقرصان في الزمن الأول، ويتولع فيها بقتل النفوس البريئة وسفك الدماء الطاهرة مثل تولعه بالصيد والقنص في الغابات ومطاردة الوحوش في الجبال لترويح النفس، وتضييع الوقت وتسلية الفؤاد كما نقصه عليك من خبر الحملة التي جهزها المسيو «لوبودي» من كبار الأغنياء بين الفرنسويين منقولاً عن إحدى جرائدهم الكبرى.

قالت: «لم يكن ليجول في خاطر أحد قبل اليوم أن ذا الغنى والمال الذي يقدر بالملايين ويوزن بالقناطير يصبح ضيق الذرع في معيشته عظيم الحيرة للتصرف في ثروته قاصر اليد للتمتع بالرخاء والسعة.

بل كنا نظن أن أحسن طريقة لاستعمال المال في راحة النفس وطيب الحياة أن يضع صاحب الغنى رؤوس أمواله في المصارف والشركات فتحفظ له فيها ويربح منها دخلاً مقدراً ينفقه في حاجته ويبذله في أسباب راحته وهو مقيم في دياره مطمئن الفؤاد رخي البال ساكن البلبال.

ولكننا وجدنا أن مثل هذا العيش الرغد وهذه الحال الساكنة لا توافق بيننا بعض الأمزجة، ولا تلائم نفوس بعض الأغنياء فينا إذ

يعتبرونها درجة منحطة وطريقة تافهة لا تليق بعلو أفكارهم ولا تنطبق على سمو مداركهم ولا يرضونها لعظم نفوسهم وبعد أنظارهم.

ولا شك أن المسيو «جاك لوبودي» هو من المقدمين بين أهل هذه الطبقة، فإنه استجمع أمواله كلها وسخرها للإنفاق في سبيل الفتح والاستعمار فرمى لذلك بنظره إلى بعض مجاهل أفريقيا واختار منها جهات الشواطىء الغربية الواقعة ما بين رأس «بوغادور» في الجنوب ورأس «يوبي» في الشمال وهي تبلغ في طول امتدادها فوق ثلاثمائة كيلو متر في قبالة جزائر «كاناري» وجميع سكانها من أعراب المغاربة المسلمين المستقلين في أرضهم، وهذه الجهة هي أعظم جهات الشاطىء أخطاراً ومصاعب.

ولكن المسيو «لوبودي» جهز حملته بالقوى اللازمة لمقاومة ما يلاقيه هناك من المشاكل والأخطار، وعدد المدافع والبنادق عنده عظيم من الطرز الجديد ولديه عدة بواخر مسلحة تقوم بحماية الحملة في سيرها على امتداد الساحل.

وقد وردت الأخبار بنزول الحملة إلى الشاطىء بقيادة صاحبها، فلم تلق من جهة السكان مقاومة تذكر مع كونهم من المعروفين بقوة الشكيمة وشدة التعصب والنفور من الأجانب، إلَّا أنهم لم يقووا على التحام القتال ولم يجسروا على الوقوف لحظة أمام نيران الحملة فتمكنت الحملة من الانتشار هناك واحتلت أماكن عديدة.

ويشتغل المسيو «لوبودي» الآن في ربط المواصلة بينه وبين بعض القبائل هناك ليستميلهم بالترغيب أولاً والترهيب ثانياً إلى الدخول تحت لوائه، والاعتراف بسلطته وهو كثير الاهتمام بعد ذلك بتخطيط مدينة يجعلها قاعدة ملكه وإنشاء مرفأ بالشاطىء وبالجملة فإن الرجل

توصل إلى تأسيس مملكته وسار خطوة عظيمة في إدراك طلبته».

ولكن الأغرب والأبدع من هذا كله في نكاية الإسلام والمسلمين وسوء الإيقاع بهم وببلادهم ما روته الجرائد الإنكليزية عن ذلك الرجل الذي فاق جمهور أهل النفاق في غش المسلمين وخداعهم وطول الإدمان على التفنن في أبواب المكر بهم والكيد لهم بانتحاله لنفسه نسبة الدين الإسلامي زوراً منه وبهتاناً ليبلغ في المكيدة منتهاها، وفي الحيلة أقصى درجاتها، ونعني به ذلك الملقب لنفسه بشيخ الإسلام في مدينة ليفربول من بلاد الإنكليز المسمى بعبد الله كويليام وهو الذي كشفنا للمسلمين ما كشفناه من كذبه وبطلانه وقبح أعماله للحط من الدين الإسلامي والازدراء به أمام الأعداء والشامتين من أهل بلاده واتخاذه آيات الله لهواً ولعباً والسعي في غش المسلمين بتلك النسبة الباطلة لاستدرار أموالهم واستجلاب موداتهم حتى يصل بها إلى أغراضه وأهوائه.

فقد قالت عنه جريدة «ويستمنسر غازت» إحدى الجرائد الكبرى الإنكليزية عند كلامها على حملة المسيو «لوبودي» الذي بسطنا للقراء خبرها ما تعريبه:

«بلغنا في هذه الأيام أن أحد أهل الهوس والطيش من الفرنسويين ذهب بحملة جهزها من أمواله لافتتاح بعض البلدان الأفريقية وتأسيس مملكة له فيها.

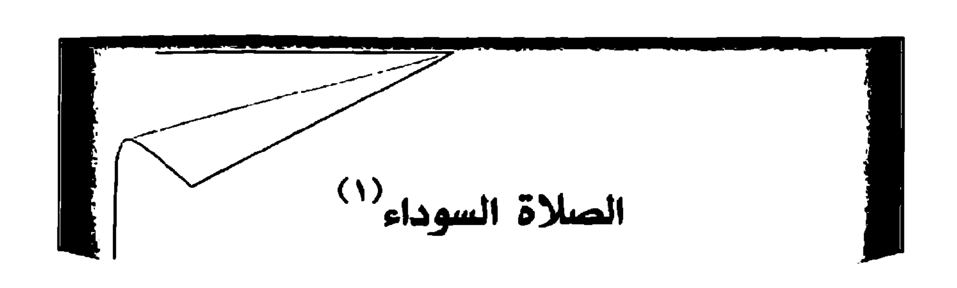
وقد كتب لنا مراسلنا في ليفربول بهذه المناسبة رسالة يقول فيها: إن أحد الإنكليز المقيمين بها لما سمع بهذا الخبر عزم في الحال عزماً أكيداً أن يسابق ذلك الرحالة الفرنسوي في عمله ويفوقه فيه على التأكيد والتحقيق فشرع يجهز حملة سلمية يرسل بها إلى داخل البلاد الإفريقية ليجمع بها قلوب المسلمين من سكانها على ولاء الدولة الإنكليزية

ويستميل أفكارهم إلى بذل الطاعة لها وقبول الدخول تحت ظل رايتها وحكم سلطانها من طريق المصافاة والمسالمة، لا من طريق المحاربة والمقاتلة وهذا الفاتح هو المستر.و.هـ. كويليام أحد المحامين في ليفربول المعروف في العالم الإسلامي منذ سنوات والمشهورين المسلمين باسم «شيخ الإسلام» وسيبدأ في رحلته الإفريقية بزيارة «فريتون» و«سيراليونا»، ومن هناك يأخذ في اختراق الممالك الإسلامية المستقلة مثل مملكة «برنو» ومملكة «واداي» ثم يتصل بجانب الأملاك الفرنسوية من جهة «سنغمبيا»، ومن جهة النقطة الجنوبية من بحيرة «تشاد» حتى يصل بحملته إلى مدينة الخرطوم.

ولما كان المستر كويليام هو رئيس الكنيسة المحمدية «هكذا» في الممالك الإنكليزية، فإنه سيكون في سياحته عند أولئك المسلمين من سكان أفريقية بين أهل دينه وأبناء ملته يقابلونه بالإعظام والإكرام ويتقبلون إشارته بالطاعة والإذعان، وهو على يقين ثابت بأنه يمكن له إدخال جميع المسلمين في أفريقيا تحت السلطة الإنكليزية فلا يلبثون أن يبلغوا بين رعاياها في الإخلاص والولاء مثل الدرجة التي عليها المسلمون اليوم، وفي الهند المستر المعروف بشيخ الإسلام مقام عظيم في «لاغوس» وله هناك مسجد كبير أنشأه وافتتحه بنفسه منذ زمن قريب، ولا يقل عدد الذين يعتبرونه أكبر رئيس عليهم من المسلمين عن عشرة آلاف شخص من سكان تلك الجهات»، انتهى.

وإن في سرد هذه الأخبار بنصها ما يغنينا عن بسط الكلام فيها، وتطويل الشرح عنها فهي بنفسه قائمة للمسلمين في بقاع الأرض مقام الواعظ المرشد ليأخذوا حذرهم ويحتاطوا لأمرهم فيقابلوا مثل ذلك الفرنسوي المهاجم المحارب بصد غاراته واستلاب أمواله وقتل رجاله،

ويقابلوا ذاك الإنجليزي المداجي المنافق باجتناب معاملته، ونبذ أقواله، وعلى رجال الدولة العلية الذين خدعهم هذا المرائي بظاهر حاله، وباطل أمره حتى استلب منهم بعض الرتب والنياشين أن ينتهوا لمداركة كبيرة فيخلعوا عنه ما يستعين به على غش المسلمين من نسبة الاتصال بهم، ولا يليق لشيخ الإسلام في إستنبول أن يسكت عن شيخ الإسلام في ليڤربول.



الصلاة السوداء[1]

ما نفيض في ذكر مساوىء المدنية عند الغربيين وما نردد القول في سرد مخازيها بالبرهان الساطع والدليل القاطع مأخوذاً عن المنشور في صحفهم والمسطور بأقلامهم في شرح حوادثهم ووقائعهم إلا لنبين للشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً أن عاقبة هذه المدنية كلها شر وفساد، فيأخذوا حذرهم من سوء التمادي في العمل على أسلوبهم ويكفوا من غربهم عن التهور في الاقتداء بهم والأخذ بمثالهم، وإذا كان هذا فعلها وذاك أثرها في أربابها الذين هم أرقى العالم فيها مقاماً، وأبعدهم غاية وأطبع الناس عليها أخلاقاً وأعظمهم لها ائتلافاً وبها امتزاجاً فما ظنك بقبح أثرها وسوء عقباها في من لا تنطبق لهم على غريزة ولا توافق لهم فطرة ولا تلائم تربة الإقليم ولا تناسب تركيب الطباع، والعاقل من اعتبر في نفسه بغيره والفائز من رجع عن اقتحام الطريق إذا تيقن له أن الهلكة في عقباه ـ وما نطرق هذا الباب حيناً بعد آخر إلا لنرفع شيئاً من أثر ذلك التضليل والبهتان الذي غشي الأبصار وأعمى البصائر بتصوير تلك المدنية في نفوس الشرقيين على صورة الكمال، وخلقة الجمال حتى تخيل للناس أن أربابها قوم قد بلغوا من دونهم مثل درجة الملائكة في طهارة الأخلاق ونقاءة الطباع وأدب النفوس، وأن فضلهم على البشر مثل فضل البشر على الحيوان، فميزوهم

(١) غرة أغسطس (آب) ١٩٠٣م.

بالقدرة وخصُّوهم بالقوة وشهدوا لهم بالنهي والفضل ثم سجلوا على الشرق وأهله بالمسكنة والعجز وقضوا علينا بالضعف والهوان ووسمونا بالجهل والنقص، فتمكنت هيبة الغربيين من أفئدتنا وألقي الرعب منهم في صدورنا فأورثونا الذل والصغار، وألصقوا بنا القصور والخذلان وصاروا هم وقلوبنا علينا فبلغ كيدهم فينا مبلغه، وصنع فينا مكرهم صنعه، فلذلك ترانا نعدّ من أوجب واجب في الخدمة علينا أن لا نهمل حادثة تشهر من حوادث الغربيين، ولا واقعة تذكر من وقائعهم مما يشهد على مدنيتهم بالعيب والنقص وعلى أخلاقهم بالشر والفساد ويكشف لنا الحجب عن حقيقة أحوالهم في التربية والتهذيب ومقدار رتبتهم في الأدب والفضل ليقاس منها ما ظهر على ما بطن وما وضح على ما كمن، ونحن على اعتقاد ثابت ويقين قائم على نور البرهان أننا إذا أدينا الواجب جلّه في القيام بكشف القناع ورفع الحجاب عن وجه هذه المدنية الشوهاء، فقد قمنا بأجلّ خدمة في مصلحة الشرق وأهله ونفع الإسلام وذويه، وهي تحويل أفكارهم عن العمل بما لا يوافق أخلاقهم وطباعهم ولا يطابق فيهم أحكام الفطرة والغريزة بحال وتنوير أذهانهم لمعرفة أقدارهم وأقدار الطامعين فيهم فلا ينفذ فيهم كيدهم بالتفاضل عليهم وبأنهم منهم بمنزلة المعلم من التلميذ يأمر فيطاع وينهى فيتبع.

وقد كنا ذكرنا فيما ذكرناه من وقائعهم وحوادثهم أن فساد الأخلاق وخلل الطباع بلغ بهم في الشهوات مبلغاً عظيماً حتى صاروا يقيمون لهم فيها مذاهب معروفة وطرقاً معلومة لم يسمع بها من قبل في جيل من الأجيال ولا زمن من الأزمان مثل المذهب الشائع في زيغان الطبيعة وعشق الموتى والطريقة المستفيضة بينهم في استعمال الرقيق الأبيض إلى غير ذلك مما شرحناه في حينه، ونضيف إلى ذلك ما أتحفتنا به الجرائد

الفرنسوية اليوم من الشرح والتفصيل للمذهب الجديد والدين الحديث الذي ظهر أمره وافتضح سره في مباشرة اللذات ومغامرة الشهوات ووسمه أهله بمذهب أهل الشعر وأرباب الخيال، وهذا هو تفصيل الحادثة:

وقف أحد الغلمان المخنثين أمام أحد قضاة التحقيق في باريس متهماً بتهمة السلب والاحتيال، فلما أطال عليه القاضي السؤال ومل الغلام من الجواب قال له: إن كنت ترغب أيها القاضي في اكتشاف المكنونات وافتضاح الخفايا واستقصاء المسائل فأنا أقص عليك من ذلك ما يشفي الغليل؟!. ثم أخذ يسرد عليه أموراً عجيبة وأفعالاً فظيعة لا ينطلق القلم بذكرها ولا يسلم العقل بحدوثها، ولما أظهر القاضي للغلام ما يعتريه من الشك في روايته والريبة في صدق حكايته قال له: إن أردت أن ينتفي عنك الشك ويتضح لك اليقين فما عليك إلا أن ترسل أعوان الشرطة إلى أبواب بعض المدارس ليراقبوا التلامذة عند انصرافهم منها فيجدوا هناك من أنواع الإغراء للصبيان والخداع للبنين ما لا يفعل مثله إلا مع النساء والبنات؟ ولا بد أنهم يشاهدون في كل يوم مثل الكونت «وارين» واقفاً مع أصحابه ينتظرون خروج التلامذة فيتقدمون إليهم بأنواع التحف والهدايا ويستميلونهم إلى اصطحابهم بما يروق في أعينهم من مثل ذلك ثم يركبونهم معهم في مركبات «الأتوموبيل» الواقفة في انتظارهم ويذهبون بهم إلى حيث يريدون، إما إلى بيت الكونت «وارين» أو إلى بيت البارون «داديلسوار» المعدين لإقامة تلك الشعائر المعروفة بالصلاة السوداء مصحوبة بما يناسبها من فنون الخلاعة والمجون وأنواع الفسق والفجور، ولما أحال القاضي تحقيق هذا الأمر على النيابة اتضح لها صدق ذلك الغلام وشاهد رئيس الشرطة على باب مدرسة «كارنو»

ومدرسة «كوندروسي» وجود أولئك الأشخاص لاصطياد التلامذة عند خروجهم والتوجه بهم في مركبات «الأتوموبيل» إلى الأماكن التي أعدوها للاختلاء بهم، ثم بلغ أسماءهم إلى النيابة، فاستحضرت لديها بعض التلامذة وسألتهم عن الأمر فأفصحوا لها عما يجري هناك من القبائح والفضائح، فألقت القبض في الحال على البارون «داديلسوار» وهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره كثير الاشتغال بالشعر والخيال ينتسب إلى أعظم بيت من بيوتات المجد والشرف معروف بكثرة الغنى والثروة.

وأما الكونت «وارين» رفيقه في المذهب، فإنه تمكن من الفرار إلى حيث لا يعلم مقره وهو أيضاً من أهل البيوتات الكريمة ينتهي شرفه في النسب إلى «جان دارك»، وقد وضع رجال الشرطة أيديهم على جميع ما وجدوه في البيتين اللذين تعمل فيهما تلك الفاحشة وتقام فيهما شعائر ذلك المذهب، منها ذلك السرير المذهب المزركش المقام هناك في مقام المحراب مع ثياب النوم الملونة المطرزة على نمط معروف يليق[1] بهذا المذهب ومنها المباخر والشموع والرسوم والتصاوير وآلات الموسيقى وغير ذلك. ثم تبين من مجموع أقوال التلامذة والخدم والجيران أن البارون «داديلسوار» كان يحضر في كل ليلة إلى بيته مستصحباً لأكثر من ثلاثين أو أربعين صبياً يتفاوتون في السن من الثامنة إلى الثالثة عشرة مع عدد من البنات والفتيات فيلبسهم كلهم ثياباً على شكل واحد وبلون واحد ويدخلون إلى قاعة العبادة على أشكال مختلفة وعلى رؤوسهم تيجان الزهر وفي أيديهم كؤوس الخمر، وأمامهم الشموع فيقيمون هناك صلاة الاختلاط والاجتماع على توقيع الألحان والأنغام بما لا يجوز بسط التعبير عنه ولا يليق الإفصاح به.

---

(١) كلمة مطموسة في الأصل وضعنا بدلاً منها كلمة «يليق» لتساير المعنى.

ولما أحيل البارون «داديلسوار» على قاضي التحقيق استحضره من سجنه للتحقيق معه فكان كلما حضر إليه يستوقف الحرس برهة قبل الدخول ثم يخرج من جيبه أداة الزينة من مرآة ومشط ومقراض وغير ذلك، فيتعهد نفسه بالزينة قبل الدخول على القاضي كما تفعل العروس قبل الدخول على الزوج، ومما جاء في كلامه للدفاع عن نفسه أمام القاضي عند تهمته إياه بالتحريض على الفسق وانتهاك حرمة الآداب قوله: «نعم أنا لا أنكر أنني أتيت ما أتيته من أعمال الفسق والفجور، ولكنني كنت أفعل ذلك في بيتي ومسكني مع أناس يجتمعون بي عن رضا واختيار لا عن قسر وإكراه ولا عن تحريض وإغواء، فأين تهمة انتهاك حرمة الآداب وتهمة تحريض القاصرين على الفسق وأنا لم أدخل بنفسي في الكلام مع التلامذة أمام أبواب المدارس، وإنما كان صاحبي الكونت «وارين» هو الذي يجلبهم إلي»[1].

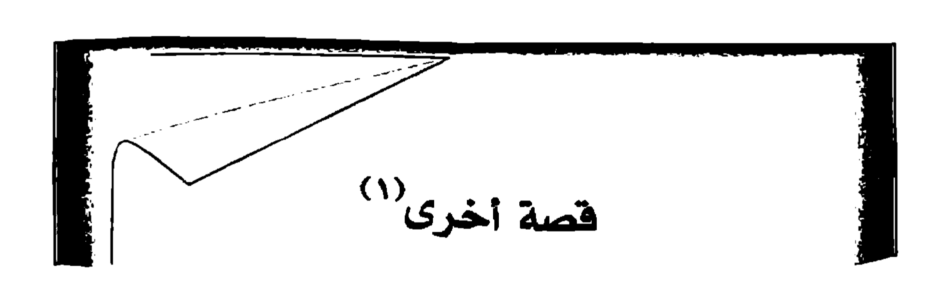
ولهذا الشاب أشعار كثيرة في تشييد مذهبه ومخاطبات عديدة في الدعوة إليه وهو يعيب أهل زمانه ممن لم يأخذوا بمأخذه أنهم أغبياء جهلاء لا يعرفون مواقع اللذة ومواطن الشهوة، ولم يرتفع بهم التصور والخيال إلى عالم الطرب والجمال ولم يدروا ما معنى المشاهدات الشعرية ولا الاستمتاع الروحاني ولم يهتدوا إلى مناظر التمجيد والتقديس، ولم يرشدوا إلى مشاهد الجلال والجمال ولم يبلغوا الدرجة العالية في مراتب الإنسان ومدارج الكمال، وسنذكر للقراء تمام حديثه بما ينتشر من تفصيل محاكمته.

وقد عظم اشتغال الجرائد الفرنسوية بهذه المسألة عظيم الاشتغال وتعددت فيها مقالات العلماء الباحثين للبحث عن الأسباب التي أخذت

---

(١) لا نجد تعليقاً على كلامه إلا ما يتردد بيننا: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

تدفع بالشبان إلى مثل هذا الخروج عن حدود الطبيعة وتصرف نفوسهم إلى التفنن في ارتكاب الفظائع والقبائح في مباشرة الشهوات، والرأي الغالب فيهم أن السبب هو انتهاك الأجسام وضعف الأبدان بكثرة اشتغال الأفكار واضطراب الأرواح ففسد بذلك نظام الأعصاب، واختلت قوى الدماغ فتغلب الخيال على الحقيقة فحسنت لدى النفوس القبائح ولذ لها ارتكاب الفضائح.



قصة أخرى[1]

إن ما يظهر من الحوادث وينتشر على الملأ من الوقائع التي يتصل أمرها إلى يد القضاء ويتضح شأنها أمام المحاكم هو دون ما يخفى منها وما يستتر، وليس عدد المجرمين الذين يتناولهم القانون بعقابه إلا جزءاً ضعيفاً من مجموع العدد الذي لم تظهر جريمته ولم تكشف جنايته. فما تراه من نوادر الوقائع التي ننقلها عن جرائد الغربيين ناشئة عن سوء التبذل والتغالي في مدنيتهم وحضارتهم إنما هو مثال ينبىء عما وراءه من مفاسد الأخلاق ومقياس يقاس به ما خفي واكتتم على ما يتضح ويفتضح، وهذه الجرائد بين أيدينا تأتينا في كل يوم بالعجيب الغريب من القبائح والفضائح التي تقع من أهل الطبقة العالية في الأمم الغربية مما يتصل أمره بالمحاكم ولا تسل عما يكون وراءها من المستور عنها، وأما وقائع الفضائح من أهل الطبقة السافلة من الرجال والنساء فهي مما لا يتسع له المجال ولا تستوفي تسطيره الأقلام، وقد ذكرنا في العدد الماضي قصة ذلك الشاب الذي تفنن في ارتكاب الموبقات وإتيان المنكرات من أهل الطبقة العالية ونذكر اليوم قصة فتاة أسقطها غلوهم وإفراطهم في اللذات والشهوات من أعلى مقام إلى أسفل مكان فتنقلت أغرب تنقل في مهابط الفسق والفجور، وانتهت بارتكاب الجرائم واقتراف الجنايات على ما روته الجرائد الفرنسوية الأخيرة ونأتي على تفصيله:

---

(١) ٨ أغسطس (آب) ١٩٠٣م.

ولدت الكونتيس «ماليسباي» من أبوين كريمين وهي وحيدة والدها الماركيز فلان من أعظم طبقة الكبراء في فرنسا شرفاً ومجداً، وكان قد وضعها في الدير للتهذيب والتعليم، فلما أتمت دروسها وخرجت منه خرجت وهي مالكة لنعيم الملكين: ملك لمال وملك الجمال، وحائزة للرتبتين: رتبة التهذيب والتثقيف، ورتبة الشرف والسؤدد، فتزوجت في السنة التاسعة عشرة من عمرها بالمسيو «ماليسباي» أحد أعاظم الأغنياء من أرباب المصارف المالية وقد تولع بحبها ولعاً شديداً، فأقامت معه في أجمل قصر وأسعد عيش ترفل في ثياب النعيم وتتألق كالبدر في سماء السعادة، ويكاد زوجها من فرط ولهه بها يعبدها من دون كل معبود في الوجود ومكثت الحال بينهما على ذلك مدة عامين لا يشوبها كدر ولا يكدرها هم إلى أن اعترى الكونتيس ما يعتري أمثالها من داء الملال والسأم من الاقتصار على عشرة الزوج وتطلع نظرها إلى ما سواه من الرجال، فاتخذت منهم ما شاءت على رغمه خلاناً وأخداناً ولم تكتف بخيانته وغشه في السر والكتمان بل عمدت في ذلك إلى الجهر والإعلان وشاعت الفضيحة، فاضطر معها الزوج إلى الفراق بالطلاق ولما أصبحت مطلقة الإرادة في التصرف بنفسها لا يمنعها مانع من قيد للزواج أو مراقبة من الأهل ركبت رأسها وطوحت بنفسها في مهاوي الشهوات وجمحت في ميادين اللذات، ولم تترك لفساد طبعها رغبة في لذة إلا نالتها، وامتلأت منها فوق كفايتها وأسرفت في تبديد أموالها كل الإسراف تنفقها للتمتع بمعاشرة الشبان من الرجال والكواعب من النساء، فذهبت جميع ثروتها وأصبحت ذات يوم وهي لا تملك من الدنيا درهماً واحداً، ولم يبق لها من مورد ترتزق منه إلا بقية حسنها وجمالها فانحدرت تلك العقيلة من منصة عزها ومجدها إلى أن انضمت في سلك الهوالك والقيان من نساء الحانات ومجالس المنادمات، واشتهرت من بينهن بعلو القدر

في الجمال وعلو القدر في النسب وعلو القدر في الخلاعة والفجور وسميت فيهن من أجل ذلك بملكة الجن.

إلا أنها لم تقتنع في آخر الأمر من هذه المعيشة بلطف المغازلة ورقة المعاشرة وظرف تلك المجالس ولم تجد فيها ما يطفىء لهيب هواها ويشفي غليل وجدها فهوت من هذه الطبقة في الفجور إلى أدنى طبقات النساء من أهل الفاحشة، واقتدت بسيرة «مسالين» الشهيرة في التاريخ (وهي التي كانت تخلع عنها رداء الملك وتهجر القصر وتنزل بنفسها إلى أدنى طبقات الرعية فتبلغ شهوتها من أقوياء السوقة في أسفل بيوت الفاحشة) وما زالت الكونتيس «ماليسباي» على هذه الحال حتى اشتهر أمرها وطار صيتها في الأماكن التي يأوي إليها أهل الدعارة والفسق من قطّاع الطريق ومرتكبي الجرائم في أطراف الأقسام من مدينة باريس، ولكنها ارتفعت مع ذلك في بعض أيامها من وهدة الانحطاط في تلك المواخير فعادت مرة ثانية إلى معاهد اللهو وحانات الفساق التي كانت تألفها من قبل، فعلق قلبها هناك بهوى فتى من فتيان الأغنياء أصحاب المعادن يقال له: «جاك دوفال» وشغف الفتى بجمالها وفتنته الفاجرة بشكلها ودلها فاستنقذها من أيدي أولئك المجرمين الذين كانوا يدورون من حولها واستخلصها لنفسه وطهرها من ملامسة تلك الأقذار والأوضار زمناً طويلاً عاشت معه فيه مقتصرة عليه بضرورة العشق الذي تمكن له في فؤادها وكاد ينسيها أدب العشق ما ألفته من التفضح في الفسق.

ثم ما لبث أن دب دبيب الملال في قلب الفتى، فانصرف عنها بوجهه وهجر بيتها وأقامت تنتظر رجوعه إليها فلم يرجع وبلغها أنه تعلق بفتاة أخرى وشغله حبها عن ذكرى سواها فبلغ منها الحقد والغيظ مبلغاً

عظيماً، واستحكمت من قبلها شهوة الانتقام وحب التشفي من تلك الضرة التي سلبتها نعمتها، واستأثرت دونها بمن تهواه، فأخذت تعمل الحيلة وتدبر المكيدة للوقوف على أثرها وإيقاع المكروه بها على منظر من عشيقها، فكانت تقضي ليلها ونهارها في البحث والتنقيب للعثور عليهما معاً، وكانت تغير وتبدل من لباسها وهيئتها لاقتفاء أثر صاحبها من غير أن يشعر بها فتارة تدور في الأزقة والطرق بلباس السائلين وأطمار المتسولين، وتارة تنتقل من ملعب إلى ملعب ومن حانة إلى حانة في زي بائعة للأزهار، وطالما تعرض لها رجال الشرطة مرة يكفونها عن التسول في الطرق ومرة يمنعونها عن عرض أزهارها للبيع لخلو يدها من رخصة تبيح لها ممارسة هذه الحرفة مثل بقية البائعات، فضجرت من هذه الحال وعز عليها الوصول إلى غرضها وحدثتها نفسها بالرجوع تارة أخرى إلى مخالطة الأوباش والغوغاء وحنت إلى معاشرة السفلة والأدنياء من المجرمين والمتشردين فعادت إلى أسوء حال كان عليها يوماً من الأيام.

ثم أخذت ترسل بالرقباء منهم والأرصاد؛ ليكشفوا لها الأمر ويسهلوا عليها سبيل الانتقام فجاؤها بعد طول البحث بالخبر اليقين وأعلموها أن «جاك دوفال» يتردد على صاحبة حانوت من حوانيت الوراقين ويعاشرها وهي التي لعبت بعقله وحجبته عنها، فصممت الكونتيس على تنفيذ ما عقدت عليه النية من إيصال الأذى بالفتاة والفتك بها للتخلص من وجودها وإخلاء مكانها من عشرة صاحبها، فذهبت إلى إحدى الخمارات المأهولة بالأشقياء ممن يعرفونها ويخالطونها فجلست لهم واستداروا بها وطلبت لهم أدواراً متعددة من كؤوس الخمر، فلما لعبت برؤوسهم وانجذبت بها قلوبهم كاشفتهم بما في ضميرها وقالت

لهم: لا أرى لي من ناصر ينصرني على خصمي سواكم ولست أبلغ ما في نفسي إلا بكم فأعينوني بقوتكم لبلوغ بغيتي في شفاء غيظي وكشف كربتي، فقالوا لها: مالك عندنا إلا السمع والطاعة وما تأمرين به نفعله في الحال وإن رغبت في أن نقتل الفتاة هذه الليلة لم يأت عليها الصباح إلا وهي في القبر، فشكرتهم على حسن طاعتهم ووعدتهم أنها تعطيهم ثلاثة آلاف فرنك إذا امتثلوا أمرها وعملوا بإشارتها، فعرضوا عليها حياتهم تفعل بها ما تشاء وأقسموا لها بكل يمين أنهم لا يخونون عهدها، ولا يذيعون سرها ولو فصلت أعناقهم عن أكتافهم، فطلبت منهم أن يكونوا تحت منافذ بيتها في الساعة الثالثة من بعد نصف الليل لتتوجه بهم إلى منزل الفتاة، وقالت لهم ولا أزيدكم على ذلك فأنتم أخبر وأدرى بالطرق التي تستعمل لاغتيال الفتاة عند الوصول إليها، فوافقوها على قولها ثم خلفتهم وانصرفت إلى سبيلها.

ولما خلوا بأنفسهم أطالوا الفكرة في الأمر فاضطربوا له وعزت عليهم حياتهم أن يعرضوها لخطر الموت في مقابلة ذلك الجهل الزهيد فاستقر رأيهم بعد طول الجدال على أن ينكثوا العهد واختاروا عليه أن يقصدوا الفتاة المقصودة بالانتقام ويكاشفوها بما دبر لها معهم، ولما وصلوا إلى الحانوت وجدوا الفتاة هناك وبجانبها عشيقها، فأخبروهما بتفصيل الأمر فشكر لهم «جاك دوفال» لطف صنيعهم معه ووعدهم بحسن الجزاء والمكافأة إذا هم طاوعوه في ما يشير به عليهم، فأعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم فقال لهم: لا تغيروا شيئاً في الخطة التي رسمتها لكم الكونتيس وسيروا معها على حسب ما أمرت به وعليّ ما يكون بعد ذلك للإيقاع بتلك الأفعى والتخلص من أذاها وسمومها، فتركوه على الطاعة والامتثال، وفي الليلة المعينة ذهبوا بجمعهم في

الساعة المحددة إلى بيت الكونتيس فوقفوا عند الباب وصاح أحدهم بالكلمة المتفق عليها بينهم، فنزلت إليهم الفاجرة في لباس رجل يخرج للصيد تام الآلة والسلاح، وأظهرت لهم إمارات الرضا والسرور بحسن حفظهم للعهد ووفائهم بالميعاد ثم سارت بهم إلى منعطف الطريق حيث كانت تنتظرها مركبة «أتوموبيل» فأركبتهم معها وتوجهت بهم إلى أول الشارع الذي تسكنه الفتاة وهناك أوقفت المركبة ونزلت بهم فمشوا على أقدامهم حتى وصلوا إلى البيت وطرقت الباب ففتحت لها الفتاة بنفسها، فلما وقع بصر الكونتيس عليها قذفت في وجهها بملء زجاجة كانت في يدها تحتوي على مادة محرقة من المواد الكيماوية فوقعت الفتاة مغشياً عليها من شدة الألم، وكان عشيقها واقفاً من ورائها فتناول رأس الكونتيس بيده وأخذ يضربها ضرباً مؤلماً بمقبض غدارته حتى أدمى رأسها فصاحت تستغيث وتستجير، ونادى الفتى برجال الشرطة فحضروا، وألقوا القبض على الجميع، وساقوهم إلى الضابطة، وابتدأ معهم التحقيق هناك، ثم أخلوا سبيلهم، وأبقوا الكونتيس في السجن، وبعد بضع ساعات سمع الحرس رجة في الغرفة ففتحوها فوجدوا الكونتيس غريقة في دمائها إذ كانت تحاول الانتحار بضرب رأسها بالحائط، فحملوها إلى المستشفى بين الموت والحياة، وبمثل هذا تنتهي عاقبة الغلو في المدنية، والإفراط في الشهوات.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الدراسة

المقالات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

منشورات مكتبة ومركز
فهد بن محمد بن نايف الدبوس
للتراث الأدبي ـ الكويت[1]

١ ـ «حسن حسني باشا الطويراني، أديب موسوعي من القرن التاسع عشر»، تأليف وإعداد: فهد محمد نايف الدبوس.

٢ ـ «الشيخ علي الليثي، شاعر الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق»، إعداد: فهد محمد نايف الدبوس.

٣ ـ «شعراء من الأمس القريب (الكويت ـ لبنان ـ ليبيا ـ مصر)»، إعداد: فهد محمد نايف الدبوس.

٤ ـ «في الكتاب وأحواله»، تأليف: أحمد العلاونة، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٥ ـ «العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم مع الوثائق»، تأليف: أحمد العلاونة، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٦ ـ «نثر الأزهار، فيما وجد مكتوباً على القبور من الحكم والأشعار»، تأليف: عبد الرحمٰن يوسف الفرحان، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٧ ـ «ذهبية العصر»، تأليف: شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، تحقيق: إبراهيم صالح، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

---

(١) من العدد (١) إلى (٣) يطلب من المركز في الكويت لمن يريد ذلك.
ومن العدد (٤) فما بعده، يطلب من دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

٨ ـ «المجمع المفنن بالمعجم المعنون»، تأليف: العلّامة الشيخ عبد الباسط الملطي، بتحقيق: عبد الله محمد الكندري، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٩ ـ «من مقالات وديع فلسطين في الأدب والتراجم»، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

١٠ ـ «رُوَّاد ومُعاصرون»، تأليف: أحمد حسين الطماوي، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

١١ ـ «حيل الكرام، (شرح حديث مضيف ضيف رسول الله ﷺ، مع تفسير الآية التي نزلت فيها: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾، وما ورد في ذلك من حكم وأخبار وأشعار)»، أعدَّه: عبد الرحمٰن يوسف الفرحان، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

١٢ ـ «فراش النار، (شرح الحديث الشريف: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً...»، وما ورد من تمثُّل العرب به في أمثالها وأشعارها)»، أعدَّه: عبد الرحمٰن يوسف الفرحان، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

١٣ ـ «توشيح كتاب «الأعلام» للزركلي»، تأليف: الأستاذ أحمد العلاونة، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

١٤ ـ «كتاب التشبيبات والطلب»، تأليف: أبي منصور محمد بن سهل ابن المرزبان الكرخي، تحقيق: عمر بن بشير أحمد صديقي، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

١٥ ـ «الشرق والغرب»، إبراهيم المويلحي، تحرير وتقديم: أحمد حسن الطماوي، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م).

١٦ ـ «عرفت هؤلاء»، العوضي الوكيل، اعتنى به: فهد بن محمد بن نايف الدبوس، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م).

١٧ ـ «المختارات الفائقة من الأشعار الرائقة»، تأليف: أبي محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الإصبع العدواني، تحقيق: أحمد بن عبد العزيز الربعي، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م).

١٨ ـ «رسائلهم إليّ»، الأستاذ أحمد العلاونة، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م).

سلسلة نوادر الرحلات

١ ـ **«رحلة الشيخ علي الليثي ببلاد النمسا وألمانيا»**، تأليف: علي بن حسن الليثي، اعتنى بها: فهد بن محمد بن نايف الدبوس، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م).

٢ ـ **«سِيَاحةٌ في الرُّوسِيا (في بِدايَةِ القَرن العشرين)»**، بقلم: رشاد بك (رئيس محكمة مصر سابقاً)، اعتنى بها: فهد بن محمد بن نايف الدبوس، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

٣ ـ **«الرحلة الدمشقية الأولى (راحة المستهام في رحلة الشام)»**، للعلّامة المؤرّخ أبي المحاسن عثمان بن مصطفى الطباع الدمشقي الغزّي، بتحقيق وتعليق: سليم عرفات المبيض، ومحمد خالد كلّاب، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م).

إصدارات أخرى أصدرها المركز

١ ـ **«دراسات أندلسية»**، فاضل خلف، ط. ٢٠١٢م.

٢ ـ **«رحلة أبي الحسن الهروي (الإِشَارَاتُ إِلَى مَعْرِفَةِ الزِّيَارَاتِ)»**، (٦١١هـ ـ ١٢١٥م)، تحقيق: د. نوّاف الجحمة، ط. ٢٠١٢م.

٣ ـ **«شخصيات من تاريخ الكويت»**، طلال الرميضي، ط. ٢٠١٢م.

٤ ـ **«من العامية الفَصيحة في اللهجة الكويتية»**، خالد سالم محمد، ط. ٢٠١٢م.

٥ ـ **«محمد روحي الخالدي (١٨٦٤ ـ ١٩١٣م)، ونظرته للإصلاحات العثمانية»**، طلال الجويعد، ط. ٢٠١٢م.